

تاريخ المصريين

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

مِصْرُ فِي فَجْرِ الْإِسْلَامِ

مِنْ الْقَنْجِ الْعَرَبِيِّ إِلَى قِيَامِ الدَّوْلَةِ الطُّوْلُونِيَّةِ

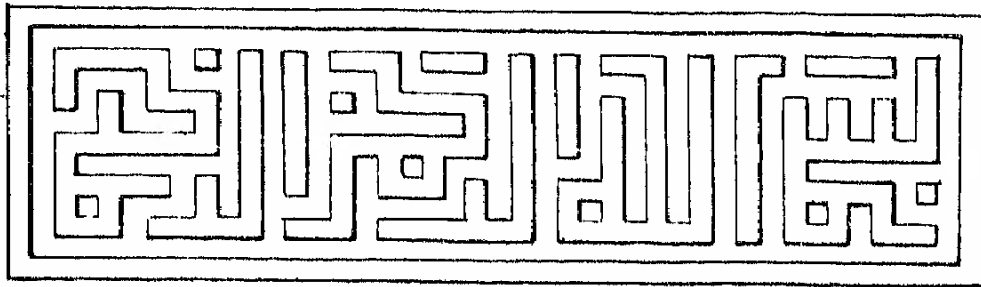
تأليف

سَيِّدَةُ إِسْمَاعِيلَ كَاشَفٌ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤



تصدير

إن تاريخ مصر من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية (٢٠ — ٥٤٥ هـ) تاريخ طويل ، يبدو غامضاً فى كثير من الأحيان . وقد دعانى إلى الكتابة فيه أن المؤرخين لم ينفوا بدراسته العناية الجديرة به ، على الرغم من أن له فى تاريخ مصر أهمية خاصة ، إذ تكونت فيه الأسس التى قامت عليها مصر الإسلامية ، وتحولت مصر خلال هذه الفترة إلى دولة إسلامية الدين عربية اللغة بعد أن تخلت عن ماضىها القديم ، وأصبحت منذ ذلك الحين إلى وقتنا الحاضر ذات شأن عظيم جداً فى الحضارة الإسلامية .

وقد كان لأستاذى الدكتور حسن إبراهيم حسن رئيس قسم التاريخ فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول الفضل فى توجيهى إلى دراسة التاريخ الإسلامى فله على ذلك وعلى ما أفدته من علمه وافر الشكر .

ولن يفوتنى أن أشكر زوجى الدكتور زكى محمد حسن أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة فؤاد الأول ، على ما قدّم لى من عون وإرشاد فى تأليف هذا الكتاب ثم فى الإشراف على طبعه .

سيرة اسماعيل طائف

حمامات القبة بالقاهرة

٦ من شوال سنة ١٣٦٦ هـ

٢٥ من أغسطس سنة ١٩٤٧ م

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ العزيز هذا الكتاب الرائد عن «مصر في فجر الاسلام» الذي كتبه الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف، أستاذة التاريخ الاسلامي والعصور الوسطى بكلية البنات - جامعة عين شمس، وإحدى أعلام التاريخ الإسلامي في مصر. وقد سبق لهذه السلسلة أن نشرت للأستاذة الدكتورة ثلاثة كتب في تاريخ مصر الاسلامية، هي مصر في عصر الولاة، ومصر في عصر الإخشيديين، ومصر الاسلامية وأهل الذمة.

والكتاب الذي بين يدي القارئ يعالج في بابه الأول نظم الحكم في مصر، ويتعرض للنظام المالي، والملكية العقارية، ونظام جباية الضرائب، والنقود الاسلامية. كما يتعرض للنظام الحربي، فيتناول الجيش، والبحرية، وتقاليد المسلمين في القتال.

أما الباب الثاني فيتناول موقف مصر من الحركات السياسية والدينية التي ظهرت في الخلافة فيتعرض للنزاع الذي قام حول الخلافة زمن الخلفاء الأمويين، ودعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة وأثرها في مصر، وأثر النزاع بين الأمين والمؤمن في مصر، ثم موقف مصر من المحنة بخلق القرآن.

ويتناول الكتاب فى الباب الثالث انتشار الاسلام والتعريب فى مصر، ويتعرض للقبائل العربية فى مصر واندماجها بالمصريين. كما يتناول فى الباب الرابع حضارة مصر فى فجر الاسلام، فيتحدث عن الزراعة والصناعة والتجارة، ثم يتعرض للحركة العلمية والدينية.

ويختتم الكتاب بخاتمة استعرضت فيها الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف تاريخ وحضارة مصر فى تلك الفترة الهامة استعراضاً علمياً تحليلياً على جانب كبير من الأهمية.

ونظراً لأهمية هذا الكتاب، رأيت إعادة طبعه فى سلسلة «تاريخ المصريين» لإفادة الباحثين والمثقفين والمهتمين بتاريخ مصر الاسلامية، فعسى أن يجد فيه القارئ ما ينشد من متعة وفائدة.

والله الموفق

رئيس التحرير

أ. د. عبد العظيم رمضان

الفهرس

صفحة

- مقدمة في الفتح العربي ... ١
- الباب الأول : نظم الحكم ١٧
- ١ - النظام الإدارى ٢٠
- ٢ - النظام المالى ٣٧
- الجزية والزكاة ٣٧ - الملكية العقارية وضريبة الأرض أو
الحراج ٤١ - ضرائب الصناعة والتجارة ٥٥ - الضرائب
الأخرى ٥٧ - نظام جباية الضرائب ٥٩ - النقود الإسلامية
في مصر ٦٥
- ٣ - النظام الحربى ٧٠
- الجيش ٧٠ - البحرية ٨٧
- ٤ - النظام القضائى ٩٩
- الباب الثانى : موقف مصر من الحركات السياسية والدينية
- التي ظهرت في الخلافة ١٠٩
- ١ - الحركات السياسية والدينية زمن الخلفاء الراشدين ... ١٠٩
- أ - موقف مصر من الثورة التي قامت ضد عثمان بن عفان ١١٠
- ب - أثر النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان
في مصر ١٢٠
- ٢ - النزاع الذي قام حول الخلافة زمن الخلفاء الأمويين ... ١٢٩
- أ - دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة وأثر ذلك في مصر ... ١٢٩
- ب - زوال الخلافة الأموية وأثر ذلك في مصر ... ١٣٥

٣ - الحركات السياسية والدينية منذ قيام الدولة العباسية

إلى قيام الدولة الطولونية ١٤٨

١ - موقف الأمويين والعلويين في مصر من الخلافة العباسية ١٤٨

ب - أثر النزاع بين الأمين والمأمون في مصر ١٥٩

ج - مصر والمحنة بخلق القرآن ١٧٧

الباب الثالث : انتشار الاسلام وتعريب مصر ١٨٢

العرب والقبط ١٨٢ - الأقطاط والنظام المالي ٢١٥ - القبائل

العربية في مصر ٢٥٠

الباب الرابع : حضارة مصر في فجر الاسلام ٢٦٣

١ - الزراعة ٢٦٣

٢ - الصناعة ٢٧٢

البناء ٢٧٣ - المنسوجات ٢٧٩ - الورق ٢٩١ -

الحطب ٢٩٣ - الحرف والزجاج والمعادن ٢٩٥

٣ - التجارة ٢٩٩

٤ - الحركة العلمية ٣١٤

الخاتمة ٣٣٧

المراجع ٣٥٧

ممدول بأسماء الخلفاء والولاة وعمال الخراج وأصحاب المصرفة

والنفقة والبطاركة في عهد الولاة ٣١٧

الكشاف ٣٨٧

تصويب ٤٠١

مقدمة

في الفتح العربي

كانت مصر ولاية رومانية ، تم بيزنطية منذ انتصار أغسطس قيصر على كليوبترا في موقعة اكتيوم سنة ٣١ ق.م واستيلائه على مصر سنة ٣٠ ق.م وقضائه نهائياً على دولة البطالسة فيها . ولا يهمننا في هذه المرحلة من تاريخها الطويل إلا أنها كانت آخذة في الضعف والانحلال كما أن الإصلاحات التي أدخلت فيها لم تكن لترى إلا إلى غرض واحد : هو تنظيم استغلال البلاد حتى يتم النفع الكثير الأمبراطورية لا السكان الوطنيين .

ولم يدع الرومان وسيلة إلا ابتكروها لاستغلال موارد البلاد إلى أقصى حد ممكن^(١) . ولم تختلف مصر في هذه الناحية في العهد البيزنطي (٢٨٤ - ٦٤٠ م) عما كانت عليه في العهد الروماني (٣١ ق.م - ٢٨٤ م)^(٢) بل ازدادت الأعباء المالية تعقيداً . ولم يجد أغلب المصريين مخرجاً من هذه الحالة السيئة سوى الفرار إلى المعابد والأديرة و هجر مزارعهم وقراهم ، فانتشرت الفوضى في البلاد وعم الاضطراب جميع المرافق الاقتصادية ولا أدل على ذلك من أن قبح مصر الذي كانت روما تعتمد عليه لإطعام أهلها لم يعد يكفي ، وكان لا بد لها من استيراد قح أفريقية مضافاً إلى قح مصر منذ أوائل القرن الثاني وأوائل الثالث الميلادي^(٣) . كذلك كان

(١) Johnson : Roman Egypt. vol. 11. p. 484

(٢) Munier : l'Egypte Byzantine. p. 76

(٣) Milne : A History of Egypt Under Roman Rule. p. 60

الشعب المصرى محروما من الاشتراك فى حكم بلاده وكان يعامل معاملة الغلوب على أمره .

ونعرف أن الأمبراطور Septimius Severus (١٩٣ — ٢١١ م) . منح الاسكندرية وعواصم الديريات مجالس «السناتو» أثناء زيارته لمصر^(١) . ولكن إصلاحه هذا لم يمد على المصريين بالنفع ، فضلا عن أنه لم يكن لهم حق الاشتراك فى مثل هذه المجالس ، كان الأمبراطور يرى من وراء هذا إلى تعزيز الوسائل التى تضمن له الحصول على أكثر ما يمكن من الضرائب ؛ وكان عبثا يقع على كاهل المصريين الوطنيين .

ونعرف أيضا أن الأمبراطور Caracalla (سنة ٢١١ — ٢١٧ م) بمقتضى دستور انطونيتس Constitutio Antoniniana فى سنة ٢١٢ م أكل إصلاحات سفروس بمنحه الحقوق المدنية الرومانية civitas romana التى كانت تكسب أصحابها امتيازات كثيرة مادية وأدبية لجميع رعايا الأمبراطورية ما عدا طبقة dediticii ، وهذه الطبقة فى مصر كانت تمثل فى السكان الوطنيين^(٢) .

وفضلا عن ذلك فإن اللغة الرسمية للحكومة منذ عهد البطالسة حتى الفتح العربى كانت اللغة اليونانية^(٣)

كذلك حرم المصريون من الاشتراك فى جيش بلادهم . وقد استسلم المصريون فى معظم هذه الفترة ، وثاروا أحيانا أخرى .

وكان من أخطر الثورات تلك التى حدثت فى عهد الأمبراطور

Jouguet : l'Egypte Gréco-Romaine. pp. 391—396 (١)

Jouguet : l'Egypt Gréco-Romaine pp. 394—396 (٢)

Munier : l'Egypte Byzantine p. 89 (٣)

ماركوس أورليوس Marcus Aurelius (١٦١ — ١٨٠ م) وتعرف بحرب الزراع ، أو الحرب البوكولية نسبة إلى المنطقة التي كانت تعرف باسم Boucolia في شمال الدلتا^(١).

ولكن كان يقضى على هذه الثورات دون هوادة ولم يلبث أن طهر عامل جديد في الأفق حوّل الشعب المصرى من شعب وديع مسالم إلى شعب عنيد مقاوم ، ذلك العامل هو ظهور المسيحية في مصر وانتشارها فيها . فقد كانت مصر في طليعة البلاد التي تسربت إليها المسيحية في القرن الأول الميلادى ، وأخذت في الانتشار تدريجياً في جميع أنحاء مصر منذ القرن الثانى الميلادى ، إلا أن الأباطرة الوثنيين ناصبوا المسيحية العداء^(٢) وكان بدء اضطهاد الحكومة لمسيحي مصر اضطهاداً منظماً خلال حكم الإمبراطور Septimius Severus (١٩٣ — ٢١١ م)^(٣) وظلت المسيحية في مصر تلقى اضطهاداً كثيراً وتساعماً قليلاً إلى أن ولى عرش الإمبراطورية دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م) فبلغ اضطهاد المسيحيين أقصاه . وقابل المصريون ذلك الاضطهاد من جانبهم بكل ما أوتوا من قوة وعناد . وقد تولدت من تلك المقاومة حركة قومية أخذت في النمو فيما بعد . وليس أدل على ذلك من أن الكنيسة القبطية بدأت تقويمها الذي سمته تقويم الشهداء بالسنة الأولى من حكم دقلديانوس (٢٨٤ م) نتيجة لما ترك هذا الاضطهاد من أثر عظيم في نفوس القبط^(٤)

Jouguet : op. cit. p. 369 (١)

Munier : l'Egypt Byzantine p. 8 (٢)

Munier : op. cit. p. 8, Milne : A History of Egypt (٣)

Under Roman Rule. p. 128

Munier : op. cit. pp. 9—10, Milne: op. cit. p. 218 (٤)

ولم تلبث المسيحية أن أحرزت نصراً مبيناً لاعتراف الأمبراطور قسطنطين الأول (٣٢٣ — ٣٣٧ م) بها ديناً مسموحاً به ضمن الديانات الأخرى في الدولة الرومانية . ثم أصبحت المسيحية الدين الرسمي الوحيد في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية وذلك في عهد الأمبراطور تيودوسيوس الأول (٣٧٩ — ٣٩٥ م) الذي أصدر مرسوماً بذلك في سنة ٣٨٠ م^(١) ولم يلبث أن حرم العبادات الوثنية في مرسومين أصدرهما سنتي ٣٩٢ و ٣٩٤ م^(٢) على أن مصر المسيحية لم تنعم بهذا النصر الذي أحرزه الدين المسيحي إذ ثار النزاع والجدل من أيام قسطنطين الأول ، بين المسيحيين حول صفات المسيح وطبيعته . وقد تدخل قسطنطين ومن أتى بعده من الأباطرة في هذه المنازعات الدينية البحتة ، وعقدوا من أجل ذلك المجالس الدينية . إلا أن أغلب الأباطرة اتخذوا سياسة دينية مناوئة لمعتقدات المسيحيين في مصر فاحتدم النزاع بين الفريقين ، وبلغ ذلك النزاع الديني بين كنيسة الإسكندرية والقسطنطينية أقصاه منذ حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي حينما اختلفت الكنيستان حول طبيعة المسيح . فذهبت الكنيسة المصرية إلى القول بأن للمسيح طبيعة واحدة Monophysite أما كنيسة القسطنطينية فقالت بأن للمسيح طبيعتين . وقد دعا الأمبراطور مرقيان Marcian (٤٥٠ — ٤٥٧ م) من أجل ذلك إلى مجمع ديني في خلقدونية بآسيا الصغرى سنة ٤٥١ م^(٣) فأقر ذلك المجمع مذهب الطبيعتين ، وقرر أن مذهب الطبيعة الواحدة كفر وخروج على الدين الصحيح ، كما قرر حرمان دينسقورس بطرك الإسكندرية من الكنيسة . إلا أن المسألة لم تكن مسألة دينية

Munier : op. cit. pp. 38—39 (١)

Munier : op. cit. p. 37 (٢)

Milne : op. cit. p. 221 (٣)

فحسب ، إذ اتخذ الخلاف الدينى فى مصر شكلا قومياً^(١) . فلم يقل ديسقورس Dioscorus ولا مسيحيو مصر ما أقره مجمع خلقدونية وأطلقوا على أنفسهم « الأرثوذكسيين » (أى أتباع الديانة الصحيحة) ، ولا رالوا بعرفون بذلك الاسم إلى اليوم ، أما أتباع الكنيسة البرنطية فقد عرفوا بمد الفتح العربى باسم الملكانيين (من الكلمة العربية « ملك ») لاتباعهم مذهب الأمبراطور^(٢) .

ومنذ ذلك العهد تعرف الكنيسة المسيحية فى مصر باسم الكنيسة القبطية الأرثوذكسية ، وتعرف أحياناً بالكنيسة اليمقوية ، نسبة إلى يعقوب البرادعى Jacob Baradeus أسقف مدينة الرها المونوفيزيتى فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى — الذى زار مصر ضمن بلاد الشرق التى زارها لتنظيم الكنائس المونوفيزتية — ولكن يصعب أن نجد اسمه ضمن الحوليات المصرية لأن الأقباط لم يقبلوا تدخل السوريين فى شئونهم الكنسية مثلما تدخلت كنيسة القسطنطينية من قبل^(٣) .

ومما يدل على أن المسألة الدينية فى مصر تطورت إلى مسألة قومية أو امتزجت بها ما يذكره ساويرس^(٤) عن رهبان أحد الأديرة بأنهم لم يحيدوا عن المذهب الأرثوذكسى ولم يقبلوا المذهب الخلقدونى لأنهم مصريون . وبعد مجمع خلقدونية وقع المصريون — أبناء الكنيسة الأرثوذكسية — تحت اضطهادات الأباطرة . وقد كتب أميلينو^(٥) Amélineau أن

(١) Munier : op. cit. p. 45, Wiet : Précis de l'hist.

d'Egypte, t. 11 ; p. 116

(٢) Munier : op. cit. p. 48

(٣) Munier : op. cit. p. 61

(٤) سير الآباء البطارقة من ٩٨ : (Patr. Orient, t. 1) ;

(٥) Etude sur le Christianisme en Egypte. pp. 1 2

حرمان ديسقورس وطرده من الكنيسة في مجمع خلقدونية كان فائحة لأساسة عظيمة مثلت أدوارها في منتصف القرن السابع الميلادي وانتهت بزوال سلطان المسيحية من مصر .

وقد فرح المصريون بثورة هرقل ضد الإمبراطور فوقاس Phocas (٦٠٢ - ٦١٠ م) وساعدوا قائده بيقتاس Nicatas الذي وكل إليه الاستيلاء على مصر لقطع الغلة عن القسطنطينية^(١) .

وفرّح الشعب المصري أيضاً عندما تم تبويج هرقل إمبراطوراً في سنة ٦١٠ م ورحبوا بمقدم جنوده^(٢) ، ولعل المصريين كانوا يمتقدون أن حكم هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) سيكون أخف وطأة من حكم من سبقه من الأباطرة وأنه سيكون خاتمة للاضطهادات وسفك الدماء .

وما لبث الفرس أن غزوا مصر سنة ٦١٦ م في عهد ملكهم كسرى الثاني^(٣) وبقوا سادة البلاد ، إلى أن اضطروا للجلاء عنها عندما حارب هرقل بلاد الفرس نفسها سنة ٦٢٩ م^(٤) .

على أن هرقل بعد أن أنقذ الدولة من الفرس رأى أن ينقذها من الخلاف الديني فأصدر صورة توفيق Mono Thelma تقضى بأن يمتنع الناس عن الكلام في طبيعة المسيح وصفته وأن يعترفوا جميعاً بأن له إرادة واحدة ولم يفتن هرقل إلى أن مذهبه الذي حاول به التوفيق قد يابأه أهل مصر^(٥) كما أنه وقع فيها وقع فيه جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) من إسناد

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ص

(٢) Munier : op. cit. p. 65

(٣) بتلر ص ٦٣

(٤) Munier : op. cit. p. 68

(٥) بتلر ص ١٥٥

الرئاسة الدينية والسياسية لشخص واحد هو قيرس^(١) الذي يعرف عند مؤرخي العرب باسم القوقس .

وقد أخذ قيرس المصريين بأحد أمرين إما الدخول في مذهب هرقل الجديد ، وإما الاضطهاد . وقبل أن يصل هذا الحاكم الجديد إلى الاسكندرية في سنة ٦٣١ م هرب البطرك القبطي بنيامين توقعاً لما سيحل به وبطائفته من الشدائد من جراء فرض المذهب الجديد^(٢) .

وقد قاسى الأقباط جميع أنواع الشدائد من جراء اضطهاد قيرس ، الذي فاق كل اضطهاد ، حتى تحول كثير ممن لم يستطيعوا الهرب إلى المذهب الجديد ومنهم بعض الأساقفة . وحمد كثيرون ضده ومن بينهم الأب مينا أخ البطرك بنيامين رغم التعذيب والاضطهاد الذي ناله من جراء ذلك^(٣) . ومن ذلك نرى « أن سيف قيرس قطع آخر ما كان يربط المصريين إلى الدولة البيزنطية من أسباب الولاء^(٤) » وتمهد السبيل بذلك لفتح مصر على يد دولة ناشئة قوية ، تلك هي دولة العرب .

فبعد أن أزال العرب تقريباً ملك الأكاسرة في فارس عقب انتصارهم في موقعة القادسية (أواخر سنة ٦٣٦ هـ) ، واستيلائهم على عاصمتهم « المدائن » وبعد استيلاء العرب على بلاد الشام وفلسطين كان لا بد من التفكير في غزو مصر .

(١) ساويرس بن المقع : سير الآباء البطارقة ص ٢٢٦ . I . Patr. Orient . يقول ساويرس وأنشد (يعنى هرقل واليا إلى أرض مصر يدعى قيرس ليكون بطركا وواليا معا) و Milne : op. cit. p. 115 .

(٢) اطر ساويرس بن المقع : ص ٢٢٦ .

(٣) ساويرس : ص ٢٢٦ — ٢٢٨ .

(٤) طر : فتح العرب لمصر ص ١٧٠ .

ففي سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) عندما قدم عمر بن الخطاب إلى الجابية^(١) ، للإشراف على آخر ما وصلت إليه الفتوح في بلاد الشام وفلسطين ، تظهر لأول مرة في المصادر العربية فكرة غزو مصر كأنها فكرة طارئة عنت لمعرو بن العاص وحسنها للخليفة عمر بن الخطاب^(٢) . وهذه المراجع تذكر أيضاً أن الفكرة ترجع إلى عمر بن الخطاب نفسه الذي أمر عمرو ابن العاص بالسير إلى مصر^(٣) . ويذكرون أيضاً أن الخليفة عمر بن الخطاب تردد في فتح مصر بدليل أنه قال لمعرو إنه مرسل إليه كتاباً إن أدركه قبل دخوله في حدود مصر رجع ثانية وإن كان قد دخل في حدودها استمر في سيره^(٤) ، ويقال أيضاً إن عمرو بن العاص خرج سراً إلى مصر مع جيش صغير بدون استئذان الخليفة عمر بن الخطاب^(٥) .

هذه الروايات وأمثالها ، التي ينسجها مؤرخو العرب ، ربما يقصدون منها أن يضموا هالة من العظمة فوق عظمة الفتوحات ، ولكن لا يعقل أبداً أن فتح مصر كان بهذه السهولة وبهذا الاستخفاف ، ولا يعقل أن يسير عمرو إلى مصر سراً بدون استئذان خليفة كعمر بن الخطاب . نعم لعل

(١) الجابية : قرية من أعمال دمشق . (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣) .
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (طبعة المعهد العلمي الفرنسي) ص ٥١ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٨ وخطط المقرئ ج ١ ص ٣٢٨ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٥ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٢ والبلاذري ص ٢١٢ وابن بطريق ج ٢ ص ١٩ وخطط المقرئ ج ١ ص ٢٨٩ والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن ج ١ ص ٦ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٣ واليعقوبي ص ١٦٨ — ١٦٩ وابن بطريق ج ٢ ص ١٩ والمقرئ ج ١ ص ٢٨٨ وأبو المحاسن ج ١ ص ٦ .
(٥) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١٢ وكتاب الولاة للسكندی ص ٧ — ٨ والمقرئ ج ١ ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

عمرو بن العاص كان يعمل على الحصول على ميدان جديد يظهر فيه نشاطه ولكن يجب ألا ننسى أن فتح مصر أصبح ضرورة بعد فتح الشام وفلسطين وذلك لتأمين الفتوح الإسلامية بالشام ولتأمين المدينة نفسها مركز الخلافة لأنها قريبة من القلزم^(١) ، ولا يبعد أن يرسل الروم حملة من تلك الناحية تنتقم لما حل بملكاتها في الشام . وغالبا ما خضعت مصر والشام في العصور المختلفة لحكم دولة واحدة لأن كليهما يتم الآخر فلا يمكن اعتبار الحدود بين القطرين حداً منيعاً فاصلاً ، كما أن كليهما كان يقع على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، فكانت تربطهما مصالح تجارية وحربية واحدة . وقد كتب الأستاذ ليون كاتاني^(٢) Leone Caetani أن ثروة مصر الطبيعية العظيمة حتمت عليها منذ القدم ألا تعيش في عزلة عن بقية العالم ولذا نجد مصير مصر السياسي يرتبط دائماً بمصير الإمبراطوريات والأمم التي تسيطر على البحر الأبيض المتوسط وخاصة على سورية وفلسطين .

والواقع أن العرب لم يجهلوا ثروة مصر حينذاك ، خصوصاً وقد جاءها كثير منهم للإبحار في أيام الجاهلية نذكر منهم عمرو بن العاص^(٣) وعثمان ابن عفان^(٤) والمغيرة بن شعبة^(٥) ، ولا بد أن كثيراً من الأعراب والتجار العرب كانوا يفتدون إلى الصعيد بطريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقية حتى أن المؤرخ والجغرافي سترابون قال عن مدينة Koptos قفط

(١) القلزم بضم القاف وسكون اللام وضم الزاي وميم هو السويس الحالية .

(٢) Anali dell'Islam, vol. IV. p. 65

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ٥٣ والكندى :

كتاب الولاة ص ٦ — ٧ .

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٩٢ .

(٥) المرجع نفسه ص ٩٩

في الصنيد أنها مدينة نصف عربية^(١)

وقبل أن نبين باختصار كيف تم فتح العرب لمصر يجدر بنا أن نذكر أن الجيش البيزنطي في مصر لم يزد عن ٣٠٠٠٠ جندي ، وكانت تموزة الوحدة والانسجام كما كانت تنقسمه المنازعات والأحقاد الشخصية . ومع أن الجيش كان تحت رئاسة « سيد جند الشرق » *Magister militum per Orientem* ومقره في القسطنطينية ، لكنه لم يكن له قائد أعلى في مصر بل كان يخضع لخمس قواد كلهم على قدم المساواة . ومما هو جدير بالذكر أن الدولة البيزنطية غيرت سياستها التي اتبعتها في أول الأمر ، وهي عدم تجنيد المصريين في الجيش ، إذ دلت أوراق البردي على أن معظم الجنود في هذا الجيش قبيل الفتح كانوا من الأقباط وأنهم كانوا يجندون إما بالاقتراع أو بالقطوع أو بالوراثة وكان يسمح لهم بالاشتغال بالزراعة أو التجارة كما كانوا يعملون بالقرب من بلادهم ، وكانت مهمة هذا الجيش الرئيسية هي مساعدة الموظفين في أعمالهم والقضاء على قطاع الطرق وإخماد الثورات الدينية والاشتراكية في جباية الضرائب^(٢) ولنرى الآن كيف تم فتح العرب لمصر .

سار عمرو بن العاص من قيسارية بفلسطين إلى مصر على رأس جيش مكون من أربعة آلاف محارب أو ثلاثة آلاف وخمسمائة^(٣) في سنة ١٨ هـ

(١) أنظر : *Wiet: Art. Kibt. Enclopaedia of Islam vol. 11. p. 991*

(٢) *Cf. Munier : l'Egypte Byzantine pp. 77 — 78. Wiet : Hist.*

de la Nation Egypt. t. IV, pp. 15—16

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة المعهد) ص ٥١ والبلاذري : فتوح البلدان ص ٢١٢ وتاريخ يعقوب ص ٢ ص ١٦٨ وخطط المقرئ ص ١ ص ٢٨٨ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ص ١ ص ٥ — ٦ .

(٦٣٩ م) ، ووصل إلى العريش في أواخر تلك السنة ومنها إلى الفرما^(١) فلقى أول مقاومة هناك من الجنود البيزنطية استوقفته شهراً ولكنه تغلب عليها في أوائل سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) ، ثم واصل السير متغلباً على ما يصادفه من مقاومات حتى بلغ أم دين^(٢) حيث نشب قتال شديد بين المسلمين والبيزنطيين الذين تحصنوا في حصن بابليون^(٣) ، ويظهر أن المقاومة البيزنطية في الحصن كانت على أشدها بدليل أن عمرو استنجد بالخليفة عمر ابن الخطاب فأمدّه بأربعة آلاف رجل^(٤) ويقال إنه أمدّه بأثنى عشر ألفاً^(٥)

حاصر العرب الحصن بضعة أشهر وأخيراً اختلفت السفراء بين الروم والعرب وقد أضر العرب على ألا يقبل من الروم إلا الدخول في الدين الإسلامي أو دفع الجزية أو القتال . ولكن الروم المحاربين رفضوا تلك الشروط فاستؤنفت الحرب بين الفريقين ، حتى سلم الروم في النهاية صاغرين وقبلوا دفع الجزية^(٦) ويقال إن العرب فتحوا الحصن عنوة دون أن تحدث مفاوضات وذلك بفضل بسالة الزبير بن العوام^(٧) ثم عقد العرب مع المصريين

(١) الفرما هي مدينة بلوزيم Pelusium القديمة وكانت على ساحل البحر الأبيض وهي شرق بورسعيد الحالية .

(٢) في تاريخ حنا النقيوسي ص ٥٥٧ يذكر اسماً آخر لها وهو تندونياس Tendounya وهي تقع في شمال حصن بابليون

(٣) هو الحصن الذي بناه الإمبراطور تراجان (٩٨ — ١١٧ م) وكان يسميه العرب قصر الشمع أو الحصن .

(٤) تاريخ حنا النقيوسي ص ٥٥٧ وابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة المعهد) ص ٥٦ وخطط المقريري ج ١ ص ٢٨٩ .

(٥) ابن عبد الحكم ص ٥٤٧ والمقريري ج ١ ص ٢٨٩ والبلادري : فتوح البلدان ص ٢١٣ .

(٦) خطط المقريري ج ١ ص ٢٩٠ — ٢٩٢ .

(٧) البلاذري ص ٢١٣ — ٢١٥ والمقريري ج ١ ص ٢٩٠ .

معاهدة أجازها الخليفة عمر بن الخطاب^(١)

ولم تكن بابليون عاصمة مصر ولكنها كانت أهم مركز فيها نظراً لموقعها على رأس الدلتا وكونها على الطريق الموصل إلى الإسكندرية عاصمة البلاد في العصر الإغريقي الروماني .

وبالرغم من هذا الصلح اشترط المقوقس أن لا يبيت في أمر الروم نهائياً إلا بعد أن يكتب إلى هرقل بذلك ، فإن قبل الأمبراطور سري هذا الصلح عليهم ، وإن لم يقبل عادت الحالة بين الروم والعرب إلى ما كانت عليه .

ويفهم من هذا أن قبض مصر قد أصبح أمرهم مفروغا منه بمقتضى هذا المهد بمكس الروم^(٢) . ولكن جاء جواب هرقل يلوم المقوقس ويوبخه على تخاذله ويطلب منه أن ينهض هو والروم لمحاربة العرب ، تلك الفئة القليلة ، ألا يرضوا كالتقبط بالذلة ودفع الجزية للعرب^(٣) .

وتجمعت حاميات الروم بالإسكندرية لمحاربة المسلمين ، وسار عمرو ابن العاص لمحاصرتها وأخذ في هدم المقاومات التي صادفها في طريقه ، حتى وصل إلى الإسكندرية وألقى عليها الحصار . وقد كان البيزنطيون يدركون أهمية الإسكندرية التجارية والحربية والبحرية ، ويعرفون جيداً أنه إن لم يتم استيلاء العرب على الإسكندرية فلا فائدة من استيلائهم على مصر كلها إذ تظل الإسكندرية شوكة في جانبهم . ويقال إن هرقل استعد للخروج

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١٣ .

(٢) يطلق مؤرخو العرب لفظ روم على حاميات هرقل كما أنهم يستعملون لفظ

قبض مرادفاً للفظ مصريين (Butler : The Treaty of Misr. p. 29)

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (طبعة المعهد العلمي الفرنسي)

ص ٦٤ — ٦٥ والمقريري : خطط ج ١ ص ٢٩٣ .

لمباشرة حرب الإسكندرية بنفسه^(١) ولكنه مات في ١١ فبراير سنة ٦٤١م (٢٠ هـ)^(٢) قبل أن يفعل شيئاً . ويظهر أن مقاومة البيزنطيين في الإسكندرية كانت عنيدة بدليل استبطاء عمر بن الخطاب للفتح^(٣) ، ولاعجب فقد كان الروم مسيطرين على البحر بأساطيلهم وكان المدد يأتي إليهم عن هذا الطريق . ويضاف إلى ذلك أن حصون الإسكندرية كانت منيعة ، وكان يحميها من جهة البر الغياض والبحيرات وترعة الإسكندرية^(٤) ولكن ساءت حالة الجيش البيزنطي لتنازع القواد ولا تقسام الرأي الإسكندري أثناء حصار العرب للمدينة^(٥) كما اضطربت أمور الدولة البيزنطية نفسها بعد موت هرقل . وقد صدق المؤرخ ابن العميد^(٦) إذ قال . « فوهنت شوكة الروم بموته » إذ ولي الحكم بعد هرقل ابنه قسطنطين وهرقل الثانى ونصبت الأمباطورة مارتينة Martine أم ولده هرقل أو هرقلوناس شريكة لها في الحكم^(٧) فعملت هذه الأمباطورة على إنهاء الحرب ، لانشغالها وساسة البيزنطيين بالفتن الداخلية التى قامت من أجل النزاع على العرش ، وصادفت سياستها هوى لدى المصريين وبعض الحكام البيزنطيين المسيطرين على سير الأمور في مصر . ويذكر حنا النقيوسى^(٨) أن قيرس البطرك الخلقدونى لم يكن هو الذى رغب في السلام وحده وإنما رغب فيه السكان

(١) المقرئى ج ١ ص ١٦٤ .

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٢٦١ .

(٣) المقرئى ج ١ ص ١٦٥ .

(٤) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٢٩١ .

(٥) حنا النقيوسى : تاريخ ص ٥٧٠ .

(٦) تاريخ المسلمين ص ٢٤ .

(٧) بتلر ص ٢٦٢ .

(٨) Chronique. p. 573

والحكام ، ودومنتيانوس Domentianus^(١) الذي كان موالياً للإمبراطورة مارتينه ولذا اجتمعوا واتفقوا مع قيرس على إنهاء الحرب بعقد صلح مع المسلمين .

ذهب قيرس إلى بابليون — حيث كان عمرو بن العاص قائد جيش المسلمين — وهناك طلب الصلح فرحب به عمرو وعقد معاهدة يصح أن نطلق عليها معاهدة بابليون الثانية ، تمييزاً لها عن المعاهدة الأولى ، وأن نسميها معاهدة الإسكندرية لأنها كانت خاصة بأهل الاسكندرية وحاميتها . ومن شروط هذه المعاهدة حسب ما أورده حنا النقيوسي^(٢) أن تعقد هدنة بين الطرفين مدتها أحد عشر شهراً تنتهي في أول شهر يابه (يوافق هذا التاريخ ٢٨ سبتمبر سنة ٦٤٢ م وأواخر سنة ٦٤١ م) وفي أثناءها يكف الروم والعرب عن القتال كما يتم جلاء حامية الروم عنها حاملين أمتعتهم وأموالهم . واشترط ألا يموز جيش رومي ثانية إلى الإسكندرية ، وألا يستولى المسلمون على كنائس المسيحيين أو يتدخلوا في أمورهم ، وأن يباح لليهود الإقامة في الإسكندرية . وضممانا لنفاذ هذا العقد يأخذ المسلمون ١٥٠ من الجند و ٥٠ من غير الجند كرهائن .

ونلاحظ من شروط هذا الصلح أنه عقد في نوفمبر سنة ٦٤١ م (٦٢٠ هـ) . وعقب سقوط الاسكندرية امتد نفوذ العرب تدريجياً إلى سائر الأقاليم في مصر ويجدر هنا أن نلاحظ قلة ما ذكرته المراجع القديمة عن هذا الامتداد والطريقة التي تم بها . ونلاحظ أيضاً أن السبب الذي حمل العرب على فتح مصر لتأمين فتوحاتهم في الشام ، جعلهم يتجهون إلى برقة لتأمين مركزهم

(١) دومنتيانوس هو أحد الحكام البيزنطيين في مصر أثناء فتح العرب لها .

(٢) Chronique p. 575.

في مصر ، فزى عمرو بن العاص - عقب الانتهاء من فتح مصر مباشرة - بسير إلى برقة (انطاليس) فيفتحها ويفرض عليها الجزية^(١) ، وفي سنة ٢٢ هـ عرا عمرو طرابلس ويقال إنه غزاها سنة ٢٣ هـ^(٢) ، وقد فكر عمرو بعد فتح طرابلس في عرو بلاد المغرب كلها ، إلا أن عمر بن الخطاب نهاه عن ذلك^(٣) ، وربما تخوف الخليفة من تفرق المسلمين في بلاد كثيرة ولما ثبت أقدامهم فيها بعد .

ويمكننا أن نعتبر برقة خاتمة لفتح وادي النيل كله اللهم إلا إذا تذكرنا تأمين الحدود الجنوبية فإن عمراً لم يغفل تأمين هذه الحدود فبعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح على رأس حملة إلى النوبة في سنة ٢٠ هـ ويقال في سنة ٢١ هـ ، إلا أن تلك الحملة لم تستطع عمل شيء إزاء مقاومة النوبة . فكتب عمرو إلى ابن سعد يأمره بالرجوع^(٤) وقد عاد عبد الله بن سعد ثانية إلى غزو النوبة سنة ٣١ هـ أثناء ولايته على مصر من قبل الخليفة عثمان بن عفان . ووصلت حملته إلى دنقلة واشتدت فيها وطأة القتال من الجانبين وانتهت هذه الحملة بعقد هدنة بين مصر وبين ملك النوبة عرفت بالبقط^(٥) كانت أشبه

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة توري) ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٧١ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٤) خطط المقرئ ج ١ ص ٢٠٠ .

(٥) يقول المقرئ في الخطوط ج ١ ص ١٩٩ — ٢٠٠ « البقط ما يقبض من سبي النوبة في كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم : فإن كانت هذه الكلمة عربية فهي إما من قولهم في الأرض بقط من بقل وعشب أي نبذ من مرعى فيكون معناه على هذا نبذة من المال أو يكون من قولهم إن في بني تميم بقطاً من ربيعة أي فرقة أو قطعة فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه ، ومنه بقط الأرض ، فرقة منها وبقط الشيء فرقه ، والبقط أن تعطى الجبهة على الثلث أو الربع ، والبقط أيضاً ما سقط من التمر إذا قطع فأخطأ المخرف فيكون معناه على هذا بعض ما في أيدي النوبة » ولكن =

بمعاهدة سياسية وتجارية بين مصر ومملكة النوبة المسيحية ، إذ كان أهم ما اشترط فيها ألا يعتدى أحدهما على الآخر ، وأن تؤدي النوبة إلى مصر عدداً معيناً من الرقيق كل سنة ، وأن تؤدي مصر إلى النوبة قدراً معيناً من القمح والعدس وغيره من منتجات مصر كل سنة أيضاً^(١) .

وينبغي ملاحظة أن فتح مصر النهائي واستخلاصها من أيدي البيزنطيين لم يتم إلا في سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) إذ عاود الروم الهجوم على الإسكندرية في عهد الإمبراطور قنسطانز الثاني^(٢) (٦٤١ - ٦٦٨ م) (٢١ - ٤٨ هـ) الذي أرسل أسطولاً كبيراً هدفه إجلاء العرب عن مصر إجلاء تاماً .

وقد تم استيلاء الجيش البيزنطي على الإسكندرية وزحف من بعدها إلى ما يليها من بلاد مصر السفلى ، ونحرج مركز العرب في مصر وكان الوالي إذ ذاك عبد الله بن سعد من قبل الخليفة عثمان بن عفان ولذا نجد أهل مصر يسألون عثمان أن يرسل عمراً لمحاربة الروم لأن له معرفة وخبرة بحربهم . وقد تم إجلاء الروم عن مصر على يديه واستولى في هذه المرة على الإسكندرية عنوة ثم صالح أهلها كما قتل قائد جيش الروم^(٣) .

= الأرجح أن كلمة بقط هذه من كلمة Pactum اللاتينية ومعناها عهد أو اتفاق . انظر C. H. Becker : Islamstudien, I p 150 . وقد قيل إنها مصرية قديمة بمعنى عبد . انظر مادة Bakt في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر ابن عبد الحكم (طبعة تورى) ص ١٨٨ - ١٨٩ والكندى : الولاة والقضاة ص ١٢ - ١٣ والمقرئى : خطط ج ١ ص ٢٠٠ .

(٢) يذكر مؤرخو العرب أن هذه الحملة كانت في عهد قسطنطين بن هرقل ولكنها كانت في الواقع في عهد قنسطانز الثاني حفيد هرقل وابن قسطنطين . أما قسطنطين بن هرقل فقد توفي في مايو سنة ٦٤١ م (٨٢٠ هـ) .

(٣) انظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (طبعة تورى) ص ١٧٥ - ١٧٨ والبلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٢١ وتاريخ يعقوبى ج ٢ ص ١٨٩ والكندى كتاب الولاة ص ١١ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٦٢ والمقرئى : خطط ج ١ ص ١٦٧ وأبو المحاسن : الهجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٦ .

الكتاب الأول

في بيان

تعدد من الأسماء التي هي من أسماء بابليون الأولى التي قدمت
من أسلاف السلاطين على من ياتيون : من ٧٠ هـ (٦٤١ م) . وقد أورد
الكتاب (١) ومن هذا من المؤرخين مثل ابن خلدون (٢) والقاتلاني (٣)
وأي المادون (٤) هذا الصليح ، وهالك منه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هـ . إذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر
من الأمان ، إن أمة وديارهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وحرهم (٥)
لا يذلل عليهم شيء من ذلك ، ولا يثقلهم ، ولا يسأكنهم النوا (٦) . وعلى
أهل مصر أن يسلموا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصليح وانتهت زيادة نهرهم
خمسين ألف ، وعليهم ما جنى لسوتهم (٧) . فإن أبي أحد منهم أن يجيب
رفع عنهم من الجزاء بقدرهم ، وذمتنا من أبي بريثة ، وإن نقص نهرهم من

(١) تاريخ الأمم والملوك - ٤ من ٢٢٦

(٢) كتاب المعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ من ١١٥

(٣) مع الأعيان - ١٣ من ٣٧٤

(٤) اليوم الزاهرة : ١ من ٢٤ - ٧٥

(٥) مصدقهم أرادهم الزمامة وقد كان يترشح نهر النيل . قوله المادون

موسم الدهر ، (باسمه الماهرة : ١ من ٢١١) : « وليد ، أي أنهار الدنيا بهر دهر »

نهر النيل بهر دهر أي بهر دهره ولا راد في كلامه الرابع نال في نهر النيل

اسم مصر .

(٦) الوند أهل الوند

(٧) الوند المندوس

منه نهر النيل (٢)

غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن أتى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا . عليهم ما عليهم أثلاثاً ، في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب ، عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين ودم المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على أن لا يُغزوا ولا يعموا من تجارة صادرة ولا واردة .

شهد الزبير وعبد الله ومحمد أبناء . وكتب وردان^(١) وحضر . فدخل في ذلك أهل مصر كلهم وقبلوا الصلح .

نرى من هذا الصلح أن المصريين صاروا أهل ذمة يؤدون الجزية ، وإن قيمة الجزية^(٢) كانت تتوقف على مقدار ارتفاع أو انخفاض ماء النيل في كل عام ، كما أنها كانت تدفع على ثلاثة أقساط في السنة . وفيما يختص بالروم في هذا الصلح عرفنا في المقدمة أن أمرهم كان معلقاً بموافقة الأمبراطور ، ولذا ترك لهم عمرو الخيار في قبول هذا الصلح . أما أهل النوبة فكانت مسائلهم تختلف عن مسألة الروم إذ كانت النوبة أثناء فتح العرب لمصر مملكة قوية مستقلة ولربما كانت الإشارة هنا إلى من كان يقيم في مصر من النوبيين .

(١) وردان مولى عمرو بن العاص وحامل لوائه (ابن عبد الحكم : فتوح مصر

— طبعة تورى — ص ٩٣)

(٢) نفهم من لفظ الجزية الذي ورد في هذا الصلح أنه يعني الجزية والخراج معا أي جزية الرؤوس والضريبة العقارية ويلاحظ Van Berchem أن كلمة خراج كانت تعني أحيانا جزية الرؤوس وأحيانا تعني ضرائب أخرى تختلف في طبيعتها عن صريتي الرؤوس والعقار . انظر : M. Van Berchem

La Propriété territoriale et l'impôt foncier. p. 21

ويجدر أن نشير هنا إلى ما يراه بتلر من أن صلح بابليون كان يختص بأهل مدينة مصر (بابليون) لا القطر المصري كله . ويؤيد بتلر وجهة نظره هذه بأنه من عادة العرب عند فتحهم لمدينة مهمة مثل دمشق أو القدس أن يعقدوا صلحا مع أهلها ، كما أنه في الوقت الذي عقد فيه هذا الصلح لم يكن قد تم استيلاء العرب على الصعيد أو الوجه البحري . أما مقدار الجزية الذي جاء في الصلح وهو ٥٠ مليون دينار^(١) فهذا ما يجب استبعاده^(٢) . ولكن رأى بتلر يخالف ما ذكرته المصادر القديمة التي أوردت نص هذا الصلح إذ ذكرت هذه المصادر أن أهل مصر كلهم قبلوا هذا الصلح ودخلوا فيه . ونحن نوافق بتلر في أن مقدار الجزية الذي ذكر في النص كبير ، بل نستبعد أن يكون قد فرض حتى على مصر كلها ، ولكن هذا الرقم المبالغ فيه ، يرجح أن الصلح والجزية كانا على القطر كله لا على مدينة مصر وقد رأينا أيضاً ما كان لبابليون من الأهمية ، وأنها كانت بمثابة قلب مصر . وعاصمتها الحقيقية ، ولو أن العاصمة الفعلية كانت الإسكندرية . وحوادث التاريخ تربنا أنه إذا سقط قلب الدولة كان ذلك معناه سقوط الدولة كلها ، مثل سقوط روما سنة ٤٧٦ م الذي كان إيذاناً بسقوط الدولة الرومانية الغربية في أيدي البرابرة ، وسقوط باريس في سنة ١٨٧٠ م الذي كان إيذاناً بسقوط فرنسا في أيدي الألمان .

(١) لم يذكر في نص الصلح إذا كانت الجزية بالدينار أو الدرهم وإنما ذكر الرقم فقط وهو ٥٠ مليون ولكننا نعلم أن العرب كانوا يجبون الضرائب من مصر بالدينار لا بالدرهم (أنظر المقرئى : النقود الإسلامية ص ١١)

(٢) Butler: The Treaty of Misr. pp. 25-26, 47-48

١ — النظام الإدارى

لما فتح العرب مصر وجدوا بها نظاماً قامت منذ أقدم الأزمنة ونمت وترعرعت في خلال المصور المختلفة ، فقصت عليهم الحنكة السياسية ألا يمسوا تلك النظم ، بل أبقوا عليها كما فعل الرومان من قبلهم عندما كانوا يحتلون بلاداً راقية في نظمها متقدمة في حضارتها . واكتفى العرب بشغل بعض المناصب الرئيسية ، ليصرفوا على الإدارة بوجه عام .

كان الخليفة بعين في مصر والياً يمثلها ، ويقال ولاية عمرو بن العاص مثلاً أو ولاية عبد الميز بن مروان ، ويقال للوالى أيضاً « أمير مصر » وللدار التى يقيم فيها والى مصر « دار الإمارة » . ونجد في أوراق البردى اليونانية اسم آخر للوالى هو سيمبولس $\delta\upsilon\mu\beta\omicron\upsilon\lambda\omicron\varsigma$ ^(١) .

وكان الوالى يؤم المسلمين في المسجد الجامع في صلاة الجمع والأعياد بوصفه نائباً عن الخليفة ، ولذا يطلق عليه أمير الصلاة ، ويقال عن ولايته ولاية الصلاة . وإذا كان المسلمون يعتبرون أن إمامة الصلاة مما يختص به الخلفاء ، ويطلقون على الخليفة لفظ إمام ، كانت إمامة الوالى في الصلاة نيابة عن الخليفة تدل على عظم سلطة الوالى وعلى رئاسته العليا السياسية في الدولة . ولم يكن الوالى مسئولاً أمام أحد عن عمله إلا أمام الخليفة . وكان يجمع أحياناً إلى سلطته إدارة المالية المبر عنها بالخراج مما يحمله مطلق التصرف في الدولة ، وأحياناً يسند الخليفة عمل الخراج إلى شخص آخر يكون مسئولاً أمام الخليفة مباشرة لا أمام الوالى ، وكان هذا يحد سلطة الوالى كثيراً إذ يصبح عاجزاً عن التصرف في الأمور المالية كما يشاء . ولذا كان لعامل

الخراج أهمية كبيرة وكثيراً ما يكون منافساً للوالى مع أن الوالى هو رئيس الولاية بالنيابة عن الخليفة . وحسبنا دليل على أهمية عامل الخراج من أنه عندما هزم عمرو بن العاص الروم وطردهم من الإسكندرية سنة ٢٥ هـ أراد الخليفة عثمان بن عفان أن يولى عمراً على الحرب (أى يوليه على الصلاة) وأن يولى عبد الله بن سعد على الخراج فقال عمرو « أنا إذاً كما سك البقرة بقرنيها وآخر يحملها^(١) » . ورفض ما أراد عثمان بن عفان وترك ولاية مصر .

وتبين أيضاً تلك الأهمية التي كانت لعامل الخراج من أنه بعد وفاة عمرو ابن العاص ، عين معاوية بن أبي سفيان (٤٠ - ٦٠ هـ = ٦٦٠ - ٦٨٠ م) أخاه عتبة بن أبي سفيان (٤٣ - ٤٤ هـ) والياً على الصلاة في مصر وولى وردان الخراج ، ثم خرج عتبة بن أبي سفيان إلى معاوية في نفر من أهل مصر ، فسأل معاوية الوفد عن عتبة ، فقال أحدهم « حوت يجر يا أمير المؤمنين على بر » . فقال معاوية لمتبة : اسمع ما يقوله فيك رعيتك . فقال : صدقوا يا أمير المؤمنين حجبتني عن الخراج ولهم على حقوق وأكره أن أجلس فأسأل فلا أفعل فأبخل . فضم إليه معاوية الخراج^(٢) .

ولعل أبلغ مثل يرينا مدى ما وصلت إليه سلسلة عامل الخراج ، هو عبيد الله بن الجراح عامل الخراج في مصر زمن الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) ، فقد ظل عاملاً على خراج مصر منذ ولى هشام الخلافة حتى خرج إلى إمارة أفريقية في سنة ١١٦ هـ^(٣) أو سنة ١١٤ هـ^(٤) ، وفي

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة توري — ص ٧٨

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة المهد العالمى الفرنسى — ص ٧٨

(٣) القرينى : خطط ج ١ ص ٢٠٨

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٧٣

خلال هذه المدة تتابع على حكم مصر خمسة ولاة^(١) ، وقد امتد نفوذه إلى عزل الولاة وتوليهم برضى الخليفة . ففراهما عندما تنازع مع الحر بن يوسف وإلى مصر سنة ١٠٨ هـ يكتب إلى الخليفة هشام يشتكيه ؛ وسرعان ما عزل الخليفة الحر عن ولاية مصر ، وولى بدله حفصا بن الوليد على الصلاة ، ولكن عبيد الله بن الحبصا كتب إلى الخليفة يقول « إنك لم تعزل الحر إذ وليت حفصا » . فجعل الخليفة الاختيار إلى عبيد الله فاختار عبد الملك بن رفاعه^(٢) . وقد ولى مصر بعد عبد الملك بن رفاعه هذا ، أخوه الوليد بن رفاعه ، (١٠٩ — ١١٧ هـ) ويقول أبو المحاسن^(٣) : « ولم تطل مدة الوليد هذا على مصر إلا لخروج عبيد الله بن الحبصا المتولى على خراج مصر منها ، وقد تقدم عزل جماعة كبيرة من المال بمصر بسبب عبيد الله المذكور ، فدبر عليه الوليد هذا حتى أخرجه هشام من مصر واستتمله على أفريقية ، فسار إليها عبيد الله بن الحبصا واشتغل بها عن خراج مصر » . ولعل من أسباب نفوذ ابن الحبصا أنه كان يمثل سياسة الخليفة المالية أحسن تمثيل .

وكان بيد الوالى أيضا الحرب أى الرئاسة على الجيش فى الولاية ، ولأهمية ذلك كان يقال أحيانا : ولى فلان الحرب كناية عن ولايته لمصر^(٤) . فوالى مصر كان يشرف على شئون الحامية الموجودة فى مصر ، وكان يقود بنفسه الجيش فى الحملات التأمينية لمصر أو لصعد الأعداء عنها ، أو يرسل من يقوده نيابة عنه . ومثل تلك الحملات كانت بوجه خاص فى السنوات الأولى .

(١) الكندى : كتاب الولاة والقضاة ص ٧٢ — ٧٦

(٢) الكندى ص ٧٤ — ٧٥

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٦٦

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة تورى — ص ١٧٨ وطبعة

المعهد ص ٧٨

بعد الفتح ، فقد قاد عمرو بن العاص الحملات لفتح برقة وطرابلس ، كما أرسل عبد الله بن سعد لفتح النوبة ، وكذلك خرج عبد الله بن سعد أثناء ولايته على مصر على رأس الحملات التي سارت لغزو أفريقية والنوبة^(١) كما غزا الروم في غزوة ذى الصوارى . وفي ولاية عتبة بن أبي سفيان (٤٣ - ٤٤ هـ) عندما شكا قائد رباط الإسكندرية من قلة من معه من الجنود خرج عتبة ورابط فيها وذلك في سنة ٤٤ هـ^(٢) كذلك خرج الحر بن يوسف في ولايته على مصر مرابطا في دمياط ثلاثة أشهر من سنة ١٠٧ هـ^(٣) . كما نرى قرة بن شريك يطلب من صاحب كورة كوم اشقاو أن يعجل في إرسال المال المفروض على كورته ليأمر للجند بمطأهم^(٤) ، ونجده أيضا يهتم بالإشراف على الأدوات اللازمة لتنظيف وتجهيز مرابى الأسطول ويهتم بالثؤن التي يحتاجها بحارة الأسطول^(٥) كما يشرف على أجور البحارة الذين يخرجون مع الأسطول للغزو^(٦) .

وللوالى أيضا الإشراف على الشرطة ، وكان مقرها مدينة القسطاط التي بناها عمرو بن العاص . ولما بنى العباسيون مدينة المسكر التي كانت تقع شمالي القسطاط عملت شرطة أيضا في المسكر وقيل لها الشرطة العليا^(٧) ، وربما وصفت بالعليا لأهميتها . وكان الوالى هو الذى يعين صاحب الشرطة كما ورد

(١) الكندى ص ١٢

(٢) الكندى ص ٣٦

(٣) الكندى ص ٧٤

Grohmann: Arabic Papyri. vol. 111. pp. 12-13. Becker: Neue (٤)

Arabische Papyri. Der Islam. 11. pp. 251-252

Bell: Translations of the Greek Aphrodito Papyri. 11. p. 277 (٥)

Bell : op. cit. 11, pp. 375 - 376 (٦)

(٧) القرىزى : خطط ج ١ ص ٣٠٤

في المصادر القديمة ، مثل كتاب الولاية وكتاب القضاة للكندي وكتاب
النجوم الزاهرة لأبي المحاسن . وفي حالات نادرة جدا كان الخليفة هو الذي
يعين صاحب الشرطة ، ومن ذلك ما كان من الخليفة المأمون حين عين
صاحب الشرطة بمصر بعد ما قضى على الثورة التي كانت فيها سنة ٣١٧هـ^(١)
وصاحب الشرطة هذا كان بمثابة نائب للوالي يؤم الناس في الصلاة إذا مرض
الوالي ، ويحكم الولاية إذا خرج الوالي من مقر ولايته . فرى خارجة بن
حذافة صاحب الشرطة يؤم الناس في الصلاة أثناء مرض عمرو بن العاص^(٢) ،
ونرى عابس بن سعيد الرادي صاحب الشرطة ينوب عن عبد العزيز بن
مروان والي مصر في حكم البلاد عند خروجه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان
سنة ٦٧هـ^(٣) . ولذا نجد أن صاحب الشرطة كثيرا ما يمينه الخليفة واليا
على البلاد إذا ما عزل الوالي أو مات أو تنحى عن أمور الولاية . فمثلا كان
حفص بن الوليد على شرطة مصر قبل أن يلي على صلاة مصر من قبل الخليفة
هشام بن عبد الملك^(٤) . وتكاد المراجع العربية لا تذكر شيئا عن أعمال
الشرطة في مصر ، ولكن لا بد أن الولاية كانوا يمهّدون إلى صاحب الشرطة
بتنفيذ المقوبات التأديبية التي يفرضونها وينشر الأمن في البلاد ، كما كانت
وظيفة صاحب الشرطة في الخلافة نفسها ، ولا بد أنه كان لصاحب الشرطة
عمال في العاصمة وفي الأقاليم لتنفيذ أوامره . ونلاحظ أن استتباب الأمن في

(١) الكندي : كتاب الولاية ص ١٩٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢

ص ٢١٦

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ١٠٥ والكندي ص ٣١ — ٣٢

(٣) كتاب الولاية للكندي ص ٤٩

(٤) الكندي ص ٧٤ — ٧٥

مصر وتطبيق القوانين فيها وتنفيذ الأحكام القضائية ومنع الجرائم ، كل ذلك كان يضمن للخلافة استغلال موارد البلاد على أتم وجه ويضمن لها أكثر مما يمكن من الضرائب . ويظهر أن المصادر القديمة ترجع دائما استتباب الأمن في البلاد إلى الولاية لا إلى أصحاب الشرطة لأن الوالى هو الرئيس الأعلى في الولاية وهو الذى يأمر صاحب الشرطة بذلك ، فشلا نسمع في عهد ولاية يحيى بن داؤد الخرسى الشهير بابن ممدود والذى يعرف بأبى صالح (١٦٢ - ١٦٤ هـ) أنه لما قدم إلى مصر وجد بها السبل مخيفة ، لكثرة المفسدين وقطاع الطرق ، فأخذ في قمع المفسدين وأبادهم وقتل منهم جماعة كثيرة . وقد بلغ من استتباب الأمن أنه منع غلق الأبواب والحوانيت ليلا حتى جعلوا عليها شرائج^(١) القصب والشباك لمنع الكلاب من دخولها ليلا ، كذلك منع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها وقال : من ضاع له شيء فعلى أدائه ؛ فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول : « يا أبا صالح احفظها »^(٢) .

وبالطبع كل هذه الأشياء لم يقم بها أبو صالح ، وإنما قام بها صاحب الشرطة وأعوانه ، ولكن الوالى كان هو الأمر الناهى ، وكانت الأحوال في مصر تتوقف على درجة حزمه وشدة أولينه وضعفه .

كذلك كان أصحاب الشرطة يهتمون بنشر الفضيلة والمحافظة على الأخلاق ، ففي ولاية مزاحم بن خاقان سنة ٣٥٣ هـ نراه يتشدد في نشر الأخلاق الفاضلة وقمع أهل الفساد « ثم التفت إلى أرخوز^(٣) (صاحب

(١) شرائج جمع شريحة وهى باب من القصب يعمل للدكاكين

(٢) الكندى ص ١٢٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٤٤

(٣) فى الكندى أزجور ص ٢١٠

شرطته) وحرضه على أمور أمره بها ، فشدد أرخوز المذكور عند ذلك ومنع النساء من الخروج من بيوتهن والتوجه إلى الحمامات والمقابر وسجن المؤمنين والنوائح^(١) .

ومن الوظائف الرئيسية الهامة في تلك الفترة أيضاً وظيفة صاحب البريد ولم تكن تلك الوظيفة قائمة في عهد الخلفاء الراشدين ، إنما بدأتها الدولة الأموية ثم تقدم نظام البريد في عهد الدولة العباسية . ويقال إن معاوية بن أبي سفيان هو أول من وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة ، وتبعه في ذلك الأمويون ومن بعده العباسيون ، ولذا نجدهم يهتمون بمهارة الطرق لتقصير المسافات ولوصول الأخبار بسرعة .

وقد وصلت إلينا نقوش معاصرة لعبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦هـ) ، كشفت بالقرب من بيت المقدس وتشير إلى أوامره بصنعة الأميال^(٢) وبمهارة أربعة طرق تخرج من إيلياء^(٣) ومن دمشق^(٤) . وقد اهتم العباسيون اهتماماً كبيراً بالطرق حتى أصبحت بغداد مركزاً تنتشعب منه الطرق إلى جميع الجهات ، فكانت جميع الطرق تؤدي إلى بغداد كما كانت جميع الطرق تؤدي إلى روما . هذا ، ولم يكن البريد نظاماً يستعمله الشعب إنما كان نظاماً رسمياً حكومياً ، ويظهر أن الخلفاء استعملوا نظام البريد في

(١) أبو الحسن ج ١ ص ٣٣٧

(٢) صنعة الأميال هي مسح الأراضي لوضع حدود على كل مسافة قدرها ميل .

(٣) أيلياء هي بيت المقدس (معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٤٢٤)

(٤) van Berchem, *Materials pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum* (Jérusalem t. I; pp. 20, Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe. t. I. pp. 13—16

أول الأمر لنقل الأخبار بسرعة من مقر خلافتهم إلى الولايات المختلفة ولتلقى الأخبار ثم ما لبث هذا النظام أن تطور واستعمله الخلفاء العباسيون للتجسس على ولاية الأقاليم وعمالها^(١). ولم أجد في المصادر القديمة ذكراً لأصحاب البريد الموفدين من الخلفاء إلى مصر اللهم إلا في موضع أو موضعين ، فيذكر الكندي في كتابه الولاية والقضاة أن صاحب البريد بمصر كتب إلى الخليفة المتوكل بأمر يتعلق بأحد الجند^(٢) ، وفي موضع آخر يذكر أن صاحب البريد في مصرى ولاية داود بن يزيد بن حاتم (١٧٤ - ١٧٥ هـ) أراد أن يتدخل في عمل قاضي مصر إذ ذاك أبو الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمي فلم يكن من القاضي إلا أن استعفى عن القضاء^(٣) . ويظهر أن إغفال ذكر أصحاب البريد في تلك المصادر راجع إلى أن مهام وظيفتهم كانت تعنى الخلافة وتعنى عمال الخليفة أكثر مما تعنى مصر نفسها .

تحدثنا حتى الآن عن الوظائف الرئيسية التي كانت وقفا على الفاتحين ،

(١) كان أبو جعفر المنصور يقول . ما كانت أحوالي لي أن يكون علي بابي أربعة نفر لا يكون علي بابي أعف منهم فليل له يا أمير المؤمنين من هم قال . هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن البريد لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن قصعت واحدة وهي ، أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني ، والرابع ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة . آمآه قيل له ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال . صاحب بريد يكتب إليّ بخبر هؤلاء على الصحة . الطبري ج ٩ ص ٢٩٧ — ويقول قدامة بن جعفر في كتاب الخراج عند كلامه على ديوان البريد ص ١٨٤ — ١٨٥ : « والذي يحتاج إليه في صاحب هذا الديوان هو أن يكون ثقة إما في نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته ، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج منه إلى الكافي المتصفح وإنما يحتاج إلى الثقة التحفظ » .

(٢) ص ٢٠٣

(٣) ص ٣٨٤

وستحدث عن وظيفة القاضي في فصل آخر ، وفيما عدا ذلك أبقى الفاتحون معظم الأنظمة الموجودة كما تركوا الوظائف والأعمال في يد أهل البلاد .

وكانت مصر بعد الفتح مباشرة مقسمة إداريا إلى قسمين رئيسيين مصر العليا ، ومصر السفلى . فيذكر ابن عبد الحكم^(١) أن الخليفة عمر بن الخطاب توفي وعلى مصر أميران عمرو بن العاص بأسفل الأرض^(٢) ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح على الصعيد . ولسنا نظن أن هذا البعد عن الدقة من ابن عبد الحكم ينقض ما نعرفه من أن عمرو بن العاص كان الرئيس الأعلى وكانت له ولاية مصر كلها . ويذكر السكندی^(٣) أنه في ولاية حفص بن الوليد الثانية على مصر (١٢٤ — ١٢٧ هـ) جعل على الصعيد رجاء بن الأشيم وعلى أسفل الأرض فهد بن مهدي الحضرمي .

من هذا يتبين أن مصر كانت مقسمة إداريا إلى مصر العليا والسفلى ، وهذان القسمان الرئيسيان كانا مقسمين إلى أقسام أو كور ، ويقال إنه كان بها ثمانون كورة^(٤) ، وهذه كانت مقسمة بدورها إلى قرى . ولفظ كورة مشتق من الاسم اليوناني χώρα كورة التي لم تكن شيئا آخر سوى الأقاليم المعروفة في العهد البيزنطي باسم بجارشي pagarchie أى أن العرب احتفظوا بنظم

(١) فتوح مصر وأخبارها — طبعة توري — ص ١٧٣

(٢) أسفل الأرض أى مصر السفلى أو الوجه البحرى . وكان مقسما جغرافيا إلى الحوف المرق شرق فرع دمياط والحوف الغربى غرب فرع رشيد وبلطن الريف بين فرع رشيد ودمياط (القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٨٠ — ٣٩٠)

(٣) كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٨٤ .

(٤) ابن دقاق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٢ والمقریزی : خطط

ج ١ ص ٢٦ .

البيزنطيين الإدارية وكان على رأس الكورة « صاحب الكورة » وهذا اللقب ترجمة مضبوطة للفظ اليوناني بجاركوس^(١) παραρχος فنجد مثلاً قرة بن شريك وإلى مصر زمن الوليد بن عبد الملك (٩٠ - ٩٦ هـ) يرسل كتاباً إلى بسيل صاحب اشقوه^(٢) وفي كتاب آخر يخبر صاحب الكورة بأن يرسل التعليمات الخاصة بدفع الجزية إلى جسطلال كورته وإلى موازيت القرى^(٣). وهنا مرة أخرى نجد كلمتين غريبتين على اللغة العربية ! فكلمة جسطلال هنا بمعنى الموظف المشرف على مالية الكورة أى مندوب ديوان الخراج والأموال ، أما موازيت فمنها رؤساء أو مشايخ القرى . ويرى الأستاذ جاستون فييت^(٤) G Wiet أن كلمة جسطلال مقابلة للكلمة البيزنطية أو جستاليوس αγγελιαρχος ، وأن كلمة ما زوت مقابلة للكلمة البيزنطية ميزوتروس μειζωτερος .

ومما سبق تبين إلى أى حد أبقى العرب على النظم التي وجدوها في البلاد ، بل أبقوا على الأسماء كما كانت من قبلهم . ومع أن مصر كانت مقسمة إدارياً إلى هذه الأقسام ، فقد كانت جميعها تحت سلطة الوالى العليا مباشرة ، ولم يعط الولاة فرصة لعمال الأقاليم للتمكين لأنفسهم وللإستقلال محلياً بأمور إقليمهم ، فكان الحكم في مصر مركزياً إلى أقصى حد ،

(١) Wiet: Précis de l'hist. d'Egypte t. 11, n. 127

(٢) Becker; Neue Arabische Papyri pp. 251-252, Grohmann, Arabic Papyri, vol. III p. 12

اشقوه كانت كورة من كور الصعيد وهى الآن كوم اشقاوين أبو تيج وطهطا في مديرية أسيوط وقد عثر فيها سنة ١٩٠١ م على مجموعة من الأوراق البردية التي ألقت شماعا من النور على حكم قرة بن شريك في مصر .

(٣) Becker : op. cit. pp. 254. Grohmann, op. cit. p. 17

(٤) Précis de l'hist. d'Egypte. t. 11; p. 127

وكانت اللامركزية معدومة في البلاد ، فسمح أن الوالى كان تحت سلطة الخليفة مباشرة ترى الوالى بدوره يضع رؤساء الأقاليم المختلفة تحت سلطته مباشرة . ولقد ألفت أوراق البردى التي كشفت في كوم أشقاو تنمعا من النور على حكم الولاية في مصر ، وخاصة في العهد الأسبق ، وبوجه خاص في عهد ولاية قرة بن شريك (٩٠ - ٨٩٦) إذ عرفنا من تلك الأوراق إلى أي حد كانت تمتد سلطة الوالى في الأقاليم ، ففراء يرسل كتباً كثيرة إلى عماله يطلب منهم ما يجمع من الضرائب ، وفي الوقت نفسه يطلب من صاحب الكورة أن يعدل بين الناس ولا يفعل شيئاً يكرهونه ^(١) ، ثم ترى الوالى يرسل إلى صاحب الكورة يذكر له أن صاحب البرية أحبه بأنه أوقع الغرامة على بعض القرى ويطلب من صاحب الكورة أن يرد ما كان قد عمله حتى يكلمه في هذا الأمر ^(٢) . وهناك أخرى ترى أنه لما كان للخليفة صاحب يريد يخبره بأعمال الوالى ، كان للوالى أيضاً صاحب يريد يخبره بأعمال عمال الأقاليم في مصر . وفي كتاب آخر نجد قرة بن شريك يرسل إلى صاحب كورة أشقوه بشأن أحد الأفراد الذى أعطى مالا لآخر ، ويطلب منه أن ينظر في أمر تسديد الدين الذى لأحدهما على الآخر ^(٣) . ونجد أيضاً كتاباً آخر يأمر فيه بالقبض على أحد المجرمين ^(٤) . وفي كتاب آخر نراه يحدد أجور الصناع الذين يعملون في بناء السفن ولا يترك تحديد ذلك لصاحب الكورة التى منها الصناع ^(٥)

(١) Becker : Neue Arabische Papyri. pp. 247-248, (Grolmann)

Arabic Papyri vol. III. pp. 3-5

Grolmann : Arabic Papyri. vol. III. p. 28

(٢)

op. cit. pp. 30-31

(٣)

van Berchem : Une Page Nouvelle de l'Histoire d'Égypte p. 161

(٤)

Bell. Translations of the Greek Aphrodite Papyri (Der Islam, Band II) p. 271

(٥)

هذه كلها أمثلة ترينا إلى أى حد تغفلت سلطة الوالى فى شئون البلاد المختلفة وحتى فى أمور القضاء الذى كان يعتبر مستقلا ، كان الوالى فى أوقات كثيرة هو الذى يعين القاضى ويصدق الخليفة على هذا التعيين . وقد احتاج الوالى تبعاً لذلك إلى كتبة كثيرين ليستعين بهم فى تحرير رسائله إلى مختلف الجهات فى مصر وإلى الخليفة نفسه . ولذا نرى فى آخر السكتب التى كان يرسلها الولاية أسماء السكتبه الذين كانوا يحضرونها^(١) ، مما يدل على أنه كان بمصر فى ذلك العهد ديوان رسائل أو ديوان إنشاء . ويشير القلقشندى^(٢) إلى وجود ديوان إنشاء فى ذلك العهد من الفتح إلى بداية الدولة الطولونية ، إلا أنه يذكر أنه كان قليل الأهمية فيقول : « ولم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية فى هذه المدة صرف عناية تقاصراً عن التشبه بديوان الخلافة إذ كانت الخلافة يومئذ فى غاية العز ورفعة السلطان ، ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة فى جانبها ، والولايات الصادرة عن النواب فى نياباتهم متصاعرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة ، فلذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوفر الدواعى على نقله ولا تنصرف المهم لتدوينه » .

وقد كان والى مصر بعد الفتح ومنذ ولاية عمرو بن العاص الأولى عليها يشرف أحياناً على بلاد برقة وما يليها من شمال أفريقية ، إذ نجد إشارات كثيرة خلال المصادر القديمة تبين سلطة والى مصر وإشرافه على عمال برقة والمغرب وعلى الجيوش المرسلة إلى هناك ، فنرى مثلاً أن عبد العزيز ابن مروان والى مصر (٦٥ — ٨٦ هـ) يقع سوء تفاهم بينه وبين حسان ابن النعمان الفسائى الذى قدم من الشام ليتولى أمر جيوش المغرب ، فيعزله ويولى

(١) Grohmann : op. cit. pp. 5,8, 13, 20, etc

(٢) صبح الأعشى ج ١١ ص ٢٨

موسى بن نصير أمر المغرب^(١) . كذلك نرى صالح بن علي بن الله العباسي في ولايته الثانية على مصر (١٣٦ — ١٣٧ هـ) يولى أبا عوف على جيوش المغرب^(٢) .

على أن هذا الإشراف الذي كان لولاة مصر لم يمنع من أن يكون لبرقة والمغرب عمالها وولاتها . ولكن كانت تضم برقة والمغرب أحياناً تحت سلطة والى مصر مباشرة ، فقد جمع لسلطة بن غنم والى مصر (٤٧ — ٦٢ هـ) أمر مصر والمغرب^(٣) ، كما امتدت سلطة صالح بن علي في ولايته الثانية على مصر الى المغرب وفلسطين^(٤) ، ونجد الخليفة أبا جعفر المنصور يضم إلى والى مصر يزيد بن حاتم (١٤٤ — ١٥٢ هـ) برقة بالإضافة إلى مصر^(٥) ونلاحظ أن ولاية مصر في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين كانوا من العرب ، ولا عجب فقد كان معظم الوظائف الكبرى في الدولة الإسلامية حينئذ للعرب دون سواهم .

وقد أعطى الخلفاء الأمويون لعالمهم على الولايات قسماً كبيراً من الحرية ولذا ظهر في الدولة الأموية شخصيات بارزة مثل عمرو بن العاص وزيد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي وخالده بن عبد الله القسري وعبد العزيز بن مروان وموسى بن نصير وغيرهم . وفي عهد الدولة الأموية في مصر نجد معاوية يولى عمرو بن العاص صلالة مصر . وخراجها ويجعلها طعمة له بمد عطاء جندها والنفقة على إدارتها ، فظل عمرو من سنة ٣٨ هـ إلى سنة

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٥٢ — ٥٣

(٢) الكندي ص ١٠٢

(٣) الكندي ص ٣٨

(٤) الكندي ص ١٠٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢٨

(٥) الكندي ص ١٠٢ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٣

٤٣ هـ حين وفاته . ونجد مثلاً مسلمة بن مخلد يظل والياً على مصر خمس عشرة سنة (٤٧ — ٦٢) وتوفى هو وال عليها ، وكذلك عبد العزيز بن مروان يظل في ولايته على مصر حوالي إحدى وعشرين سنة (٦٥ — ٨٦ هـ) وتوفى وهو وال عليها ، وكان عبد العزيز شبه ملك مستقل في حكم البلاد من مقره في القسطنطينية أولاً ثم في حلوان التي أمر ببنائها في سنة ٧٠ هـ ، واتخذها عاصمة له على أثر وقوع الطاعون بمصر^(١) أو على أثر مرضه بالجذام^(٢)

وفي العصر العباسي يتغير الحال ؛ فالدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس ولذا نجد بين ولاية مصر من قبل خلفائها بعض ولاية من عناصر فارسية . وكان آخر وال عربي على مصر عنبسة بن إسحق (٣٣٨ — ٣٤٢ هـ)^(٣) على أنه ظهر عنصر جديد في الدولة العباسية اعتمد عليه الخلفاء وهو عنصر الأتراك . وقد بدأ الخليفة المعتصم (٣١٨ — ٣٢٧ هـ) سياسة الاعتماد على الأتراك والاستكثار منهم ، إذ رأى فيهم قوما يحبون القتال والحرب وليست لهم عصبية العرب وليس لهم وطن قديم يريدون إحياءه كالفرس . وسرعان ما تغفل الأتراك في الدولة وأصبحت يدهم شؤونها الحربية والمدنية . ونجد مصر تتأثر بتلك السياسة أيضاً فليها ولاية من الترك كان أولهم يزيد بن عبد الله التركي (٣٤٢ — ٣٥٣ هـ)^(٤)

-
- (١) الكندي ص ٤٩ وخطط المقريري ج ١ ص ٢٠٩ وأبو المحاسن :
النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٣ .
(٢) أبو صالح الأرمي : كنائس وأديرة مصر ص ٦٦ وسعيد بن بطريق :
التاريخ المجموع ج ٢ ص ٤٠ .
(٣) الكندي : كتاب الولاية والفضاة ص ٢٠٢ وخطط المقريري ج ٢ ص
٢٩٤ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٠٠ .
(٤) الكندي : كتاب الولاية والفضاة ص ٢٠٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة
ج ٢ ص ٣٠٨

وأهم ما نلاحظ في حكم مصر في العصر العباسي كثرة تغيير الولاة ، وقد يكون هذا راجعاً إلى بعد مقر الخلافة العباسية (أعنى بغداد وسامرا) عن مصر ، فلم يأمن الخلفاء أن يتركوا ولاية مصر في الحكم طويلاً لئلا يطمعوا في الاستقلال بالبلاد . وقد يكون ذلك راجعاً أيضاً إلى ضعف الخلفاء العباسيين الحقيقي بالرغم من مظاهر العظمة الخارجية ، وخاصة منذ عهد المعتصم ، ولذا عني هؤلاء الخلفاء بتولية ولاية كثيرين في مدد متقاربة قصيرة كيلا يتمكن أحدهم من الاستقلال بها أو التمسك لنفسه فيها ، كما استخدموا البريد للتجسس على أعمال هؤلاء الولاة .

على أن ما كانت تخضع الدولة العباسية من استقلال الولاة قد تحقق نتيجة لسياسة الإقطاع التي اتبعتها ، فنذ عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) إتبع الخلفاء العباسيون سياسة إقطاع بعض أقاليم الدولة العباسية لبعض الشخصيات على أن يؤدوا مالا معيناً للخلافة . ولا ريب في أن النظام الإقطاعي في الشرق كان يختلف اختلافاً كبيراً عنه في الغرب ، ولعل أكبر فرق بين النظامين الشرق والغرب أن الإقطاع الأوروبي كان يتوارث في أسرة صاحب الإقطاع وفق تقاليد وراثية معروفة أما في الشرق فلم يكن من حق صاحب الإقطاع أن يورث إقطاعه ، كذلك كان السكان في الغرب يقطعون مع الأرض بمكس النظام في الشرق . وقد أقطع الخليفة الرشيد إفريقية (تونس الحالية) لإبراهيم بن الأغلب في سنة ١٨٤ هـ^(١) ، وربما تكون قسمة العالم الإسلامي إلى قسمين إقطاعيين في عهد الخليفة المتمدن (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) الذي عاصره أحمد بن طولون ، والذي قسم الدولة العباسية إلى إقطاعين : شرقي وغربي ، على أن يحكم القسم الشرقي أخوه الموفق ويحكم القسم الغربي ابنه المفضول إلى الله ، ربما تكون هذه

(١) الطبري ج ١٠ ص ٧١

القسمة قد سبقتها قسمة أخرى في عهد الخليفة المأمون ، فيذكر الطبري^(١) أنه في سنة ٢١٣ هـ ولي المأمون أخاه المعتصم الشام ومصر ، وولى ابنه العباس بن المأمون الجزيرة والثغور والعواصم . وقد ثبت المعتصم من الحكام من ثبت وعزل من عزل في البلاد الخاضعة لحكمه . وتدل أوراق البردي على أنه في سنة ٢١٧ هـ كانت الأوامر والرسائل التي تصدر إلى الولاة باسم الخليفة المأمون يذكر فيها اسم المعتصم بجانبه^(٢) . وقد علمنا من نص « بروتوكول »^(٣) تاريخه ٢١٧ — ٢١٨ هـ أن الأمير المعتصم كتب اسمه بعد الخليفة المأمون مع كيدر الذي كان واليا على مصر في سنة ٢١٧ — ٢١٩ هـ في حين أن كيدر هذا كان الوالي الذي أقامه الخليفة مباشرة^(٤)

ولما ولي المعتصم الخلافة (٢١٨ — ٢٢٧) هـ هذا حذو الرشيد والمأمون . فاقطع أشناس التركي ولاية مصر . وقد علمنا من أوراق البردي أن القائد أبا جعفر أشناس تولى الإمارة على مصر في سنة ٢١٩ هـ من قبل المعتصم ثم أذن له بأن يولى الحكام بنفسه وهذا يدل على مكانة أشناس ، فقد كان يذكر اسمه في خطبة الجمعة مع الخليفة . ومنذ سنة ٢٢٧ هـ كان تحت حكمه دولة تمتد من بغداد إلى آخر حدود المغرب . كما ضربت السكة باسمه الذي نقش على الموازين والمكايل^(٥) ، وقد ظل أشناس صاحب إقطاع مصر ويمين ولائها من قبله إلى أن توفي سنة ٢٣٠ هـ .

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ٢٧٩

(٢) جروهان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية العربية ص ١١

(٣) كان درج البردي يتألف من عشرين ورقة ملصق بعضها ببعض وتسمى الورقة الأولى من هذه الأوراق باليونانية Protocol $\pi\rho\omega\tau\omicron\chi\omicron\lambda\lambda\omicron\nu$ وكانت تشمل على الكتابة الرسمية التي تسمى الآن الطراز (جروهان : أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية ج ١ ص ٤)

(٤) جروهان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية ص ١١

(٥) جروهان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية العربية ص ١٢

ثم أعطى الخليفة الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) مصر لإيتاخ التركي إقطاعاً له^(١) ولم تقتصر سلطة إيتاخ على مصر ، بل نرى الخليفة المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) يفوض إليه في سنة ٢٣٤ هـ أمر الكوفة والحجاز وتهامة ومكة والمدينة مضافاً إلى مصر^(٢) . ولكن لم يلبث المتوكل أن أمر بالقبض على إيتاخ في المحرم سنة ٢٣٥ هـ وأقطع مصر ابنه وولى عهده المنتصر^(٣) الذي ظل يولى ولاية مصر إلى أن توفى المتوكل ، وولى المنتصر الخلافة (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ) . وفي سنة ٢٥٤ ولى ابن طولون بالنيابة عن بابك التركى صاحب إقطاع مصر^(٤) على أن سياسة إقطاع الأتراك ولاية مصر أدت إلى نتيجة لم تكن في الحسبان . إذ كان هؤلاء القواد الترك يؤثرون البقاء في عاصمة الخلافة خشية أن تدبر ضدهم الدسائس ، كما كان الخليفة نفسه يرحب ببقائهم في العاصمة خوفاً من أن يستقلوا بالبلاد التي كانوا يحكمونها فكان هؤلاء الأتراك لا يحكمون بأنفسهم بل يستخلفون من يقوم بالأمر نيابة عنهم على أن يحمل إليهم هؤلاء النواب الأموال ويدعون لهم على المنابر كما يدعى للخليفة^(٥) . وتدل الوثائق البردية على أنه كان يدعى للخليفة وللوالى معاً في خطبة الجمعة^(٦) . وإذا كان الخلفاء يراقبون أصحاب الإقطاع لئلا يستقلوا بالبلاد ، فإنه لم يكن في استطاعتهم أو لم يدر بخلداهم أن يراقبوا نوابهم ، ولم يكن من المسير على نائب والٍ له شخصية بارزة وله آمال واسعة أن يستقل بأمور البلاد بعد أن تطرق الضعف إلى مركز الخلافة نفسها . وهذا ما حدث في عهد أحمد بن طولون الذي استقل بمصر عن الخلافة وأسس بها دولة مستقلة عرفت باسم الدولة الطولونية كانت أول دولة مستقلة في تاريخ مصر الإسلامية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ — ٩٠٥ م) .

-
- (١) أبو المحاسن : النجوم ج ٢ ص ٢٥٥ (٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٢٧٥
 (٣) أبو المحاسن ج ٢ ص ٢٧٨ (٤) المقرئى : خطط ج ١ ص ٣١٣
 (٥) الدكتور زكى محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ٤
 (٦) جروهمان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية العربية ص ١٢

٢ — النظام المالى

الجزية والزرقة

قبل أن نبدأ بتفصيل الكلام على النظام المالى للعرب فى مصر يجدر بنا أن نشير أولا إلى معنى الجزية والخراج . فالمعروف أن الجزية هى الضرائب المفروضة على الرؤوس أما الخراج فهو ضريبة الأرض ، ولكننا كثيرا ما نجد فى المراجع خلطا بين هاتين الضريبتين فنرى الجزية تعنى ضريبة الرؤوس وضريبة الأراضى معا . ويلاحظ Van Berchem^(١) أن كلمة خراج يقصد بها الضريبة العقارية ، وأيضا جرية الرؤوس ؛ وأحيانا تطلق على ضرائب أخرى تختلف فى طبيعتها عن هاتين الضريبتين .

بعد فتح العرب لمصر ، وأعطى هنا بعد معاهدة بابليون الأولى ، فرض العرب على أهل مصر الجزية ، وهاك نص ما ذكره المؤرخون . « فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها^(٢) من القبط دينارين عن كل نفس شريفهم ووضعهم ومن بلغ الحلم منهم ، ليس على الشيخ القانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شئ ... وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران رفع ذلك عرفاؤهم^(٣) بالآيمان المؤكدة ، فكان جميع

(١) la Propriété territoriale et l'impôt p. 21

(٢) أعلاها وأسفلها أى الوجه القبلى والوجه البحرى

(٣) العريف : العالم بالشئ ومن يعرف أصحابه والجمع عرفاء . وينذكر De Sacy

أن العريف معناها كاتب وهى المقابلة للكلمة اليونانية جرافس أى كاتب

Sur la Nature et les Révolutions du droit de propriété p. 179

من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس وكانت فريضتهم يومئذ إثني عشر ألف ألف دينار في كل سنة^(١) .

هذا فيما يتعلق بالجزية التي فرضت على أهل الذمة في مصر كما ذكرها بعض المؤرخين . ويذكر البلاذري^(٢) في رواية له عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه رضع على كل عالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً . ولا نفهم من هذا النص إذا كان الفقراء قد أعفوا من الجزية أم قدرت عليهم جزية أقل من غيرهم . أى أنه إذا استثنينا النص الذي ذكره البلاذري بأن الفقراء لم يدفعوا الدينارين نفهم مما ذكره المؤرخون أن المصريين تساودوا في دفع الجزية . ولكن لو كان العرب عاملوا أهل الذمة في مصر على هذا الأساس لثار عليهم المصريون من أول الفتح ، وكان العرب قد عادوا بذلك إلى تمسف الحكم الروماني والبيزنطي الذي كان ينفذ ذوى النفوذ والثراء من الأعباء المالية أو من أغلبها بينما يقع عبؤها على الطبقات الفقيرة من السكان . كما أن هذا لا يتفق والإسلام الذي يدعو إلى الإنصاف والعدل ، كما لا يتفق وسياسة العرب الحكيمة ، التي كانت ترمى إلى التحجب إلى أهل البلاد وإلى توطيد سلطانهم فيها ليس بقوة السيف وإنما بحسن السياسة .

وقد أثبتت أوراق البردى فساد الرأي الذي يقول بمساواة الذميين في دفع الجزية وأثبتت أن الجزية كانت تتناسب مع ثروة الشخص . ففي كتاب من قرة بن شريك إلى صاحب كورة أشقوه نجده يأمره بأن يرسل

(١) ابن عبد الحكم (طبعة المهد الفرنسي) ص ٦٣ — ٦٤ وخط المقيزي

ج ١ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١

(٢) فتوح البلدان ص ٢١٤

كشفاً بالأما كن المختلفة لمسرفة عدد الرجال في كل مكان ، والجزية الواجب عليهم أدائها وما يملكه كل رجل من الأراضي وما يقوم به من الأعمال . ويطلب من صاحب الكورة ألا يوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء منه ويذكره بأنه مصمم على مكافأة من يسير سيراً حسناً ومماقبة من يتنكب عن طريق المدل^(١) ونحن نرى من هذا الكتاب أنه لو كان كل فرد يدفع جزية مساوية لما يدفعه الآخر لما طلب والى مصر كشفاً بما يملكه كل شخص وما يقوم به من عمل وبالجزية الواجبة عليهم ، ولما طلب من صاحب الكورة أن يكون عادلاً في عمله ، ولما هددته إذا هو لم يتبع طريق الحق أو أوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء من جاب أهل كورته ، ولا كتنفى والى بمسرفة عدد رجال كورته وبذلك يعرف الجزية الواجبة عليهم . وفي كتاب آخر بحث به قرّة بن شريك نراه يطلب من صاحب الكورة أن يعدل في تقدير الضرائب الواجبة على كل فرد وأن يسهل عليهم الاتصال به كي يسمع ما يقولون^(٢) .

وقد حفظت لنا أوراق البردى أيضاً كشوفاً من القرن الثالث الهجرى دوت فيها أسماء أشخاص مختلفين ، وذكرت فيها مقدار الجزية الواجبة على كل ، وقد اختلفت هذه الجزية باختلاف كل شخص وقلما نجد شخصين يدفعان جزية متساوية : فشخص يدفع ديناراً ، وآخر ديناراً ونصفاً ، وثالث ثلثي دينار ، ورابع ديناراً وثلثاً وهكذا^(٣) . وهذا

Bell. Translations of the Greek 'Apurodito, der Islam, II, (١)
p. 272

Bell op. cit. pp. 281-282 (٢)

Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library. vol. III (٣)
pp. 197-178, 201-203, 217, 219, 220-221.

بلا شك راجع إلى تقدير الجزية على أساس ثروة كل شخص . ويجمع الفقهاء أيضا على أن الجزية كانت تتناسب إلى حد ما مع ثروة الشخص فيؤخذ من الموسر ثمانية وأربعون درهما ومن الوسط أربعة وعشرون ومن دون الوسط اثنا عشر درهما^(١) وعن هشام بن أبي رقية اللخمي أن صاحب إرخنا^(٢) قدم على عمرو بن الماص فقال له « أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصبر^(٣) لها فقال عمرو وهو يشير إلى ركن السكتيسة . لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم^(٤) » وهذا يبين لنا أن العرب لم يحددوا الجزية على أهل الذمة في مصر ، وإنما اكتفوا بفرضها عليهم كما يظهر ذلك من نص معاهدة بابليون ، وترك تقديرها للوالى أو الخليفة . وذكّر ابن عبد الحكم^(٥) في رواية له عن عبد الملك بن مسلمة عن ابن وهبة عن يونس عن ابن شهاب « أن عمر بن الخطاب كان يأخذ ممن صالحه من

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٦٩ ويحيى بن آدم القرشي : كتاب الخراج

ص ٥١ والماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٣٨

(٢) إرخنا بالسكسر ثم السكون والثون مقصور وبعض الناس يقول إرخنو ووجده في غير نسخة من كتاب فتوح مصر بالجيم واحفيت في السؤال عنه بمصر فلم أجده من يعرفه إلا بالخاء وقال القضاى وهو يعدد كور الحوف الغربى وكورتا إرخنا ورشيد والبحيرة وجميع ذلك قرب الاسكندرية وأخبار الفتوح تدل على أنها مدينة قديمة (معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ١٦٦) .

(٣) في المخطوط للمقرئى ج ١ ص ٧٧ « فنصير لها »

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (مطبعة تورى) ص ١٥٣ — ١٥٤

ومخطوط المقرئى ج ١ ص ٧٧

(٥) المرجع نفسه ص ١٥٣

الماهدين ما سعى على نفسه لا يضع من ذلك شيئا ولا يزيد عليه ، ومن نزل منهم على الجزية ولم يسم شيئا نظر عمر في أمره فإذا احتاجوا خفف عنهم وإن استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم » .

وكانت الجزية في مصر تدفع نقدا بالدنانير وكسور الدنانير ، وكان المصريون يعرفون تلك الضريبة حسب ما ورد في قطع « الاوستراكا » وفي أوراق البردي المكتوبة باليونانية باسم *δημοσια* دُمُزْيَا أما في أوراق البردي العربية فتعرف باسم الجزية^(١) .

وكما كانت الجزية تجبي من أهل النمة كان يجبي من المسلمين الزكاة أو الصدقة ، ويقول المقرئ^(٢) أن أول من جبي الزكاة بمصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . ولكن أوراق البردي أثبتت غير ذلك ، إذ تبين منها أن الولاة في مصر كانوا يقومون بجباية فريضة الزكاة ويتسلم الأهالي إيصالا أو براءة بعد تأدية ما يجب عليهم من الزكاة بمقتضى الشريعة الإسلامية . ولدينا إيصال يرجع إلى القرن الثاني الهجري (سنة ١٤٨ هـ) عن زكاة بعض الأشخاص^(٣)

الملكية العقارية في مصر وضريبة الأرض أو الخراج

قبل أن نعرض للشكلام على ضريبة الأرض أو الخراج يجدر بنا أن نعرف موقف الفاتحين أزاء أراضي المصريين . وهنا يعترض الباحث سؤال

(١) Crum Coptic Ostraca, p. 3, 37, van Berchem : Une page

Nouvelle de l'hist. d'Egypte p. 161., Becker: Neue Arabische Papyri pp. 253-254, Grohmann: Arabic Papyri. vol. III. pp. 16-17

(٢) الخطط ج ١ ص ١٠٨

Grohmann : Arabic Papyri vol. III. p. 177

(٣)

طالما واجه المؤرخين الأقدمين والمحدثين ، وهو « هل فتحت مصر صلحا أم عنوة ؟ وذلك لأن الأراضى التى تفتح صلحا تكون فيثا للمسلمين ^(١) فإذا كانت مصر فتحت صلحا ، بدون قتال وبمقتضى عهد ، يتفق المصريون مع الفاتحين على مقدار الجزية والحراج التى تدفع لهم دون أن يعس الفاتحون أراضى المصريين أو يأخذوها منهم عنوة وقهرا .

أما الأراضى التى تفتح عنوة فتكون فى حكم الغنيمة وتقسم بين الفاتحين طبقاً للآية السكرية « واعلموا أننا غنمتم من شئء فإن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شئ قدير ^(٢) » فالخمس الذى لله عز وجل مردود من الله تعالى على الذين سعى الله (للرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) لا يوضع فى غيرهم ، وذلك إلى الأمام يضمه فيمن حضره منهم بعد أن يجتهد رأيه ويتحرى العدل ، وما بقى بعد الخمس فهو للذين غلبوا عليه من المسلمين يقسم بينهم بالسوية ^(٣) .

وأما إذا كانت مصر فتحت عنوة فإنها تصبح غنيمة للفاتحين كما يينا سابقا وتخرج أراضى المصريين من أيديهم ولا يكون لهم أى حق فيها . ولذا وجب أن نعرف هل فتحت مصر صلحا أم عنوة ، لنرى أى الأحكام طبقت عليها فيما يختص بالأراضى . وقد اختلف الأمر على المؤرخين

(١) التى هو ما صولح عليه المسلمون من الجزية والحراج (ابن آدم القرشى : كتاب الحراج ص ٣)

(٢) سورة الأنفال آية ٤١

(٣) ابن آدم القرشى : ص ٣ — ٤

في ذلك مثل ابن عبد الحكم^(١) ثم المقرئ^(٢) وأبو المحاسن^(٣) والسيوطي^(٤) فترى المؤرخ الواحد منهم يكتب أن بعض الرواة ذكر أن مصر فتحت عنوة ، والبعض ذكر أنها فتحت صلحا ، وفريق ثالث قال إنها كلها فتحت صلحا إلا الأسكندرية أو الأسكندرية وبعض قرى الوجه البحرى فإنها فتحت عنوة .

فالرواة الذين أخذ عنهم هؤلاء المؤرخون والذين قالوا أن مصر فتحت صلحا إلا الأسكندرية يبررون نظريتهم بأن حصن بابليون — الذى حدد فتحه مصير مصر السياسى — فتح صلحا لا عنوة عمقتضى المفاوضات التى جرت بين المقوقس وعمرو بن العاص ويثبتون نظريتهم بأنه كان للمصريين عهد بينهم وبين العرب . وأن الأسكندرية فتحت صلحا فى الفتح الأول ولكن لما انتفض الروم سنة ٢٥ هـ ، فتحها العرب عنوة وقهراً ، والفريق الذى يقول إن مصر فتحت عنوة يثبت نظريته بأنه لم يكن للمصريين عهد ولا عقد . وهناك فريق وسط يقول إن مصر فتح بمضها صلحا والبعض الآخر عنوة كالأسكندرية وبعض القرى التى ظاهرت الروم على العرب .

على أنه مهما اختلفت آراء هؤلاء المؤرخين فإنهم لم يختلفوا فى أن مصر أجريت مجرى البلاد المفتوحة صلحا . وقد ذكرت آنفاً أن صلح بابليون

(١) فتوح مصر وأخبارها . طبعة المعهد ص ٧٤ — ٨٢

(٢) الخطط ج ١ ص ٢٩٤ — ٢٩٥

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٩ — ٢٠

(٤) حسن المحاصرة ج ١ ص ٥٥ — ٥٦

عقد بعد فتح المسلمين للحصن عنوة وذكرت أن فتح الحصن هو الذى حدد مصير مصر السياسى . أى أن مصر فتحت عنوة ، وفى الوقت نفسه قبل العرب أن يمنحوا المصريين عهداً ، فالعرب فى الواقع كانوا يعتبرون أنفسهم محاربين للروم لا المصريين . كما أنه عند ما فتح العرب الإسكندرية سنة ٢٥ هـ عنوة كان فتحها انتصاراً على الروم وعلى قائد الأمبراطور قنسطن الثانى ولم يؤثر ذلك فى عهد الصلح الذى أعطاه العرب للمصريين . ويؤيد ذلك رأى ما ذكره البلاذرى^(١) فى رواية له عن عبد الله بن عمرو بن العاص . إذ قال « اشتبه على الناس أمر مصر فقال قوم فتحت عنوة وقال آخرون فتحت صلحاً والثلج^(٢) فى أمرها أن أبى (يعنى عمرو بن العاص) قدمها فقاتله أهل اليوننة^(٣) ففتحها قهراً وأدخلها المسلمين ، وكان الزبير أول من علا حصنها ، فقال صاحبها لأبى إنه قد بلغنا فملككم بالشام ووضعكم الجزية على النصارى واليهود وإقراركم الأرض فى أيدي أهلها بمعرونها ويؤدون حراجها فإن فعلتم بنا مثل ذلك كان أرد عليكم من قتلنا وسبينا وإجلاننا قال . فاستشار أبى المسلمين فأشاروا عليه بأن يفعل ذلك إلا نفرأ منهم سألوا أن يقسم الأرض بينهم ، فوضع على كل دinarين جزية إلا أن يكون فقيراً وألزم كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أراذب حنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل ، وزقاً للمسلمين بجمع فى دار الرزق وتقسم فيهم ، وأحصى المسلمون

(١) فتوح البلدان ص ٣١٤ — ٢١٥

(٢) الثلج ما تطلش إليه النفس وترتاح له وتسر به

(٣) اليوننة — يعنى بها بابليون

فأكرم جميع أهل مصر لكل رجل مهم جبة صوف وفرنسا^(١) أو عمامة وسراويل^(٢) وخفين في كل عام أو عدل الجبة الصوف ثوباً قبطياً^(٣) .
وكتب عليهم بذلك كتاباً وشرط لهم إذا وفوا بذلك أن لا تباع نساؤهم وأبنائهم ، ولا يسبوا ، وأن تقرأ أموالهم وكنوزهم في أيديهم ، فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر فأجازه وصارت الأرض أرض خراج ، إلا أنه لما وقع هذا الشرط والكتاب ظن بعض الناس أنها فتحت صلحاً . ولما فرغ ملك اليوننة من أمر نفسه ومن معه في مدينته صالح عن جميع مثل صلح اليوننة فرضوا به وقالوا : هؤلاء المتنعمون^(٤) قد رضوا وقنعوا .
فنحن به أقنع لأننا فرش^(٥) لا منعة لنا . ووضع الخراج على أرض مصر فحمل على كل جريب^(٦) ديناراً وثلاثة أرباب طعاماً وعلى رأس كل حالم

(١) البرنس : قلنسوة طويلة كانت تلبس في صدر الإسلام . كل ثوب يكون غطاء الرأس جزءاً منه متصلاً به

(٢) السروال لباس يستر النصف الأسفل من الجسم . والكلمة فارسية وهي مؤنثة وقد تذكر

(٣) كانت الأثواب القبطية مشهورة بدقة صنعها وغلاء ثمنها .

(٤) المتنعمون : الأقوياء المتحصنون الذين لا يقدر عليهم

(٥) فرش : المراد بها أهل فرش والفرش هو الفضاء الواسع من الأرض

(٦) الجريب وحدة تقاس بها الأرض . قال الماوردي في الأحكام السلطانية ص ١٤٦
فأما الجريب فهو عبارة عن عشر قصباب في عشر قصباب والقدان الحال كما تعلم يساوي ٣٣٣ قصبه مربعة .

ويقول الأب أنستاس الكرملي في كتابه النقود العريضة وعلم النيات ص ٣١ .
أن أهل البصرة يعرفون الجريب إلى عهدنا هذا وهو عندهم نحو من مائة نخلة . ومن غير النخيل أرض سعتها هكتار . (الهكتار ١٠٠٠٠ متر مربع)

دينارين وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه .
ومن ذلك نرى أن الأراضى تركت لأهل البلاد ولم تقسم بين الفاتحين .
وكذلك جاء فى نص الصلح الذى أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر :
« هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم
وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم ويرم وبجرم لا يدخل عليهم شيء
من ذلك ولا ينتقص » (١) .

وورد أيضاً نص آخر أنه من الشروط التى اصطلاح عليها أهل مصر
مع الفاتحين أن تكون « لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شيء
منها » (٢) .

وهكذا نرى أن العرب أبقوا أراضى مصر على حالها ولم يتعرضوا لها ،
بالرغم من فتحهم لمصر عنوة ، وذلك بناء على العهد بينهم وبين المصريين
وهذا مما يجيزه الفقهاء للفاتحين ويفسرون ذلك بأن « الغنيمة جميع ما أصابوا
من شيء قل أو كثر حتى الأبرة إلا الأرضين فإن الأرضين إلى الأمام إن رأى
أن يخمسها ويقسم أربعة أخماسها للذين ظهوروا عليها فعل ذلك ، وإن رأى أن
يدعها فيثا للمسلمين على حالها أبداً فعل بعد أن يشاور فى ذلك ويجتهد رأيه
لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقف بعض ما ظهر عليه من الأرضين

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٩ وابن خلدون : كتاب
التاريخ ج ٢ ص ١١٥ والقلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٢٤ وإبوالحسن :
النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة المعهد — ص ٦٤ وخطوط المقرئ
ج ١ ص ٢٩٢ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١

فلم يقسمها وقد قسم بعض ما ظهر عليه ^(١) »

ولاريد في أن عمر بن الخطاب أظهر حكمة بالغة باتباعه تلك السياسة وهي عدم تقسيم الأراضي بين الفاتحين ولا سيما أنه لم يفعل ذلك في مصر وحدها بل في العراق والشام . فانه لم يرد أن يشغل جنده بالزراعة والأراضي بينما الجهاد يناديهم في كل مكان ، كما أن العرب في مجلتهم لم يكونوا أمة زراعية . ومن جهة أخرى رأى عمر بن الخطاب ألا يثير عليه سخط أهالي البلاد المفتوحة حتى يماونوه على تثبيت سلطان المسلمين ، كما أن أهل مصر وغيرها كانوا أعلم بزراعتهم وريهم ولا بد أن عمرا كان يسترضى جنده ويعوضهم عن امتلاك الأرض بمنحهم الأموال والبنائن الأخرى غير الأرض . ولعل أبلغ مثل يرينا سياسة عمر إزاء الأراضي المفتوحة من حيث عدم تقسيمها بين الفاتحين ذلك الكتاب الذي بعث به إلى سعد بن أبي وقاص حين فتح العراق يقول فيه « أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانعهم وما أفاء الله عليهم فإذا آنأك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به إلى المسكر من كراع ^(٢) ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء ^(٣) » .

الآن وقد عرفنا أن العرب أبقوا أراضي المصريين على حالها يجدر بنا أن نرى ما كانت عليه الملكية العقارية في مصر زمن الفتح وكيف أن الغزوات

(١) ابن آدم القرشي : كتاب الحراج ص ٤ — ٥

(٢) الكراع : اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير

(٣) أبو يوسف : كتاب الحراج ص ١٣ — ١٤ وابن آدم القرشي : كتاب

الحراج ص ١٣ والبلاذري : فتوح البلدان ص ٢٦٥ — ٢٦٦

الأجنبية التي توالى على مصر كانت سبباً في إضمار الملكية فيها ، إذ كان الغزاة ينتزعون الأراضي من الأهالي أو يمنحونهاهم حق الانتفاع فقط .

وفي عهد الرومان وخاصة منذ القرن الثاني للميلاد ترى زيادة ملحوظة في الأراضي التي يمتلكها المصريون وكان أصحاب هذه الأراضي يؤدون ضريبة عقارية للدولة^(١) . ويقول Van Berchem^(٢) أن عمر بن الخطاب حول الأراضي التي فتحت خارج جزيرة العرب إلى أراضى وقف متبعا في ذلك ما اتبعه الرسول عليه الصلاة والسلام بشأن بعض أراضى جزيرة العرب . وكأن عمر أراد بتحويله الأراضي المفتوحة إلى أراض موقوفة أن يضمن للجماعة الإسلامية في عهده وفي المستقبل أملاكاً عامة ، لا يتصرف فيها . وإنما يديرها الخلفاء لصالح الجماعة الإسلامية .

على أنه لا يمكننا قبول نظرية الوقف هذه فيما يتعلق بمصر . فإذا كانت الأراضي قد صارت وفقاً في هذه البلاد كان ذلك معناه أن العرب منحوا المصريين حق الانتفاع بها فقط . ولكن صلح بابليون قد أقر أراضى المصريين على حالها وأمنهم عليها ، ونحن لانستطيع الجزم بأن المصريين كانوا يملكون حق الانتفاع فقط قبل الفتح ، خصوصاً وأنه وجدت ملكيات تامة زمن البطالسة وزادت تلك الملكيات في عهد الرومان . كذلك تدل الأوراق البردية التي ترجع إلى عهد الولاة على أنه كان يحق لأهالي مصر التصرف في الأراضي التي يملكونها بالبيع والشراء والتوريث والهبة^(٣) ، وهذا طبعاً مما ينقض نظرية الوقف .

Jouguet: l'Egypte Gréco-Romaine p. 348

(١)

La Propriété territoriale. p. 23

(٢)

(٣) انظر جروهمان : الأوراق البردية العربية . الجزء الأول من ١٢٩ — ١٣٠

و ١٣٢ — ١٣٣ و ١٤٥ و ١٤٦ — ١٤٨

فرض العرب على أراضي المصريين ضريبة عقارية تعرف بالخراج ، ونعرف مما ورد في أوراق البردي ومما ذكره المؤرخون أن الخراج في مصر كان يجبي عينا ونقداً ، ففي كتاب من قرة بن شريك سنة ٩١ هـ إلى أهل شبرا بسير من كورة أشقوه نجده يطلب منهم دفع متأخرات الجزية عليهم بالدنانير ودفع ضريبة الطعام قمحاً^(١) ، وضريبة الطعام هنا تعني الخراج أو جزءاً منه . كذلك حفظ لنا ورق البردي إيصالاً عن خراج سنة ٢٣٣ هـ دفعه بعض الأشخاص ويتبين منه أن الخراج دفع نقداً^(٢) . وفي كتاب آخر من قرة بن شريك إلى صاحب أشقوه نجده يطلب منه أن يرسل إليه القمح المفروض على أهل كورته ، ويخبره أنه إذا وجد الأهالي صعوبة في دفع الضريبة غلة فلا بأس من دفعها نقداً ويحدد له ما يعادل عدداً معيناً من الأرادب نقداً ، ولكنه يطلب منه أن يعمل على إرسال القمح لا النقود^(٣) ويذكر البلاذري^(٤) في رواية له عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه جعل على كل جريب ديناراً وثلاثة أراذب طعاماً . وفي رواية أخرى للبلاذري^(٥) عن يزيد بن أبي حبيب أن أهل الجزية بمصر صولحوا في خلافة عمر بعد الصلح الأول مكان الحنطة والزيت والمسل والنحل على دينارين دينارين ، فألزم كل رجل أربعة دنانير فرضوا بذلك وأحبوه . ويذكر اليعقوبي^(٦)

Becker : Neue Arabische Papyri. p. 267, Grohmann : Arabie (١)

Papyri. vol. III. p. 48

Grohmann : ap. cit. vol. III. pp. 141-142 (٢)

Bell : Translations... (Der Islam, Band III) p. 271 (٣)

(٤) فتوح البلدان ص ٢١٥

(٥) المصدر السابق ص ٢١٦

(٦) تاريخ ج ٢ ص ١٧٦ — ١٧٧

أن عمرو بن العاص جبي من مصر أربعة عشر ألف ألف دينار من خراج رؤوسهم^(١) لكل رأس دينار وخراج غلاتهم من كل مائة أردب أردبين . يتبين مما سبق أن الجزية كانت تدفع نقداً بينما كان الخراج يدفع عيناً ونقداً . وكان يطلق على الضريبة التي تدفع عيناً في أوراق البردى العربية اسم « ضريبة الطعام » أما في أوراق البردى اليونانية فكانت تعرف باسم امبوليه εμβολη^(٢) . ويجدر أن نشير هنا إلى أن القمح كان أهم ما يجبي من ضريبة الطعام ، ولكن هذه الضريبة كانت تشمل أحياناً غير الفلال ، الزيت والمسل وأنواع الطعام الأخرى^(٣) . وكان يصرف من المال الذي يجبي عطاء الجند المرابط في مصر^(٤) ، كما أن أرزاق الجند في مصر كانت تعتمد على ضريبة الطعام^(٥) .

وكان الخراج في مصر يجبي على أساس مساحة الأراضي التي يمتلكها الشخص كما كان الحال في عهد الرومان والبيزنطيين . على أنه كان يراعى في ذلك حالة فيضان النيل في كل عام ، لارتباطه بالزراعة ، وقد وضع ذلك تماماً من نص الصلح الذي أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر كما ذكرنا سابقاً . وكذلك كان يراعى في تقدير الخراج كمية المحصول التي تنتجها

(١) يعني بخراج الرؤوس هنا الجزية

(٢) Bell : op. cit. p. 271, van Berchem : Une page Nouvelle de l'histoire d'Egypte p. 161, Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne T. IV, p. 169

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١٥ و Art. Kibt, Encyclopaedia of Islam vol. II p. 998, Bell (der Islam. Band XVII p. 8)

(٤) Becker, Neue Arabische, pp; 251-252, Grohmann: Arabic

Papyri vol III pp; 12-18, van Berchem : Une page Nouvelle; p; 161

(٥) Bell : op. cit. p. 271, pp. 383-384, van Berchem op. cit p. 161

الأرض وحالة الأرض إذا كانت عامرة أو غامرة . وقد كتب الماوردي^(١) في هذا المعنى فقال إن الأرض تختلف من ثلاثة أوجه يؤثر كل واحد منها في زيادة الخراج ونقصانه « أحدها ما يختص بالأرض من جودة يزكو بها زرعها أو رداءة يقل بها ريعها ، والثاني ما يختص بالزرع من اختلاف أنواعه من الحبوب والثمار؛ فثمنها ما يكثر ثمنه ومنها ما يقل ثمنه، فيكون الخراج بحسبه ، والثالث ما يختص بالسقي والشرب لأن ما ألزم المؤنة في سقيه بالنواضح^(٢) والدوالي^(٣) لا يَحْتَمِلُ من الخراج ما يَحْتَمِلُهُ سقي السيج^(٤) والأمطار . ومن الناس من اعتبر شرطاً رابعاً وهو قربها من البلدات والأسواق وبعدها لزيادة أثمانها ونقصانها ، وهذا إنما يعتبر فيما يكون خراجه ورقاً^(٥) ولا يعتبر فيما يكون خراجه حياً^(٦) ، وتلك الشروط تعتبر في الحب والورق .

لاشك إذن في أن الضرائب التي كانت ترسل إلى الخلافة كانت عيناً ونقداً وأنه عقب الفتح مباشرة بدأت مصر ترسل القمح إلى المدينة كما كانت ترسله لروما ومن بعدها لبيزنطة . وهذا مما حدا بالأب لامانس^(٧) Lammens على القول بأنه لم تكن لمصر سوى أهمية اقتصادية إذ كانت تنتج الحبوب وتدفع الضرائب .

والمعروف أن عمر بن الخطاب كتب في سنة ٢١ إلى عمرو بن العاص

(١) الأحكام السلطانية ص ١٤٢ — ١٤٣

(٢) نضح البعير الماء : حمله من بئر أو نهر لسقي الزرع

(٣) الدالية : الناعورة يديرها الماء والأرض تسقى بدلو أو بناعورة ، والجمع دوال

(٤) السيج : الماء الجاري الظاهر

(٥) الورق هنا بمعنى النقود

(٦) الحب بمعنى الغلال

Un Gouverneur Omayyade d'Egypte. p. 102

(٧)

يعلمه ما فيه أهل المدينة من الشدة ، ويأمره أن يبعث إليها ما يجمع من الطعام في الحراج ، فكان ذلك يحمل إليها ومعه الزيت . وانقطع في فتنة عثمان ثم حل في أيام معاوية ويزيد ، ثم انقطع إلى زمن عبد الملك بن مروان ، ثم لم يزل يحمل إلى زمن المنصور^(١) . ومن ذلك نرى أن مصر بدأت تمبر الحجاز عقب الفتح مباشرة وكان ينقطع ذلك المورد أيام الفتن والثورات . وقد ذكر البلاذري أن الطعام ظل يرسل إلى خلافة أبي جعفر والمقصود هنا أنه ظل يرسل إلى زمن أبي جعفر عن طريق البحر ، وذلك لأن أبا جعفر أمر بطم خليج أمير المؤمنين الذي كان الواسطة بين مصر وبلاد العرب بحرا ، وقد كانت الغلال ترسل أولا إلى المدينة بوصفها مقر الخلافة ، ولكن الواقع أن إرسالها لم يبطل إلى يومنا هذا — إذا استثنينا فترات معينة — بالرغم من أنه حل محل المدينة عواصم أخرى للخلافة وبالرغم من التغيرات السياسية التي حدثت في مصر وفي الخلافة نفسها .

ولدينا بعض النصوص التي تشير إلى مقدار ما كان يرسل نقداً إلى بيت المال في مقر الخلافة . فيقال إنه في زمن معاوية أرسل واليه على مصر مسلمة ابن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) ستمائة ألف دينار^(٢) . إلى بيت المال ، بعد أن دفع عطاء الجند وأنفق على البلاد ما يحتاجه وبعد إرسال القمح إلى الحجاز ، ويذكر ساويرس^(٣) أن ما كان يحمل إلى بيت المال مائتا ألف دينار بعد النفقة على الأجناد وما يحتاج إليه البلاد .

ونلاحظ أنه وجدت في مصر منذ الفتح العربي أراض امتلكتها

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١٦

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة تورى — ص ١٠٢

(٣) سير الآباء البطارقة (Patr. Orient. T.V.) ص ١٨٩

حكومة العرب ، إذ كان هنالك قبل الفتح أراض يملكها الأباطرة امتلاكاً خاصاً غير تلك الأراضى التى كان يملكها سائر أفراد الشعب سواء أكانوا من الروم أم من المصريين . فهذه الأراضى التى كانت ملكاً خاصاً للأباطرة أو التى هرب أهلها أو هلكوا زمن الفتح ، لا بد أنها آلت إلى الخليفة ، وارث الأباطرة فى مصر ، فكان له حق التصرف فيها وكان تصرفه هذا لا يمس حقوق الأهالى ولا ينقض الصلح الذى أعطاه العرب للمصريين . وكانت حكومة العرب تتبع فى الانتفاع بالضيايع التى استولت عليها طريقة الإقطاع . وقد زادت هذه الضيايع التابعة للحكومة زيادة كبيرة بما أضيف إليها من الموات أو الأرض المهجورة agri deserti أثناء الحكم العربى نفسه .

وتذكر النصوص أن عمر بن الخطاب أقطع ابن سندر أحد الصحابة منية الأصبغ^(١) بمصر فحاز لنفسه منها ألف فدان ولم تزل له إلى أن مات . واشتراها بعده ذلك الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان من ورثته . وكانت أقدم وأفضل قطيعة بمصر^(٢)

ونلاحظ هنا أن نظام الإقطاع بدأ فى عصر الولاة ولكن بدءاً وتطوره يختلفان عن نظام الإقطاع فى الغرب لأن من العوامل الأساسية فى نشأة الإقطاع فى الغرب وفى أسباب منحه رغبة الأمير أو الملك فى أن يحصل على عون حربى ممن هو من الأمراء والأشراف . بينما لم يدخل العنصر الحربى فى نظام الإقطاع الإسلامى فى مصر إلا فى نهاية العصور الوسطى على يد الأيوبيين ثم المماليك ، ودخل بأسلوب آخر ، يتلخص فى انتفاع الجند بدخل

(١) شمالى القاهرة وموقعها الحالى قريب من ضاحية الدمرداش

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١٣٧ — ١٣٨ والمقرئى :

الخطوط ج ١ ص ٩٦ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٦

الإقطاعات المختلفة بغير منحهم الأراضي للإقامة فيها وزراعتها . كما لم يوجد في الإقطاع بمصر حق الوراثة الذي كان يتمتع به أصحاب الإقطاع في أوروبا .

ونعرف أن الأراضي التي امتلكها المسلمون كان يدفع عنها المشر زكاة لها كما يركى المسلم عن أنواع الأموال الأخرى . ويذكر الفقهاء أن الأرض الموات أرض عشر أيضاً أي أن من يحميها يدفع المشر ولا يؤدي عنها خراجاً^(١) . ومن الوجهة النظرية كان القبطي الذي يعتنق الإسلام تصبح أرضه عشرية ، ولا شك في أن ذلك حدث طويلاً ، ثم رأت الحكومة أن في هذا جل الخطر على مالية القطر فأصبح نوع الضريبة متصلاً بالأرض نفسها وأصبح القبطي إذا اعتنق الإسلام لا تمنى أرضه من الخراج . والواقع أن هذه العملية يمكن الدفاع عنها من وجهة النظر المالية والاقتصادية ، لأن دخل الحكومة ومالياتها يجب أن يكونا مستقلين إلى حد كبير عن الظروف الخاصة غير المنظورة كاعتناق الأشخاص الدين الإسلامي وما إلى ذلك مما يصعب على الحكومة تقدير أثره في مالياتها . بل إن هذه القاعدة لم تلبث أن طبقت على العرب أنفسهم بحيث أنهم إذا اشتروا أرضاً عليها خراج جزية ظلوا يدفعون هذا الخراج الواجب عليها ولم تصبح هذه الأرض عشرية^(٢)

ونلاحظ أن الخراج الذي يفرض على الأرض التي صولح أهلها على أن تكون لهم يسمى خراج جزية ، أما الخراج الذي يفرض على الأرض التي صولح أهلها عليها على أن تصير وقفاً يسمى خراج أجرة . ولا يسقط عنها بإسلامهم

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٧٠

Becker : Islamstudien t. II. p. 281

(٢)

أو بانتقالها إلى غيرهم من المسلمين بمكس خراج الجزية^(١) ولا نعرف أن مصر فرض عليها خراج أجرة لأن أرضها لم تكن وقفًا كما بينا ، وإنما كان خراجها خراج جزية . والواقع أن نظام الأرض في فجر الإسلام وما عليها من ضرائب عشرية أو خراجية كان نظامًا مطاطًا مرنا ولم يستقر إلا بعد ذلك بقرون طويلة . والمعروف أن الأرض في مصر في عصر الولاة أصبح يفرض عليها الخراج بمضى الوقت سواء أسلم مالكها أو كانت ملكا لأحد المسلمين . ونعرف أن القبط والمسلمين على السواء ثاروا في العهد العباسي من أجل زيادة الخراج زيادة أجحفت بهم .

ضرائب الصناعة والتجارة

كانت حكومة العرب منذ الفتح تفرض ضرائب على الصناع والأجراء . وتقدر هذه الضرائب بقدر احتياهم^(٢) .

وكان العرب في مصر — كالبزنطيين — يفرضون ضرائب على التجارة وتعرف هذه الضرائب بالمكوس^(٣) .

ويقال إن ربيعة بن شرحبيل بن حسنة رضى الله عنه ، وكان ممن شهد فتح مصر من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان واليًا لمصر بن

(١) الأحكام السلطانية من ١٣١ — ١٣٢ و ١٤٠

(٢) ابن عبد الحكم : طبعة تورى ١ من ١٥٢ — ١٥٣

(٣) يذكر جرومان : Grohmann : Arabic Papyri. vol. III. p. 9 أن كلمة مكس مشتقة من اللفظ السرياني ماكسو makso ، ويذكر المفريزي أن أصل المكس في اللغة الجباية يقال مكسه يمكسه مكسا ، والمكس دزائم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية ، والماكس هو العشار ويقال للعشار صاحب مكس . والمكس أيضا انتقاس الثمن في البياعة ومكس درهم معناه نقص درهم في بيع ونحوه . وعشر القوم معناه أخذ عشر أموالهم ، والعشار هو قابض العشر (الخطوط ج ٢ ص ١٢١)

الماضي على المكس في مصر^(١) . وأثر عن ذريق بن حيان الذي كان على مكس مصر زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه قال « إن الخليفة كتب إليه أن يراقب من مر عليه من المسلمين فيأخذ مما ظهر من أموالهم وما ظهر له من التجارات من كل أربعين ديناراً ديناراً وما نقص بحسابه حتى تبلغ عشرين ديناراً ، فإن نقصت عن ذلك تركها ولا يأخذ منها شيئاً ، وإذا مر عليه أهل الذمة أخذ منهم من كل عشرين ديناراً ديناراً وما نقص فبحسابه ذلك حتى تبلغ تجارتهم عشرة دنانير ، فإن نقصت عن ذلك لا يأخذ منها شيئاً . وألا يأخذ من التجار مرة أخرى قبل انقضاء العام وأن يكتب لهم كتاباً بما أخذ منهم^(٢) .

وبظهر أن هذه الضرائب التي يتحدثنا عنها المؤرخون كانت تؤخذ من التجار الذين يتاجرون في مصر نفسها أعني أنها كانت تؤخذ على التجارة الداخلية . وكان مقر إدارة هذه الضرائب في الجهة التي عرفت باسم المقس وهي قرية أم دين التي كانت تقع شمالى القسطنطينية ، وإنما سميت المقس لأن العاشر أو صاحب الكس كان مقره هناك فقبل الكس وقلب فقبل المقس^(٣) .

وتثبت أوراق البردى وجود هذه الضرائب التي تفرض على التجارة الداخلية^(٤) .

وكما اهتمت حكومة العرب في مصر بفرض ضرائب على التجارة

(١) خطط المقرئى ج ٢ ص ١٢٣

(٢) خطط المقرئى ج ٢ ص ١٢٢

(٣) المصدر نفسه ص ١٢١

(٤) Becker: Neue Arabische Papyri. p. 256 Grohmann: Arabie

Papyri. vol. III. p. 8, van Berchem: Une Page Nouvelle p. 164.

الداخلية في البلاد فإنها لم تنس أيضاً أن تفرض ضرائب على التجارة الخارجية التي تمر بثغورها أو التي ترد إليها أو تصدر منها . فيذكر المقرئ (١) أنه كان يجبي من التجار في الثغور المصرية ، وهي دمياط وتينسي ورشيد وعيذاب وأسوان والأسكندرية ، ضرائب مقررة . فالكس قبل الإسلام كان عبارة عن حق فرض الضرائب على الأسواق ، أو حق فرض الضرائب التي تجبي في الموانئ والبلاد التي على الحدود المصرية ، وقد حافظ المسلمون على هذا الحق وقربوه من نظام الزكاة أو المشور (٢) .

الضرائب الأخرى

كانت حكومة العرب في مصر تفرض على المصريين ضرائب أخرى غير تلك التي ذكرناها ، ويمكننا اعتبار واجب الضيافة على أهل البلاد للجند المسلمين الذين يمرون في البلاد من هذه الضرائب ، فقد اشترط على القبط بعد فتح العرب لمصر أن من نزل عليه ضيف واحد أو أكثر من المسلمين وجبت عليه الضيافة لهم ثلاثة أيام (٣) . ولعل السبب الذي حدا بالعرب إلى ذلك هو أنهم في أول عهدهم بمصر كانوا جنوداً وكانت إقامتهم قاصرة على المعصية التي بنوها لأنفسهم أو في الثغور لحمايتها ضد الأعداء . وواجب الضيافة هذا أخذه العرب من الرومان والبيزنطيين في مصر .

وقد ورد في نصوص أوراق البردي ذكر لضرائب غير عادية . ففري قرة بن شريك يطالب في رسائله إلى صاحب أشقوه بجمع تلك الضرائب

(١) المخطوط ج ١ ص ١٠٩

Van Berchem op. cit. pp. 164-165

(٢)

(٣) ابن عبد الحكم ، طبعة المعهد ص ٦٤ ومخطوط المقرئ : ج ١ ص ٢٩٢ .

والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١

المادية أو بجبايتها من الناس بالمدل^(١) وربما كانت حكومة العرب تفرض هذه الضرائب تبعاً لازدياد مصروفات الدولة عن إيراداتها . ونعرف أنه في ولاية موسى بن مصعب الخثعمي على مصر (١٦٧ - ١٦٨ هـ) فرضت ضرائب على أهل الأسواق والدواب^(٢)

لأولى ابن طولون مصر التي ضرائب كان قد ابتدعها ابن المدبر^(٣) ومحدثنا المقرئ^(٤) عن هذه الضرائب فيقول : إن أحمد بن محمد بن مدبر لما ولي خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين ابتدع في مصر بدعا صارت مستمرة من بعده فأحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس وقرر على السكلا الذي ترماه البهائم مالا سماه المرامي ، وقرر على ما يطعم الله من البحر مالا سماه المصايد إلى غير ذلك ، فأنقسم حينئذ مال مصر إلى خراجي وهلالى . والخراجي ما يجبي مساهمة ، أما الهلالى فهو ما يجبي مشاهرة . وكان الهلالى يعرف في زمن ابن المدبر وما بعده بالرافق والمعاون وهي التي ألفاها ابن طولون . ويلاحظ بيكر Becker حسب ما ورد في أوراق البردى أن ابن المدبر ولي خراج مصر منذ سنة ٢٤٧ هـ لا كما يذكر المقرئ بعد سنة ٢٥٠ هـ^(٥) وتبين من أوراق البردى أنه فرضت ضريبة صراعى المواشى وضريبة الصيد بين سنتي ٢٤٧ و ٢٥٣ هـ^(٦) .

(١) Bell: op. cit. pp. 272, 281-282

(٢) الكندى : الولاية والقضاء ص ١٢٥

(٣) الكندى : ص ٢٠٥ — ٢١١ والمقرئ : ج ١ ص ٢١٢ — ٢١٣

و Zaky M. Hassan: les Tulunides. p. 88

(٤) خطط ج ١ ص ١٠٣ و ١٠٧ — ١٠٩ و ج ٢ ص ٢٦٧

و Zaky Hassan: op. cit. pp. 244-246

(٥) Zaky Hassan. op. cit. p. 87

(٦) جروهان : المحاضرة الرابعة عن الأوراق البدية العربية ص ٧

ونلاحظ على وجه الإجمال أن النظام المالى العربى كان مأخوذاً إلى حد كبير من النظام البيزنطى ، ولم يكن أخف منه وطأة إلا أنه كان يمتاز بتبسيطه بعض الشيء ، فقد أبطل العرب وخاصة فى أول عهدهم بالفتح بعض الضرائب الثقيلة التى استحدثها البيزنطيون ، إلا أن النظام المالى فى مجمله لم يكن سوى صورة مماثلة للنظام البيزنطى . وقد زادت وطأة هذا النظام خاصة فى عهد أصحاب إقطاع مصر من الترك كما يتبين من أوراق البردى^(١)

نظام جباية الضرائب

اتبع العرب فى جباية الضرائب النظام الذى اتبعه البيزنطيون من قبل فكانت كل قرية مسئولة بالتضامن عن الضرائب المفروضة عليها .

ففى كتاب من قرة بن شريك فى سنة ٩١ هـ إلى صاحب شبرا بسير من كورة أشقوه يذكر فيه أن على قريته من جزية سنة ٨٨ هـ ١٠٤ دينار ومن ضريبة الطعام ١١ أردباً من القمح^(٢) ، وفى كتاب آخر أرسله سنة ٩١ هـ إلى أهل شبرا أجييه بنوتيه من كورة أشقوه يذكر أنه أصابهم من جزية سنة ٨٨ هـ ٣٧ ديناراً^(٣) ، وفى كتاب ثالث أرسله سنة ٩١ هـ لأهل هروس ايرميوطس من كورة أشقوه ذكر أنه أصابهم من جزية سنة ٨٨ هـ ٢٨ ١/٢ ديناراً^(٤) . وكما كان الحاكم العام فى مصر فى عهد الرومان يقدر الضرائب التى تفرض على مختلف نواحي البلاد على أساس المعلومات التى يقدمها إليه

Zaky Hassan: op. cit. p. 244

(١)

Becker : Neue Arabische Papyri p. 267, Grohmann : Arabic

(٢)

Papyri vol. III. p. 48

Becker : op. cit. p. 267, Grohmann : op. cit. p. 51

(٣)

Becker : op. cit. p. 268, Grohmann op. cit. p. 54

(٤)

الحكام المحليون ، كذلك نجد العرب يتبعون نظاماً يشبه النظام السالف .
فقرى قرة بن شريك يرسل إلى صاحب كورة أشقوه تعليمات خاصة بحماية
الضرائب فيأمره بجمع رؤساء كل قرية وذوى النفوذ فيها كي يختاروا
رجالا أصناء أذكياء ليكلفهم بتقدير ما على كل قرية من الضرائب بقدر
استطاعتهم ، وبعد أن يقوموا بمهمتهم هذه تحت إشراف صاحب الكورة ،
يطلب منه أن يرسل إليه نتيجة عملهم بمد أن يحتفظ بنسخة لنفسه ، ويطلب
منه أيضاً أن يكتب أسماء وألقاب ومحل إقامة هؤلاء الذين قاموا بتقدير
الضرائب ، وينذره بأنه إذا وجد أن قرية حملت أكثر مما تحتمل من
الضرائب أو أقل فإنه سيعاقب هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وصاحب
الكورة أيضاً أشد عقاب^(١).

وهذا يؤيد ما ذكره ابن عبد الحكم^(٢) والمقرئى^(٣) والسيوطى^(٤)
من أنه لما استوثق الأمر لعمر بن العاص « أقر قبضها على جباية الروم ،
وكانت جبايتهم بالتمديد ، إذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم وإن قل
أهلها وخربت نقصوا ، فيجتمع عرفاء كل قرية ومازوتها ورؤساء أهلها
فيتناظرون فى المارة والخراب حتى إذا أقرروا من القسم بالزيادة انصرفوا
بتلك القسمة إلى الكورة ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على
احتمال القرى وسمة المزارع »

من هذا نرى أن صاحب الكورة هو الذى كان يتصل بالوالى أو عامل

Bell : op.cit p. 282

(١)

(٢) فتوح مصر ، طبعة تورى ، ص ١٥٢ — ١٥٣

(٣) الخطط ج ١ ص ٧٧

(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣

الخراج لتأدية الضرائب الواجبة على كورته وعلى القرى التى تدخل فى دائرة هذه الكورة ، ويشرف على تقدير هذه الضرائب رؤساء القرى وذوو النفوذ فيها تحت إشراف صاحب الكورة .

وقد قام فى مصر فى العصر المملى نظام آخر لجباية الضرائب وهو نظام قبالات^(١) الأراضى ، ويشبه نظام الالتزام ، الذى وجد فى العهد الرومانى ، فيقول المقرئى^(٢) : « وكان من خبر أراضى مصر ، بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا واتقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمين ، أن متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفسطاط فى الوقت الذى تنهى فيه قبالة الأراضى وقد اجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج بين يدي متولى الخراج يكتبون ما ينتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظم والاستجارة وغير ذلك ، فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبل أرضا وضمها إلى ناحيته فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ويحمل ما عليه من الخراج فى إبانة على أقساط ويحسب له من مبلغ قبالاته وضممانه لتلك الأراضى ما ينفقه على عمارة جسورها وسمة ترعها وحفر خلجها بضاربة مقدرة فى ديوان الخراج ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان والمتقبلين ، يقال لها

(١) يذكر دى ساسى أن كلمة قبالة معناها أن أحد الأشخاص يضمن دفع ضريبة معينة أو يلتزم بتنفيذ عهد أو ارتباط Sur la nature et les Révolutions du droit de propriété territoriale p. 200

(٢) الخطط ج ١ ص ٨٢

تأخر من مال الخراج البواقي . وكانت الولاية تشدد في طلب ذلك مرة وتسامح به مرة ، فإذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة^(١) وراكوا البلاد^(٢) كلها وعدلوها تمديلاً جديداً فزيد فيها يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد ونقص فيها يحتاج إلى التفتيش فيها ولم يزل ذلك يعمل في جامع عمرو بن العاص إلى أن عمر أحمد بن طولون جامعه وصار المسكر^(٣) منزلاً للأمراء مصر فنقل الديوان إلى جامع أحمد بن طولون »

من الوصف السابق نعرف أنه كان يقوم في جامع عمرو ثم في جامع ابن طولون مزاد لتقبل الأرض أو ضمان خراجها ، وكان التقبل لأربع سنوات (حتى تتعادل سنو المحصول الضعيف بسنى المحصول الطيب) وكان المتقبل يخضع من المبلغ المطالب بدفعه ما ينقعه في كرى الترع وما إلى ذلك . ولسنا نعرف تماماً تفصيل علاقة المتقبل مع رجال الإدارة

وقد ظهرت في العصر العباسي مسألة ضمان الوالى لخراج مصر كله وكان الخليفة أبو جعفر المنصور أول من أراد إدخالها في مصر^(٤) وتبين هذا مما ذكره السكندى^(٥) والمقريزى^(٦) عن محمد بن الأشعث والى مصر (١٤١ —

(١) تحويل السنة معناه تحويل السنين القمرية إلى شمسية فإذا جمع الخراج على حسب السنين القمرية فكأننا نجتمع الخراج في مدى ٣٢ سنة شمسية ثلاثاً وثلاثين سنة وهذا ضد طبيعة الأشياء . وعلى هذا تحذف سنة كل ٣٣ سنة قرية أى يحذف كل ٣٣ سنة قرية خراج سنة . وهذا ما يسمى لتحويل (خطط المقريزى ج ٦ ص ٧٣ De Sacy : Sur la Nature et les Revolutions p. 200

(٢) الفعل راك والاسم روك . معناها تهوى الأراضى ومسحها . De Sacy : op. cit. p. 200

(٣) في الواقع كانت القطائع هي مقر أسماء الدولة الطولونية منذ أن بناها أحمد ابن طولون لا السكر

(٤) Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 243-244

(٥) الولاية والقضاة ص ١٠٩

(٦) الخطط ج ١ ص ٣٠٦

١٤٣ هـ) إذ قالوا: « فلما استقر محمد بن الأشعث بها بعث أبو جعفر إلى نوفل بن الفرات أن أعرض على محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر فإن ضمنه فأشهد عليه وأشخص إلى وإن أبي فاعمل على الخراج ، فمعرض عليه ذلك فأبى » أى أن الخليفة أراد أن يجعل الوالى يلتزم بدفع مبلغ معين عن القطر كله . ويبعد أن يرفض أى شخص أن يلى خراج مصر ، ولكن من المقول أن يرفض ضمان خراجها مثلما فعل محمد بن الأشعث ، وذلك خشية المجز عن القيام بما التزم به نظراً لاضطراب أمور البلاد فى كثير من الأحيان ، أو لأحتياجه إلى المال للنفقة على الإدارة وعلى الجند .

وكانت الضرائب بعد الفتح — إذا استثنينا الضرائب غير المادية — تجبى كل سنة قرية . وكان المصريون قبل الفتح يعتمدون فى الزراعة والحصاد وجباية الخراج على السنين الشمسية والشهور القبطية . وقد اضطرب العرب إلى تحويل السنة الخراجية القبطية إلى السنة الهلالية المربية ، فكانوا يسقطون سنة عند رأس كل اثنين وثلاثين سنة قرية ، وسموا ذلك الازدلاق لأن لكل ثلاث وثلاثين سنة قرية اثنين وثلاثين سنة شمسية بالتقريب ^(١) .

وكان الأهالى الذين يقومون بدفع ما عليهم من الضرائب يتسلمون إيصالات عرفت فى أوراق البردى المربية باسم براءة ^(٢) وكان جابى الضريبة المينية ينتخبه السكان ويسمى القبال ^(٣) ونسمع عن قبال قرية فى ورقة بردية كتبت سنة ١٣٤ هـ ^(٤)

(١) انظر القرئزى — خطط ج ١ ص ٢٧٠ — ٢٧٣

(٢) Grum : Coptic Ostraca. pp; 36-37, Grohmann: Arabic Papyri vol. III. p. 141-142

Papyri Schott-Reinhardt I. 45 (٣)

Grohmann: Arabic Papyri vol. III. p. 102 (٤)

وكانت الضرائب المينية المكونة من الجيوب ترسل إلى أمراء الماحض
أما الضرائب النقدية فكانت ترسل إلى ديوان الخراج والأموال^(٢)
طريق فروع في الأقاليم ، وكان يشرف على كل فرع من فروع المال
الأقاليم موظف يسمى الجسطل^(٣)

ويظهر أنه كانت تتبع في مصر في ذلك العصر وسائل الشدة في
الخراج . ونعرف أن الليث بن الفضل والى مصر خرج إلى الخليفة الرشيد
سنة ١٨٧ هـ وسأله أن يبعث معه بالجيش لأنه لا يستطيع استخراج الخراج
من أهل الحوف إلا بجيش . ولكن محفوظ بن سليمان ضمن للخليفة حصة
جباية خراجها عن آخره بلا سوط ولا عصا فولاه الخليفة الخراج^(٤)

كذلك تبين ورقة بردية عربية من القرن الثالث الهجري مدى
التي كانت تتبع في جباية الأموال ، ففيها أمر بأنه إذا لم يؤد كل فرد ما
من الأموال يضرب عشرة سياط ويفرم في صلب ماله ديناراً^(٥) .

(١) :Translations of Greek papyri (Der Islam II) p. 271. 381

(٢) ديوان الخراج والأموال بمثابة وزارة المالية وقد وجد العرب في مصر
الديوان فأبقوه على حاله حتى أنه كان يكتب باليونانية والقبطية إلى أن أمر عبيد
ابن عبد الملك بمصر هذا الديوان سنة ٨٧ هـ

(٣) : Neue Arabische Papyri. p. 353; Grohmann. op.
vol. III p. 17

(٤) الكندي : ص ١٤٠ ومترج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢

(٥) : Grohmann · Arabic Papyri vol. III. p. 104

النقود الإسلامية في مصر

كان بين البيزنطيين وبين الدولة الساسانية معاهدة خاصة بالعملة تقضى بأن يضرب الساسانيون نقوداً من الفضة فقط وبألاً يتخذوا عملة ذهبية سوى العملة الرومية ، ولهذا كانت عملة بلاد القرمس الجارية هي الدراهم الفضية ، بينما شاعت العملة الذهبية في بلاد الإسلام التي كانت تحت حكم الرومان من قبل ^(١)

وكان العرب في الجاهلية يتعاملون بالدراهم الفارسية وكانت من الفضة ، والدنانير البيزنطية وكانت من الذهب . فلما جاء الرسول عليه الصلاة والسلام أقرهم على ذلك ، وكذلك فعل من بعده خليفته أبو بكر الصديق ^(٢) . وتذكر بعض المراجع أن أول من ضرب النقود من الخلفاء هو عبد الملك بن مروان ^(٣) ، على أن القريري ^(٤) يذكر أن عمر بن الخطاب أقر النقود على حالها إلا أنه في سنة ١٨ هـ ضرب الدراهم على نقش الفارسية وشكلها غير أنه زاد في بعضها « الحمد لله » وفي بعضها « محمد رسول الله » وفي بعضها « لا إله إلا الله وحده » . ولما بويع عثمان بن عفان بالخلافة ضرب دراهم ونقش عليها « الله أكبر » ^(٥) .

(١) آدم متر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣١٦

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٦٥ — ٤٦٦ والقريري : النقود الإسلامية

ص ٢ — ٤

(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٤٨ والقفشندي : صبح الأعشى ج ١

ص ٤٢٤ وأبو الحسن : التجوم ج ١ ص ١٧٦

(٤) القريري : النقود الإسلامية ص ٤ — ٥ والقريري : لغاية الأمة ص ٥١ — ٥٢

(٥) القريري : النقود الإسلامية ص ٥ ولغاية الأمة ص ٥٢

فجر الإسلام — (٥) .

وقد سك معاوية في خلافته أيضاً دراهم ودنانير^(١) . ولما قام عبد الله ابن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة ، ويقال إنه أول من ضرب الدرهم المستديرة كذلك ضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق ، فلما قدم الحجاج بن يوسف العراق من قبل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أبطل تلك العملة وقال : « ما بقي من سنة الفاسق أو المنافق شيئاً »^(٢) .

غير أن هذه النقود التي سكها خلفاء الدولة الإسلامية وأمرؤها لم تثبت على وزن واحد بل كانت متغيرة الأوزان^(٣) . كذلك كان العرب يتعاملون بالنقود الأجنبية جنباً إلى جنب مع النقود الإسلامية ، إلى أن ولي عبد الملك ابن مروان الخلافة وتمهدت له الأمور في الدولة بمسد القضاء على منافسيه والخارجين عليه ، فأراد أن يصلح النقود ويوحدها في جميع المملكة الإسلامية ويستغنى عن النقود الأجنبية^(٤) .

(١) المقرئى : النقود ص ٥٠ وإغاثة الأمة ص ٥٢ — ٥٣

(٢) المقرئى . النقود ص ٥ — ٦ وإغاثة الأمة ص ٥٣

(٣) انظر المقرئى : النقود ص ٤ — ٦ وإغاثة الأمة ص ٥١ — ٥٣

De Sacy : Traité des monnaies Musulmanes pp. 17—19 والأب انستاس

الكريمى : النقود العربية وعلم التيمات ص ٢٧ — ٣٣

(٤) روى المؤرخون أن السبب الذى حدا بعبد الملك إلى هذا هو أن القراطيس كانت تدخل بلاد الروم من أرض مصر ويأتى العرب من قبل الروم الدنانير فكان عبد الملك بن مروان أول من أحدث الكتاب الذى يكتب فى رؤوس الطوامير من (قل هو الله أحد) وغيرها من ذكر الله . فكتب إليه ملك الروم إنكم أحدثتم فى قراطيسكم كتاباً نكرهه ، فإن تركتموه وإلا أناكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ما نكرهونه . قال فكبر ذلك فى صدر عبد الملك وكره أن يدع سنة حسنة سنّها فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية فاستشاره فى ذلك فلم يكن منه إلا أن قال . حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها واضرب للناس سكا ولاصف هؤلاء الكفرة مما كرهوا فى الطوامير . فقال عند الملك : فرجتها عنى فرج الله عنك ، وضرب الدنانير (البلاذرى . فتوح البلدان ص ٢٤٠ والمقرئى : النقود ص ٦ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٦ — ١٧٧)

ولما نرى عبد الملك يضرب الدينارين والدراهم في سنة ٦٧ هـ بعد تعديل
في أوزانها مما يتفق والإثابة . وقد أرسل إلى الأمصار الإسلامية كلوا
لتضرب نقودها بمقتضى السكة التي ضربها عبد الملك^(١) . وربما حمل المؤرخين
على القول بأن عبد الملك بن مروان أول من ضرب النقود في الإسلام كونه
نظام سك النقود وجعلها وزناً واحداً وجعلها تسرى في جميع أنحاء المملكة
الإسلامية ، لأننا رأينا أنه ضربت نقود قبل عبد الملك . والحق أن
لعبد الملك الفضل الأول في إصلاح السكة وتوحيدها في أنحاء الدولة الإسلامية
والاستغناء عن النقود الأجنبية . وهذا مما يسهل كثيراً في انتظام المعاملات ،
إذ أن كثرة ضرب السكة الموجودة في بلد ما تدعو إلى الاضطراب في
التعامل ، وكان الخلفاء من بعد عبد الملك يضربون سكة على وزن سكته وأحياناً
يفترون في أوزانها . ولما انتهت الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ صار الخلفاء
العباسيون يضربون سكة أيضاً .

□ □ □

تدل قطع « الاستراكا »^(٢) على أن المعاملات بين الأهالي في مصر قبل
الفتح كان أساسها العملة الذهبية المعروفة بالدينار tremision, solidus
denarius^(٣) ، أي أن مصر كانت تتبع قاعدة الذهب^(٤) . ويذهب علماء
الاقتصاد السياسي إلى القول بأن نظام المدين الفردي الذهبي لا يمنع استعمال

(١) انظر : المقرئى : شهور النقود ص ٦ — ٨ والأب انتاس الكرملى :

النقود للمريه ص ٣٤ — ٣٩

(٢) قطع من الفخار والأحجار ، كتبت عليها بعض الشعوب القديمة ، ولا سيما
الافريقى والفراعنة والقبط ، واستندت منها علماء الآثار كثيراً من الحقائق التاريخية .

(٣) Crum : Coptie Ostraca. pp. 23. 45. 78. 79. 80

(٤) إذا كان أساس النظام النقدي في الدولة الذهب يقال لأنها تتبع قاعدة الذهب

gold standard (الدكتور عبد الحكيم الرفاعى . الاقتصاد السياسى ج ١ ص ٤٧٩)

نقود أخرى غير الذهب ، وبخاصة النقود الفضية ، ولكن الذهب يكون وحده هو العملة القانونية التي لها قوة إبراء غير محدودة^(١) ، وتمتبر النقود الأخرى عملة مساعدة^(٢) ، ولا نجد في الاستراكا سوى إشارة أو اثنتين إلى النقود الفضية في مصر وتعرف بالدرهم^(٣) . ويظهر أن النقود الصغيرة التي كانت تستعمل في مصر إذذاك — كالكروش وكسورها اليوم — كانت العملة البرنزية^(٤) .

ويقول المقریزی^(٥) : « أما مصر من بين الأمصار فما برح نقدها المنسوب إليه قيم الأعمال وأثمان المبيعات ذهباً في سائر دولها جاهلية وإسلاماً ، يشهد لذلك بالصحة أن خراج مصر في قديم الدهر وحديثه إنما هو الذهب » .

وتؤيد أوراق البردي وقطع الاستراكا ما ذكره المقریزی ، إذ تشهد كلهما بأن الجزية والضرائب وإيجار لأراضي وأجور العمال وسائر المعاملات كانت تدفع بالدنانير وأقسامها ، وتعرف الدنانير في أوراق البردي اليونانية باسم solidi^(٦) . ويظهر أن مصر بعد الفتح كان يتعامل فيها بالدنانير الذهبية التي كان يتعامل بها قبل ذلك ، ولا بد أن النقود الإسلامية قد دخلت فيها

(١) أي تكون أداة للوفاء فإن القانون لا يعترف لنسبها بقوة الإبراء من الديون — عبد الحكيم الرفاعي : الاقتصاد السياسي ص ٤٤٨

(٢) عبد الحكيم الرفاعي : الاقتصاد السياسي ص ٤٨

(٣) Crum : op.cit. p. 23

(٤) Crum : op. cit. p. 28. 42. 45

(٥) النقود الإسلامية ص ١١ ولإغاثة الأمة ص ٦٢

(٦) Crum: Coptic Ostraca. pp.36—37, Bell:(der Islam 11).pp.271.

. 274 etc., Becker: Neue Arabische Papyri. pp. 254—267 etc., Orlhmann

Arabic Papyri vol. 11. pp. 44, 45, 48, vol. 111. pp. 17, 31 48. 141

بعد الفتح . ويذكر Quatremère^(١) وSauvaire^(٢) أن الكاتب القبطي بشندي Picendi أسقف قفط الذي عاصر فتح العرب ، كتب كتاباً إلى أساقفة أمته (وهذا الكتاب محفوظ في مكتبة باريس) يقول فيه : « إن العرب أخذوا النقود الذهبية المنقوشة عليها الصليب المقدس وصورة السيد المسيح ومسحوا الصليب وصورة المسيح وكتبوا محلها اسم نبيهم محمد الذي يتبعون تعاليمه واسم خليفة نبيهم ونقشوا الاعمين معاً على النقود الذهبية » .
وربما ظلت النقود الأجنبية في مصر يتعامل بها جنباً إلى جنب مع النقود الإسلامية حتى إصلاح عبد الملك بن مروان للسكة وتحريره الدنانير الأجنبية ، أي أن السكة في مصر خضعت للسكة الإسلامية ، وهذا مظهر من مظاهر التبعية دون شك . ولم تستقل سكة مصر عن السكة المستعملة في الخلافة إلا بعد أن استقلت عنها كما حدث في عهد أحمد بن طولون^(٣) .
وفي ذلك يقول المقرئ^(٤) : « ومع هذا فإن مصر لم تزل منذ فتحت دار إمارة وسكنتها إنما هي سكة بنى أمية ثم بنى العباس إلا أن الأمير أبا العباس أحمد ابن طولون ضرب بمصر دنانير عرفت بالأحمدية » .

Mémoires géographiques et Historiques sur l'Egypte t. I, (١)
p 343.

Matériaux (Journal Asiatique. Septième Série T. XIV) pp. (٢)
456—457.

Stanley Lane-Poole : Catalogue of the Collection of Arabic (٣)
Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo pp 135-6

(٤) النقود الإسلامية ص ١٢

٣ — النظام الحربي

١ — الجيش

بعد أن تم للعرب فتح مصر بقي بها جيش احتلال عربي ولم يشرك العرب المصريين في هذا الجيش ، ولم يرد في صلح بابليون أية إشارة تدل على السماح للمصريين بالاستئغال بالجنودية . وربما دعا العرب إلى انتهاج تلك السياسة خوفاً منهم من أن يحيي المصريون روح القومية المصرية على حسابهم وأن يقوموا بطردهم من بلادهم متى حانت لهم الفرصة ، فأوأوا من الحكمة أن يمدوهم من الأعمال الحربية وألا يتركوا لهم إلا الأعمال المدنية . وربما كان العرب يشكون في كفاءة المصريين الحربية ، إذ كان المصريون زمن الفتح قد غمرتهم روح التواكل والاستسلام ، بينما كان العرب حينذاك شعباً يتفهم حماسة وشجاعة ، ولم يكونوا قد تنعموا بعد وغمرتهم تلك الروح التي تفهم الشعوب حين تعتاد الترف والرخاء .

ولا أدل على هذه الروح المضيوية القوية وهذا الجهاد في سبيل الله من تلك الكلمات التي فاه بها عبادة بن الصامت رسول عمرو بن العاص أثناء المفاوضات التي جرت بين العرب والروم قبل فتح حصن بابليون ، إذ قال للمقوقس : « أنا قد وليت وأدبر شبابي وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلوني جميعاً ، وكذلك أصحابي ، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه . وليس غزونا ممن حارب الله لرغبة في دنيا ولا طلب للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً . وما يبالي أحدنا إن كان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك إلا درهماً لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها

يسد بها جوعه لليلة ونهاره وشملة يلتحفها ، فإن كان أحدا لا يملك إلا ذلك كفاء وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله واقتصر على هذا الذى بيده ، ويبلغه ما كان فى الدنيا لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء فى الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا وعهد إلينا أن لا تكون همّة أحدا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضوانه وجهاد عدوه ^(١) .

وقد حرم الخليفة عمر بن الخطاب على الجند فى مصر وفى سائر الأقاليم المفتوحة الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض ، لئلا يركنوا إلى الكسل ويسيطر عليهم حب المال والنعيم . والحق أن العرب بهرتهم ثروة البلاد التى فتحوها ، بل إن رغبتهم فى الانتفاع بخيراتهما العظيمة كانت من الأسباب التى شجعتهم على المضى فى حروبهم وشجذت همهم للغزو والفتوحات ^(٢) .

(١) خطط المقرئى ج ١ ص ٢٩١

(٢) ليس فى هذا ما يشين الإسلام فى شيء ولا سيما من قوم كالعرب لم تجد الطبيعة على بلادهم بغنى وخصب يجعلان العيش فيها سهلا ميسورا . فانتظار الغنية كان من أسباب الفتوحات الإسلامية فى القرن السابع الميلادى وظل من العوامل المعروفة فى الحروب حتى العصر الحديث . وحسبنا أن نذكر قول بونابرت للجنود الذين سار على رأسهم لغزو إيطاليا سنة ١٧٩٦ : « أيها الجنود ! أنتم عمارة وليس لديكم الغذاء الطيب الكافى والحكومة مدينة لكم بالكثير ، ولكنها لا تستطيع أن تعطىكم شيئا وسوف أقودكم الآن فى أخصب سهول الدنيا وستصبح فى يديكم مقاطعات غنية ومدن كبيرة ... »

ولا يغوتنا أن المؤرخين العرب أنفسهم قد فطنوا إلى هذا السبب الاقتصادى فكتب البلاذرى مثلا : « قالوا لما فرغ أبو بكر رضى الله عنه من أمر أهل الردة رأى توجيه الجيوش إلى الشام فكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستفزهم للجهاد ويرغبهم فيه وفى غنائم الروم فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع وأتوا المدينة من كل أوب ... » (فتوح البلدان . ط القاهرة سنة ١٩٠١ ص ١١٤) راجع أيضا

وقد بدا خطر هذه الروح للخليفة عمر بن الخطاب فأراد كبح جماح الجند لأن واجب الجهاد كان يناديهم في كل مكان ، فلم يرض بتقسيم الأراضي بينهم كما رأينا ، بل حرم عليهم الاشتغال بالزراعة . ويذكر ابن عبد الحكم^(١) في رواية له عن عبد الله بن هبيرة أن عمر بن الخطاب كتب إلى أمراء الأجناد بأن يمتنعوا الجنود من الزرع والمزراعة^(٢) لأن عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائل .

وكتب الماوردي^(٣) أن من واجبات أمير الجيش « أن لا يمكن أحداً من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة لصرفه الاهتمام بها عن مصاربة العدو وصدق الجهاد » . ويرى Lane-Poole^(٤) أن من أسباب تلك السياسة أن الاستثمار الدائم كان بعيداً كل البعد عن تفكير عمر بن الخطاب ، وأنه كان حريصاً على أن يظل الجند على أهبة الاستعداد للانتفاع بهم في أى مكان آخر عن امتلاك الأراضي والاستقرار ليكونوا مستعدين دائماً للجهاد والحرب .

ولكننا لا نستطيع الأخذ بهذا الرأي فليس امتلاك الجند الأرض شرطاً للاستثمار المنظم . ولا يعقل أن جيوش المسلمين كانت حملات للنهب والسلب . بل الأرجح أن عدم امتلاك الأراضي كان سياسة موضوعة وأنه جزء من سياسة نشر الدين الإسلامى ونفوذ المسلمين ، تلك السياسة التى حرص العرب على اتباعها فى البداية فحببتهم إلى الشعوب التى غلبوها على

(١) فتوح مصر — طبعة تورى — ص ١٦٢

(٢) إذا أجز المالك جزءاً من أرضه وافق مع المستأجر على أن يؤدى الإيجار من المحصول عرف ذلك باسم الزراعة . وفى القاموس زارع فلان أى عامله على الأرض يعمس ما يخرج منها ويكون البذر من مالكها

(٣) الأحكام السلطانية ص ٤٢

A History of Egypt in the Middle Ages p. 15

(٤)

أمرها ، وكان لهذه السياسة أكبر الأثر في تثبيت أقدامهم في البلاد التي حلوا بها . فالاحتلال العربي يذكرنا بالاحتلال الروماني قديماً والاحتلال الإنجليزي حديثاً ، فإننا لا نلمس تدخلاً كبيراً من جانب تلك الشعوب في نظم البلاد المفتوحة رغم أنهم يستغلونها استغلالاً منظماً وينتفعمون بثرواتها أيما انتفاع ويحتفظون لأنفسهم بالحكم والسيادة والرئاسة العليا لها . وطبيعي أن الكلام على « احتلال عربي » لا ينصرف إلا إلى الفترة السابقة لتعريب مصر واندماج المصريين والعرب لتأليف الأمة المصرية الحديثة .

و يمزو المؤرخون تدوين الدواوين إلى الخليفة عمر بن الخطاب حين اتسمت رقعة الدولة الإسلامية في عهده ، فكان لابد من ضبط الأموال وتقرير المطاء المفروض للأجناد وأسرانهم وما إلى ذلك مما تطلبه أمور الدولة بعد اتساعها ، وكان في مصر ديوان للجند تدون فيه أسماؤهم وأسرانهم لتقرير المطاء والأرزاق اللازمة لهم . وأول من دون ديواناً للجند في مصر هو عمرو بن العاص ، ثم دون عبد العزيز بن مروان^(١) تدويناً ثانياً ، ودون قرة ابن شريك التدوين الثالث ، ثم دون بشر بن صفوان (١٠١ — ١٠٢ هـ) التدوين الرابع^(٢) . وكان الجند يثبتون فيه على حسب قبائلهم التي ينتمون إليها ، ونلاحظ هذا في نظام الجيش الذي فتح مصر ، إذ كان مقسماً على حسب القبائل ، وفي مدينة الفسطاط أيضاً التي اختطها العرب اتخذت كل قبيلة لنفسها خطة مستقلة عن القبائل الأخرى . وكان أهل الديوان في مصر

(١) في كتاب الولاية والقضاة يذكر الكندي أنه تدوين عمر بن عبد العزيز ابن مروان ، ولكن المقرئ يذكر أنه تدوين عبد العزيز بن مروان ، وهو الصحيح

(٢) الكندي ص ٧١ وخطوط المقرئ : ج ١ ص ٩٤

زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان أربعين ألفاً^(١). ويذكر ابن عبد الحكم^(٢) والمقريزي^(٣) أن معاوية بن أبي سفيان جعل على كل قبيلة من قبائل العرب رجلاً يدور على المجالس كل صباح ليسأل عما إذا كان مولود قد ولد فيهم أو ضيف حل بهم فيكتب أسماءهم وأسرانهم ويذهب إلى الديوان ليثبتهم فيه .

والذي حل بشر بن صفوان على تدوينه الديوان ما رآه من تفرق قبيلة قضاعة في القبائل الأخرى ، فاستأذن الخليفة يزيد بن عبد الملك ليستخرجهم من كافة القبائل ويجمعهم في قبيلة على حدة فأذن له بذلك^(٤) .

ونجد بعد هذا أن قبيلة قيس مثلاً تلحق بالديوان زمن الخليفة هشام بن عبد الملك^(٥) . ومن يقرأ أخبار الولاة يجد عادة أن كل وال جديد يصحب معه نفراً من قبيلته وعشيرته ، وكان هؤلاء الولاة عرباً حتى نهاية الدولة الأموية . أما في الدولة العباسية فقد جدت عناصر أخرى فارسية دوت في الديوان . ثم ما لبث أن ظهر عنصر آخر طمى على المنصر العربي والفارسي ، وقوام هذا العنصر الجديد الجند الأتراك الذين استكثر منهم المعتصم وأثبتهم في الديوان . بل إن المعتصم لم يقف عند هذا ، فقد أمر واليه على مصر كيدر نصر بن عبد الله باسقاط العرب من الديوان وقطع أعطيائهم في سنة ٢١٨ هـ ففعل ذلك كيدر^(٦) ، وكان من أثر هذا أن انتشر العرب في أنحاء مصر يسمون

(١) خطط المقريزي ج ١ ص ٩٤

(٢) فتوح مصر — طبعة تورى — ص ١٠٢ .

(٣) الخطط ج ١ ص ٩٤

(٤) الكندي : الولاة والقضاة ص ٧٠ — ٧١

(٥) الكندي ص ٧١

(٦) الكندي : ص ١٩٣ وخطط المقريزي : ج ١ ص ٩٤

وراء الرزق عن طريق آخر غير طريق الجهاد والحرب ، فاحترفوا الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من المهن والحرف التي كانت إلى ذلك الوقت وقفا على أهل البلاد .

ويستنبط من أوراق البردي أن الوالى كان يطلب المال من أصحاب الكور عند حلول موعد عطاء الجند وأسراهم^(١) أو يطلب من أصحاب الكور إرسال ضريبة الطعام لتوزيع الأرزاق على أهل الديوان^(٢) .

ولسنا نعرف تماما المبادئ التي كانت تقدر على أساسها أعطيات الجند وهل كان ينظر إلى القبيلة وسابقتها في الإسلام وفضلها في الجهاد ، أو كان الأساس قدرا ما على الشخص من التزامات عائلية . ولكن من المحتمل أن بعض الخلفاء كان يزيد أعطيات بعض القبائل استرضاء لها واصطناعاً لأبنائها ، ولعل عطاء الفارس كان ضئف عطاء الراجل ليستطيع أن ينفق منه على فرسه

ويذكر الماوردي أن تقدير المطاء كان بحيث يفي المرء عن الاشتغال بحرفة أخرى تشغله عن القتال والحرب . ومهما يكن ، فقد كان من الواجب أن يراعى في تقدير المطاء ثلاثة وجوه : أحدها عدد من يعوله الفرد من الذراري والماليك ، والثاني عدد ما عنده من الخيل والظهر^(٣) . والثالث ظروف الموضع الذي يحل فيه من الغلاء والرخص . وإذا مات أحدهم أو قتل يصبح عطاؤه إرثاً من بعده يأخذه ورثته . ويختلف الفقهاء في ذلك ، فبعضهم

Becker : Neue Arabische Papyri. pp. 251—252, Grohmann: (١)

Arabic Papyri vol. 111. pp. 12—13

Bell : Translations of the Greek Papyri (Der Islam, Band (٢)

11.) p. 271

(٣) الظهر : الركاب التي تحمل الأثقال

يقول إن ورثته يحالون على مال العشر والصدقة لأن عطاءه قد سقط بموته ،
والبعض يقول بأن يورث ورثته من عطاءه ، وهذا فيه تشجيع للجنود
على التجند .

ونحن نعرف من المصادر التاريخية أن العطاء لم يستمر على حال واحدة ،
فالخليفة عثمان بن عفان أول من زاد في عطاء الجند^(١) ، ولكن هذه الزيادة
لم تستمر بعده ، فبعض الخلفاء أبقاها والبعض منعه . فنجد مثلاً عمر بن
عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) يكتب بزيادة أعطيات الناس في ولاية أيوب
ابن شريحيل (٩٩ - ١٠١ هـ)^(٢) وبأمر الخليفة يزيد بن عبد الملك بمنعها
(١٠١ - ١٠٥ هـ)^(٣) . كذلك كانت الحال فيما يختص بالأرزاق ففي
رواية عن ابن لهيعة أن أرزاق المسلمين كانت اثني عشر أردباً في كل سنة
فنقص أردبين أردبين فصار كل رجل إلى عشرة ، فلما ولي حفص بن الوليد
(في ولايته الثانية ١٢٤ - ١٢٧ هـ) صيرهم إلى اثني عشر اثني عشر^(٤) .
ويجدر ملاحظة كثرة هذه الكمية التي كانت تصرف للفرد الواحد ، ولكن
المفروض أن كل رجل يمول أسرة . على أن إنقاص العطاء والأرزاق كثيراً
ما كان يشير اضطرابات ومشاكل عدة بين الأجناد العرب المقيمين في مصر ،
خصوصاً في أواخر الدولة الأموية وفي خلال الدولة العباسية عند ما أصبح
العرب يملكون أراضي زراعية ، إذ أصبحوا يؤدون خراجاً وفي الوقت نفسه
يأخذون عطاء ، وإنقاص العطاء أو زيادة الخراج يكون معناه زيادة الأعباء
المالية على العرب ، وهذا كان سبباً في ثوراتهم بمصر كما سنرى . ولا أدل على

(١) خطط المقرئ ج ١ ص ٩٣

(٢) الكندي : الولاة والفضة ص ٦٨

(٣) الكندي ص ٧٠

(٤) الكندي ص ٨٢

كثرة الاضطرابات والمشاكل التي قامت بين العرب بسبب المطاء والأرزاق من أنه في عهد ولاية الحسن بن التختاخ (١٩٣ — ١٩٤ هـ) بمصر ثاروا عليه حينما أعطاهم المطاء ثلثاً عيناً^(١) وثلثاً بزاً^(٢) وثلثاً قحاً ، ووقعت فتنة عظيمة قتل بسببها فريق من الجند ومن أهل مصر في المسجد الجامع وانتفض أهل الرملة على بعض الأموال وهي في طريقها إلى دار الخلافة وأخذوا منها عطاءهم كاملاً وقالوا . هذا عطاؤنا قد ساقه الله إلينا^(٣)

ولسنا نعرف كيف كانت الأعطيات تصرف للجند ، ولكن أكبر الظن أن الجند كانت فيهم رتب مختلفة من أمير وعريف وخليفة وقائد ونقيب وما إلى ذلك من الرتب التي لم تتبين تماماً الفرق بين كل منها في فجر الإسلام ، ومن المحتمل أن المرفاء كانوا يتسلمون الأعطيات ويتولون تفريقها على الجند ويظهر أنه كان هناك وقت معين يمر فيه الجند أو أهل الديوان ، يتسلمون فيه عطاءهم على رأس كل سنة . ويقال إن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قطع المطاء عن جند مصر سنة فكتب إليهم كتاباً يعتذر فيه في السنة التالية ، ويقول « إني إنما حبست عنكم المطاء في السنة الماضية لمدو حضرتي فاحتجت فيه إلى المال ، وقد وجهت إليكم بمطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنة فكلوا هنيئاً مريئاً وأعوذ بالله أن أكون أنا الذي يجري الله قطع المطاء على يديه^(٤) »

ومن أقوال الفقهاء في هذا الصدد^(٥) : « ويكون وقت المطاء معلوماً

(١) العين : الذهب المضروب أو الدينار خلاف الفضة المضروبة

(٢) البر : الثياب من الكتان أو القطن . السلاح والجمع بزوز

(٣) الكندي : الولاة والقضاة ص ١٤٦

(٤) الكندي ص ١٩٤ وخطوط المقرئ : ج ١ ص ٩٤

(٥) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٩٥ — ١٩٦

يتوقعه الجيش عند الاستحقاق وهو معتبر بالوقت الذى يستوفى فيه حقوق بيت المال ، فإن كانت تستوفى فى وقت واحد من السنة جمل العطاء فى رأس كل سنة ، وإن كانت تستوفى فى كل شهر جمل العطاء فى رأس كل شهر ، ليكون المال مصروفا إليهم عند حصوله فلا يحبس عنهم إذا اجتمع ولا يطالبون إذا تأخر ، وإذا تأخر عنهم السطاء عند استحقاقه وكان حاصلًا فى بيت المال كان لهم المطالبة به كالديون المستحقة ، وإن أعوز بيت المال لموارض أبطلت حقوقه أو أخرتها كانت أزراقهم دينًا على بيت المال وليس لهم مطالبة ولى الأمر به ، كما ليس لصاحب الدين مطالبة من أعسر بدينه « كذلك اشترط على المصريين ضيافة الأجناد ، فمن نزل عليه جندى أو أكثر وجبت عليه ضيافتهم ثلاثة أيام ^(١) ، وهذا كان يوفر على الحند كثيرًا من العناء عند انتقالهم من جهة إلى أخرى فى أنحاء مصر .

ولا يسمح المقام هنا بأن نعرض للتجنيد فى الإسلام عامة من حيث إنه كان تطوعًا فى البداية ثم دخله نوع من الإلزام فى عصر بنى أمية ، فافئنا لا نكاد نرى فى المصادر العربية ما يساعد على أن نبجلى غوامض هذه المسألة وأكبر ظننا أن حال التجنيد من تطوع وإلزام كان يتغير بين حين وآخر بتغير الأسماء واختلاف ظروف القتال وقوة الخلافة نفسها ونوع العناصر التى كانت تعتمد عليها فى تكوين الجيوش الإسلامية .

وكان ملحقة بالجيش طائفة تسمى الملوحة ، وربما كان أساسها أهل البلاد الذين كانوا فى جيش مصر أثناء الفتح العربى لها ، وهذا لا يخالف ما ذكرناه من أن العرب أبدوا المصريين عن الاشتراك فى الجيش

(١) ابن عبد الحكم — طبعة المعهد — ص ١٤ والمقرئى — خطه ج ١ ص ٢٩٢ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١

إذ أن هؤلاء المطوعة لم يدخلوا في صلب الجيش ولم يشتركوا اشتراكاً فعلياً فيه ، ويغلب على الظن أنهم كانوا يقومون بأدوار ثانوية في خدمة الجيش وفي أوقات الضرورة القصوى كما كان عملهم مقصوراً على مصر وحدها ، ولم يكن هؤلاء المطوعة عطاء ولم يثبتوا في الديوان ، إنما كان عطاؤهم من الصدقات . فيذكر الكندي^(٢) أن مواحيز^(٣) مصر كان يعمرها أهل الديوان وطائفة المطوعة ، وكانت أحباس السبيل^(٤) التي يتولاها القضاة تجمع في كل سنة فإذا جاء شهر أبيب فرق القاضي أموال السبيل التي جمعت من الأحباس على المطوعة ، ومن كان فقيراً من أهل الديوان الذين يشغلون مواحيز مصر من العريش إلى لوبية ومراقبة^(٥) .

وبحسن هنا أن نشير إلى اهتمام الخلفاء بأمر حامية مصر وذلك لأهمية موقعها ، فمصر تقع في منطقة يسهل منها التوسع جنوباً وغرباً وشرقاً بل وشمالاً عن طريق البحر الأبيض المتوسط ، أي أنها قاعدة للفتوحات والتوسع ما دامت محتفظة بقوتها ، أما إذا تطرق إليها انضمام فإن العدو يهددها من هذه الجهات . أي أن مركز مصر يتطلب السهر دائماً على شئونها والعناية

(٢) الولاية والقضاة ص ٤١٨ — ٤١٩

(٣) الماحوز : المكان الذي يكون بين القوم وبين عدوهم وهو من استعمال أهل الشام ، ويذكر Dozy أن الماحوز في سوريا معناه الحدود (Supplément aux dictionnaires Arabes)

(٤) أحباس السبيل : الأوقاف التي توقف في سبيل الله

(٥) مراقبة : اسم لحد مصر الغربي بينها وبين برقة . في خطط المقرئ ج ١ ص ١٦ « قال القاضي : الذي يقع عليه اسم مصر من العريش إلى آخر لوبية ومراقبة وفي آخر أرض مراقبة تلي أرض انطابلس وهي برقة » وفي ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١٧٠ لوبية ومراقبة كورتان من كور مصر الغربية مما يهرب من السماء ولا ينالها النيل .

بالجيش الذى يحميها . وليس غريباً أن ترى الرواة ينسبون إلى الرسول صلوات الله عليه وسلامه أحاديث خاصة بهذا الشأن ، فقد روى عبد الله بن لهيعة عن حديث عمرو بن العاص أنه قال « حدثني عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا فتح الله عليكم بمصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض . قال أبو بكر رضى الله عنه : ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة ^(١) » وروى أيضاً أن عمرو بن العاص قال فى خطبة له بمصر : « واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لمسكت الأعداء حولكم ولإشراف قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية ^(٢) » ولا بد أن حامية مصر قد زادت بعد الفتح زيادة كبيرة ، ونعلم أن حامية الاسكندرية أو رباطها كانت إثني عشر ألفاً (٤٣ — ٤٤ هـ) ، ولكن قائد هذا الرباط كتب إلى عتبة بن أبي سفيان وإلى مصر يشكو قلة من معه من الجند وأنه يتخوف على نفسه وعليهم ^(٣) . ونستطيع أن نلحس هذه الزيادة الكبيرة إذا تذكرنا أن الجيش الذى قدم إلى مصر لفتحها قبل ذلك بنحو عشرين عاماً كان كله يتراوح بين ١٢ ألفاً و ١٥ ألفاً من الجنود . وقد ظلت مصر طوال هذا العهد قاعدة للفتوحات والتوسع تخرج منها جيوش الخلافة جنوباً وغرباً ، إما لتأمين حدودها مثل تلك الحملات التى ذهبت لفتح النوبة أو لفتح برقة ، وأما لمشاركة جيوش الخلافة فى حملاتها للتوسع غرباً ، فعند ما ولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر فى خلافة

(١) خطاط المقرئى ج ١ ص ٢٤

(٢) المرجع نفسه ص ٢٦

(٣) الكندى ص ٣٦

عثمان بن عفان خرج منها لغزو أفريقية^(١).

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان خرجت جيوش الخلافة من مصر لغزو أفريقية أيضا . ومن القواد الذين اشتهروا بغزوها في عهد معاوية عقبة ابن نافع الفهري^(٢) وغزيت أفريقية من مصر أيضا في خلافة عبد الملك بن مروان^(٣) ، وفي أوراق البردي أن المصريين اشتركوا في الأسطول الذي ذهب لغزو أفريقية بحرا في خلافة الوليد بن عبد الملك^(٤) ، والواقع أن غزو أفريقية كان منذ البداية على يد الجند من الحامية العربية في مصر .

وكتب البلاذري « كان أهل برقة يبعثون بخراجهم إلى وإلى مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث فكانوا أخصب قوم بالمغرب »^(٥) وكان إخضاع برقة وطرابلس على يد جنود عمرو بن العاص ، ولكن فتح شمالي أفريقيا بدأ سنة ٢٧ هـ (٦٤٧ م) بقيادة خلفه في ولاية مصر عبد الله ابن سمر ومعه جنود من حامية مصر وجنود آخرون أمده بهم الخليفة عثمان بن عفان . وقد نجح الجيش الاسلامي في الوصول إلى الموضع الذي تقوم فيه الآن مدينة القيروان ، ثم انحدر إلى الجنوب الغربي وأوقع بجيش البيزنطيين هزيمة منكرة عند سبيطلة وأصاب غنائم كثيرة ، ولكن البيزنطيين كانت لهم حاميات أخرى في قلاع حصينة ومدن منيعة ، ولعل

(١) ابن عبد الحكم : طبعة تورى من ١٨٣ — ١٨٤ والبلاذري : فتوح البلدان من ٢٢٦ — ٢٢٧ والكندى : الولاة والقضاة من ١٣

(٢) ابن عبد الحكم من ١٩٤ — ١٩٧ والبلاذري : فتوح البلدان من ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٣) ابن عبد الحكم . شرحه من ٢٠٠ — ٢٠١ والبلاذري . شرحه . من ٢٢٩ .

(٤) Bell : op. cit (der Islam II) p. 279

(٥) فتوح البلدان من ٢٣٢

عبد الله بن سعد كان يخشى أن يعودوا إلى الهجوم فقبل ما عرضه عليه عظماء إفريقية حين تقدموا إليه بأن يترك البلاد على أن يأخذ منهم غرامة حربية كبيرة . فرجع الجيش إلى مصر مثقلا بالغنائم بعد حملة دامت نحو عام كامل أدرك فيها ضعف إفريقية وسهولة فتحها وبذر فيها الفوضى وشجع قبائل البربر على الخروج على طاعة البيزنطيين .

وكان منتظرا أن يعود العرب في مصر إلى غزو إفريقية ولكن أزمة الخلافة والنزاع بين علي ومعاوية والشأن الذي كان لمصر في الثورة على عثمان ثم النزاع على الخلافة من بعده كل ذلك ترك لإفريقية فترة هدوء وسلام وأبعد عنها الفاتحين المسلمين نحو سبعة عشر عاما .

ولما استقر الأمر لبني أمية عاد عمرو بن العاص إلى ولاية مصر وعاد الجند المسلمون في مصر إلى التطلع نحو الغرب ولكن عمرو بن العاص توفي سنة ٤٣ هـ (٦٦٣ م) وخلفه ابنه عبد الله ثم عزله الخليفة معاوية وولى معاوية بن حديج زعيم الحزب الأموي بمصر أثناء النزاع بين علي ومعاوية . وخرج معاوية بن حديج إلى أفريقية بأمر من الخليفة على رأس جيش من حامية مصر سنة ٤٤ هـ (٦٦٤ م) . فهزم جيشا بيزنطيا كبيرا نزل من البحر عند Hadrūmetum (سوسة الحالية) واستولى على حصن جلولا ثم رجع إلى مصر محملا بالغنائم .

وأتى بعد ذلك دور احتلال إفريقية وفتحها فتحها منظم ، وكان ذلك على يد عقبة بن نافع الذي شيد مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ — (٦٧٠ م) وبالرغم من ذلك فإن إفريقية لم تصبح في عهده ولاية قائمة بذاتها تتبع الخلافة مباشرة ، بل ظلت ملحقة بولاية مصر ، بل إن عقبة بن نافع نحى عن حكمها حين عهد معاوية بن أبي سفيان بولاية مصر والمغرب لسلمة بن مخلد الأنصاري

فولى المغرب أبا المهاجر أحد مواليه . ولكن عند ما ولى الخلافة يزيد بن معاوية رد عقبة بن نافع إلى قيادة المسلمين في إفريقية سنة ٦٢ هـ (٦٨١ م) فقام بحملة واسعة النطاق في شمال إفريقية هزم فيها جيوشاً من الروم والبربر وتقدم إلى أن وصل إلى شاطئ المحيط عند طنجة ، وروى أنه قال حينئذ : « يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك » . على أن عقبة لم يحسن سياسته ولم يفد من هذه الانتصارات ، بل اتحد ضده الروم والبربر بزعامة كسيلة . وقتل عقبة وانهزم جيشه سنة ٦٤ هـ (٦٨٣ م) واضطر المسلمون إلى التخلي عن كل فتوحاتهم غربي برقة وارتد عن الإسلام معظم البربر الذين كانوا أسلموا قبل ذلك .

ولم يستطع المسلمون أن يبادروا بالأخذ بالثار ، فقد شغلهم عن ذلك ما كان من نزاع بين الخليفة عبد الملك بن مروان ومنافسه عبد الله بن الزبير ، ثم انتهز عبد الملك فترة هدوء فأرسل إلى إفريقية جيشاً سيره أخوه وعامله على مصر عبد العزيز بن مروان ، وعقد لواءه زهير بن قيس البلوى . واستطاع المسلمون أن يهزموا جيوش الروم والبربر سنة ٧٠ هـ (٦٨٩ م) وقتل في هذه المعركة كسيلة زعيم البربر وترك زهير بن قيس حامية بالقيروان ورحل يريد الرجوع إلى مصر ولكنه فوجئ في برقة بحملة أنزلها الروم من البحر حين بلغهم أنه تقدم من برقة إلى إفريقية وترك برقة خالية فعاثوا فيها فساداً وقتلوه هو ومن معه حين عادوا من إفريقية في طريقهم إلى مصر وكان النصر للبيزنطيين وقتل زهير ومعظم جنوده . وعزم الخليفة عبد الملك ابن مروان على الانتقام لهذه الهزيمة وكان النزاع بينه وبين عبد الله بن الزبير قد انتهى بقتل عبد الله ، فاستطاع الخليفة أن يرسل إلى إفريقية جيشاً كبيراً بقيادة حساب بن النعمان الفسافي . ونجح هذا الجيش في طرد الروم من

قرطاجنة بمساعدة الأسطول الإسلامي سنة ٨٧٧ (٦٩٨ م) ثم تحول إلى البربر في جبل أوراس حيث نجحت زعيمتهم « الكاهنة » في توحيد كلمتهم وهزمت المسلمين . فتقهقر حسان ومن بقى من جيشه إلى برقة . وظل فيها خمس سنين ، كانت الكاهنة خلالها تحكم إفريقيا حكما مطلقا قوامه الظلم والمسف ، والظاهر أنها ظنت أن المسلمين يريدون استغلال بلادها ، وحمل الغنائم منها فلجأت — حين شجرت بقرب هجومهم — إلى تخريب البلاد وهدم المأثر وقطع الأشجار مما أثار الحضر والمشتغلين بالزراعة من سكان البلاد سواء أكانوا من البربر أم من الروم ، واستطاع المسلمون بقيادة حسان ابن النعمان أن يفيدوا من هذه الحال ، ورحب بهم كثيرون من السكان واستطاعوا أن يوقعوا بجيش الكاهنة هزيمة منكرة ، وانتهت بقتلها مقاومة البربر . وعاد حسان إلى القيروان ثم عزله الوليد بن عبد الملك . وفي سنة ٨٨٦ (٧٠٥ م) . أرسل الخليفة إلى إفريقية موسى بن نصير واليا على البلاد يحكمها من القيروان ويتبع الخليفة مباشرة . وهكذا أصبحت إفريقية منذ ذلك الحين ولاية مستقلة في حكمها عن مصر ، بعد أن كانت منذ بدأ الفتوح تتبعها في الإدارة وتتلقى منها الجيوش الفاتحة .

على أن مصر لم تكن مركزا للعمليات الحربية البرية فحسب ، بل كان على المسلمين أن ينفوا بحماية سواحلها ، وقد أثبتت الحوادث أنهم كانوا محقين في ذلك ، فكثيرا ما أغار الروم على الأسكندرية أو غيرها من الثغور . وقد رأينا أن الروم نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين وأغاروا على الأسكندرية سنة ٢٥ هـ ونقدموا منها إلى الدلتا يريدون إخراج المسلمين من مصر . وتم طرد الروم على يد عمرو بن العاص .

كذلك اشتبك عبد الله بن سعد أثناء ولايته على مصر مع الروم في

سنة ٣٤ هـ (٦٥٤ م)، وكانوا تحت قيادة الأمبراطور قنسطانز الثاني^(١) (٦٤١
٦٦٨ م) الذي كان يحاول طرد العرب من مصر واسترداد الأسكندرية كما
فعل في سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) ويقال إن مصراكب الروم في هذه الغزوة
كانت ألف مركب أو سبعمائة، أما المسلمون فقد لقوهم في مائتي مركب،
ورغم هذا فقد انتصر المسلمون عليهم، وتعرف هذه الغزوة بغزوة ذي الصواري
لكثرة صواري المراكب واجتماعها^(٢)، ويقال إن هذه الغزوة كانت في سنة
٣٥ هـ (٦٥٥ م) وأن ريحا شديدة فرقت الروم^(٣)، وقد تتابعت غزوات
الروم بعد ذلك على الشواطئ المصرية، ففي إمرة مسلمة بن مخلد على مصر
نزل الروم بالبرلس في سنة ٥٣ هـ فخرج المسلمون إليهم براً وبحراً واستشهد
في تلك الغزوة وردان مولى عمرو بن العاص^(٤)، ثم نزل الروم على دمياط
في سنة ٩٠ هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك^(٥) أي أن غزوتهم هذه كانت
في أوائل ولاية قرّة بن شريك على مصر (٩٠ - ٩٦ هـ) أو في أواخر
ولاية عبد الله بن عبد الملك (٨٦ - ٩٠ هـ)، وكذلك نزل الروم بتّينس^(٦)

(١) يجدر أن نشير هنا إلى أن المراجع العربية تذكر دائماً قسطنطين بن
هرقل لا قنسطانز.

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٨٩ - ١٩٠ والكندى ص ١٣. وخطط
المقرئى ج ١ ص ٢٢٩.

(٣) ابن عبد الحكم ص ١٩١.

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٨ وخطط المقرئى ج ٢ ص ١٩٠.

(٥) خطط المقرئى ج ٢ ص ٢١٤.

(٦) تّينس : بكسرتين وتشديد النون ويا سا كنة والسين مهلة : جزيرة في
بحر مصر (يعنى هنا بحيرة المنزلة) قريبة من البر ما بين دمياط والفرما في شرقها
(ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٨٢). ويقول المقرئى في الخطط ج ١ ص ١٨١
« وما زالت تّينس مدينة عاصمة ليس بأرض مصر مدينة أحسن منها ولا الحصن من
عماراتها إلى أن خربها الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب في سنة أربع
وعشرين وستمئة فاستمرت خراباً ».

في سنة ١٠١ هـ في إمرة بشر بن صفوان (١٠١ — ١٠٢ هـ) وقتل في تلك الفزوة أميرها مزاحم بن مسعدة المرادي^(١) في جمع من الموالى^(٢) وفيهم يقول الشاعر :

الم تربع فتخبرك الرجال بما لاقى بتنيس الموالى^(٣)

وفي خلافة هشام بن عبد الملك نزل الروم دمياط في إمرة حنظلة بن صفوان الثانية على مصر في ثلثمائة وستين مراكباً فقتلوا وسبوا ، وذلك في سنة ١٢١ هـ^(٤). ويذكر المقرئ^(٥) أنه لما قامت الفتنة بين الأخوين محمد الأمين وعبد الله المأمون وما استتبع ذلك من الفتن في مصر طمع الروم في هذه البلاد ونزلوا دمياط في أعوام بضع ومائتين . كذلك أغار الروم على مصر في ولاية عنبة بن إسحاق فنزلوا بدمياط سنة ٢٣٨ هـ وملكوها وقتلوا وسبوا عدداً كبيراً منها ثم مضوا إلى تنيس وأقاموا بأشتومها^(٦) ، ويظهر أن غزو الروم في تلك المرة كان وقعه شديداً ؛ فإن الخليفة المتوكل أمر ببناء الحصون في دمياط وتنيس والفرما ، فأنفقت في ذلك الأموال العظيمة ، وبدى في بناء حصن دمياط سنة ٢٣٩ هـ^(٧).

(١) في الكندي ص ٧٠. يقول إنه « ابن أحر بن مسعدة المرادي » .

(٢) الموالى هنا معناها أهل البلاد الوطنيين أو المصريين .

(٣) الكندي ص ٧٠ وخطط المقرئ ج ١ ص ١٧٧ .

(٤) خطط المقرئ ج ١ ص ٢١٤ .

(٥) خطط المقرئ ج ١ ص ٢١٤ .

(٦) الأشتوم بالضم ثم السكون والنون وتاء مثناة مضمومة والواو ساكنة وميم

موضع قرب تنيس (ياقوت . معجم البلدان ج ١ ص ٢٧٦) .

(٧) الكندي ص ٢٠١ — ٢٠٢ وخطط المقرئ ج ١ ص ١٨٠ — ٢١٤

ويذكر ابن عبد الحكم^(١) والسيوطي^(٢) أنه لما استقامت البلاد وفتح المسلمون الإسكندرية جعل عمرو بن العاص ربع الجند لرباط^(٣) الإسكندرية صائفة يقيمون ستة أشهر ، ويعقبهم شاتية يقيمون ستة أشهر أيضاً ، ويقال إن عمر بن الخطاب كان يبعث في كل سنة جنداً من أهل المدينة ليرابط بالإسكندرية ، وكان يكتب الولاية قائلاً : « لا تفعلها ولا تكشف رابطتها ولا تأمن الروم عليها » ، وكذلك اتبع عثمان بن عفان سنة عمر بن الخطاب ، وكان عبد الله بن سعد في هذا الشأن يقول : « قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالإسكندرية وقد نقصت الروم مرتين فالزم الإسكندرية رابطتها ثم أجر عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم في كل ستة أشهر » .

ولا نعلم إذا كان هذا يحدث في حامية الإسكندرية فحسب أو في الإسكندرية وحاميات البلاد الأخرى . وربما كان تغيير الحاميات ونقلها يقصد به العرب راحة الجند وتجنب تعويدهم على الإقامة في مكان واحد كما يتبع في جيوش العصر الحديث .

ب — البحرية

« ساهمت مصر بنصيب وافر في إنشاء الأساطيل الإسلامية الأولى ويمكننا القول بأن عبد الله بن سعد الذي خلف عمرو بن العاص في حكم مصر كان أمير البحر الثاني في الإسلام . أما أمير البحر الأول فكان معاوية ابن أبي سفيان أثناء ولايته على الشام وقبل أن تضير له الخلافة . فكان

(١) فتوح مصر وأخبارها — طبعة توري — ص ١٩١ — ١٩٢ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٧١ .

(٣) الرباط : المكان الذي يربط فيه الجيش . والجمع ربط .

المسلمون يقومون بغزواتهم البحرية ضد البيزنطيين من الشام بقيادة معاوية ومن مصر بقيادة عبد الله بن سعد . وبعد أن كان البحر الأبيض المتوسط في عهد جستنيان بحيرة بيزنطية أصبح بفضل مصر والشام بحراً إسلامياً . ولا فني أن سكان مصر ولا سوا القبط كان لهم الفضل في بناء السفن وتشديد دور الصناعات في وادي النيل وفي تونس والشام^(١) .

أجل إن مصر اشتهرت منذ البداية بصناعة السفن التي كان يحتاج إليها أسطول الخلافة ، فالعرب عند ظهور الإسلام لم يكونوا شعباً بحرياً^(٢) . ولكن عند ما اتسمت امبراطوريتهم وشملت شعوباً وأما بحرية ، وعند ما

(١) الدكتور زكي محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢) ولكن أهل بلاد العرب الجنوبية في ممالك معين وسبأ وحير بإقليم اليمن كانوا يشتغلون بنقل التجارة بين مواطن المدن القديمة في الهند ومصر وبلاد الجزيرة والشام وكانت سفنهم تمر عباب البحر الواقع جنوب شبه جزيرة العرب والذي أصبح ينسب إليهم فيقال بحر العرب أو البحر العربي — ومهما يكن من شيء فإن الامبراطورية الإسلامية لم تصبح دولة بحرية بمعنى الكلمة لأن الشعوب التي قامت على أكتافها كالعرب والفرس والترك كانت تتألف في البداية من قبائل معظمها رحل . ومن الطريف أن بعض المستشرقين أشار إلى أن في القرآن مواضع شتى يذكر فيها فضل الله عز وجل على الناس بخلق الأرض . ومن ذلك قوله تعالى في سورة طه آية ٥٣ — ٥٤ (الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهي) ، أما البحر فقد جاء وصف أحواله في سورة النور آية ٤٠ (أو كظلمات في بحر لجي يشاء موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) راجع مقال الأستاذ هيربرت جانسكي عن « البحر في تاريخ المسلمين وثقافتهم » ، وقد نشر في كتاب : Hans Mzik

Beitrage zur historischen Geographie (Leipzig 1929) p. 42

ومع ذلك كله فلا يستطيع منصف أن ينكر ما حققه المسلمون رغم ذلك من السيادة على البحر الأبيض المتوسط في فترة من تاريخهم . راجع أيضاً ملحة « سفينة » في ملحق دائرة المعارف الإسلامية :

اضطروا إلى محاربة شعوب بحرية وعملوا على الاستيلاء على جزائر في البحار ،
بدأوا يشعرون بحاجتهم الماسة إلى أسطول يكون عوناً لهم في تحقيق أمانهم
في مد سلطانهم وغزو الروم في عقر دارهم .

لم يكن البحر يركب للغزو في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام أو في
خلافة أبي بكر وعمر بن الخطاب ، وقيل إن أول من ركب البحر للغزو في
الإسلام العلاء بن الحضرمي وذلك في خلافة عمر بن الخطاب ، إذ ندب أهل
البحرين وكان أميراً عليها إلى غزو فارس عن طريق البحر بغير إذن الخليفة
ففرقت سفن المسلمين وغضب عمر على العلاء ، وأمر بتأخير سعد بن أبي
وقاص عليه .

ولما فتح المسلمون الشام ألح معاوية بن أبي سفيان — وهو يومئذ على
جند دمشق والأردن — على الخليفة عمر بن الخطاب في غزو البحر معللاً
ذلك بقرب الروم من حصص ، ولكن الخليفة لم يوافق على ذلك لأنه خشى على
المسلمين من ركوب البحر وقال في ذلك : « والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل
فيه مسلماً أبدأ » وسرعان ما غيرت الدولة العربية سياستها هذه ورأت
ضرورة إنشاء أسطول بحري للغزو في البحر وذلك في خلافة عثمان بن عفان ،
فقد وافق على القتال في البحر على أن يكون الاشتراك فيه تطوعاً لا يحمل
عليه أحد .

فغزا المسلمون جزائر عدة مثل قبرص وصقلية ورودس وأرواد وكريت
وغيرها من الجزائر ، بل إن معاوية بن أبي سفيان غزا مضيق القسطنطينية في
سنة ٣٢ هـ^(١) ونعرف أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح وإلى مصر من قبل

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٧٧ . راجع أيضاً : Lammens :

Etude sur le règne du calife omayyade Moawia 1er pp. 52,270,279

عثمان بن عفان قد قاتل البيزنطيين ببحراً في غزوة ذى الصواري وانتصر عليهم رغم حداثة العرب في الحروب البحرية ورغم قلة سفنهم . وكان طبيعياً أن يستخدم العرب في غزواتهم البحرية شعوب الأمم التي فتحوها والتي صرنت على ركوب البحار منذ القدم . وإذ كنا في معرض الكلام على مصر فلا بد أن نذكر هنا أن العرب أفادوا من خبرة المصريين البحرية ومن الممال المصريين أيما إفادة فقد أصبحت مصر عقب الفتح مركزاً لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة كما كانت تمد هذا الأسطول بخبرة الملاحين والممال المصريين . وأصبح اسم « الصناعة » في مصر يدل على المكان الذي تبنى فيه السفن الحربية . وقد عقد المقرئ في كتابه الخطوط (ج ٢ ص ١٨٩) فصلاً في ذكر المواضع المروفة بالصناعة ، كما أشار في مواضع أخرى من هذا الكتاب (ج ١ ص ٣٠١) إلى أن الصناعة كانت بجزيرة الروضة وأنها أسست في سنة ٥٥٤ هـ ، ويلوح أن ذلك كان على أثر غزو الروم ثغر البرلس والخسارة الفادحة التي حلت بالمسلمين في قتالهم . وقد سميت جزيرة الروضة حينئذ « جزيرة الصناعة » كما كانت تسمى أحياناً « جزيرة مصر »^(١) ولكننا نرجح أن « الصناعة » أنشئت في مصر الإسلامية قبل هذا التاريخ ، فعبد الله بن سعد غزا غزوة البحرية في سنة ٣٤ هـ وليس بعيد الاحتمال أن يكون المسلمون قد بدأوا يعنون ببناء السفن الحربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ — ٣٥ هـ) وأن قتال الروم جمل المسلمين يعنون بصناعة السفن في جهات مختلفة من أنحاء دولتهم بمد أن كانت الصناعة في مصر وحدها . فيذكر البلاذري^(٢) أنه لما كانت سنة ٤٩ هـ هاجم الروم

Maspero et Wiet : *Materiaux pour servir à la Géographie* (١)
d' Egypte p. 68 ; et G. Wiet : *Corpus Inscriptionum Arabicarum* ,
Egypte II. pp. 197—199.

السواحل الإسلامية وكانت الصناعة بمصر فقط فأمر معاوية بن أنى سفيان بإنشاء دار للصناعة في عكا .

ولما ولي عبد الملك بن مروان الخلافة بمت إلى حسان بن النعمان عامله على إفريقية يأمره بإتخاذ صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية ، وقد كتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز وإلى مصر أن يوجه إلى ممسك تونس ألف قبلى بأهله وولده لإنشاء دار صناعة فيها . أما مهمة البربر هناك فكانت أن يجرؤا ويحملوا إلى دار الصناعة ما تحتاجه من خشب لصنع المراكب^(٢) .

ويظهر أن بناء السفن في مصر كان له شأن عظيم في فجر الإسلام ولا سيما في المهد الأموى فقد ألقت أوراق البردى شعاعاً من النور على صناعة السفن بمصر وأظهرت مهارة المصريين في تلك الصناعة ومهارة الملاحين المصريين وتقدير الحكومة الإسلامية المركزية لتلك المهارة ومدى استفادتها على يد الأمراء المسلمين .

وقد أظهرت أوراق البردى التي كشفت في كوم أشقاو والتي ترجع إلى عصر الوليد بن عبد الملك أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادى النيل في جزيرة الروضة^(٣) وفي القلزم^(٤) وفي الإسكندرية^(٥) ، فبعض تلك الأوراق

(١) فتوح البلدان ص ١٧٧ .

(٢) أبو عبيد البكرى : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (طبعة الجزائر سنة ١٨٥٧ م) ص ٣٨ — ٣٩ راجع أيضاً مقال الأستاذ فييت عن المواصلات في مصر في العصور الوسطى ص ٣٣ — ٣٤ من كتاب « في مصر الإسلامية » الذى أخرجه الدكتور زكى محمد حسن والبكباشى عبد الرحمن زكى) .

(٣) Bell : (Der Islam vol. IV) p. 92

(٤) Bell : (Der Islam vol. II) p. 277

(٥) Bell : (Der Islam vol. II) p. 280

يكشف لنا أن الوالى قرّة بن شريك كثيراً ما يطلب من صاحب كورة أشقوه أن يرسل إليه عمالا وصناعا وملاحين للعمل فى دور الصناعة والمساهمة فى إعداد الأسطول المصرى الحربى . كما تشهد تلك الأوراق بأن الوالى كان يتفق مقدما على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول المصرى^(١) ، كما كان يفرض على الكور قدراً من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن ولتنظيفها ، وكذلك يفرض عليها^(٢) تموين الملاحين الذين يشتغلون فى إعداد الأسطول^(٣) .

ولم يقتصر نشاط المصريين على إعداد الأسطول المصرى ، بل كان والى مصر يرسل بمضى الملاحين المصريين للعمل فى أسطول المغرب^(٤) أو أسطول المشرق^(٥) والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الإسلامية .

ولا بد أن المصريين كانوا يصنعون أيضاً سفنانية غير تلك السفن الحربية لأن الطريق المائى فى مصر كان يستخدم كثيراً للنقل^(٦) والتجارة فى ذلك العهد . وطبيعى أنه كانت هناك سفن بحرية معدة للتجارة الخارجية وقد ظلت صناعة السفن الحربية زاهرة فى مصر فى العهد العباسى أيضاً ، فيذكر المقرئى (الخطط ج ٢ ص ١٩١) أنه بعد أن نزل الروم دمياط فى

(١) Bell : (Der Islam vol. II) pp. 271, 272, 279, 280

(٢) هذه الحقوق للحكومة على الهيئات أو الأفراد كلها من آثار الليتورجيا Leitura أو الالتزامات الاجتماعية التى عرفت فى العالم القديم .

(٣) Bell : op cit. pp. 277, 279. & (der Islam vol. XVII) p. 8.

(٤) Bell: op. cit. vol. II. p. 279

(٥) Bell : op. cit. vol. XVII. p. 6—8

(٦) انظر مقال فييت عن المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ص ٤ — ٦

سنة ٢٣٨ هـ في خلافة المتوكل وفي ولاية عنبسة بن اسحق على مصر « وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول ، وأنشئت الشوانى ^(١) برسم الأسطول وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر في تسليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة وانتخب له القواد المارفون بمحاربة العدو ، وكان لا ينزل في رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب . هذا وللناس إذ ذاك رغبة في جهاد أعداء الله وإقامة دينه ، لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة ، ولكل واحد من الناس رغبة في أنه يعد من جملتهم فيسمى بالوسائل حتى يستقر فيه . وكان من غزو الأسطول بلاد العدو ما قد شجنت به كتب التواريخ . فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالات ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ويأسر بعضهم بعضاً لكثرة هجوم أساطيل الإسلام بلاد العدو فإنها كانت تسير من مصر والشام ومن أفريقية » وأشار المقرئ في هذه المناسبة إلى تبادل الأسرى بين الروم والمسلمين وإلى افتداء الأسرى المسلمين في بلاد الروم وكتب المقرئ أن بعض مناطق وادي النيل كان بها أشجار لا تحصى من سنط ، لها حراس يحمونها حتى يعمل منها مراكب الأسطول فلا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه ، وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار . ويذكر أيضاً أنه كان لا يباع مما في البهنسا إلا ما فضل عن احتياج المصالح السلطانية . ولكن المقرئ (الخطط ج ١ ص ١١٠ - ١١١) يعود فيقول إن هذا بطل جميعه في زمانه أى في عصر المماليك واستولت الأيدي على تلك الأشجار فلم يبق منها شيء البتة ونسى هذا من الديوان . وإن كنا لا نعرف متى نشأ هذا النظام ومتى ألغى ، فإن من المحتمل أن هذا

(١) الشونة : المركب المد للجهاد في الحرب والجمع شوان

الاهتمام بالأخشاب يرجع إلى عهد الولاة ولا سيما في نهايته. ومما يذكره المقرئ أيضاً أن القرظ وهو ثمر شجر السنط كان لا يتصرف فيه إلا الديوان وإذا وجد مع أحد شيء منه اشتراه من غير الديوان نكل به واستهلك. ما وجد معه ، فإذا اجتمع مال القرظ أقيم منه حراك تباع . ولكنه يضيف أن ذلك كله بطل في عصر المماليك .

ومن هذا نرى أن صناعة السفن في مصر ، وخاصة السفن الحربية المدة لمحاربة الأعداء وللدفاع عن الشواطئ ، كانت من أهم الصناعات في فجر الإسلام كما أن المصريين كان لهم الفضل الأكبر في عظمة الدولة الإسلامية البحرية ، إذ كانت الخلافة تعتمد عليهم في إنشاء أسطولها الحربي . بل المعروف أن بناء السفن كان في البداية بمصرف فقط وظل كذلك إلى زمن معاوية بن أبي سفيان . وحتى بعد ذلك العهد كانت الخلافة تستخدم الممال والفلاحين المصريين في دور الصناعة التي أنشأتها في الشرق والمغرب كما يتبين من أوراق البردي . ثم أصبحت الخدمة في الأسطول شرفاً عظيماً يتمناه كل امرئ في مصر . ونلاحظ أن الدولة الإسلامية التي كانت تخشى غزو البحر حتى خلافة عمر بن الخطاب استطاعت بعد ذلك أن يكون لها شأن في البحر . فنذ أيام عثمان بن عفان بدأ المسلمون يمتلكون بعض الجزر في البحر المتوسط ، واستطاعت مصر في خلافته أن تهزم الروم في موقعة ذي الصواري البحرية . وقد سميت بهذا الاسم لكثرة صواري السفن التي التحمت في القتال فيها ، ونسبى في الكتب الأوربية واقعة فونيكه phoenicus وربما كان ذلك لوقوعها بالقرب من ثمر فونيكه غربي الإسكندرية^(١) . والحق أن هذه

(١) Justus Perthes : Atlas Antiquus Tab 18 D 3 ولكن معظم المستشرقين يرون أن هذه الواقعة البحرية حدثت جنوب آسيا الصغرى بجوار ثمر فونيكس Phoenix راجع M. Canard : Expedition des Arabes contre Constantinople dans l'Histoire et dans la Légende (Journal Asiatique, Janvier - Mars 1926 وانظر ما كتبه الدكتور ركي محمد حسن في هذا الصدد في عهد شهر مايو سنة ١٩٤٤ من مجلة المقتطف ص ٤٨٢ — ٤٨٣ .

المعركة كانت نصراً بحرياً كبيراً للمسلمين . ومما ذكره المقرئ في وصفها أن قسطنطين بن هرقل^(١) قدم لغزو الإسكندرية سنة ٣٤٤ هـ على رأس أسطول من نحو ألف سفينة . وكان عبد الله بن سعد قد أنزل نصف جنوده إلى البحر ثم فوجئ بقدوم العدو وعلم من أحد الرسل أو المراقبين أن الروم أقبلوا في ألف مركب (١٢) بقيادة قسطنطين بن هرقل « وكانت مراكب المسلمين مائتي مركب ونيفا فقام عبد الله بن سعد بين ظهراني الناس فقال : بلغني أن ابن هرقل قد أقبل عليكم في ألف مركب فأشيروا على . فاكلمه رجل من المسلمين فجلس قليلا لترجع إليهم أفئدتهم ثم قام ثانية فكلّمهم فاكلمه أحد فجلس ، ثم قام الثالثة فقال إنه لم يبق شيء فأشيروا على ، فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعا مع عبد الله بن سعد فقال : أيها الأمير إن الله جل ثناؤه يقول كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين فقال عبد الله اركبوا فركبوا . وإنما في كل مركب نصف شحنته لأنه قد خرج النصف الآخر إلى البر ... فلقوهم فاقتتلوا بالنبل والنشاب وتأخر ابن هرقل لثلاث تصيبه الهزيمة وجعلت القوارب تختلف إليه بالأخبار فقال : ما فعلوا ؟ قالوا : قد أقتتلوا بالنبل والنشاب فقال : غلبت الروم . ثم أتوه فقال : ما فعلوا ؟ قالوا : قد نفذ النبل والنشاب فهم يرمون بالحجارة فقال غلبت الروم . ثم أتوه فقال : ما فعلوا ؟ قالوا : قد نفذت الحجارة وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف . قال : غلبت الروم (بضم النين) ! وكانت السفن إذ ذاك تقرن بالسلاسل عند القتال . قال : فقرن مركب عبد الله يومئذ وهو الأمير بمركب من مراكب العدو فكان مركب العدو

(١) يجدر الإشارة هنا أن امبراطور البيزنطيين حينذاك كان قسطنطين بن هرقل لا قسطنطين كما تذكر المراجع العربية .

بجتر مركب عبد الله إليهم فقام علقمة بن يزيد المظفي وكان مع عبد الله بن سعد في المركب فضرب السلسلة بسيفه فقطعها . فسأل عبد الله امرأته بعد ذلك بسياسة ابنة حمزة بن يشرح وكانت مع عبد الله يومئذ — وكان الناس يفزون بنسائهم في المراكب — من رأيت أشد قتلا ؟ قالت : علقمة صاحب السلسلة . وكان عبد الله قد خطب بسياسة إلى أبيها فقال له إن علقمة قد خطبها وله على فيها رأى فإن تر كها أفعل ، فكلم عبد الله علقمة فتزوجها عبد الله بن سعد ثم مات عنها عبد الله فتزوجها علقمة بن يزيد ^(١) .

وانتهى الأمر بأن أصبحت الدولة الإسلامية سيدة في البحر المتوسط . وإليك نص ما ذكره ابن خلدون في « المقدمة » (فصل ٣٤) عن عظمة المسلمين في هذا البحر : « وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المألومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والأفريق » وإذا كان الفضل لعظمة الخلافة البحرية يرجع إلى الشعوب التي فتحوها والتي تعلموا منها هذا الفن والتي استخدموها في حاجاتهم البحرية فلنا أن نقول غير مبالغين بأن الفضل الأكبر والأول يرجع إلى مصر والمصريين وليس في المراجع العربية ما يمكننا بواسطته أن نعرف شيئاً يستحق

(١) خطط المقرئ ج ١ ص ١٦٩ . وقد أتينا بهذا النص الطويل لما فيه من أخبار طريفة عن أساليب القتال البحري عند المسلمين . راجع أيضاً : G. Wiet L'Egypte Arabe (Histoire de la Nation Egyptienne t. IV. pp. 29,30.

الذكر عن أشكال السفن الحربية المصرية ومعداتاها في فجر الإسلام ، ولكن أكبر الظن أنها لم تكن تختلف كثيراً عن السفن المعروفة عند الروم في ذلك العصر ، لأنها كانت من صناعة عمال تأثروا بالأساليب المعروفة عند الرومان والبيزنطيين ، بل إن السفن التي صنعت بمصر للمسلمين في البداية « أخذت أشكالها من سفن الروم التي استولى عليها عمرو بن العاص في واقعة الإسكندرية »^(١) وطبيي أن المراكب الحربية كانت متنوعة في أحجامها وأغراضها كما تدل على ذلك الأسماء المختلفة التي أطلقت عليها بعد ذلك مثل الحراقات والشونات والطرادات والمشاريات والشلندات والمسطحات^(٢) . وإذا كنا لا نعرف تماماً معدات تلك السفن وأسلحتها فإننا نظن أنها كانت تشبه ما عرف بعد ذلك عن السفن الحربية الإسلامية في المصور الوسطى ، وكان في بعضها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم وفي بعضها منجنيقات وآلات تقذف النفط ، وكان بعضها لحمل المؤن لرجال الأسطول والبعض الآخر لحمل الخيل^(٣) ومما يعرف من تقاليد المسلمين في القتال حينئذ أنهم كانوا في بعض الأحيان يصحبون نساءهم في المراكب البحرية^(٤) .

على أن تاريخ البحرية عند المسلمين لا يزال يحتاج إلى بحوث طويلة ، لأن أخبار البحر وركوبه كثيرة في كتب الأدب والتاريخ وتقويم البلدان

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٢

(٢) انظر الدكتور زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٥٠ حاشية ه وما جاء فيها من مراجع وانظر مادة سفينة في ملحق دائرة المعارف الإسلامية

(٣) راجع جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٨٠ — ١٨٢ عبد الفتاح عبادة : سفن الأسطول الإسلامى وأنواعها ومعداتاها (في أعداد السنة الحادية والعشرين من مجلة الهلال ثم طبعت مستقلة بمطبعة الهلال سنة ١٩١٣ م)

(٤) راجع المقرئى : خطط ج ١ ص ١٦٩ . وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة

ج ١ ص ٨٥

فجر الإسلام - (٧)

فلا بد من جمعها للدراسة ما يمكن الوصول إلى معرفته عن أساطيل الحرب والتجارة في الأمم الإسلامية المختلفة^(١). وقد ظهر باللغة الأردية سنة ١٩٣٥ كتاب عن البحرية الإسلامية للسيد سليمان ندوى في جمعية الدراسات الإسلامية بمدينة بومباي . كما ظهر في لندن سنة ١٩٢٨ مؤلف بالإنجليزية عن تاريخ البحرية الإيرانية للسيد هادي حسن . ومعنى المستشرقون الفرنسيون في بلاد المغرب بدراسة الملاحة والبحرية عند المسلمين في تلك البلاد . ولكن هذه الدراسات كلها لم تؤت ثمارها بعد .

(١) من الأبحاث الطيبة التي ظهرت حديثاً في هذا الميدان تاريخ الأسطول العربي للأستاذ محمد ياسين الحوي (دمشق ١٣٦٤ هـ : ١٩٤٥ م)

٤ — النظام القضائي

أدخل العرب في مصر نظاما قضائيا يقوم على أساس الشريعة الإسلامية ، ويخص الفاتحين من العرب أو الذين يسلمون من أهل البلاد ، أما الذميون فكان لهم قضاؤهم إلا إذا احتكموا إلى القاضي المسلم فله أن يحكم بينهم بالعدل . قال تعالى : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ^(١) » . ويذكر الكندي ^(٢) أن القاضي خير بن نعيم الحضرمي (١٢٠ — ١٢٨ هـ) كان يقضى بين المسلمين في المسجد ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر فيقضى بين النصارى ، وأنه كان يقبل شهادة النصارى على النصارى واليهود على اليهود ، ويتحقق من عدالة هؤلاء الشهود بين أهل دينهم .

ونجد القاضي محمد بن مسروق الكندي (١٢٧ — ١٨٤ هـ) يسمح للنصارى المتخاصمين بالدخول في المسجد الجامع كالمسلمين ليقضى بينهم ^(٣) . كان القضاء في الدولة الإسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة ^(٤) ، ولكن لما كان الخليفة لا يمكنه مباشرة كل أمور القضاء بنفسه ولا سيما بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية اتساعا كبيرا منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب ، نجدد يفوض القضاء إلى غيره كما كان يفوض إلى الولاة حكم الولايات المفتوحة . فنجد الخليفة عمر بن الخطاب يعين أول قاض بمصر وهو قيس بن أبي العاص

(١) سورة المائدة آية ٤٠ .

(٢) الولاة والقضاة ص ٣٥١ .

(٣) الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٩١ والقلشندي : صبح الأعشى ج ١

ص ٤١٨ — ٤١٩

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ١٨٢ — ١٨٣ (فصل في الخطط الدينية الخلافة)

السهمي (سنة ٢٣ هـ^(١)) ونرى معاوية بن أبي سفيان يولي القضاء بها سليم ابن عترالتجيبى (سنة ٣٠ — ٦٠ هـ^(٢))، ويولي الخليفة هشام بن عبد الملك القاضي يحيى بن ميمون الحضرمي في سنة ١٠٥ هـ^(٣). وكذلك كان الحال في عهد الخلفاء العباسيين، فكانوا هم الذين يولون القضاء، فنرى الخليفة أبا جعفر المنصور يولي القضاء عبد الله بن لهيعة سنة ١٥٥ هـ^(٤)، وكذلك فعل من بعده من الخلفاء. ولكن بعض القضاء كان يعينهم الولاة بتفويض من الخليفة لواليه، فنرى والى مصر عبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) يولي القضاء عبد الرحمن بن حجية الأكبر (٦٩ — ٨٣ هـ) وعندما يبلغ الخليفة هشام بن عبد الملك أن قاضيه يحيى بن ميمون الحضرمي ساء السيرة يكتب إلى واليه على مصر الوليد بن رقاعة (١٠٩ — ١١٧ هـ) يطلب منه أن يعزله قائلا: «أصرف يحيى عما يتولاه مذموما مدحورا ونخير للقضاء جندك^(٥) رجلا عفيفا ورعا تقيا سليما من العيوب لا تأخذه في الله لومة لائم» وعندئذ عزله الوليد وولى القضاء توبة بن نمر الحضرمي سنة ١١٥ هـ^(٦).

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص ٣٠٠ — ٣٠١

(٢) الكندى ص ٣٠٣

(٣) الكندى ص ٣٤٠

(٤) الكندى ص ٣٦٨ — ونلاحظ هنا أن الكندى يناقش نفسه حين يقول:

«ثم ولي القضاء بها عبد الله بن لهيعة مستهل سنة خمس وخمسين ومائة من قبل أمير المؤمنين أبي جعفر وهو أول قاض ولى مصر من قبل الخليفة» فالواقع كما رأينا وكما يذكر الكندى في مواضع أخرى من كتابه أن الخليفة هو الذى عين معظم قضاة مصر قبل ابن لهيعة.

(٥) يستنبط من «قضاء الجند» هنا أن العرب في مصر حتى أيام الخليفة

هشام ابن عبد الملك لم يكونوا إلا جنوداً أو ان الذين أسلموا من المصريين لم يكونوا سوى أقلية بدليل انه لم يهتم بالتميم في خطابه بل خص القضاء على الجند. ولكن قد يكون المقصود بكلمة جند هنا المنطقة الحربية

Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes

(٦) الكندى ص ٣٤١ — ٣٤٢

وأحيانا كان الوالى يولى القاضى ويقره الخليفة على ذلك . فبنى وإلى .
مصر داوود بن يزيد بن حاتم المهلبى (١٧٤ — ١٧٥ هـ) يولى المفضل بن
فضالة القضاء سنة ١٧٤ هـ ، ثم يرد كتاب الخليفة الرشيد بأقراره فى
السنة نفسها^(١) .

هذه أمثلة أوردتها لأبين أن سلطة القضاء كان مرجعها إلى الخلافة
مباشرة ، إذ كان الخليفة هو رئيس القاضى المباشر . وكان القضاء فى مصر
أكثر استقرارا فى مناصبهم من الولاة ، وهذا طبعا مما يستدعيه حسن
سير العدالة ، ففى كثير من الأحيان كان القاضى يشغل منصبه فى عهود
ولاة مختلفين أو فى عهود خلفاء مختلفين وكثيرا ماتت القضاة فى مصر وهم
فى مناصبهم ، فنجد القاضى سليم بن عتر التجيبى يتولى القضاء عشرين سنة
(٤٠ — ٦٠ هـ)^(٢) بينما يتعاقب فى حكم مصر فى عهده أربعة ولاة هم عمرو
ابن العاص وعتبة بن أبى سفيان وعقبة بن عامر الجهنى ومسلمة بن خالد ،
وزى عبد الرحمن بن حجابة الأكبر يلى القضاء أربعة عشر عاما ويظل
يشغل هذا المنصب حتى موته (٦٩ — ٨٣ هـ) فى ولاية عبد العزيز بن
مروان^(٣) ، ومجد القاضى عياض بن عبيد الله الأزدى يلى القضاء فى مصر
نيابة عن خليفتين متواليين هما سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ)
وعمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ)^(٤) ، ويلى عبد الله بن لهيعة

(١) الكنى ص ٣٨٥

(٢) الكنى ص ٣٠٣ — ٣١١

(٣) الكنى ص ٣١٤ — ٣٢٠

(٤) الكنى ص ٣٢٣ — ٣٣٤

الحضري^(١) القضاء مدة تسع سنين (١٥٥ — ١٦٤ هـ)^(٢) نيابة عن الخليفة أبي جعفر المنصور ثم المهدي ، بينما يلي مصر في هذه المدة سبعة ولاية . ولم يكن القاضي ليرضى بأن يتدخل في أحكامه أحد ، إذ كانت وظيفة القضاء من الوظائف السامية التي تحاط بالهيبة والإجلال ، كما كان لصاحبها نفوذ كبيرة يتفق مع خطورة العمل الذي يؤديه ، ولا نعرف أن والياً من ولاية مصر جمع إلى سلطته ولاية القضاء . ولم نسمع عن حدوث تصادم بين حكم القاضي وسلطان الوالي في العصر الذي نحن بصدده سوى ما حدث إزاء مسألتين تسمان الأحوال الشخصية^(٣) .

ولدينا أمثلة كثيرة ترينا إلى أي حد كانت القاضي مستقلاً لا يقبل أي وساطة أو شفاعة ، وشديداً في أحكامه إذا ما تبين له الحق . فيروى الكندي^(٤) أن توبة بن عمر الحضري لما ولي القضاء بمصر (١١٥ — ١٢٠ هـ) « دعا امرأته عفيرة فقال : يا أم محمد . أي صاحب كنت لك ؟ قالت : خير صاحب وأكرم ، قال : فاسمى . لا تعرض لي في شيء من القضاء ولا تذكريني بخصم ولا تسأليني عن حكومة ، فإن فعلت شيئاً من هذا فأنت طالق ، فإما أن تقيمي مكرمة وإما أن تذهبي ذميمة . فانتقلت عنه فلم تكن تأتيه إلا في الشهر والشهرين » .

(١) عثر على شاهد قبر عبد الله بن لهيعة الحضري . وهو شاهد من الرخام كتب اسمه وسنة وفاته وهي جادى الآخرة سنة ١٧٤ هـ وحفوظ الآن بدار الآثار العربية بالقاهرة .

Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe. t. I, pp. 42—43

(٢) الكندي ص ٣٦٨ — ٣٧٠

(٣) الكندي ص ٣٦٧ و ٤٢٧ وآدم متر : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٣٥٤ — ٣٥٥

(٤) الكندي ص ٣٤٢ — ٣٤٣

وروى عن خير بن نعيم في ولايته على القضاء (١٣٣ — ١٣٥ هـ) «أن رجلا من الجند قذف رجلا من الأهالي نفاصمه إليه وثبت عليه شاهدا واحدا ، وأمر بحبس الجندى إلى أن يثبت الرجل شاهدا آخر ، فأرسل أبو عون (والى مصر إذ ذاك) فأخرج الجندى من الحبس ، فاعتزل خير بن نعيم وجلس في بيته وترك الحكم ، فأرسل إليه أبو عون فقال : لا ، حتى ترد الجندى إلى مكانه » (١) .

وروى أيضا أن صاحب البريد شفع في خصم إلى القاضى أبى الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمى (١٧٠ — ١٧٤ هـ) فكتب إليه الحزمى : « ما أنت والقضاء ! عليك تدبير دوابك وبراذعها وكنس زبولها » وما لبث أن استغنى عن القضاء فأعفى (٢) .

ويروى عن القاضى عيسى بن المنكدر (٢١٣ — ٢١٤ هـ) أن رجلين اختصما إليه فقضى لأحدهما على الآخر ولم يكتف بذلك بل أمر صاحب الحق بأن يضجع خصمه ويضع قدمه على خده ليذله بالحق (٣) .

ومع ذلك فلم يكن كل قضاة ذلك العصر موسومين بالعدالة والنزاهة ، بل وجد أحيانا القاضى المرتشى والقاضى غير النزيه . فقد عزل الخليفة هشام بن عبد الملك القاضى يحيى بن ميمون الحضرمى (١٠٥ — ١١٤ هـ) عن ولاية القضاء لما بلغه أنه لم ينصف يتيا احتكم إليه بعد بلوغه (٤) ، كما اتهم هذا القاضى بأن كتبته كانوا يقبلون الرشوة وهو يعلم ذلك ولا ينههم (٥) .

(١) الكندى ص ٣٥٦

(٢) الكندى ص ٣٨٤

(٣) الكندى ص ٤٣٧

(٤) الكندى ص ٣٤١

(٥) شرحه ص ٣٤٠

وقيل كذلك أن القاضى عبد الرحمن ابن عبد الله العمرى (١٨٥ — ١٩٤ هـ) جمع من الرشوة أموالا كثيرة^(١) .

ولم يكن هناك محكمة خصة للفصل فى القضايا ، إنما كانت مجالس القضاء تمقد فى جامع عمرو بن العاص بالنسطاط .

ويدكر الكندى أن القضاة كانوا يحملون للقضاء بين النصارى يوما فى منازلهم إلى أن جاء القاضى محمد بن مسروق فأذن لهم بالدخول فى المسجد^(٢) ولا بد أن ولاية القاضى كانت تمتد على الأراضى التى كانت تدخل تحت سلطة الوالى السياسية ، كما أن الاختصاص النوعى *ratione materiae* للقاضى كانت غير محدود سواء أكان فى الأمور المدنية أو الجنائية^(٣) .

وكان القاضى يستمد أحكامه القضائية من مصادر التشريع الإسلامى وهى القرآن والسنة والاجماع والاجتهاد أو القياس . وكان بعض القضاة يرجع أحيانا إلى الخليفة فى المسائل الدقيقة ، وربما كان ذلك خوفاً من الانفراد بالرأى فى مسألة ربما يخطئ فيها باجتهاده وحده ويرى من الأوفق أن يشترك الخليفة معه فى حلها استئناساً برأيه وضماناً للمدالة . ومن ذلك أن القاضى عياض بن عبيد الله الأزدى استفتى الخليفة عمر بن عبد العزيز فى مسألة ، فأفتاه فيها^(٤) ، وأحيانا كان الخليفة لا يبدى رأيا بل يفوض الأمر إلى القاضى ، فقد استفتى القاضى عياض

(١) شرحه ص ٣٩٧

(٢) شرحه ص ٣٩٠

(٣) Wiet: Précis de l'hist. d'Egypte T. 11; pp. 124-125

(٤) الكندى ص ٣٣٤ — ٣٣٥

الخليفة عمر بن عبد العزيز في مسألة أخرى فكتب إليه : « إنه لم يسلطني في هذا شيء ، وقد جعلته لك فامض فيه برأيك »^(١) وكذلك نسمع أن القاضي عبد الله بن يزيد بن خذامر استشار الخليفة عمر بن عبد العزيز في مسائل فأفتاه فيها^(٢) . على أننا لا نعثر في مصادر هذا العصر على قضاة يستشيرون خلفاء آخرين غير عمر بن عبد العزيز في المسائل الفقهية ، ولعل هذه حالة فردية يمكن تفسيرها بمكانة عمر بن عبد العزيز الدينية وتفقهه في الدين .

لكننا نلحظ خلال هذه المصادر أن الخلفاء كانوا يرحبون بسماع شكاوى أهل مصر إذا ما انتابهم ظلم أحد القضاة وأنهم يتدخلون في أحكام أمثال هؤلاء القضاة ، فقد صرف الخليفة هشام بن عبد الملك يحيى بن ميمون الحضرمي عن ولاية القضاء لعدم إنصافه يتباً تظلم إليه بعد بلوغه^(٣) ، كذلك نعلم أن الخليفة الأمين فسخ حكم إحدى القضايا حين تبين أن حكم القاضي فيها لم يكن منزهاً عن الفرض^(٤) .

وقد انتشرت بمصر في العصر العباسي المذاهب الأربعة المعروفة اليوم . على أن قضاة مصر لم يكونوا ملزمين باتباع مذهب معين يصدر عن أحكامهم وفقاً له . وكان أول قاض بمصر يقول بقول أبي حنيفة إسماعيل بن اليسع الكندي (١٦٤ - ١٦٧ هـ)^(٥) وأول من ولى قضاء مصر ممن يقول بقول الإمام مالك القاضي إسحاق بن الفرات^(٦) . ومما يدل على أن القضاة لم

(١) الكندي ص ٣٣٤

(٢) الكندي ص ٣٣٨ - ٣٣٩

(٣) الكندي ص ٣٤١

(٤) الكندي ص ٤١٣

(٥) الكندي ص ٣٧١ والقلقشندي : وصيغ الأعشى ج ١ ص ٤١٨

(٦) الكندي ص ٣٩٣ والقلقشندي ص ٤١٩

يكونوا ملزمين باتباع مذهب معين ما رواه الكندي^(١) عن القاضي أبي الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمي (١٧٠ — ١٧٤ هـ) إذ يقول: «فكانت أحكامه على مذاهب ابن القاسم وسالم وابن شهاب وربيعة وكان مستضلماً بمذاهب أهل المدينة حافظاً لها».

ونعرف أن القضاة كانوا يأخذون رزقاً من بيت المال. فكان رزق ابن حجيرة (٦٩ — ٨٣ هـ) من القضاء مائتي دينار في السنة^(٢)، وكان رزق عبد الرحمن بن سالم الجيشاني سنة ١٣١ هـ عشرين ديناراً في الشهر^(٣)، وكان رزق عبد الله بن لهيعة (١٥٥ — ١٦٤ هـ) ثلاثين ديناراً في كل شهر^(٤)، وكان رزق الفضل بن غانم (١٩٨ — ١٩٩ هـ) مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر^(٥).

ويجدر أن نشير هنا إلى أن النظام القضائي في مصر في عهد الولاة نشأ بسيطاً ثم ارتقى وتطور تدريجياً؛ فثلاثاً لم تكن أحكام القضاة تدون، ولكن حدث مرة أن اختصم إلى القاضي سليم بن عتر التجيبي في ميراث فقضى بين الورثة، ثم أنكروا حكمه وعادوا إليه ثانية فقضى بينهم وكتب بذلك

(١) الكندي ص ٣٨٣

(٢) الكندي ص ٣١٢

(٣) الكندي ص ٣٥٤

(٤) الكندي ص ٣٦٩

(٥) الكندي ص ٤٢١ وفي ص ٤٣٥ أن رزقه كان ١٦٣ ديناراً. فيها يتعلق بأرزاق القضاة أنظر آدم متر: الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٣٦٢ — ٣٦٤. ويذكر متر ج ١ ص ١٣٤ نقلاً عن خطط القريري ج ١ ص ٩٩ «أن الأخشيدي أول من رتب الرواتب». ولكن هذا يتنافى مع ما ذكرنا سابقاً من أن القضاة كان لهم أرزاق قيل ذلك.

سجلاً^(١) ، فكان أول قاض في مصر سجل سجلاً بقضائه^(٢) . وتبعه في ذلك القضاء من بعده . كذلك لم يكن للقاضي شيء تصان فيه كتبه وأوراقه ، بل كان كاتب القاضي يحضر ، ومعه الكتب في مئذيل فأتخذ القاضي محمد بن مسروق الكندي لنفسه قطراً يحفظ فيه أوراقه ، وكان يجتمعا قبل أن يودعها القمطر ، وإذا جلس للقضاء أحضرت^(٣) وظلت هذه العادة متبعة من بعده .

وقد عني قضاة هذا العهد عناية كبيرة بأحوال الشهود الذين يتقدمون للشهادة في المحاكم ، فنجد المفضل بن فضالة في ولايته الثانية على القضاء (١٧٤ — ١٧٧ هـ) يتخذ في مجلسه عشرة رجال للشهادة^(٤) ، كذلك اتخذ القاضي عبد الرحمن بن عبد الله العمري الشهود ودون أسماءهم وأسقط ما عداهم من سائر الناس ، وأتبع القضاء من بعده هذه الطريقة^(٥) ، وفي ولاية لطيفة بن عيسى الثانية على القضاء سنة ١٩٩ هـ نراه يمهّد إلى سعيد بن تليد أحد كتبه ويسمى صاحب السائل ليحدد السؤال عن الشهود في كل ستة أشهر وكانوا نحو ثلاثين رجلاً ، ومن حدثت له جرحه^(٦) أوقفه وقد أوقف غير واحد ممن شهد عنده وبلغته جرحته^(٧) . كذلك كان القاضي عيسى بن النكدر يمهّد إلى صاحب مسائله بالسؤال عن الشهود ، وفضلاً عن

(١) السجل هنا معناه تدوين الأحكام لا التسجيل المعروف اليوم

(٢) الكندي ص ٣٠٩ — ٣١٠

(٣) الكندي ص ٣٩١ — ٣٩٢

(٤) الكندي ص ٣٨٦

(٥) الكندي ص ٣٩٤

(٦) الجرحه ما تجرح به شهادة الخصم أو حجه أى تسقط .

(٧) الكندي ص ٤٢١ — ٤٢٢

ذلك فقد كان هو نفسه يتنكر في الليل ويمشي في السكك لينسأل عن
الشهود^(١).

ومن التقاليد التي نشأت في هذه الفترة أيضاً خروج القاضي في نفر من
أهل الصلاح لرؤية هلال رمضان ، وقد نشأ ذلك التقليد في ولاية عبد الله بن
لهيعة الحضرمي للقضاء ، حينما اختلف الناس في رؤية هلال رمضان في سنة ما
من ولايته ، فبعضهم زعم أنه رآه والبعض لم يره وشك الناس في ذلك فلما
كان العام التالي خرج عبد الله بن لهيعة في نفر من أهل المسجد ممن عرفوا
بالصلاح لرؤية هلال رمضان وإثبات الرؤية ، وكانوا يخرجون لرؤيته في
الجزيرة^(٢).

ونلاحظ أن إنشاء ديوان الأحباس أو الأوقاف يرجع إلى هذا المهد
منذ سنة ١١٨ هـ وكان القضاء هم الذين يشرفون عليه ، وأول قاض بمصر
وضع يده على الأحباس هو توبة بن نمر الحضرمي (١١٥ — ١٢٠ هـ)
وكانت الأحباس قبل ذلك في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم فقال توبة :
« ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين ، فأرى أن أضع
يدى عليها حفظاً من التواء والتوارث ، فلم يمت توبة حتى صارت الأحباس
ديواناً عظيماً^(٣) » .

(١) الكندي ص ٤٣٧

(٢) الكندي ص ٣٢٠

(٣) الكندي ص ٣٤٦ . أنظر ملادة وقف في دائرة المطرف الإسلامية

الباب الثاني

موقف مصر من الحركات السياسية والدينية

التي ظهرت في الخلافة

بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام مباشرة ظهر الخلاف بين المسلمين حول مسألة الخلافة ومن الذي يتولاها ، وهل هي إرث في بيت النبي وفي فرع معين من هذا البيت كبنى هاشم أو بنى أمية ، أم يتقلد أمرها أى فرد كف لها بغض النظر عن القبيلة التي ينتسب إليها . فالدين الإسلامى لم ينص على شكل حكومة معينة للأمة العربية أولغيرها من الأمم ، ولم يعهد الرسول إلى شخص معين من بعده ليكون زعيما للأمة العربية يتولى الإشراف على أمورها الدنيوية والدينية . وأقصد بالدينية هنا الإشراف على تنفيذ أحكام الدين ، لا أن يخلف الرسول في صفته الدينية . إذ أن النبوة والرسالة قد انتهت بوفاة خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وكان امتناع العباس عم الرسول وعلى بن أبى طالب وطلحة والزبير وغيرهم ممن لم يرضوا بمبايعة أبى بكر الصديق بالخلافة إيذانا بما حدث بعد ذلك من انقسام المسلمين إلى سنيين وشيعيين . وكثر النزاع حول الخلافة ومن يتولاها ، وكان هذا النزاع تارة بالكلام والجدل وتارة بالسيف والحرب ، وقد اتبع كل فرقة أو حزب من الأحزاب التي نشأت أفراد عديدون ، إما إيمانا بمبادئها ومبادئها ، وإما رغبة في منفعة أو مصلحة مادية تمود عليهم ؛ كبت بعض تماليم العيانات والمناهب القديعة وصوغها في قالب إسلامى رغبة ؛

في إساءة سمعة الدين الإسلامى أو إحياء وطن قديم على حساب الدولة الإسلامية .

وقبل أن نعرض للكلام عن الحركات التى قامت فى الخلافة والتى اشتركت فيها مصر ، يجدر بنا أن نشير إلى أن الذين اشتركوا فى تلك الحركات لم يكونوا من المصريين الوطنيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامى ، وإنما كانوا من الجند العربى الذين استقروا بمصر أو من الأجناد الأخرى الذين أتوا إليها فى عهد الدولة العباسية . أما المصريون أنفسهم سواء أ كانوا من الأقباط أو من الذين أسلموا بعد الفتح فلم يشتركوا فى تلك المنازعات — إذا استثنينا معاونتهم إلى حد ما للعباسيين ضد الأمويين .

(١) — الحركات السياسية والدينية زمن الخلفاء الراشدين

(٢٠ — ٤٠ هـ = ٦٤٠ — ٦٦٠ م)

١ — موقف مصر من الثورة التى قامت ضد عثمان بن عفان

ظهر النزاع حول الخلافة بأجلى مظاهره فى الثورة التى قامت ضد الخليفة عثمان بن عفان ، إذ احتكم فى ذلك النزاع إلى السيف بدلا من أن يحكم العقل واللسان ، وكانت هذه أول مرة يحتكم فيها إلى السيف فى النزاع الخلقى الذى يدور حول مسائل الحكم والملك .

عرف عثمان بمكانته الدينية العالية ، ولما انتخب خليفة بعد مقتل عمر ابن الخطاب فى آخر سنة ٢٣ هـ (٦٤٤ م) سار على سياسة سلفه فى الفتوح وتم فى عهده فتوحات وغزوات كثيرة ^(١) . على أنه لم تمض ست سنوات

(١) الطبرى ج ٥ ص ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٧٧ ، ٨١ .

من حكمه حتى بدأت تسرى ضده حركة تدمير في الولايات الإسلامية المختلفة وقد ترأس هذه الحركة رجل يهودى من أهل صنعاء أسلم من عثمان بن عفان واسمه عبد الله بن سبأ وكان يعرف بابن السوداء لسواد أمة . ويظهر أن عبد الله بن سبأ هذا كان من الذين أسلموا ليضلوا الناس عن الإسلام وليكيدوا لهذا الدين ، فتنقل في البلاد الإسلامية يحاول ضلالتهم كما يذكر المؤرخون ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة والكوفة والشام ، ولكن يظهر أن محاولاته لم تكن ذات نال في تلك البلدان ، فلم ينجح في الحجاز أو الشام كما أنه طرد من البصرة والكوفة ، فأتى إلى مصر ووجد أن الحالة فيها كانت مهيأة للثورة ضد عثمان فأخذ ينشر دعايته وتعاليمه ، فكان مما نشره مذهب الرحمة . وأخذ يقول إنه يعجب ممن يقول إن عيسى يرجع ويكذب برجوع محمد عليه الصلاة والسلام وقد قال تعالى : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)^(١) ، ولذا فإن محمداً أحق بالرجوع من عيسى . كذلك نادى عبد الله بن سبأ بمذهب الوصاية ، فذكر أن لكل نبي وصى وعلى بن أبى طالب وصى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولما كان محمد خاتم الأنبياء فإن علياً خاتم الأوصياء ، أى أن عثمان قد اغتصب الخلافة من وصى الرسول ، وبذلك حرض ابن سبأ المصريين على الوثوب على عثمان لأخذه الخلافة بغير حق^(٢) . ولسنا هنا بحاجة إلى القول بأن تعاليم ابن سبأ بعيدة عن الإسلام ، فالرجعة والوصاية من تعاليم النحل والديانات المختلفة التى وجدت قبل الإسلام فليس للرسول وصى كما أنه ليس في الإسلام رجعة ، فذهب

(١) سورة القصص آية ٨٥ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٩٨ ، خطط القرينى .

ج ٢ ص ٣٣٤ .

الرجعة هذا لا يقر بالموت بل يذهب إلى أن الإنسان يتغيب ثم يعود ثانية ، أما تعاليم الإسلام فتقول بأن كل الناس تموت ثم تبعث يوم القيامة . وقد أنكر الثأرون على عثمان أموراً ، منها اللور الفخمة التي شيدها لأهله وبناته بالمدينة ، وتوليته أهله وبنى عمه من بنى أمية على الأعمال والولايات دون غيرهم^(١) ، كذلك قالوا إن عثمان وسع على نفسه وعلى أهله بخلاف أبي بكر وعمر اللذين اعتادا التقلل والكف عن أموال المسلمين ، فنفر المسلمون من ذلك التبذير وعهدهم قريب بضبط أبي بكر وعمر^(٢) ، وزعموا أيضا أن الوليد بن عقبة صلى بالناس الصبح وهو أمير عليها أربع ركعات وهو سكران ثم قال لهم : إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدتكم . فلما بلغ عثمان ذلك لم يسرع إلى إقامة الحد عليه بل أخر ذلك^(٣) .

قد تكون هذه الأسباب التي تذرع بها الثأرون مبالغ فيها أو غير صحيحة . وإن صحّت فهي في الواقع أسباب لا تستدعي الثورة ضد الخليفة ، وقد قيل عن عثمان إنه قد عيب عليه أشياء لو فعلها عمر بن الخطاب ماعيب عليه^(٤) ، وربما أطمع الناس فيه دماثة خلقه ولينه .

ولم يغفل فيلسوف المؤرخين ابن خلدون^(٥) ما انطوت عليه هذه الثورة ، فقد أوضح أن المسألة لم تكن مسألة عثمان إنما كانت عود إلى الجاهلية ونزاع بين القبائل على السيادة ، وأنفة بعض القبائل العربية مثل بني بكر بن وائل وعبد القيس وربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم ، من سيادة

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٦ .

(٢) ابن طباطبغا : الفخرى ص ٨٦ .

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٦ .

(٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣١ .

(٥) العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٢ ص ١٣٨ - ١٣٩ .

المجاهدين والأنصار من قريش وهوهم ، فأظهروا الطمن في ولاية عثمان وفي الخليفة نفسه ، فلما وصلت تلك الأخبار إلى الصحابة بالمدينة ارتابوا لها وحلوا عثمان على النظر في الأمر .

ومما يدل على أن المسألة كانت مسألة أغراض مختلفة ما رواه الطبري (١) من أنه عندما حرض عبد الله بن سبأ أهل مصر على الطمن في أمراء عثمان « وإظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » أخذ أهل مصر يكتبون الكتب إلى الأمصار المختلفة في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم في مثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يحدث ، حتى « أوسموا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يريدون ، فيقول أهل كل مصر إنا لنفي عافية مما ابتلى به هؤلاء . إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا إنا لنفي عافية مما فيه الناس » .

ويظهر أن الخليفة عثمان كان يجهل تلك الحركة في بادئ الأمر ، إذ أنها كانت حركة سرية . ويظهر أيضا أنها وصلت إلى مسامع الصحابة بالمدينة أولا فأعلموا عثمان بها وأشاروا عليه بأن يرسل رجلا ممن يثق بهم إلى الأمصار المختلفة ليتبين ذلك الأمر ففعل ، وأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعبد الله بن عمر إلى الشام وعمار بن ياسر إلى مصر ، وأرسل غيرهم إلى سائر الجهات ، فلما عاد الرسل إلى عثمان أخبروه أن الحالة على ما يرام وأن أهل البلاد لا ينكرون شيئا وأن أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم ، ولكن عمار بن ياسر الذي أرسله الخليفة إلى مصر تخلف ولم يعد إلى المدينة ، ولشد ما كانت دهشتهم عند ما أرسل إليها عبد الله بن سعد كتبا إلى المدينة يقول إن قوما استمالوه ، منهم عبد الله بن سبأ

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٩٨ — ٩٩ .

وخالد بن ملحم وكنانة بن بشر^(١)

ويجدر بنا الآن أن نعرف موقف الثائرين في مصر وكيف كانت هذه البلاد سبياً في تمجيل الحوادث وفي إشعال نار تلك الثورة التي انتهت بقتل الخليفة عثمان بن عفان ، والتي كانت سبياً في انقسام المسلمين على أنفسهم انقساماً طال أمده وتعددت مناحيه .

ذكرنا أن عبد الله بن سبأ طرد من البصرة والكوفة ولم يلق أى نجاح في الشام ، ثم قدم إلى مصر فوجدها متهيجة لقبول دعوته وللطمع في عثمان ، وهذا الأمر يستلقت النظر ويدعو الباحث إلى أن يتساءل عن السبب في ذلك ؛ فلم نجحت دعوة ابن سبأ في مصر نجاحاً كبيراً ؟ ولم لم يطرد منها كما حدث له في البصرة أو الكوفة مثلاً ؟ نحن لا نجد في المصادر القديمة ذكر السبب في ذلك ، ولكن إذا أعوزتنا الأدلة النقلية فلا بأس من أن نلجأ إلى الأدلة العقلية . ويظهر أن الدعوة ضد عثمان نجحت نجاحاً كبيراً في مصر لأن أفراد القبائل العربية التي لا تنتمي لقريش ومن بينهم بعض الصحابة والمجاهدين والذين استقروا بمصر رأوا فيها فرصة للقيام ضد الخلافة ، وهم في ذلك لم يقصدوا الخليفة عثمان نفسه وإنما أرادوا زعزعة سيادة قريش ، فقد كرهوا تلك السيادة التي زادت منذ ظهور الإسلام . وهذا سبب ذكره المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون كما رأينا . على أنه وجد أيضاً في مصر بعض القرشيين الذين ثاروا ضد عثمان ، وعلى رأسهم محمد بن أبي بكر الصديقي ومحمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولا يبعد أن يكون هؤلاء ممن طمعوا في الخلافة نفسها ، فهم يرومون سيادة

(١) الطبري ج ٥ ص ٩٩ ، تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٣٩ ، خطط المقرئ

ج ٢ ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

قريش بالطبع ، ولكن ربما حدثتهم أنفسهم وسط حركة التذمر التي سمرت بين الناس أن يلقوا دلوهم في الدلاء عليهم يصلون إلى منصب الخلافة أو إلى أى منصب عظيم في الدولة الإسلامية . وضع عثمان عبد الله بن سبأ كان يكيد للإسلام والدولة الإسلامية . وضع أن تعاليمه الشيعة أبعد ما تكون عن الدين الإسلامي إلا أنه لا بد كان رجلاً ماهراً ذا مواهب متعددة جعلته يجذب الكثيرين إلى تعاليمه الشيعية ، ولم يكن تأثيره عظيماً على العامة فحسب ، بل نرى أيضاً أنه استطاع بمهارته أن يجذب إليه رجلاً من كبار الصحابة ومن أئمة الحديث وأن يؤلبهم على عثمان ، مثل الصحابي الكبير عمار بن ياسر الذي كان عثمان قد أوقفه للاستفسار عن حقيقة ما قيل بصدد التذمر والثورة ولكنه تنكر للخليفة ولم يعد إليه .

واستطاع عبد الله بن سبأ أن يجذب إليه أيضاً أحد كبار أئمة الحديث ، كان مقبلاً بالشام عند ما كان ابن سبأ يتنقل في الأمصار المختلفة ليثير الناس ضد عثمان ، ذلك هو أبو ذر الغفاري^(١) . وكان هناك فريق من الصحابة يفضل علياً على غيره ، وطبيعي أن يكون في مصر فريق ممن يؤمنون بأن علياً أحق بالخلافة ممن عداه . .

وهكذا نرى أن الثورة ضد عثمان كان الباعث عليها اتجاهات وميول مختلفة ، فمن ثائر يريد بخروجه السكيد للدين الإسلامي والدولة الإسلامية بوجه عام ، ومن متذمر من خلافة قريش وسيادتها ، ومن طامع في الخلافة ومن شيعي خرج مؤمناً بحق علي بن أبي طالب في الخلافة ، وقد تتجمع هذه العوامل المختلفة في بلد آخر غير مصر . ولكن يظهر أن الذي ساعد على نجاح تلك الحركة فيها والذي سهل على ابن سبأ القيام بمهمته هو انشغال

(١) الطبري ج ٥ ص ٦٦ .

والى مصر إذ ذاك ، عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، بالحروب الخارجية التى قام بها ، إذ غزا النوبة وعقد مع ملكها هدنة سنة ٣١ هـ وغزا إفريقية سنة ٢٧ هـ كما حارب الروم فى وقعة ذى الصوارى سنة ٣٤ هـ^(١) ، وفى هذه الأثناء بالذات كان عبد الله بن سبأ يقوم بدعوته وفى سنة ٣٤ هـ كان النأثرون على عثمان فى مصر والأمصار المختلفة يتكاثرون للاجتماع لمناظرة فيما كانوا يذكرون أنهم تقوموا عليه بسببه^(٢) ، أى أن الثورة التى كان يدعو إليها ابن سبأ والتى كان مركزها فى مصر كانت قد اختمرت وخرجت إلى دور العمل والتنفيذ فى السنة التى كان يقزو فيها عبد الله بن سعد الروم ، تلك الغزوة التى أسفرت عن انتصار العرب الباهر ضد البيزنطيين . فى الوقت الذى كان عبد الله بن سعد مشغولا بغزوات وفتوحات عظيمة كان ابن سبأ يعمل فى الخفاء ضد عثمان . ويظهر أن عبد الله بن سعد لم يعلم بأمر هذه الثورة إلا سنة ٣٥ هـ بعد رجوعه من غزوة ذى الصوارى كما يخبرنا بذلك أبو المحاسن^(٣) ، فليس هناك ما يشير إلى أنه علم بهذه الحركة قبل ذلك الوقت وإلا لما تفاقل أو تماهى عنها وهو أخو عثمان فى الرضاة وموضع ثقته .

وتذكر بعض المراجع المتأخرة أن الذى ساعد على نجاح تلك الحركة فى مصر هو سخط أهلها على واليها عبد الله بن سعد لأنهم كرهوا أن يليهم بعد عمرو بن العاص ولأنه اشتغل عنهم بقتال أهل المغرب وغيرها^(٤) ولكن عبارة « أهل مصر » هنا ليس معناها المصريين الوطنيين فهؤلاء

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٢ — ١٣

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٩٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٨٠ .

(٤) النجوم الزاهرة ص ٨٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢ .

لم يقوموا بتلك الحركة ولكن يقصد بها العرب الذين استقروا بمصر وكانوا
أجناداً كما نعلم، فلعل الذين اشتركوا معهم في الفتح كرهوا أن يولى عليهم
غير قائدهم الأول عمرو بن العاص . ولعل عمراً نفسه - وهو المعروف
بدهائه العظيم - كانت له يد في إثارة الاضطراب بمصر ليفسد الأمر على
خلفه عبد الله بن سعد . ولعل كثيراً من الجند العرب في مصر أصبحوا
لا يرحبون بقتال أهل المغرب إما رغبة في الراحة أو استخفافاً بنتائج هذا القتال
وما يصيبونه فيه من غنائم .

ولنرى الآن ما تم من أمر هذه الثورة وإلى أى حد نجح الثوار
في ثورتهم .

وقد عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى عثمان بن عفان بالمدينة في رجب
سنة ٣٥ هـ واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني في قول ، أو السائب
ابن هشام بن كنانة العامري في قول آخر^(١)، ولكن خليفته عليها طرد من
الفسطاط في شوال من السنة المذكورة على يد محمد بن أبي حذيفة الذي أخذ
يدعو الناس إلى خلع عثمان ويحرض عليه بكل الوسائل الممكنة للرجة أنه
كان كما يذكر المقرئ^(٢) يكتب الكتب على لسان أزواج الرسول عليه
الصلاة والسلام ويدعى أنهم كتبها ويقرأها في المسجد فإذا فيها الاستفانة
مما عمل في الإسلام وما صنع في الإسلام ، وبالطبع صدق أناس وكذب آخرون
وبالطبع كان لعثمان شيعه في مصر فنادوا ابن أبي حذيفة وأرسلوا إلى عثمان
من يخبره بصنيعه ، ومن بين شيعه عثمان في مصر معاوية بن حديج وطلحة

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ١٣ - ١٤ ، خطط المقرئ ج ٢

ص ٣٣٥ .

(٢) الكندي ص ١٤ ، المقرئ ج ٢ ص ٣٣٤ .

ابن حذافة ومسلمة بن مخلد وبسر بن أبي أرطاة وغيرهم كثير^(١)

وأراد عثمان بن عفان معالجة الموقف باللين والسياسة لا بالعنف والشدة ، خوفا من إراقة دماء المسلمين فأرسل سعد بن أبي وقاص عليه يستطيع أن يصلح بين المصريين ويوصل إلى حل في المسألة . ولكن سرعان ما خطب ابن أبي حذيفة في أتباعه يحضهم على التماسك ولا يتخذوا الرسول عثمان بدعوى أنه جاء ليشتت أمرهم ويفل عزيمتهم ، وكان لكلامه أكبر الأثر في أتباعه إذ سار إلى سعد بن أبي وقاص نحو مائة شخص فأساءوا إليه واضطروه إلى العودة من حيث أتى . وما لبث عبد الله بن سعد أن أتى مصر إلا أنه لم يكذب بل بلغ جسر القلزم حتى منعه أتباع ابن أبي حذيفة من الدخول فيها ، فطلب منهم أن يسمحوا له بالدخول ليخبر جنده بما أتى به ، ولكنهم أصروا على منعه فرحل إلى عسقلان وظل بها إلى أن توفي^(٢) .

ولم تقف الثورة في مصر عند هذا الحد من عصيان الخليفة ، بل فكر ابن أبي حذيفة في إرسال جيش من مصر إلى عثمان بن عفان ، فأرسل ستمائة رجل على كل مائة منهم رئيس أما قائدهم الأعلى فكان عبد الرحمن ابن عديس البلوي . وكانت النتيجة أن قتل عثمان رضي الله عنه في ذي الحجة سنة ٣٥ هـ وعاد هذا الجيش ثانية إلى مصر^(٣) . وهناك رواية أخرى تذكر أن وفد مصر ، وكان معهم الثائرون من البصرة والكوفة ، خرجوا متظاهرين بأن غرضهم العمرة^(٤) ولكنهم كانوا يريدون الثورة على عثمان

(١) الكندي : الولاية والقضاة ص ١٥ ، خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٣٥

(٢) الكندي ص ١٦ - ١٧ ، خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٣) الكندي ص ١٧ ، خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٤) العمرة : زيارة البيت الحرام في غير أوقات الحج ويسمى الحج الأصغر .

ابن عفان ، وكان من بينهم محمد بن أبي بكر الصديق فشكوا إلى عثمان بن عفان واليه على مصر عبد الله بن سعد وطلبوا منه عزله فأجابهم عثمان إلى طلبهم وكتب بتولية محمد بن أبي بكر على مصر وعزل عبد الله بن سعد فقفل ذلك الوفد راجعاً ، وبينما هم في الطريق رأوا راكباً ارتابوا في أمره ففتشوه وإذا معه كتاب من عثمان إلى عبد الله بن سعد يأمر فيه بقتل محمد بن أبي بكر ونفر من معه ، فأخذوا الكتاب ورجعوا ثانية إلى المدينة . وقرأوه على من فيها من الصحابة وقد أنكر عثمان ذلك الكتاب وحلف لهم أنه لا يعلم من أمره شيئاً ، فظنوا أن الكتاب كتبه مروان بن الحكم كاتب عثمان وابن عمه وطلبوا إليه أن يسلم إليهم مروان فلم يرض عثمان بذلك إذ أن مروان حلف هو الآخر أنه لم يكتبه . فطلبوا إليه أن يعتزل الخلافة فأبى وتمسك بها ، ومالئت الثوار أن تطاولوا عليه وقتلوه أفضع قتلة وربما شجعهم على قتله ما علموا من استنجاهه بمعاوية بن أبي سفيان وعبد الله ابن عامر وإلى البصرة وأمراء الأجناد فأرادوا أن يتموا ثورتهم قبل وصول المدد إلى عثمان خوفاً من أن يقضى على حركتهم هذه بالفشل . وكان يدافع عن عثمان في داره مائة رجل من الصحابة وهو عدد قليل بالنسبة للثائرين ، ويقال إن محمداً بن أبي بكر هو أول من حرّض الثوار على قتله وأول من دخل عليه ليقتله^(١) .

قد تكون الرواية السابقة صحيحة وقد يكون خصوم عثمان دسوها دساً بتهمونه بالخداع أو الفعلة ، خصوصاً إذا علمنا أن عبد الله بن سعد كان قد خرج من مصر قبل خروج الثائرين إلى عثمان ولم يضع قتل عثمان حداً لتلك الفتنة ، بل كان بداية الفتن والمنازعات التي حفل بها التاريخ الإسلامي في المصور الوسطى .

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٤١ — ٤٨ ، ابن الأثير : الكامل

في التاريخ ج ٣ ص ١٢٨ — ١٣٦

ب - أمر النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان في مصر

كان مقتل عثمان بن عفان كما يقول ابن خلدون^(١) فتنة ابتلى الله بها الأمة ، فقد بويع علي بن أبي طالب من بعده بالخلافة في سنة ٣٥ هـ ولكن النزاع تجدد بين المسلمين حول هذه المسألة . إذ رأى علي ومن تبعه أن بيعته قد انقضت ولزمت من تأخر عنها وذلك لاجتماع من اجتمع عليها بالمدينة ، دار النبي صلى الله عليه وسلم وموطن الصحابة ، وأرجأ المطالبة بدم عثمان ريثما يجتمع الناس وتتفق الكلمة فيتمكن حينئذ من ذلك . ورأى آخرون أن بيعته لم تنقض لافتراق الصحابة ولا تكون البيعة صحيحة إلا باتفاق أهل الحل والمقد كما أنها لا تكون صحيحة بغيرهم أو بحضور أقلية منهم ، كذلك رأوا أن المسلمين كانوا حينئذ في فوضى واضطراب فيجب أولاً المطالبة بدم عثمان ثم الاتفاق على خليفة المسلمين . وكان على رأس هذا الفريق المعارض لخلافة علي ، معاوية بن أبي سفيان وإلى بلاد الشام من قبل عثمان بن عفان وابن عمه .

وقد بادر علي بعد توليه الخلافة بمزل ولاية عثمان وإرسال عماله إلى الولايات ، كذلك أرسل بيعته إلى جميع الأمصار . والظاهر أن البيعة جاءت من كل مكان إلا بلاد الشام التي كان يليها معاوية بن أبي سفيان ، فكان لابد من نشوب النزاع بين الطرفين وبيننا هما يستعدان لذلك وقع على مسرح الخلاف السياسي حادث جديد . هو خروج طلحة والزبير وعائشة زوج

(١) المقدمة ص ١٧٩ (فصل في ولاية العهد) .

الرسول على خلافة على واشتبا كهم معه في موقعة الجمل التي انتهت بانتصار على وقتل طلحة والزبير وأسر السيدة عائشة في سنة ٣٦ هـ . وفي تلك الأثناء استطاع معاوية أن يستميل إليه رجلاً من أكبر دهاة العرب : هو عمرو ابن العاص . ويذكر اليعقوبي^(١) أن عمرو بن العاص اشترط على معاوية بن أبي سفيان أن تكون ولاية مصر طعمة له نظير مساعدته له ضد علي فقبل معاوية ذلك .

سار علي بن أبي طالب في أواخر سنة ٣٦ هـ من الكوفة — التي اتخذها مقراً لخلافته بعد موقعة الجمل — نحو الشام لمحاربة معاوية وتقابل الفريقان في سهل صفين ، حيث نشب القتال بين الفريقين . وانتهت تلك الموقعة في صفر من سنة ٣٧ هـ بحيلة ارتآها عمرو بن العاص . إذ أشار على معاوية برفع المصاحف على الرماح والنداء بتحكيم القرآن بدلاً من تحكيم السيف فكان ذلك سبباً في فتور أكثر جند علي بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار . وقد اختير عمرو بن العاص حكماً من قبل معاوية كما اختير أبو موسى الأشعري من قبل علي . وقيل إن هذا التحكيم انتهى باتفاق الحكيم علي خلع على معاوية ، فأعلن أبو موسى الأشعري خلعهما ، ثم قام عمرو فأعلن خلع علي وتثبيت معاوية لأنه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بأن يخلفه^(٢)

وقد خرج معاوية من التحكيم أقوى مما كان فقد رضى أهل الشام بخلافته ، ولا بد أن فريقاً غيرهم من الناس اعتقد بصحة التحكيم وبصحة خلافة معاوية ، كذلك خرج فريق من أتباع علي عليه بسبب رضائه

(١) تاريخ ج ٢ ص ٢١٦ — ٢١٧ .

(٢) انظر الطبري ج ٦ ص ٣٧ — ٤٠ ، المسعودي : مروج الذهب . ج ٢

ص ٢٨ — ٣٣ (ط . القاهرة) .

بالتحكيم وهذا الفريق هو الذي يعرف بالخوارج ، كما أن فريقاً آخر من جند علي ملوا الحرب والنزاع . وقد عزم علي على محاربة أهل الشام لاعتقاده أن الحكمين حكما الهوى ولم يحكما القرآن ، وحث الناس على قتالهم في سنة ٣٨ فتشاقلوا ولم يطيعوه إذ كانوا قد ملوا الحرب وشتمو القتال .

وقد اتفق ثلاثة من الخوارج على قتل علي ومعاوية وعمرو فلم ينجح من هؤلاء الخوارج سوى عبد الرحمن بن ملجم الذي قتل علياً بالكوفة في شهر رمضان من سنة ٤٠ هـ . وبقتله انتهى عهد الخلفاء الراشدين وبابيع المسلمون من بعده ابنه الحسن بن علي ، ولكن خلافته لم تزد على بضعة أشهر ، إذ كان لا قبل له بمحاربة معاوية وجنده فتنازل له عن حقه في الخلافة .

تجلى النزاع بين علي ومعاوية بأجلى مظاهره في مصر التي كانت مركزاً للثائرين على عثمان بن عفان . فبعد مقتله في ذي الحجة سنة ٣٥ هـ عاد الركب الذي كان قد خرج عليه إلى مصر ثانية ، ويروح أن نفرأ منهم تخلفوا في المدينة ومنهم محمد بن أبي بكر نفسه ، ويظهر أن أولئك الثائرين كانوا يتوقعون أن يفتقم منهم شيعة عثمان أو أنهم كانوا كما دعتهم دائماً يمزجون السياسة بالدين ، وذلك لأنهم لما أتوا الفسطاط ودخلوا المسجد صاحوا : « إنا لسنا قتلة عثمان ولكن الله قتله ^(١) » أما شيعة عثمان في مصر فقد بايعوا معاوية بن حديج على الطلب بدم عثمان فسار بهم إلى الصعيد ، ولكن ابن أبي حذيفة أرسل إليهم من يحاربهم والتقى الفريقان في إحدى قرى البهنسا فكان النصر لحليف شيعة عثمان وهزم جيش ابن أبي حذيفة . ثم

(١) الكندي : الولاية والقضاء ص ١٨ خطوط المقرئ ص ٢ ص ٣٣٥ .

سار معاوية بن حديج إلى برقة ولا نمرف لساذا سار إليها — ثم رجع ثانية إلى الاسكندرية فأرسل إليه ابن أبي حذيفة جيشاً آخر على رأسه قيس بن حرميل اللخمي فاقتتل الجيشان بخربتا^(١) في أول شهر رمضان سنة ٣٦ هـ فقتل قيس بن حرميل وهزم جيشه^(٢) . وعلى هذا نرى أن شيعة عثمان في مصر انتصرت للمرة الثانية على الحزب الذي ثار على عثمان ولما يحض عام واحد على مقتله .

نرى إذن أن النزاع الذي كان يقوم في حاضرة الخلافة أو حول منصب الخلافة كان يؤدي إلى فوضى ونزاع في مصر حتى تكاد تنعدم سلطة الخليفة في تلك الظروف ، فنرى ابن أبي حذيفة يفتصب ولاية مصر لنفسه دون أن يعينه خليفة ، كما نرى شيعة عثمان وشيعة علي يقتتلان في مصر .

ويظهر أن انتصار شيعة عثمان على ابن أبي حذيفة شجع معاوية بن أبي سفيان على القدوم إلى مصر لثروتها وخيراتها الوفيرة ولموقعها الجغرافي الممتاز فوصل في نفر من أصحابه إلى سَلَمَت من كورة عين شمس في شوال سنة ٣٦ هـ فخرج إليه ابن أبي حذيفة وأهل مصر^(٣) لينعموه من دخولها ، فبعث معاوية — بما عرف عنه من الدهاء وحسن السياسة إلى ابن أبي حذيفة يقول لهم لم يجيئوا لقتال أحد وإنما جاءوا يطلبون القصاص لدم عثمان ويريدون القبض على قاتليه وهما عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر اللذين كانا على رأس الوفد الذي ذهب إلى المدينة لقتل عثمان ، فلم يجب ابن أبي حذيفة

(١) خَرِبَتَا . بفتح الحاء أو كسرهما كانت من كور الحوف الغربي بالقرب من الإسكندرية وهي الآن خراب لا يعرف (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤١٦)

(٢) الكندي ص ١٨ — ١٩ ، خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٢٥ — ٢٢٦

(٣) مصر هنا تعني القسطنطينية لا القطر المصري لأن معاوية بوصوله إلى عين شمس كان قد دخل القطر المصري فعلا وليس القسطنطينية عاصمة مصر .

طلب معاوية وقال له لو طلبت منا جديا رطب السرة بثمان ما دفعناه إليك !!
وهنا لجأ معاوية إلى الحيلة مرة أخرى فعرض على ابن أبي حذيفة وأتباعه
بأن يعطوه رهنا لكي يتفادوا حربه ضدهم . فرضى ابن أبي حذيفة بذلك
وخرج في الرهن هو وابن عديس وكنانة بن بشر وغيرهم من قتلة عثمان فلما
بلغوا لُد^(١) سجنهم معاوية بها . وسار هو إلى دمشق فهربوا من السجن
فتبعهم صاحب فلسطين وقتلهم في ذي الحجة سنة ٣٦ هـ^(٢)

واستطاع معاوية بمهارته وسياسته أن يقضى على معظم الحزب العلوى في
مصر ، ولا سيما الذين كانوا قد ثاروا على عثمان ، دون أن يكلفه ذلك حربا
أو سفك دماء . ولم يلجأ إلى حربهم أو إلى دخول مصر عنوة في وقت كان
يستعد فيه لحرب يتوقف عليها مصير الخلافة بينه وبين علي بن أبي طالب

ولما بلغ عليا نبأ قتل ابن أبي حذيفة أرسل إلى مصر قيس بن سعيد
ابن عبادة الانصارى واليا عليها من قبله فدخلها في بداية ربيع الأول
سنة ٣٧ هـ . ويظهر أن قيسا كان من أصحاب القدرة السياسية الذين يعرفون
كيف يستميلون الرجال حتى المعادين لآرائهم ومبادئهم ، فتراهم يحسن إلى
شيعة عثمان بخربتا ويكرمهم ويبعث إليهم بأعطياتهم . ولعل معاوية خشى أن
تجمل سياسته هذه من مصر ولاية علوية لا تعرف غير علي والطاعة له
فيقضى بذلك على حزب بنى أمية ، فعمل هو وعمرو بن العاص على إخراجه من
مصر بأية وسيلة ، ولكنه امتنع مهما بالدهاء والمكايدة . وأخيرا لجأ معاوية
إلى مكيدة استطاع بها أن يجعل عليا يشك في إخلاص قيس بن سعد فكان

(١) هي الآن لُد Lydda في فلسطين على الطريق الذي يوصل بين مصر وسوريا
(لد . بالضم والتشديد . . قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين) — ياقوت : معجم
البلدان ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٢) الكلى : الولاة والقضاة ص ١٩ ، وخطط القريرى : ج ٢ ص ٣٣٦

معاوية يحدث رجلا من ذوى الراى من قريش فى هذا ويقول « ما ابتدعت من مكايده قط أعجب إلى من مكايده كدت بها قيس بن سعد حين امتنع منى قيس ». إذ تظاهر معاوية لأهل الشام بأن قيسا من شيعته وأن كتبه ونصائحه تأتيه منه. وكتب بذلك إلى شيعته فى العراق ، فسمع بذلك جواسيس على فى العراق ، وانتهى ذلك الخبر إلى على وأراد أن يتحقق من صحته فأرسل إلى قيس يأمره بمحاربة شيعه عثمان بخربتا فرفض قيس مقاتلتهم مبعلا ذلك بأهم وجوه أهل مصر وأشرفهم فنهزم مسلحة بن غلده وبسر بن أبى أرطاة ومعاوية بن حديج وقال إن معاملتهم بالحسن خير من قتالهم ؛ فقتلهم لا يجدى نفعا وأنه فى الواقع يكيد لهم بمعاملتهم بالحسن ، ثم كتب إلى على : « إن كنت تهمنى فأعزلى وأبعث غيرى » فعزله على وكانت ولايته على مصر حوالى أربعة أشهر . وولى على مصر الأشتر مالك بن الحارث النخعى وهو من أعوان على وكبار قواده حضر معه موقعى الجمل وصفين . وسار الأشتر إلى مصر حتى نزل القلزم فى بداية رجب سنة ٤٣٧هـ ، وهناك شرب عسلا فأت مسموما . ولما سمع بذلك معاوية وعمرو قال عمرو : « إن لله جنودا من عسل^(١) » ومن المحتمل أنه كان لمعاوية وعمرو يد فى مقتله .

وكتب أبوالمحسن^(٢) أن معاوية استاء من تولية الأشتر مصر لكفايته وشدته فكتب إلى عامل القلزم يمنيه بوعود مختلفة على أن يهلك الأشتر بكل طريقة يقدر عليها ، فكان أن قدم عامل القلزم للأشتر طعاما وعسلا مسموما فأت لساعته .

(١) الكندى : الولاة والنفاسة ص ٢٠ — ٢٤ ، حطط المقرئى ج ٢ ص ٣٣٦

(٢) النجوم الزاهرة : ج ١ ص ١٠٣ — ١٠٤

لما علم على بموت الأشتر أرسل إلى مصر محمد بن أبي بكر فكان حكمه بداية النهاية لحكم على بن أبي طالب في مصر ، ولا غرو فقد كان رجلا يجهل أمور السياسة والحكم ، وكانت تطلب على طبيعته روح الفوضى والثورة ، وفيه حب للرياسة والزهو ، وقد تجلت طبيعته هذه في ثورته ضد عثمان وفي سياسته في مصر عندما وليها .

قدم محمد بن أبي بكر إلى مصر في رمضان سنة ٣٧ هـ . ويقال إن قيس ابن سعد لقيه فنصحه عدة نصائح تختص بحكم مصر ، تذكرنا بسياسة قيس قبل أن يمزله على ، ومن تلك النصائح أن يصانع شيعة عثمان في مصر ليكشف بمعاملته الحسنة عن أمرهم وآرائهم ، كما نصحه بأن يحسن سياسته مع الشعب بوجه عام وبأن يتحجب إلى الناس وذلك بأن يعود المرضى ويشهد الجنائز ، وغير ذلك من النصائح التي تستحق التقدير . على أن محمد بن أبي بكر لم يفعل شيئا من ذلك ، بل كان أول ما عمله أن كتب إلى معاوية بن حديج ومن معه من شيعة عثمان يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه فبعث إلى دورهم فهدمها ونهب أموالهم وسجن ذراريهم ، فنهضت شيعة عثمان لمحاربتة ولما علم أنه لا قبل له بهم كف عنهم ثم صالحهم على أن يسيرهم إلى معاوية ففعلوا ولحقوا بمعاوية^(١) . ويظهر أن ذلك جعل معاوية يتخذ خطة الهجوم وينهى خطة السياسة والمكائد ويرسل جيشا لفتح مصر .

في ذلك الوقت الذي عزم فيه معاوية على إرسال جيش لاستخلاص مصر من على ، كان قد اتفق هو وعلى على التحكيم عقب موقعة صفين ، ونعرف أن مدة التحكيم كانت بمثابة هدنة يضع فيها الفريقان المتحاربان السلاح . وتذكر المصادر أنهما لما اتفقا على التحكيم غفل على أن يشترط

(١) الكندي ص ٢٦ - ٢٨ ، خطط المقرئ ص ٢ ص ٣٣٧ .

على معاوية ألا يقاتل أهل مصر^(١) ، ولذا أصبح معاوية في حل من قتال أهلها . ويذكر أبو المحاسن^(٢) أن معاوية طمع في مصر لما اختلف أهل العراق على علي ، وكان معاوية قبل ذلك يهاب مصر لكثرة الشيعة بها بالرغم من أن أهل خربتها كانوا عثمانيّة ، ويذكر أيضا أن معاوية قصد باستيلائه على مصر أن يستعين بها على حرب علي . ولأهمية تلك المسألة استشار معاوية خواصه ومن بينهم عمرو . فقال عمرو : « أهك أمر مصر وخراجها الكثير وعدد أهلها فتدعوننا لنشير عليك فيها فاعزم وانهض ، في افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت عدوك . فقال له معاوية . يا ابن العاص : « إنما أهك الذي كان بيننا^(٣) » وقد رأى بقية خواصه ما رأى عمرو . وفي تلك الأثناء كاتب معاوية شيعته في مصر وعلى رأسهم معاوية بن حديج ومسلمة ابن مخلد يمنهم بقدوم جيشه فكتبوا إليه : « أما بعد فعجل علينا بمخيلك ورجلك ، فإن عدونا قد أصبحوا لنا هائبين فإن أتانا المدد من قبلك يفتح الله علينا » .

هذه هي الرواية التي يذكرها أبو المحاسن ويستفاد منها أن شيعة عثمان بمصر لم يخرجوا منها ، وأن معاوية لم يرسل جيشا لاستخلاص هذه البلاد إلا بعد أن تمهدت له الأمور في مصر .

وقد تكون شيعة عثمان في مصر قد خرجت حقا في ولاية محمد بن أبي بكر كما ذكرنا سابقا ، ولكن الأرجح أنها لم تخرج كلها بل ظل فيها طائفة منهم .

وقد أرسل معاوية سنة ٣٨ هـ جيشا إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص .

(١) السكندى ص ٢٨ ، خطط المقرئى ص ٣ ص ٣٣٧

(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٠٧ — ١٠٨

(٣) يشير معاوية بذلك إلى الاتفاق الذي كان بينه وبين عمرو على أن يعطيه

مصر طعمة له وذلك عند ما تعاهد معه على قتال علي

وهنا يجب أن نتذكر أن عمراً لم يكن يستخلص مصر هذه المرة من أيدي البيزنطيين كما فعل سنة ٢٠ هـ وإنما كان يستخلصها من شيعة على ابن أبي طالب ، فكان جيش عمرو في تلك المرة يحارب فريقاً من متبعيه يدين بدينه ، لا شعباً أجنبياً عنه ويدين بدين غير الدين الإسلامي . ففي سنة ٢٠ هـ وقف العرب كتلة واحدة أمام البيزنطيين ، وهنا في سنة ٣٨ هـ انقسم العرب على أنفسهم وأصبح حزب منهم يقاتل حزبا آخر . وكان جيش عمرو يتكون من أهل دمشق وعليهم يزيد بن أسد البجلي وأهل فلسطين وعليهم رجل من خشم وكان معاوية بن حديج على رأس شيعة عثمان ، وأبو الأعور السلمي على أهل الأردن . وتقابل جيش عمرو مع جيش محمد بن أبي بكر فأقتلوا بالمساة^(١) وهزم الجيش الذي كان يقوده محمد بن أبي بكر بعد أن تكبد الفريقان خسائر فادحة في الأرواح . وبين شدة القتال في تلك الموقعة ما قاله عمرو : « شهدت أربعة وعشرين زحفاً فلم أريوما كيوم المساة ولم أو الأبطال إلا يومئذ » وبعد انتصار عمرو دخل هو وأهل الشام مدينة القسطنطينية^(٢) .

هرب محمد بن أبي بكر بعد تلك الموقعة فأقبل معاوية بن حديج في رهط من أنصاره يبحث عنه فدلته على مكانه امرأة فسار إليه معاوية بن حديج وقتله وقال : يقتل كنانة بن بشر ويترك محمد بن أبي بكر وإنما أمرهما واحد^(٣) ! ويقال إن محمداً طلب الصفون من معاوية بن حديج فقال له معاوية : « قتلت ثمانين رجلاً من قومي في عثمان وأتركك وأنت صاحبه ! » فقتله ووضع في جيفة حمار ميت وأحرقه بالنار . فكانت ولاية محمد بن أبي بكر

(١) المساة : مكان بين عين شمس وأم دين أي شمال القاهرة .

(٢) الكندي : الولاية والقضاة ص ٢٩

(٣) الكندي ص ٢٩

على مصر خمسة أشهر ومقتله في ١٤ من صفر سنة ٣٨ هـ وقيل أيضاً إنه قطع رأسه وأرسله إلى معاوية بن أبي سفيان بدمشق وطيف به ، وهو أول رأس طيف به في الإسلام^(١) ، وبذلك انتهى حكم الخلفاء الراشدين من مصر في صفر سنة ٣٨ هـ^(٢) . وتقديراً لهذه الخدمات التي أداها عمرو بن العاص ولأه معاوية مصر صلاتها وخراجها وجعلها له ملعة بعد عطاء جندها والنفقة على إدارتها ، وهذه هي ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر . ولم يلبث عمرو أن خرج للتحكيم الذي كان بين علي ومعاوية واستخلف على مصر ابنه عبد الله ، وفيل خارجة بن حذافة صاحب شرطته ، وبعد أن أدى مهمته في التحكيم كما رأينا عاد ثانية إلى مصر^(٣) . وهكذا أصبحت مصر ولاية تابعة للدولة الأموية منذ سنة ٣٨ هـ بالرغم من أن علياً ظل خليفة حتى سنة ٤٠ هـ .

٢ -- النزاع الذي قاصم حول النهوض زعمه الخلفاء الأمويين (٤٠ - ١٣٢ هـ = ٦٦١ - ٧٥٠ م) :

١ -- دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة وأثر ذلك في مصر

طمع عبد الله بن الزبير في الخلافة كما طمع غيره وتجلت أمنيته هذه منذ خروجه مع أبيه في موقعة الجمل^(٤) ، على أن الفرصة لم تكن قد حانت بعد لخروجه وادعائه الخلافة ، بل نراه يشترك في خدمة الدولة زمن معاوية

(١) خطط المقرئى : ج ٢ ص ٣٣٧

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١١٠

(٣) الكندى ص ٣١ ، خطط المقرئى : ج ٢ ص ٣٣٧

(٤) انظر الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ١٦٩ ، ابن طباطبا :

الغزى ص ٧٦

ابن أبي سفيان ويخرج في الجيش الذي سار لعزو القسطنطينية سنة ٤٩ هـ بقيادة يزيد بن معاوية^(١). وعند ما أخذ معاوية قبيل وقاه البيعة لابنه يزيد، عارض في تلك البيعة نفر يسير من أهل المدينة منهم الحسين بن علي وعبد الله ابن الزبير. وقد حذره معاوية من هؤلاء النفر وخاصة من ابن الزبير إذ قال له «... وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فإن هو وثب عليك فظفرت به فقطمه إربا لإربا واحقن دماء قومك ما استطعت^(٢)». ولما ولي يزيد بن معاوية الخلافة (٦٠ - ٦٤ هـ = ٦٨٠ - ٦٨٣ م) امتنع الحسين والزبير عن مبايعته. فأما الحسين فقد خرج على يزيد وقتل في اليوم المباشر من المحرم سنة ٦١ هـ بكر بلاء، ويقتله خلا الجو لابن الزبير فدعا لنفسه بالخلافة في سنة ٦١ هـ وبايعه أهل تهامة والحجاز^(٣). وقد أرسل يزيد جيشا في سنة ٦٣ هـ لمحاربة ابن الزبير وأتباعه في المدينة ثم مكة، ومات يزيد ولما يتم إخضاع ابن الزبير. ثم ولي الخلافة معاوية الثاني ابن يزيد، إلا أن مدة خلافته لم تطل فقليل إنه ملك أربعين يوما وقيل ثلاثة أشهر، وحدثت بعد موته فترة هرج ومرج ونزاع حول منصب الخلافة، وفي تلك الأثناء اتسع نطاق دعوة ابن الزبير الذي بايعه أهل الشام كلهم إلا أهل الأردن، وكذلك بايعه أهل مصر كما غلب على أهل العراق والحجاز واليمن.

ولما بويع مروان بن الحكم بالخلافة في سنة ٦٤ هـ (٦٨٤ م) كان عليه أن يقضى على معارضة عبد الله بن الزبير. أما في الشام فقد انتصر على

(١) الطبري: ج ٦ ص ١٣٠.

(٢) ابن طباطبا: الفخرى ص ٩٨.

(٣) الدينوري: الأخبار الطوال ص ٢٦٠، الطبري ج ٦ ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

الضحاك بن قيس عامل عبد الله بن الزبير في موقعة مرج راهط وقتله وبذلك خلصت بلاد الشام لمروان ، وكذلك استولى مروان بن الحكم على مصر من عامل ابن الزبير كما سنرى ، ومات مروان في سنة ٦٥ هـ (٦٨٥ م) وابن الزبير متغلب على الحجاز والمراق .

وفي عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ = ٦٨٥ — ٧٠٥ م) تم القضاء على ابن الزبير ، إذا تغلب بنو أمية على المراق في سنة ٧٢ هـ ، وعلى الحجاز في سنة ٧٣ هـ ، وانتهى الأمر بقتل ابن الزبير في هذه السنة .

وقد مر بنا أن مصر أصبحت ولاية تابعة للدولة الأموية منذ سنة ٣٨ هـ وأصبح ولايتها منذ ذلك الحين يولون من قبل الخلفاء الأمويين ، ولم تظهر دعوة ابن الزبير في مصر إلا عقب وفاة الخليفة يزيد وذلك في ولاية سميد ابن يزيد عليها (٦٢ — ٦٤ هـ) . وقد قام بتلك الدعوة الخوارج وكانوا يحسبون ابن الزبير على مذهبهم^(١) . والواقع أن هذه الفرق المختلفة من الشيعة والخوارج كانت تؤيد جموع النافرين على الخلافة عليها تستطيع الوصول إلى مآربها المختلفة دينية كانت أو سياسية . فلم يقل أحد بأن ابن الزبير كان يدين بمذهب الخوارج ، ولكن ربما ادعى الخوارج في مصر ذلك ، وساعدتهم في دعوتهم هذه ما لاقوه من ترحيب ابن الزبير بهم واعتماده عليهم في نشر دعوته .

أوفد الخوارج في مصر وقدا إلى ابن الزبير — ليرسل إلى مصر أميرا من قبله يؤازرونه . كذلك خرج من مصر إلى ابن الزبير أناس من غير

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٤٠ — ٤١ ، خطط المقرئى : ج ٢

الخوارج ، منهم أبو عبيدة وعياض ابنا عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهري
وأبو بكر بن القاسم بن قيس المذري وحيان بن الأعين الحضرمي وحجوة
ابن الأسود الصدفى — ثم أرسل ابن الزبير واليا عن قبله على مصر
هو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهري ، فقدم مصر فى طائفة من
الخوارج الذين قاموا ضد واليها سعيد بن يزيد فاعتزل الولاية سنة ٦٤ هـ
ومن ثم بدأت ولاية عبد الرحمن بن جحدم فى شعبان سنة ٦٤ هـ وأصبحت
مصر ولاية تابعة لخلافة عبد الله بن الزبير . وقد بايعه الناس فى مصر ومنهم
شيعة بنى أمية الذين بايعوه فى الظاهر إلا أنهم كانوا مخلصين للأمويين
وللحكم الأموى فى الباطن^(١) . فلما بويع مروان بن الحكم خليفة بالشام فى
ذى القعدة سنة ٦٤ هـ دعاه شيعته بمصر لاستخلاصها من عامل ابن الزبير .
فقدم مروان بن الحكم إلى مصر وأرسل أمامه جيشا بقيادة ابنه
عبد العزيز بن مروان وأمره أن يدخل مصر عن طريق أيلة . وقد
أشار الجند على ابن جحدم بحفر خندق حول القسطنطين للدفاع عن مصر ،
فأمر بحفر هذا الخندق فحفر فى شهر واحد ، وفى ذلك يقول ابن أبى ذرمة
الخشنى .

وما الجد إلا مثل جد ابن جحدم وما العزم إلا عزمه يوم خندق
ثلاثون ألفا قد أثاروا ترابه وخدوه^(٢) فى شهر حديث مصدق
وقد أعقب ابن جحدم ذلك بإرسال جيش إلى الشام أمر عليه السائب
ابن كنانة بن هشام العامرى كما سير إليها حملة بحرية بقيادة الأكدر بن هام

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٠ — ٤٢ ، خطط القريرى ج ٢

ص ٣٣٧

(٢) 'خدوه : شقوه

اللعنمى . وأرسل إلى أيلة جيشا آخر بقيادة زهير بن قيس البلوى لينفع عبد العزيز بن مروان من السير إليها . أما جيش السائب فقد انتصر عليه مروان بمخدعة غريبة إذ أخبره روح بن زنباع بأن للسائب بفلسطين ولدا رضيعا فأخذه مروان ولما التقى بجيش السائب أظهر له ابنه وهدده بقطع رأس ابنه إذا لم يرجع ، فرجع السائب دون قتال ولذلك سمي جيشه جيش الكرادين ، وأما المراكب التي سيرها ابن جحدم فقد هبت عليها ريح عاصف أغرقها ونجا أميرها الأكدر وعاد إلى الفسطاط . وقد التقى جيش زهير بن قيس بعبد العزيز على مقربة من أيلة وتقاتلا فانهزم زهير ومن معه (١) .

وسار مروان إلى مصر حتى نزل عين شمس فخرج إليه ابن جحدم في اتباعه وتحاربوا يوما أو يومين ثم رجعوا إلى خندقهم . وأخذوا يحاربون مروان وهم في الخندق ، وقد سميت تلك الأيام بأيام الخندق والتراويح ، فكان أهل مدينة الفسطاط ، يتناوبون القتال فيخرج نفر للقتال ثم يرجع ثم يخرج غيرهم ، وهكذا وقد اشتد القتال بين الفريقين حتى قام نفر ليصلحوا بين المصريين ومروان وتم ذلك الصلح وكتب مروان كتابا أمن فيه المصريين ثم دخل الفسطاط في غرة جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ (٢) . وانتهى في مصر حكم ابن الزبير بعد أن دام نحو تسعة أشهر وهي المدة التي ولى فيها عبد الرحمن بن جحدم .

وقد بايع المصريون مروان بن الحكم إلا نفرا لم يرضوا بنكث بيعة ابن الزبير بعد أن بايعوه طائعين . ولما كان مروان يريد أن يقضى على خلافة

(١) الكندى ص ٤٢ — ٤٣ ، خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٧ — ٣٣٨

(٢) الكندى ص ٤٣ — ٤٤ ، خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٨

ابن الزبير نهائيا من مصر ، فقد اضطر إلى قتلهم بعد أن أبوا بيعته وكانوا ثمانين رجلا .

وأقام مروان بن الحكم بمصر شهرين ثم غادرها في أول رجب سنة ٦٥ هـ بعد أن وطد أمورها وأعادها ثانية إلى الحكم الأموي ، كما ولي عليها ابنه عبد العزيز بعد أن زوده بالنصائح الهامة التي تجعله حاكما قديرا وتساعد على حكم مصر (١) .

على أن مصر بعد خروجها عن طاعة ابن الزبير لم تقف على الحياد في النزاع الذي كانت بينه وبين الخلفاء الأمويين ، بل مدت يد المساعدة إلى الأمويين كي تعينهم على التخلص منه ، فأرسل عبد العزيز بن مروان وإلى مصر (٦٥ - ٨٦ هـ) في سنة ٧٢ هـ حملة بحرية إلى مكة لقتال ابن الزبير كان عدتها ثلاثة آلاف رجل ، وكان في هذا البعث رجل اسمه عبد الرحمن بن بجنس (٢) أحد موالى تميم يقال إنه هو الذي قتل ابن الزبير في جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ (٣) .

وقد رفعت خلافة ابن الزبير من شأن الخوارج بمصر لفترة يسيرة ، إلا أنهم ، كما يقول المقرئ (٤) ، انكفت ألسنتهم هم والعلوية بعد تغلب مروان على مصر . على أنهم عادوا إلى الظهور في ولاية قرّة بن شريك على مصر (٩٠ - ٩٦ هـ) في خلافة الوليد بن عبد الملك ، فيذكر الكندي (٥) والمقرئ (٦) أنه عندما خرج قرّة إلى الإسكندرية في سنة ٩١ هـ اتفق

(١) الكندي ص ٤٧ - ٤٨

(٢) كتب الاسم في المصدر بجنس ويحتمل أن يكون ذلك الاسم « بجنس »

(٣) الكندي ص ٥١ ، خطط المقرئ : ج ١ ص ٢١٠

(٤) الخطط ج ٢ ص ٣٣٨

(٥) الولاية والقضاة ص ٦٤

(٦) الخطط ج ٢ ص ٣٣٨

الخوارج بالاسكندرية ، وكانت عيبتهم نحو مائة ، على الفتك به وكان رئيسهم إذ ذاك المهاجر ابن أبي المثني التجيبي أحد بني فهم ، وقد علم بذلك رجل يكنى بأبي سليمان فأبلغ قرّة ما عزم عليه الخوارج فأخذهم بغتة قبل أن يتفرقوا وحبسهم وقد أقروا بما عزموا عليه فقتلهم .

وبذلك انتهى ذلك الدور من أدوار النزاع حول الخلافة بعد أن ساهمت فيه مصر مساهمة ذات أثر لا ينفى . وقد ظلت مصر تقريبا طوال الحكم الأموي فيها (٣٨ — ١٣٢ هـ) هادئة لا تشترك في أية منازعات أو حركات ظهرت في مقر الخلافة أو في غيرها من أنحاء الدولة الإسلامية . إذا استثنينا تلك الفترة التي قامت فيها خلافة ابن الزبير في مصر كما تقدم . على أن مصر دخلت في أواخر ذلك العهد في النزاع الذي قام بين الأمويين والعباسيين والذي انتهى بقيام الدولة العباسية كما سنرى .

ب — زوال الخلافة الأموية وأثر ذلك في مصر

تجمعت الظروف والعوامل التي أدت إلى زوال الخلافة الأموية وظهر أثرها بوضوح منذ أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني ، فمن شيعة يعملون على السكيد لبني أمية لينتصبوا الخلافة منهم ، ومن خوارج كانت مبادئهم وحركاتهم هادمة لخلافة قريش ، إلى موال كرهوا الدولة الأموية لتفضيلها العرب عليهم .

وهذه العناصر المناوئة للدولة وجدت منذ قيام الدولة الأموية ، ومع ذلك لم يظهر أثرها في إضعافها إلا بعد أن ظهر الضعف من جانب الدولة نفسها ، ولعل أهم مظاهر ذلك الضعف هو انقسام البيت الأموي على نفسه انقساما تاما منذ خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ — ١٢٦ هـ) =

٧٤٣ — ٧٤٤ م) إلى أن ولي الخلافة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في سنة ١٢٧ هـ (٧٤٤ م) ، إذ أصبح كل فرد من أفراد البيت الأموي يتخذ لنفسه حزبا يستمين به على الوصول إلى الخلافة ، مما شجع الطامعين من غير بني أمية على إلقاء دلوهم في الدلاء عليهم يصلون إلى ما يريدون . وكان صاحب النصيب الأكبر في هذه الفئيمة هم المباسيون .

كذلك وضع خطر المصيبة القبلية في أواخر عهد الدولة الأموية ومما زاد في شقة الخلاف بين أفراد القبائل أن الخلفاء زجوا بأنفسهم في هذه المنازعات ، فتمصب بعضهم لمرب الشمال وتمصب آخرون لمرب الجنوب . وقد استغل بنو المباس عم الرسول كل هذه الظروف السيئة التي أحاطت بالخلافة الأموية ، ويظهر أنهم بدأوا منذ أواخر القرن الأول الهجري ينظرون من جانبهم فيما طمح إليه الشيعة^(١) فأخذوا يعملون لأنفسهم واستغلوا في حركتهم الشيعة والموالي استغلالا كبيرا ؛ إذ كانوا يدعون لواحد من آل محمد وطبيعي أن هذا يشمل آل علي وآل المباس .

وفي الوقت الذي أثمرت فيه الدعوة المباسية كان حال الخلافة الأموية قد ساء إلى أقصى حد . وقد وجدت الدعوة المباسية في شخصية أبي مسلم الخراساني صاحب الفضل في إخراجها إلى حيز العمل والتنفيذ ، فهو كما يقول ابن طباطبا^(٢) « رجل الدولة وصاحب الدعوة وعلى يده كان الفتح » . وقد نجح أبو مسلم في إظهار الدعوة المباسية ورفع راية المباسيين في خراسان سنة ١٢٩ هـ^(٣) . وتمت القلبة للمباسيين على الأمويين في خراسان

(١) المسعودي : كتاب التبيين والإشراف ص ٣٣٨

(٢) الفخرى ص ١١٨

(٣) الطبري ج ٩ ص ٨٢ — ٨٤

والمراق ، وسار أبو مسم بجنده من خراسان إلى الكوفة حيث بايع
أبا العباس السفاح بالخلافة في سنة ١٣٢ هـ . وتبعه الناس من بعده . وتقابل
جيش العباسيين مع الجيش الأموي الذي كان يقوده مروان بن محمد عند نهر
الزاب (أحد روافد نهر دجلة) ، وهناك كانت الغلبة للعباسيين في
سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م^(١)) وفر مروان بعد ذلك هاربا إلى مصر .

ولا نعرف على وجه التحقيق متى بدأت الدعوة العباسية في مصر لأن
العباسيين كما عرفنا اهتموا بخراسان والمشرق لنشر دعوتهم فيها ولأن محور
الحوادث منذ البداية كان في المشرق ، ولكن كان مقدرا أن تكون نهايتها
في مصر التي فر إليها الخليفة مروان بن محمد ولقي فيها حتفه .

أولا ، ما نسمع عن الدعوة العباسية في مصر أيام خلافة هشام
ابن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) وفي ولاية عبد الرحمن بن خالد عليها
(١١٧ — ١١٩ هـ) إذ يذكر أبو المحاسن^(٢) أن دعاة بني العباس أرسلوا
إليه سرا فأكرمهم ووعدهم فبلغ ذلك هشاما فعزله .

لكن مصر ظلت هادئة لم تتأثر عما كان يدور في المشرق حتى كانت
خلافة مروان بن محمد (١٢٧ — ١٣٢ هـ) فيبدأ الاضطراب في مصر منذ
توليه الخلافة ونرى الجند لا يطيعون أوامر الخليفة في كثير من الأحيان ،
كما نرى النزاع بين القيسية واليمينية يتعجل بإجلى مظاهره في مصر ولا غرو
فقد عمت روح العصية القبلية إذ ذاك في جميع أنحاء الدولة الإسلامية ،
فاليمينيون لا ينفذون أوامر الخليفة ، والقيسيون أو المضريون في جانب
الخليفة ، ولكن بعضهم يشقون عصا الطاعة ، كما يشور بعض أفراد

(١) الطبري ج ٩ ص ١٣٠ — ١٣٢ ، ابن طباطبغا : الفخرى ص ١٢٥ — ١٢٦

(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٧٨

البيت الأموي تمسبا للخليفة مروان بن محمد وبعضهم يثور ضده ، كذلك يظهر الخوارج في مصر . أى أن ما يحدث في مقر الخلافة يقع مثله في مصر . وهنا نجد ظاهرة لم نعهد لها من قبل وهى ثورة الأهالى الوطنيين ومساعدتهم للعباسيين ضد الأمويين ، فالأهالى الوطنيون لم يشتركوا في المنازعات الخلافية من قبل ولكنهم لعبوا هنا دورا لا يغفل أثره ، فتهيأت بذلك الظروف للعباسيين ، كي يتموا نصرهم ضد الأمويين ، وكي ينشروا دعوتهم في مصر .

لما بويع مروان بن محمد بالخلافة في صفر سنة ١٢٧ هـ كان على ولاية مصر إذ ذاك حفص بن الوليد الحضرمي ، فلما أعلن بالفسطاط نبأ بيعة مروان ، كتب حفص إليه يستعفيه من ولايته على مصر فأعفاه مروان منها^(١) وهنا يجدر أن نشير إلى أن حفصا هذا كان من عرب الجنوب ، أو من اليمنية الذين كانوا في ذلك الوقت في عداء مستحكم مع المضربة أى عرب الشمال المواليين للخليفة .

ولى مروان بن محمد حسان بن عتاهية على صلاة مصر ، وولى على الخراج عيسى بن أبي عطاء ، وهنا تتجلى العصبية القبلية بأحلى مظاهرها ، كما تتجلى حالة الفوضى التي وصلت إليها البلاد ، وكيف قطعت الدولة العباسية شوطا بعيدا وسط تلك الفوضى الشاملة التي عمت أنحاء الدولة الأموية إذ ذاك . فقد كانت سياسة مروان بن محمد تنطوي على الاتحاد مع القيسية أو المضربة ضد اليمنية ، فكان طبيعيا أن يثور اليمنيون في مصر ضد سياسة الخليفة . لذا نجد أن حسان بن عتاهية عندما قدم إلى مصر في ١٢ من جمادى الآخرة

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٨٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١

سنة ١٢٧ هـ يأمر بحل الفرق التي كان حفص بن الوليد^(١) قد جندها على أن حسان لم يكذب يستقر في ولاية مصر حتى تار قواد الفرق التي جندها حفص وأعلنوا عدم رضاهم إلا بحفص بن الوليد^(٢). وكان هذا في الواقع نزاعا بين اليمنية والمصرية ؛ إذ كان اليمنيون يشعرون ضد عامل مروان بن محمد الذي كان يهيمه موالاة المصريين ، على أن الذي شجهم على عصيان الخليفة هو حالة الفوضى والاضطراب التي سادت أنحاء الدولة إذ ذاك ، إذ كان الخليفة في ذلك الوقت مشغولا محاربة الخارجين على الدولة من مختلف الطوائف والأحزاب ، حتى إنه عجز عن عمل أى شيء ضد الدعوة العباسية .

ويظهر أن الدعوة العباسية في مصر كانت في ذلك الوقت قد قطعت شوطا بعيدا . إذ أرسل ثابت بن نعيم الجذامي — وكان ممن خرجوا على مروان بن محمد — كتابا إلى حفص بن الوليد يدعوه فيه إلى خلع مروان ابن محمد . كذلك أتى إلى مصر رسول زامل بن عمرو الذي خلع مروان بحمص ودعاهم إلى مثل ما دعاهم إليه ثابت بن نعيم^(٣) . والمهم هنا أن اليمنية وسائر الخارجين على مروان ساروا إلى دار حسان بن ثابت وحاصروه فيها وطلبوا منه أن يخرج من مصر فزل على رغبتهم وأتجه إلى الشام ليلحق بمروان ، فكانت ولاية حسان بن ثابت على مصر ستة عشر يوما . كذلك أخرج الثائرون من مصر صاحب الخراج عيسى بن أبي عطاء . وولى الثائرون عليهم حفص بن الوليد^(٤) . غلى أنه بالرغم من أن حفصا كان من اليمنيين إلا أنه كان رجل دولة بالمعنى الصحيح يعرف أن مصلحة الدولة فوق مصلحة القبيلة

(١) الكندي ص ٨٥

(٢) الكندي ص ٨٥

(٣) الكندي ص ٨٥ — ٨٦

(٤) الكندي ص ٨٦ ، أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٠١

وأن طاعة الخليفة واجبة . ويتبين لنا ذلك مما قاله الكندي^(١) إذ يذكر أنه ولى مصر فى هذه المرة كرها وأن قواد الجند هم الذين أجبروه على ذلك .

وفى تلك الأثناء قدم حنظلة بن صفوان الكلبي من إفريقية إلى مصر وكان أهلها قد أخرجوه منها ، فزل بالجيزة . وعند ذلك كتب مروان إلى أهل مصر بتولية حنظلة بن صفوان عليهم . ولكن المصريين عصوا أمر الخليفة مرة أخرى ، بل حاربوا حنظلة وأخرجوه من القسطنطينية إلى الحوف الشرقى ، وظل حفص بن الوليد واليا على مصر طوال سنة ١٢٧ هـ حتى أوائل سنة ١٢٨ هـ^(٢) .

على أن الخليفة مروان بن محمد وجد أن تنفيذ أوامره فى مصر لا يكون إلا بالقوة ، لذا عزل حفص بن الوليد عن ولايتها فى المحرم سنة ١٢٨ هـ وولى عليها حوثة بن سهيل الباهلى وزوده بالجيش لقتال حفص وأهل مصر ، فسار حوثة إلى مصر يصحبه سبعة آلاف رجل من أهل حمص والجزيرة وقنسرين ، وهنا نجح حفص مرة أخرى يلبي نداء عقله ولا يستمع لنداء العصبية القبلية حين اجتمع إليه الجند وطلبوا منه أن يمنع حوثة من دخول مصر ، إذ أبى عليهم ذلك وسلم ما بيده إلى أبى الجراح الجرشي بشر ابن أوس الذى أرسله حوثة ريثما يحضر إلى مصر^(٣) .

ولما دخل حوثة أرض مصر يصحبه الجنود ، خشى أهل مصر منه ، فأرسلوا إليه يزيد بن مسروق الحضرمي يسأله الأمان فلقبه بالعريش وأجابه إلى ما طلب ، وكتب إلى أهل مصر كتاب أمان فخرج إليه حفص بن

(١) الكندي ص ٨٦

(٢) الكندي ص ٨٧ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣٠٢ .

(٣) الكندي ص ٨٧

الوليد في وجوه الجند ، إلا أن حوثة لم يعبأ بالأمان الذي أعطاهم إياه فأمر بالقبض عليهم . ثم سار إلى الفسطاط في ١٢ من المحرم سنة ١٢٨ هـ . وعقب دخول حوثة الفسطاط بعث في طلب رؤساء الفتنة وكانوا من اليمنيين وتمكن من القبض عليهم وقتلهم ، ومنهم حفص بن الوليد ، وذلك سنة ١٢٨ هـ (١)

ولم يكد حوثة بتخلص من اليمنية في مصر ويمهد أمورها حتى ظهرت فيها حركة أخرى كانت صدى لحركة الخوارج بالحجاز . فعندما قام عبد الله ابن يحيى الملقب بطالب الحق في الحجاز ضد مروان بن محمد ودعا إلى نفسه بالخلافة ، قدم إلى مصر داعيته ودعا لبايمته ، فأجابه نفر من تميم وغيرهم ، ولما علم حسان بن عتاهية صاحب الشرطة بذلك قبض عليهم فقتلهم حوثة بن سهيل (٢)

وما زال حوثة يمهد أمور مصر حتى استدعاه مروان بن محمد سنة ١٣١ هـ ليخرج إلى العراق لقتال الخراسانية دعاة بني العباس (٣)

ولى مصر بعد ذلك المغيرة بن عبد الملك الفزارى في جمادى الأولى سنة ١٣٢ هـ ثم عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير ، وفي تلك الأثناء كان مروان بن محمد قد هزم أمام جيش العباسيين في وقعة الزاب (جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ) وفر إلى حران عاصمة الجزيرة . وكانت مصر البلد الذى فكر مروان فى الهرب إليه على استطيع منها أن يقضى على العباسيين ليسترد سلطانه المهده بالضياع ، وذلك بما لها من مزايا عديدة من

(١) الكندي ص ٨٨ — ٩١ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣٠٥

(٢) الكندي ص ٩٢ ، خطط القرىزى ج ٢ ص ٣٣٨

(٣) الكندي ص ٩٢ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣٠٥

حيث الموقع والثروة . ويقال إن مروان فكر أولا وهو بحران في الهرب إلى بلاد الروم حيث يجمع أمره ويلم شمل جنوده ليحارب العباسيين ، واستشار في ذلك رجلا من أخص الناس عنده وهو اسماعيل بن عبد الله القسرى . فكان ذلك رأى اسماعيل ، غير أنه تذكر معاداة مروان لليمنيين وتحامله عليهم فصرفه عن هذا الرأى ، وقال له يا أمير المؤمنين : أعينك بالله أن تحكم أهل الشرك في نفسك وحرملك لأن الروم لا وفاء لهم^(١) . وحين عاود الخليفة سؤاله قال : « الرأى أن تقطع الفرات وتستقرى^(٢) مدن الشام مدينة مدينة فإن لك بكل مدينة صنائع ونصحاء ، وتضمهم جميعا إليك وتسير حتى تنزل ببلاد مصر ، فهي أكثر أهل الأرض مالا وخيلا ورجالا فتجمل الشام أمامك وإفريقية خلفك ، فإن رأيت ماتحب انصرفت إلى الشام ، وإن تكن الأخرى اتسع لك الهرب نحو إفريقية فإنها أرض واسمة نائية منفردة^(٣) » وقد صادف هذا الرأى قبولا لدى الخليفة ، إلا أن مروان عند ما وصل إلى مصر وجد أن الدعوة العباسية قد قطعت مرحلة كبرى فيها فكان أمامه محاربة العباسيين في داخل مصر وخارجها ، وكانت النتيجة أن غلب على أمره في النهاية .

لما وصلت الأخبار إلى مصر بأنهمزام مروان في موقعة الزاب أخذ واليها عبد الملك بن مروان يستعد لمقاومة العباسيين فصادر كل ما وجده من الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيره ليستعمل ذلك في الصناعة وغيرها من الأمور اللازمة للدفاع . وقد اخترعت في ذلك الوقت مادة من المقاقير

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٤٦ — ٣٤٧

(٢) استقرى البلاد تتبعها وطاف بها

(٣) الدينورى ص ٣٤٧

تدهن بها المراكب كيلا تؤثر فيها النيران ، ويحدثنا أحد الرواة الأقباط بأنه شاهد تلك الظاهرة بنفسه وهي عدم تأثر المراكب بالنيران إذا مادھنت بتلك المادة ، بل كانت النيران تنطفئ في الحال^(١) . ولا بد أن أهالي مصر الوطنيين ومن بينهم الأقباط قد نالهم بلاء عظيم^(٢) من جراء مصادرة أموالهم وأستخدامهم في كثير من الأمور اللازمة لمثل ذلك الدفاع . إلا أن الوالي كان مضطرا إلى ذلك إزاء الأزمة السياسية الخطيرة التي كانت سيتوقف عليها مصير الخلافة الأموية نهائيا . ومن غير المحتمل أن ذلك كان بغضا خاصا للنصارى من جانبه ، كما يظن ساويرس بن المقفع^(٣) .

وممن تاروا على مردان في مصر عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان وتبعه في ذلك الدماحس بن عبد العزيز الكنانى في جمع من قيس ، فأرسل إليهم الوالى عبد الملك بن مروان جيشا قوامه سبعة آلاف شخص برياسة موسى بن المهند ، وفي بلبس التقى هذا الجيش مع الثائرين الذين طلبوا الصلح ، فأجابهم موسى بن المهند إلى ما طلبوا ، ثم ظفر بعمرو بن سهيل وحبسه في القسطنطينية^(٤) . وحسبنا دليلا على الاضطراب الذى وصلت إليه مصر في تلك الفترة أن يثور على مروان بن محمد بعض أفراد البيت الأموى كعمرو ابن سهيل وأن يتبع هذا الثائر جزء من قبيلة قيس التي كانت موالية لمروان . ولما غزم مروان على السير إلى مصر اجتمع بعض الجند فيها على منعه من دخولها وأمروا عليهم عبيد الله بن عبد الرحمن بن عميرة الحضرمي وهو

(١) ساويرس بن المقفع : سير الأباء البطارقة ص ١١٩

(Patr. Orientalis t. V).

(٢) ساويرس ص ١١٨ — ١١٩

(٣) ساويرس ص ١١٨

(٤) السكندى ص ٩٤ ، أبو الحسن ج ١ ص ٣١٦

— كما نرى من نسبه — ينتمى إلى عرب الجنوب الذين أديبوا في عداة مستحكم مع الخلفاء الأمويين . وقد أرسل مروان على مقدمة جيشه ابنه عبيد الله بن مروان ، فلما وصل إلى مصر دعا ابن عميرة الجند إلى النهوض معه فتثاقلوا عنه ولم يقوموا بشيء مما عرضوا عليه^(١) ، ثم قدم مروان مصر لثمان بقين من شوال سنة ١٣٢ هـ فوجد أن أهل الحوف الشرق قد أصبحوا من أعوان العباسيين ، كما وجد الأسود بن نافع بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري في الاسكندرية قد صار من أنصارهم ، وكذا عبد الأعلى بن سعيد بن عبد الله ابن مروان الجيشاني بصعيد مصر ويحيى بن مسلم بن الأشج مولى بني زهرة بأسوان^(٢) . ومن هذا ندرك كيف نظمت الدعوة العباسية في مصر .

ونجح مروان في أن يخضع الاسكندرية والصعيد ولكنه لم يجن ثمار هذا النصر لأن صالح بن علي بن عبد الله العباسي وأبا عون تبعاه إلى مصر على رأس الجيوش العباسية فوصلا إليها بعده بنحو شهر كما يحدثنا بذلك ساويرس^(٣) أو بمد مجيشه بشهرين ، تقريبا أعنى في النصف من ذى الحجة كما تخبرنا بذلك المراجع التأخرة^(٤) . وقد زاد الحالة حرجا في ذلك الوقت ثورة أهل البشمور^(٥) في وجه عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير وإلى مصر

(١) الكندى ص ٩٤ — ٩٥

(٢) الكندى ص ٩٥

(٣) سير الآباء البطارقة ص ١٥٦ ، ١٧٠

يذكر ساويرس أن مروان قدم إلى مصر في عشرين بؤونة سنة ٤٦٧ للشهداء ، وأن الخراسانيين وصلوا مصر في يوم ١٩ أيّيب . وسأويرس في الواقع أكثر ثقة من المراجع التأخرة لأنه استمد معلوماته من الوثائق اليونانية والقبطية المعاصرة لتلك الحوادث والتي كانت محفوظلة في الأديرة .

(٤) الكندى ص ٩٦ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣١٧

(٥) إقليم البشمور أو البشرد كما في المراجع العربية : هو المنطقة الرملية الواقعة على ساحل الدلتا بين فرعى دمياط ورشيد والمعروفة في التاريخ القديم =

قبل قدوم الخليفة إليها وقد امتنعوا عن دفع الخراج ، فخاربهم عبد الملك ولكنهم هزموه . ولما وصل مروان بن محمد إلى مصر وعلم بثورتهم ، أرسل يمرض عليهم الأمان ولكنهم لم يقبلوا ذلك منه وظلوا على ثورتهم ، وساعدهم على ذلك أن المنطقة التي ثاروا فيها كانت تحيط بها المستنقعات ، وتعميق حركة الجيوش المهاجمة . وفشلت الجيوش التي أرسلها مروان لمحاربتهم . ولما اقترب العباسيون من الحدود المصرية وبلغوا غزة صمم مروان على إحراق مدينة الفسطاط وأعلن وجوب إخلائها في ثلاثة أيام ، فهرب جميع أهلها إلى الجيزة أو إلى جزيرة الروضة ثم أمر مروان بإحراقها . ولما علم بوصول الخراسانيين إلى الفرما أمر بإحراق جميع المراكب في مصر وإحراق ما يستطيع إحراقه من المدن والكوز وتخريب ما يستطيع تخريبه في الوجه البحرى ، وتم إحراق بعض المدن وتخريبها في شرق الدلتا . أما مروان نفسه فقد عبر إلى الضفة الغربية للنيل في مراكب هو وجنده بعد أن أحرق الفسطاط على الضفة الشرقية . ويذكر ساويرس أن مروان قام بحركة التخريب والإحراق لأنه ظن أن الخراسانيين إذا أتوا إلى الضفة الشرقية للنيل ووجدوها خالية من الناس والبهايم والغلات ولم يجدوا مراكب يركبون فيها رجموا من حيث أتوا^(١) والحق أن مروان فعل ما يفعله معظم المتحاربين عندما تصبح حالتهم الحربية في خطر ويتيقنون أنهم مغلوبون على أمرهم لا محالة فيقومون بتدمير ذخيرتهم وأسلحتهم وكل شيء يصح أن ينتفع به العدو .

= باسم بيكولى Bucolies التي حدثت فيها حرب الزراع في عهد الإمبراطور ماركس أورليوس (G.Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t. I. V. p. 37)

(١) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطارقة من ١٦٧ — ١٧٠

(Patro. Orient. V.)

فجر الإسلام - (١٠)

وهنا نجد ظاهرة جديدة لم نعهدها من قبل وهي اشتراك الأهالي الوطنيين ونقصد هنا الأقباط الذين كانوا يكونون أغلبية الشعب المصرى حينذاك ، فى تلك الحركة التى أدت إلى زوال الخلافة الأموية . ذلك أن الأهالي الوطنيين لم يشتركوا فى المنازعات الخليفية قبل ذلك وإنما فى هذه المرة نراهم يرحبون بالعباسيين لأنهم أرادوا التخلص من الحكم الأموى .

ظل أهل البشموور على ثورتهم ، بل ساروا إلى القرما لمقابلة الخراسانيين يشكون إليهم من مروان بن محمد ومن اضطهاده الشعب القبطى على العموم^(١) ولم يكن هذا شعور أهل البشموور فقط بل كان شعور القبط على وجه الإجمال ففى ذلك الوقت كان مروان قد قبض على بطرك الأقباط أنبا ميخائيل لأنه لم يقدّم المال الذى طلبه منه كما أنه لم يعمل شيئا لردع أهل البشموور^(٢) . ويحدثنا أحد القساوسة الذين كانوا فى السجن إذ ذاك مع البطرك عن المعاملة السيئة التى لقيها هذا الرئيس الدينى على يد مروان ثم يقول إن الخراسانيين كانوا فى الضفة الشرقية للنيل ينظرون ما حل بالبطرك ولو وجدوا سبيلا إلى العبور إلى مروان لقتلوه لما رأوا من ظلمه وقسوة قلبه^(٣) . وهذا يظهر لنا شعور القبط إذ ذاك نحو الأمويين وأنهم كانوا يأملون فى الخلاص على أيدي العباسيين . لم يجد العباسيون إذ ذاك مراكب يعبرون فيها إلى الضفة الغربية للنيل حيث كان مروان مقبلا بالجيزة . وكان مروان قد أحرق الجسرين اللذين يصلان الفسطاط بجزيرة الروضة وبالجيزة . وكانت هناك مخاضات فى النيل يمكن العبور منها بسهولة إلى الضفة الغربية ولم يكن العباسيون يعرفونها ،

(١) ساويرس سير الآباء البطارقة من ١٧٢ — ١٧٣

(Patr. Orient. t. V.)

(٢) ساويرس من ١٦٠

(٣) ساويرس من ١٧٣ — ١٧٤

ولكن دلم عليها قوم يعرفونها وعبروا معهم إلى الضفة الغربية واستولوا بعدها على مراكب مروان التي عبر فيها هو وجنده إلى الجزيرة .

ثم دارت رحى الحرب بين مروان وبين العباسيين وكتب النصر لهم ففر مروان حتى وصل إلى بوسير^(١) ، وهناك لحق به صالح بن علي العباسي حيث قتله لسبع بقين من ذى الحجة سنة ١٣٣ هـ^(٢) وبذلك زالت الخلافة الأموية نهائيا ، وأعقب العباسيون ذلك بقتل كثير من أنصار بني أمية في مصر وأسر البعض

(١) بوسير أو أبو صيرة اسم لبلدان كثيرة في مصر . وهذا الاسم من بقايا التاريخ القديم إذ كان المصريون القدماء يسمون بلدانا كثيرة باسم الإله أوزيريس . وبوسير هذا مشتق من الاسم المصري القديم بروسرأى «مكان الإله أوزير» (سليم حسن بك : أقسام مصر الجغرافية . ص ١٨٧) . وكان هناك زمن مقتل مروان أربع قرى بمصر باسم بوسير ، فكان هناك بوسير قوريدس من أعمال الأشمونين وبوسير السدر في كورة الجزيرة ، وبوسير ددفنو في كورة الفيوم ، وبوسير بنا في كورة سمند (ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٧٦٠) وقد اختلف المؤرخون في السكان الذي قتل فيه مروان . فيذكر الكندي أنه قتل في بوسير من كورة الأشمونين (ص ٩٦) ويذكر ابن العميد في كتابه تاريخ المسلمين ص ٩٦ أنه قتل في بوسير قوريدس . ويذكر المقرئ في الخطط ج ١ ص ٣٠٤ أبو المحاسن . ج ١ ص ٣١٧ أنه قتل ببوسير بالجزيرة . ويرى الأستاذ فييت أن مروان قتل في أبي صير الملقى الحالية التي تقع الآن في مركز الواسطي في مديرية بني سويف وذلك لأنه يوجد هناك ضريح صغير باسم مروان يعمل له كل عام احتفال سنوي . كذلك نعلم أن مروان حمل معه ثروته إلى مصر . وقد اكتشف أخيرا في أبي صير الملقى لمبريق نغم من الطراز الساساني يرجح أنه كان ملكا له (انظر : زكي محمد حسن : الفنون الإيرانية ص ٢٧٠) . والأصح أنها كانت بوسير التي في أعمال الجزيرة . وبوسير الملقى الحالية قريبة من الجزيرة وربما كانت ضمن كورة الجزيرة في العهد العربي . وساويرس يذكر أن الخراسانيين عبروا في آخر يوم من ابيب أي بعد وصولهم إلى القسطنطينية أيام ويذكر أنهم عندما عبروا إلى الجزيرة قتلوا مروان (ص ١٨٣ ، ١٨٧) وإذا قارنا ذلك بما ورد في المصادر العربية بأن مروان قتل بعد وصول الجيش العباسي إلى القسطنطينية بنحو تسعة أيام . نرجح أن قتله كان قريبا من الجزيرة ونرجح أن أناصير هي أبو صير الملقى الحالية لقربها من الجزيرة .

(٢) الكندي ص ٩٦ — ٩٧ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣١٧

الآخر ، ثم دخل صالح بن علي العباسي القسطنطينية في المحرم سنة ١٣٣ هـ وبث برأس مروان بن محمد إلى العراق^(١) . ولم ينس العباسيون أن يكافئوا القبط الذين رحبوا بهم ، فخففوا عنهم الخراج وأخلوا سبيل أنبا ميخائيل الذي حبسه مروان ، ولا طلب البطريرك من قائد العباسيين في مصر أن يحمي أملاك الكنيسة في جميع البلاد ولا يتعرض لها ، أجابه إلى ما أراد . كذلك أعفى العباسيون البشارة من دفع الخراج ومنحوهم مكافآت مالية^(٢) .

وهكذا زالت الدولة الأموية نهائيا بعد انتصار العباسيين على مروان ابن محمد في مصر ، وأصبحت مصر منذ أواخر سنة ١٣٢ هـ وأوائل سنة ١٣٣ هـ ولاية تابعة للخلافة العباسية بالعراق .

المحركات السياسية والدينية منذ قيام الدولة العباسية إلى قيام الدولة الطولونية (١٣٢ — ٢٥٤ هـ)

١ — موقف الأمويين والعلويين في مصر من الخلافة العباسية

لم يكن زوال الخلافة الأموية ومقتل مروان معناه انتهاء المقاومة الأموية نهائيا ، فقد ظهر من وقت لآخر بعض أنصار البيت الأموي أو أفرادهم ؛ قاموا ضد الخلافة العباسية ولم يتهاون العباسيون في القضاء على المعارضين لهم حتى لو كان هؤلاء ممن ناصرهم من قبل .

ونلاحظ أيضا أن قيام الدولة العباسية لم يكن معناه انتهاء مطالبة العلويين بالخلافة وتركهم مناوأة الحكومة القائمة ، فقد كان العباسيون

(١) السكندى ص ٩٧ ، أبو الحسن ج ١ ص ٣١٧

(٢) ساويرس ص ١٨٧ — ١٨٨

في نظر العلويين وشيقتهم مغتصبين للخلافة كما كان الأمويون من قبلهم .
لذا نجد أنه كلما قام خليفة عباسي ، قام علوي يدعو إلى نفسه بالخلافة .
وقد استعمل العباسيون كل الوسائل من قتل وغدر للقضاء على المعارضة
العلوية ، ولا يكاد تاريخ أى خليفة يخلو من وقائعه مع العلويين ، وظلت
فرق الشيعة من جانبها تأكيد للدولة العباسية في الخفاء أو تحاربها جهرا إن
أمكن الجهر . والذي يهمنا الآن هو موقف الأمويين والعلويين بمصر
من الخلافة العباسية وموقف الخلفاء العباسيين منهم .

في عهد الخليفة العباسي المهدي (١٥٨ — ١٦٩ هـ) وفي ولاية إبراهيم
ابن صالح على مصر من قبل ذلك الخليفة (١٦٥ — ١٦٧ هـ) نسمع عن
خروج أحد الأمويين وأنه دعا إلى نفسه بالخلافة ، ذلك الأموي هو دحية
ابن مصعب بن الأصمغ بن عبد العزيز بن مروان الذي خرج بالصعيد ، فلما
بلغ ذلك والى مصر تراخى عنه ولم يحفل بأمره ولم يهتم بمحاربته للقضاء عليه
وكان نتيجة سياسة هذا الوالى التراخية أن استفحل أمر دحية وملك أغلب
بلاد الصعيد وكاد أمره أن يتم وتخرج مصر من حكم العباسيين . فلما علم
الخليفة المهدي بذلك سخط على الوالى وعزله سنة ١٦٧ هـ^(١) .

ولى مصر بعد ذلك موسى بن مصعب بن الربيع اللخمي (١٦٧ —
١٦٨ هـ) فأرسل جيشا مكونا من خمسة آلاف محارب بقيادة عبد الرحمن بن
موسى بن علي بن رباح اللخمي ، إلى الصعيد لمحاربة دحية . وما لبث هذا
الوالى أن قتل في ٧ شوال سنة ١٦٨ هـ أثناء محاربته قيسا واليمينية الذين ثاروا
ضده في الحوف^(٢) . ولى مصر بعد مقتله عسامة بن عمرو وافتتح أمرته

(١) الكندي ص ١٢٤ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٤٩

(٢) الكندي ص ١٢٦ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥

بحرب دحية الأموى بالصعيد ، وأرسل إليه الجيوش بقيادة أخيه بكار بن عمرو فحارب يوسف بن نصير الذى كان على مقدمة جيش دحية ، وقد عاد الجيشان دون أن يحدث بينهما ما يستحق الذكر^(١) . وبعد ذلك بأيام سيرة ورد الخبر بعزله عن ولاية مصر وتولية الفضل بن صالح بن على العباسى عليها فى آخر المحرم سنة ١٦٩هـ^(٢) . وكان أمامه قبل كل شئ أن يقضى على دحية الذى تفاقم خطره وبايعه كثير من الناس حتى كاتبه البعض ودموه إلى دخول القسطنطينية^(٣) .

أتى الفضل إلى مصر ومعه جيوش من الشام استخدمها فى قتال دحية فى بويط^(٤) ، وقد تقهقر أصحاب دحية أمامه وتوجه بعدها دحية على رأس حامية من جنده إلى الواحات فبعث إلى أهلها — وكانوا من المسالمة^(٥) والبربر الذين يدينون بمذهب الخوارج — يدعوهم إلى القيام معه فأبوا أن يقاتلوا معه حتى يتبين إذا كان يدين بمذهبهم فأجابهم بأنه على مذهبهم فخرجوا اليه وقاتلوا معه يوم الدير . وقد أرسل إليه الفضل بن صالح جيشا كبيرا بقيادة عبد الله بن على فخرج إليه دحية فى أهل الواحات فهزم عبد الله بن على وقتل يومئذ عبد العزيز بن مروان بن الأصبع ، على أن أهل الواحات مالبثوا أن تخلوا عن دحية لإيثاره العرب على الموالى وتقديعهم على البربر ، كما أنه لم يرض بأن يتبرأ من عثمان فتبين لهم أنه على غير مذهب الخوارج فتركوه

(١) أبو المحاسن ج ٢ ص ٥٧

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٦٠

(٣) الكندى ص ١٢٩

(٤) بويط بالضم ثم الفتح قرية فى مصر الوسطى قريبة من ديروط

(٥) المسالمة لفظ كان يطلق على القبط (خطط المقرئى ج ١ ص ٥٠) أو من

يسلم حديثا من القبط أو اليهود (خطط ج ١ ص ١١٠)

وانصرفوا عنه ، فلما علم عبد الله بن علي بانصرافهم عنه أتى ثمانية لمحاربة دحية فقتل يومئذ مروان بن عبد الملك بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان^(١) . وقد انتهى الأمر بأسر دحية وأتى به إلى القسطنطينية فحُلب الفضل عنقه وصلب جثته وبُعث برأسه إلى الهادي وكان قتله في جمادى الآخرة سنة ١٦٩هـ^(٢) . وكان القضاء على دحية الأموي معناه انتهاء أول المحاولات وآخرها من جانب الأمويين في مصر لاسترداد الخلافة . على أنهم بعد ذلك كانوا أحيانا ينضمون إلى الثأرين على الخلافة العباسية من العلويين وذلك رغبة في الكيد للدولة العباسية .

وقد ظهرت الدعوة العلوية في مصر منذ عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨هـ) ففي أمانة حميد بن قحطبة (١٤٣ — ١٤٤هـ) قدم إلى مصر علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب داعية لأبيه وعمه^(٣) . وقد كان أبوه محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي المعروف بالنفس الزكية قد دعا إلى نفسه سرا في خلافة المنصور وتلقب بأمير المؤمنين ، وفي سنة ١٤٥هـ ظهر بعد أن اختفى زمنا كان أشياعه يقيمون له الدعوة حتى كثرت أنصاره في خراسان واعترف الناس بإمامته في مكة والمدينة ، ومن ثم أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته . على أن محمدا كان مصيره القتل على يد عيسى بن موسى ، فدعا أخوه إبراهيم إلى نفسه وقام لفصرته كثيرون من فقهاء البصرة وذوى الرأي والجاه . ولكن إبراهيم لقي حتفه

(١) البكندى ص ١٢٩ — ١٣٠

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٦٠ — ٦١

(٣) خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٨

كأخيه علي يد عيسى بن موسى السباسي أيضا في موقعة باخرا^(١) وذلك في أول ذي الحجة سنة ١٤٥ هـ .

أما ما كان من أمر هذه الدعوة في مصر فهو أنه لما قدم علي بن محمد إليها يدعو لأبيه وعمه تواني حميد بن قحطبة في الأمر ولم يجد في القبض عليه ، وبث إلى أبي جعفر المنصور يقول إنه أرسل في طلبه فلم يجده . وكان ذلك سببا في سخط أبي جعفر المنصور على الوالي وعزله في ذي القعدة سنة ١٤٤ هـ . ولى مصر بعد ذلك يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة (١٤٤ — ١٥٣ هـ) وفي بدء ولايته كانت دعوة بني الحسن بن علي قد ظهرت في هذه البلاد وباع كثير من الناس لعلي بن محمد ، وكان على هذا أول علوى قدم مصر . وكاد أمر بني الحسن أن يتم في مصر حتى قدمت الخطباء إليها برأس إبراهيم بن عبد الله بن الحسن في ذي الحجة سنة ١٤٥ هـ فنصبوه في المسجد الجامع أياما^(٢) . فحمدت تلك الحركة كما خدمت في الحجاز والبصرة بمقتل زعمائها سنة ١٦٠ هـ . وأما علي بن محمد النفس الزكية فقد اختلف في أمره فزعم بعضهم أنه حمل إلى أبي جعفر المنصور وقيل إنه اختفى بمصر عند عسامة ابن عمرو حتى مرض ومات . وقد حمل عسامة إلى المراق وحبس زمانا حتى آلت الخلافة إلى المهدي فأمنه علي أن يصدقه عن علي بن محمد فاعترف بأنه مات في بيته^(٣) وهكذا انتهت تلك الحركة في مصر وقد كان يزيد بن حاتم

(١) باخرا: موضع بين الكوفة وواسط وهو إلى الكوفة أقرب (ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٤٥٨)
(٢) الكندي ص ١١١ — ١١٤ ، خطط القرينى ج ٢ ص ٣٣٨ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ١ — ٢
(٣) الكندي ص ١١٥

قد منع أهلها من الحج بسبب خروج هؤلاء الطويعين فلما قتل إبراهيم
ابن عبد الله العلوي أذن لهم في الحج^(١)

ويجدر بنا أن نشير إلى أن بعض أفراد البيت الأموي الذين بقوا في
مصر كانوا ممن بايع لعلي بن محمد ومن هؤلاء مصعب ومنصور وزيد.
أبناء الأصم بن عبد العزيز بن مروان .

وحدث بعد ذلك أن آوت مصر أحد العلويين الذي استطاع بعد
خروجه منها أن يقتطع لنفسه جزءا من بلاد الدولة العباسية ويكون لنفسه دولة
مستقلة ، ذلك العلوي هو إدريس بن عبد الله أخو محمد الملقب بالنفس الزكية .
ففي عهد الخليفة الهادي (١٦٩ — ١٧٠ هـ) خرج الحسين بن علي بن الحسن
ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة يدعو إلى نفسه ومنها سار
إلى مكة حيث التقى بجيش العباسيين في فنج^(٢) فقتل بعد أن أبلى بلاء شديدا .
وكانت هذه الواقعة من الشدة بحيث قيل لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد
وأفجع من فنج . وكان ممن ناصر الحسين بن علي في حركته هذه يحيى وإدريس
ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وقد هربا قبل هذه الواقعة . أما يحيى
فقد ثار في بلاد الديلم في عهد هرون الرشيد وانتصر له أهل اليمن وغدا أمره
من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية وأقلق بال الرشيد فأنفذ إليه
الفضل البرمكي ، فما زال به حتى رضى بالصلح على أن يكتب له الرشيد أمانا
بيده ، ولكنه قتله ومداد الأمان لم يجف بعد .

أما إدريس بن عبد الله فقد توجه إلى بلاد المغرب الأقصى وبايعه البربر
في سنة ١٧٢ هـ ، وكون هناك أول دولة للعلويين وهي دولة الأدارسة .

(١) أبو المحاسن ج ٢ ص ٢

(٢) فنج بفتح أوله وتشديد ثانيه ... وهو واد بمكة (ياقوت معجم البلدان .

ج ٣ ص ٨٥٤)

مر إدريس بن عبد الله على مصر في طريقه إلى المغرب في ولاية على ابن سليمان بن علي بن عبد الله العباسي (سنة ١٦٩ هـ — ١٧١ هـ) زمن هرون الرشيد . ويقال إنه لما قدم إلى مصر علم واليها بمكانه وقابله سرا ولم يفصح أمره حتى توجه إلى المغرب^(١) . ويقول أبو المحاسن^(٢) بأن واضح ابن عبد الله المنصوري الذي كان واليا على مصر زمن المهدي سنة ١٦٢ هـ ، كان على يريد مصر عند ما قدم إدريس إليها ، وكان يعيل إلى العلويين فحمل إدريس على البريد إلى المغرب . أى أن مصر سهلت الطريق لإدريس بن عبد الله وساعدته في خروجه على الدولة العباسية . ولو قبض عليه واليها إذ ذاك أو أخبر عامل البريد بوجوده في مصر لما قامت تلك الدولة العلوية في المغرب بالرغم من أنف هرون الرشيد .

ويظهر أن تعقب العباسيين للعلويين واضطهادهم إياهم قد ألجأهم إلى الفرار إلى الجهات البعيدة عن مقر الخلافة العباسية ولاسيما ما كان منها مرتعا خصيبا للمعارضة كبلاد البربر^(٣) ، والذي يهمنا أن كثيرا من آل البيت قد أتوا إلى مصر ليكونوا بعيدين عن الاضطهادات والمضايقات التي نالهم على أيدي الخلفاء العباسيين . ولا تزال مصر حافلة بقبور آل البيت منذ ذلك العهد البعيد . ومن أتى إلى مصر في ذلك العهد السيدة نفيسة رضي الله عنها بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وزوجة اسحاق ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ، وقد أتت مع زوجها من المدينة إلى مصر هارين من

(١) الكندي ص ١٣١

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٤٠

(٣) أبو المحاسن ج ٢ ص ٦٨

اضطهاد العباسيين ، وقيل إنها كانت فيمن صلى على الإمام الشافعي عند موته سنة ٢٠٤ هـ وتوفيت في شهر رمضان سنة ٢٠٨ هـ ^(١) وقبرها لا يزال من المقابر المشهورة بالقاهرة ، يتبذرك المسلمون بزيارتها ونعرف أن في دار الآثار العربية بالقاهرة قطعة خشبية عليها كتاب تاريخية من قبر السيدة نفيسة ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد . هذا مشهد السيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن أمير المؤمنين الحسن بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين . توفيت السيدة نفيسة صلوات الله عليها في شهر رمضان المعظم سنة ثمان ومائتين ^(٢) » ولم نسمع بأن أحدا تعرض للملويين في مصر بسوء طوال ذلك العهد إلى أن كان زمن الخليفة المتوكل على الله العباسي (٢٣٢ هـ — ٢٤٧ هـ) ، وكان يبغيض الملويين ، فأرسل كتابا هو وابنه المنتصر — صاحب اقطاع مصر حينذاك — إلى والي مصر اسحاق بن يحيى (٢٣٥ — ٢٣٦ هـ) يأمره بإخراج آل علي بن أبي طالب من مصر فأخرجوا من القسطنطينية في رجب سنة ٢٣٦ هـ إلى العراق وهناك أمروا بالخروج إلى المدينة في شوال من سنة ٢٣٦ هـ ^(٣) ويذكر المقرئ ^(٤) أن الذين بقوا في مصر من الملويين اضطروا إلى الاختفاء .

أصبح الملويون والشيعة في مصر غير آمنين على أنفسهم من اضطهاد العباسيين منذ عهد المتوكل . وقد عمل الوالي يزيد بن عبد الله على استئصال

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٤٤٠ — ٤٤١

(٢) (Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe. t. 1. p. 128).

(٣) السكندی ص ١٩٨ ، خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٩ ، أبو الحسن ج ٢

ص ٢٨٣ — ٢٨٥

(٤) خطط ج ٢ ص ٣٣٩

شأنهم فمأقبيهم وأبادهم وحمل منهم جماعة إلى العراق على أقبح وجه^(١) .
ولما قتل المتوكل في شوال سنة ٢٤٧ هـ وبويج ابنه المنتصر بالخلافة
أرسل إلى يزيد بن عبد الله يقره على ولايته بمصر^(٢) ثم ورد كتابه إلى يزيد
بالأُيُقْبَلُ^(٣) علوى ضيعة ، ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط إلى
طرف من أطرافها ، وأن يمنموا من أخذ العبيد إلا العبد الواحد ، وإن
كانت بينه وبين أحد من الطالبين خصومة من سائر الناس قبل قول خصمه
فيه ولم يطالب ببينة^(٤) .

توفي الخليفة المنتصر في شهر ربيع الأول سنة ٢٤٨ هـ وبويج المستعين
بالله في شهر ربيع الآخر . وفي خلافته علم يريد بن عبد الله بأن رجلاً يقال
له محمد بن علي بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بويج له ، فأخذه فاعترف
بذلك كما اعترف بمن بايعه ، فأخذ بعضهم فضربوا بالسياط ثم أخرج العلوى
في جمع من آل أبي طالب إلى العراق في شهر رمضان سنة ٢٤٨ هـ^(٥) .

خلع المستعين من الخلافة في المحرم سنة ٢٥٢ هـ وبويج المعتز (٢٥٢ —
٢٥٥ هـ) . فاضطربت الأمور في مصر لاضطراب أمر الخلافة^(٦) بسبب
تحكم الأتراك في شئون الدولة . والأتراك كما نعلم كانوا في البداية من الرقيق
الذين اتخذهم الخلفاء العباسيون جنوداً ، ثم كثر عددهم وقوى نفوذهم منذ

(١) الكندى ص ٢٠٣ ، خطط المقرئى ج ٢ ص ٣٣٩ ، أبو المحاسن ج ٢
ص ٣٠٩

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٣

(٣) قَبَّلَ وقَبِيلَ قَبَالَة . ضمن والتزم ، قَبَّلَ المزارع الأرض . جعله
يلتزمها بقدر . وقد تحدثنا عن قبالة الأراضي سابقاً

(٤) الكندى ص ٢٠٤ ، المقرئى ج ٢ ص ٣٣٩

(٥) الكندى ص ٢٠٣ — ٢٠٤

(٦) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٤

أيام الخليفة المعتصم الذي أكثر من شرائهم ، إذ رأى فيهم قوماً أشداء
يميلون إلى الحرب ، وليس لهم وطن أو مجد قديم يعملون على إحيائه وليست
لهم عصبية العرب ، وإذا خصهم أحد بمنحه وعطاياهم فلا يعرفون رئيساً إلا
هو ، وقد بلغ من قوة نفوذهم في عهد المعتصم نفسه أن اضطر إلى مفارقة
بغداد حاضرة الخلافة العباسية وبناء حاضرة جديدة له ولجند الأتراك هي
سامرا (٢٢١ هـ) ليكون بعيداً عن الجند العربي والفارسي ببغداد ، ثم لتخوفه
من أن يصطدم الأهالي بالأتراك^(١) . على أن هؤلاء ما لبثوا أن تدخلوا على
ممر الزمن في معامع السياسة ، وصاروا يولون ويعزلون من شاؤوا من الخلفاء ،
وأصبح بيدهم القوة المدنية والحرية في الدولة .

وكان هذا إيذاناً باضطراب الأحوال في الأقاليم المختلفة في الدولة الإسلامية
كما كان فرصة لذوى الأغراض المختلفة للقيام ضد الخلافة العباسية ومن
بينهم العلويون . ففي خلافة المعتز ثار في الإسكندرية جابر بن الوليد المدبلي
في ربيع الآخر سنة ٢٥٢ هـ ، واشتد أمره وقويت شوكته وبسط سلطانه
على بلاد كثيرة من الوجه البحرى وجبى منها الخراج ، ولم يستطع يزيد
ابن عبد الله والى مصر إذ ذاك أن يقمع حركته ، فأرسل إليه للخليفة نجدة
بقيادة مزاحم بن خاقان الذى قدم من المراق فى عسكر عظيم ، (رجب سنة
٢٥٢ هـ) وقد استطاعت جيوش الخليفة أن تهزم جابراً وتظفر به فى النهاية ،
ولما كتبوا إلى الخليفة بذلك ورد عليهم الجواب بصرف يزيد بن عبد الله

(١) اليمقوي : كتاب البلدان ص ٢٥٦ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٦

١٢ وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ٣١٩ ، الدكتور زكى محمد حسن ،
الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٢٤ — ٢٥

عن إمرة مصر وتولية مزاحم بن خاقان بدلا منه (ربيع الأول سنة
والذى يهمننا فى حركة جابر بن الوليد ما كان من انضمام أحد
تلك الحركة ، وهو عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن
ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وكان يقال له ابن
هزمت جيوش جابر بن الوليد بعد قدوم مزاحم بن خاقان ، أخذ
وأخرج إلى العراق فى ربيع الأول سنة ٢٥٣ هـ . وفى ولاية
على مصر (ربيع الآخر — رمضان سنة ٢٥٤ هـ) خرج
بالمصعيد وهو أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن طباطبا بن اسماء
ابن الحسن بن الحسين بن على وكان يعرف باسم بغا الأ
أصحاب أزجور ففر ثم مات .

كذلك خرج من العلويين بغا الأصغر واسمه أحمد بن
ابن طباطبا فيما بين الإسكندرية وبرقة فى موضع يقال له الك
فى شهر جمادى الأولى سنة ٢٥٥ هـ ثم سار فى جمع إلى الك
على يد أحمد بن طولون وقتل فى الحرب وأتى برأسه إلى الق
سنة ٢٥٥ هـ^(٣) . كذلك ثار بمصعيد مصر سنة ٢٥٣ هـ أحد
ابن الصوفى العلوى ، ودخل إسنا فى سنة ٢٥٥ هـ فنهبا و
إليه أحمد بن طولون جيشا لقتاله ، وانتهى أمر ذلك العلوى
المدينة المنورة حيث قضى فيها بقية أيامه^(٤) .

(١) الكندى ص ٢٠٥ — ٢١٠ ، خطط المقرئى

أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٤

(٢) خطط المقرئى ج ٢ ص ٣٣٩

(٣) الكندى ص ٢١٢ ، المقرئى ج ٢ ص ٣٣٩

(٤) الكندى ص ٢١٣ — ٢١٤ و Les Tulunides : n

ومن ذلك نرى كيف تتايعت حركات الملوين في مصر منذ عهد الخليفة المتوكل العباسي . فكان اضطهادهم وتضييقه عليهم هو ومن أتى بعده من الخلفاء لم يمنعهم من الخروج علانية بعد أن كانوا يكيدون للخلافة العباسية سرا ، عليهم ينالون حظا من السلطان ويتخلصون من الخلافة العباسية واضطهادها . كما شجعهم على الخروج في تلك الفترة أيضا ضعف الخلافة العباسية نفسها وسوء حالة الخلفاء الذين أصبحوا العوبة في يد الأتراك .

ب - أثر النزاع بين الأمين والمأمون في مصر

قام النزاع بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون بسبب نظام ولاية العهد فقد كان الخليفة هارون الرشيد قد أخذ البيعة من بعده لابنه الأمين ثم المأمون ، على أن يلي الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب ويلي المأمون من همدان إلى المشرق على ألا يكون للأمين سلطان عليه^(١) .

لكن الأمين أظهر منذ توليه الخلافة عدم رغبته في تنفيذ عهد الرشيد^(٢) ، فخلع المأمون من ولاية العهد وبايع لابنه موسى ، وقامت الحروب لهذا بين الأمين والمأمون منذ سنة ١٩٥ هـ وانتهت بحصار جيش المأمون بغداد وقتل الأمين في سنة ١٩٨ هـ^(٣) وبذلك انتهت خلافة محمد الأمين وآلت الخلافة لعبد الله المأمون ولم ينتقل المأمون بعد توليه الخلافة إلى بغداد بل ظل في مبدأ الأمر في مرو عاصمة خراسان .

كانت خلافة الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ) ، أو بعبارة أخرى فترة

(١) الطبري ج ١ ص ٥٣ ، ٦٩ — ٧٠ و ٧٣ ، أبو الحسن : النجوم

الزاهرة ج ٢ ص ٨١ ، ١٠٥ — ١٠٦ ، ١٠٩ — ١١٠

(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٢٤

(٣) الطبري ج ١٠ ص ١٣٠ ، ١٣٨ — ١٣٩ ، ١٧٠ ، ١٧٤ —

النزاع بين الأمين والمأمون ، عهد فوضى واضطراب في جميع أنحاء الدولة الإسلامية . ولم تنته تلك الفوضى باعتماد المأمون عرش الخلافة في سنة ١٩٨ هـ ، بل ظلت آثارها عدة سنين وحدثت ثورات مختلفة في أنحاء الدولة ، ثورات من جانب العلويين ، وأخرى من جانب الأمويين الذين استغلوا ذلك النزاع حول الخلافة لينالوا هم أيضا حظا من السلطان .

وقد شملت هذه الفوضى مصر أيضا ، فتحزب فريق للأمين وتحزب فريق آخر للمأمون ، كما ظهرت في تلك الأثناء رغبة بعض الشخصيات في الاستقلال بمصر عن الخلافة ونجحوا في ذلك إلى حد ما ، واستطاع بعض الأندلسيين في تلك الفترة أن يؤسسوا لهم شبه جمهورية مستقلة عن الخلافة بالأسكندرية ، فكانت مصر في تلك الفترة يكاد لا يربطها شيء بالحكومة المركزية الإسلامية .

لما ولي الأمين الخلافة كان على ولاية مصر الحسن بن التختاخ^(١) وقد بدأ اضطراب الجند في مصر عقب وفاة الرشيد مباشرة ونشب القتال بين الحسن هذا وبين الثأرين عليه ، وقتل من الفريقين جمع غفير قبل أن يسكن الأمر ، ثم أخذ بعد ذلك في جمع الحراج ، وكتب إليه الفضل بن الربيع بأن يرسل الأموال إلى بغداد ، ولما مر الرسل الذين كانوا يحملونها بفلسطين وثب أهل الرملة عليهم وأخذوها منهم^(٢) . وحسبنا مثل هذا الحادث دليلاً على الفوضى التي حلت إذ ذاك بالبلاد . وما لبث الخليفة الأمين أن عزل ابن التختاخ عن إمارة مصر (ربيع الأول سنة ١٩٤ هـ) وولى عليها حاتم ابن هرثة بن أعين ، الذي قدم من بغداد على رأس جيش قوامه ألف من

(١) في النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ج ٢ ص ١٤١ أن اسمه الحسن بن البجاح

(٢) الكنى ص ١٤٦ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ١٤١

الجنود الفرس؛ وبزل بلبيس . وهناك اتفق معه أهل الجوف على أن يدفعوا ما عليهم من الخراج ؛ ولكنهم ما لبثوا أن نقضوا ذلك الصلح واجتمعوا لقتال الوالى ، فبعث حاتم لمهاربتهم جيشا أفلح في هزيمتهم^(١) . ثم عزل الأمين حاتم بن هرثمة في جمادى الآخرة سنة ١٩٥ هـ . ولعل سبب ذلك أن والده هرثمة بن أعين انضم للمأمون ضد الأمين . وولى الأمين على مصر جابر ابن الأشعث الطائى . وكان جابر هذا لينا محببا إلى الناس من العامة والخاصة .

وقد ظهر الاضطراب في مصر عندما علم أهلها بخلع الأمين أخاه المأمون من ولاية العهد . ففكر فريق من الجند في خلع الأمين غضبا للمأمون وتزعم هذه الحركة السرى بن الحكم بن يوسف فبعث إليهم والى مصر لينهاهم عما قاموا من أجله ويخوفهم عواقب الفتن . ولكن السرى بن الحكم ظل يدعو الناس إلى خلع الأمين^(٢) . وقد أتى السرى إلى مصر زمن الرشيد إذ كان من جند الليث بن الفضل والى مصر حينئذ (١٨٢ — ١٨٧ هـ) . ويقال إنه كان خامل الذكر ولم يرتفع شأنه إلا بقيامه في خلع الأمين^(٣) ، وقد شجع السرى بن الحكم على القيام بحركته هذه ما بلغه من انتصار طاهر بن الحسين على جيوش الأمين^(٤) .

ولم يهمل الخليفة المأمون من جانبه أمر مصر فكتب إلى وجوه القوم فيها يدعوهم إلى القيام بدعوته فأجابوه كلهم سرا ، ثم ورد كتاب قائده هرثمة بن أعين إلى عباد بن محمد بن حيان وكان وكيله على

(١) الكندى ص ١٤٧ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ١٤٤ .

(٢) الكندى ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٣) الكندى ص ١٤٨ .

(٤) أبو المحاسن ج ٢ ص ١٥٠ .

ضياح هرثمة بمصر — يدعوهم إلى الدعوة للمأمون ، فجمع الجند في المسجد وقرأ عليهم كتاب هرثمة ودعاهم إلى خلع الأمين فأجابه نفر عظيم منهم فأعطاهم هباد رزقا يسيرا وبايعوا للمأمون . وكان خلع الأمين بمصر في جمادى الآخرة سنة ١٩٦ هـ . وثار الجند على الوالى جابر بن الأشعث فأخرجوه من مصر في رجب من هذه السنة ثم ولى هذه البلاد عباد بن محمد من قبل المأمون (١) .

ولما علم الأمين بخلمه في مصر وإخراج واليه جابر بن الأشعث كتب إلى ربيعة بن قيس — وكان زعيم قبيلة قيس بالحواف — يبلغه اختياره إياه واليا على مصر وكتب إلى بعض وجوه القوم في مصر يطلب إليهم أن يشدوا أزر ربيعة بن قيس ، فقام هؤلاء يدعون إلى خلع المأمون وساروا إلى الفسطاط لمحاربة عباد ، إلا أن عباد سرعان ما حفر خندقا حول الفسطاط للدفاع منها فسار ربيعة بن قيس إلى الخندق في آخر ربيع الآخر سنة ١٩٧ هـ ووقعت الحرب بين الطرفين عند الخندق عدة أشهر دون أن ينتصر أحدهما ، فرأى عباد أن يحاربهم في الحواف فأرسل إليهم جيشا بقيادة عبد العزيز ابن الوزير الجروى في ذى القعدة سنة ١٩٧ هـ فانهزم الجروى ومضى في قومه من خلم وجذام إلى قاقوس (٢) . وهناك حرضه قومه على أن يدعو لنفسه وقالوا له : « لم لا تدعو لنفسك فإنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الأرض ؟ » . فصادف ذلك هوى في نفس الجروى وذهب إلى بلبيس ومن هناك بعث عماله لجباية الخراج من مصر السفلى . وهكذا نرى أن النزاع في مصر لأجل الأمين أو المأمون بدأ يتطور إلى نزاع للاستئثار بالسلطة دون الخلافة .

(١) الكندى ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٢) الكندى ص ١٤٩ — ١٥١ .

وكانت آخر مرة سار فيها أهل الحوف إلى القسطنطينية لمحاربة عباد في المحرم سنة ١٩٨ هـ ، فمقد عباد للسرى بن الحكم لمحاربتهم فاقتتل الفريقان ، وفي تلك الأثناء وصل إلى مصر خبر مقتل الأمين في المحرم وبيعة المأمون فتفرق أهل الحوف ، ثم عزل المأمون عبادا في صفر سنة ١٩٨ وولى المطلب ابن عبد الله الخزاعي^(١).

ساد الاضطراب في مصر كما رأينا زمن الخليفة الأمين ولم ينته ذلك الاضطراب بمقتله وتولية أخيه المأمون الخلافة ، بل تطور الأمر في هذه البلاد إلى نزاع بين بعض القواد للاستئثار بالسلطة فيها والاستقلال بأمورها عن الخلافة ، فكان على المأمون أن يبذل جهداً خاصاً لإعادة مصر إلى سلطانه والقضاء على الفتن فيها .

ومما يدل على اضطراب الحالة في مصر حينئذ أن أعمال الشرطة فيها وليها خمسة رجال على التوالي في بضعة أسابيع^(٢). وقد عزل المأمون المطلب ابن عبد الله عن ولاية مصر في شوال سنة ١٩٨ هـ بعد أن وليها سبعة أشهر ونصف ، وولى مكانه العباس بن موسى ، وقد أرسل العباس ابنه عبد الله إلى مصر خليفة له ريثما يحضر هو ، فقدم عبد الله إلى مصر في شوال من هذه السنة ، وكان أول ما فعله هو القبض على المطلب بن عبد الله وزجه في السجن . وقد اشتد عبد الله فثار الجند عليه وقتلوه غير مرة ، حتى هزموه في النهاية وأخرجوه من مصر ، ثم قصدوا المطلب بن عبد الله حيث أخرجوه من حبسه وولوه عليهم في المحرم سنة ١٩٩ هـ^(٣).

(١) الكندي ص ١٥١ — ١٥٢ .

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ١٥٧ .

(٣) الكندي ص ١٥٣ — ١٥٤ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ١٦١ — ١٦٢ .

حدث كل ذلك ووالى مصر نفعه العباس بن موسى لم يحضر إليها فلما علم بما حدث لابنه عبد الله قدم من مكة إلى الحوف فنزل بلييس ولم يلبث إلا قليلا حتى توفى وذلك فى جمادى الآخرة سنة ١٩٩ . ومن هذا نرى أن والى الذى عينه الخليفة ، لم يستطع دخول الحاضرة كما لم يستطع الوقوف وجها لوجه أمام والى الذى انتخبه الجند ، ومن هذا ندرك أيضا كيف تلاشت سلطة الخليفة على ولاية مصر تقريباً .

بعد موت العباس ، كاتب المطلب أهل الحوف فبايموه ، فولى على الوجه البحرى يزيد بن خطاب الكلبي ، وبعد ذلك بعث المطلب إلى الجروى بولايته على تنيس وأمره بالشخص إلى الفسطاط^(١) ويظهر أن المطلب أراد بذلك أن يخدع الجروى ويوقع به لأنه عرف رغبته فى الاستقلال وطمعه فى ولاية مصر ، فالسألة لم تعد تتصل بالحكومة المركزية فى بغداد ، وإنما أصبحت مصر وسط هذه الفوضى غنيمة لمن غلب ، فالوالى الذى عينه الجند يرى أن طاعته واجبة على أهل مصر ، والجروى لا يرى نفسه أقل من والى كفاية . وبعد قليل نرى السرى أيضاً ينضم إلى زمرة الطامعين فى مصر ويحاول أن يؤسس له ملكاً وراثياً فيها ، كل هذا يحدث والخليفة المأمون مشغول بالقضاء على الثورات المختلفة التى قامت فى أنحاء الدولة الإسلامية .

لم يذهب الجروى إلى الفسطاط كما أمره المطلب ، وإزاء هذا بعث المطلب بوالى على تنيس ولكن الجروى أخرجه منها ، فبعث إليه السرى ابن الحكم فى جمع من الجند يسألونه الصلح فأجابهم إليه ، إلا أنه أراد القدر بهم ففطنوا إلى ذلك وحاربوه ، ثم عاد فدعاهم إلى الصلح واستطاع أن يقبض على السرى خدعة ويأسره ثم مضى به إلى تنيس حيث سجنه بها

(جمادى الأولى سنة ١٩٩ هـ) ويظهر أن بلاداً عدة في شرق الدلتا دخلت في حوزة الجروى إذ ذاك وزادت قوته نتيجة لذلك بدليل محديه قوة الوالى . فبعد أن سجن السرى بن الحكم ، ذهب لقاتلة يزيد بن الخطاب ، عامل المطلب على الوجه البحرى ، واستطاع الجروى أن يهزمه فأرسل إليه المطلب جيشاً لمحاربه بقيادة ابن عبد النفار الجحى ولكن الجروى هزم ذلك الجيش وأسر ابن عبد النفار وذلك في أول رجب سنة ١٩٩ هـ^(١) .

عزم المطلب إزاء هذا على أن يوجه كل قوته للقضاء على الجروى فلما علم الجروى بذلك أخرج السرى من سجنه وعاهده على أن يطلق سراحه ويدكر للمصريين أن كتاباً ورد من الخلافة بولايته على مصر ، على شرط أن يقوم السرى بمحاربة المطلب ، فعاهده السرى على ذلك . وعند ذلك أطلقه الجروى وأعلن ولايته إلى الجند ، فبايعه الجند من أهل خراسان وامتنع الجند العرب وقد وقعت حروب بين السرى وبين المطلب انتهت بأن طلب المطلب الأمان من السرى على أن يسلم إليه الأمر ويخرج من مصر . فأمنه السرى وخرج المطلب إلى مكة في رمضان سنة ٢٠٠ هـ وعقب ذلك ولّى السرى بن الحكم مصر بإجماع الجند في مستهل شهر رمضان سنة ٢٠٠ هـ^(٢) . وقد أدرك الماصرون من المصريين والوطنيين أن الدين ولو لمصر إذ ذاك كانوا خارجين على الخلافة ، فيذكر ساويرس^(٣) نقلاً عن الوثائق المعاصرة أن الثوار استطالوا على مصر لاضطراب الأمور في بغداد وقام الخارجون بحماية الضرائب لأنفسهم . ومن بين هؤلاء الخارجين عبد العزيز الجروى الذى استولى على شرق الدلتا من شطونف إلى القرها ،

(١) السكندى ص ١٥٧ .

(٢) السكندى ص ١٥٩ — ١٦١ .

(٣) سير الأباء البطارقة ص ٤٢٨ (Lx) .

والسرى بن الحكم الذى استولى على الوجه القبلى من مصر إلى أسوان .
أما غربيه الدلتا بما فى ذلك الاسكندرية وأعمالها وصربوط والبحيرة جميعها
فقد ملكها قبيلتنا نلح وجذام .

هكذا قسمت مصر بين الخارجين على الخلافة كما يذكر ساويرس ،
فالجروى كما رأينا سابقا كان صاحب السلطة الفعلية فى شرق الدلتا ، كما كان
صاحب الفضل فى تولية السرى بن الحكم على مصر ليتخلص بذلك من
المطلب بن عبدالله ، إلا أنه لى يتخلص من المطلب ، أوجد له منافسا آخر
فى شخص السرى ، الذى سرعان ما طمع فى أن يكون صاحب السلطة
الفعلية فى مصر كلها ، فبعد أن كان الجروى والسرى يحاربان لأجل الخليفة
المأمون ، أصبح كل منهما يحارب الآخر ، وهذا أدى إلى النزاع بين
الجروى والسرى نزاعا متواصلا فى السنين التالية ، بل إن هذا النزاع استمر
بين أولادها بعد وفاة الاثنين .

أما منطقة غربى الدلتا ، ونمى منطقة الاسكندرية بوجه خاص ، فقد
خزجت عن سلطة والى مصر منذ ولاية عباد بن محمد بن حيان (١٩٦ —
١٩٨ هـ) إذ تغلب بهلول اللخمى على الاسكندرية فى ولايته . فلما ولى
المطلب بن عبدالله مصر من قبل المأمون سنة ١٩٨ هـ ولى على الاسكندرية ،
حديج بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معارية بن حديج ، فنارضه
بنو مدلج بالاسكندرية ، فبعث إليهم المطلب بأخيه هرون فانهمز
هرون أمامهم (١) .

ولما ولى المطلب بن عبدالله ولايته الثانية على مصر بإجماع الجند
(سنة ١٩٩ هـ — ٢٠٠ هـ) ولى على الاسكندرية محمد بن هبيرة

(١) الكندى ص ١٥٣ .

ابن هاشم بن حديج ، فاستخلف محمد هذا عمر بن عبيد الملك بن محمد
ابن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الذي يعرف باسم عمر بن هلال^(١)
فوليها عمر بن هلال ثلاثة أشهر ثم عزله المطلب وولى عليها أخاه الفضل
ابن عبد الله^(٢)

في تلك الأثناء كانت مراكب الأندلسيين قد رست عند الاسكندرية .
وكثيراً ما كان الأندلسيون يأتون إلى الاسكندرية فيتبادلون التجارة مع
الناس ، ولكن ولاية مصر كانوا لا يسمحون لهم بالدخول فيها^(٣) . أما
في هذه المرة فإن أهل الأندلس لم يأتوا للتجارة وإنما خرجوا من وطنهم
مطرودين وذلك في عهد ملكهم الحكم بن هشام الأموي على أثر وقعة
الربض بقرطبة في رمضان سنة ١٩٨ هـ^(٤) . فرسا فريق منهم بالقرب من
الاسكندرية وكان عددهم حوالي ١٥٠٠٠ شخص إذ استثنينا النساء
والأطفال^(٥) .

لما عزل عمر بن هلال ، كتب إليه عبد العزيز الجرجي يأمره بالدعاء له
فيها وبإخراجها من قبل المطلب فلم يجد عمر بن هلال بداً من استدعاء
هؤلاء القرطبيين ليساعدوه في ذلك وسرعان ما لبوا طلبه واستطاع أن
يخرجها من قبلها — الفضل بن عبد الله — ويدعو للجرجي بالاسكندرية . إلا
أن أهل الاسكندرية ثاروا ضد الأندلسيين وأخرجوهم من الاسكندرية إلى

(١) يذكر الكندي أنه عرف باسم عمر بن هلال ويذكر المقرئ في الحطط
١ ص ١٧٢ أنه عرف باسم عمر بن ملك .

(٢) الكندي ص ١٥٧ ، خطط المقرئ ج ١ ص ١٧٢ .

(٣) الكندي ص ١٥٨ ، خطط المقرئ ج ١ ص ١٧٢ .

(٤) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٠٩ — ٢١٠ وأبو المحاسن ج ٢ ص ١٥٨ .

Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne. t. I. pp. 296-300

Dozy : op. cit. p. 300. (٥)

مراكبهم بعد أن قتلوا منهم نفرآ ، وأقلموا عليهم الفضل ثانياً^(١) .
ثم عزل المطلب أخاه الفضل عن الاسكندرية وولى عليها إسحاق بن أبرمه
ابن الصباح فسار إليه عمر بن هلال فى شهر رمضان سنة ١٩٩ هـ ، فعزله
المطلب وولاهها أبا بكر^(٢) بن جنادة بن عيسى المافرى^(٣) . ولما انتصر السرى
ابن الحكم على المطلب وولى مصر فى رمضان سنة ٢٠٠ هـ بإجماع الجند ،
سار عمر بن هلال إلى أبى بكر بن جنادة وأخرجه من الاسكندرية ودعا
للجروى بها ، وكان الجروى والسرى إذ ذاك متسالمين ، فلما علم الأندلسيون
بولاية ابن هلال على الاسكندرية قدموا إليه ، إلا أنه لم يعاملهم فى تلك المرة
كما عاملهم أولاً إذ بلغه عنهم بعض الفساد فأمر بإخراجهم من الاسكندرية
إلى مراكبهم^(٤) .

حقد الأندلسيون على ابن هلال ، وظهر فى الاسكندرية فى ذلك الوقت
طائفة تعرف بالصوفية^(٥) « يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » فيما زعموا ،
ويعارضون السلطان فى أمره واتخذوا رئيساً لهم رجلاً منهم يقال له أبو عبد
الرحمن الصوفى ، وقد اتحد الأندلسيون مع هؤلاء الصوفية كما تقووا بقبيلة نلم
وكانت أقوى من فى ناحية الاسكندرية ، ثم ساروا إلى عمر بن هلال ليثأروا
لأنفسهم منه فحاصروه وانتهى الأمر بقتله فى ذى القعدة سنة ٢٠٠ هـ^(٦) .
وعقب مقتل ابن هلال انقلبت صداقة الأندلسيين واللخميين إلى عداوة

(١) الكندى ص ١٥٨ ، خطط المقرئى ج ١ ص ١٧٢ .

(٢) فى خطط المقرئى (ج ١ ص ١٧٣) يقول إن اسمه أبو ذكر بن جنادة

(٣) الكندى ص ١٥٨ ، خطط المقرئى ج ١ ص ١٧٣ .

(٤) الكندى ص ١٦١ — ١٦٢ ، المقرئى ج ١ ص ١٧٣ .

(٥) يذكر آدم متز فى كتابه الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٤ أن أول ظهور

الطوائف الصوفية حوالى عام ٢٠٠ هـ وذلك فى مصر مهد الرهبنة المسيحية .

(٦) الكندى ص ١٦٢ ، المقرئى ص ١٧٣ .

ووقعت الحرب بينهم . ولما رأى أهل الاسكندرية ما حدث بين القريظيين جردوا سيوفهم وقتلوا من الأندلسيين نحو ثمانين نفسا ، فلما علم الأندلسيون بذلك بعد انتصارهم على اللخميين خرجوا لقتال كل من لا قوة من أهل الاسكندرية ، مسلمين كانوا أو نصارى أو يهود وأحرقوا كل موضع عثروا فيه على أحد من أصحابهم المقتولين^(١) .

أصبح الأندلسيون أصحاب السلطة الفعلية في الاسكندرية منذ انتصارهم على عمر بن هلال وتأكد سلطانهم عندما هزموا اللخميين وملكوا الإسكندرية عنوة في ذى الحجة سنة ٢٠٠ هـ^(٢) ، فولوا عليها أبا عبد الرحمن الصوفي ، إلا أن الأحوال في الاسكندرية اضطربت في عهده وعم القتل والنهب فيها فمزله الأندلسيون عنها وولوا عليها رجلا منهم يعرف بالكناشي^(٣) . وهكذا نرى أن الاسكندرية أصبحت شبه جمهورية مستقلة للأندلسيين ، وأصبحت مصر بمثابة قطائع مقسمة بين أفراد أو جماعات مختلفة ، كل منها مستقلة عن الأخرى وهي كلها مستقلة عن الخلافة .

بلغ الجروى مقتل ابن هلال وما فعله الأندلسيون بالاسكندرية فصار إليها في خمسين ألفا وحاصرها وكاد يفتحها في المحرم سنة ٢٠١ هـ ولكن السرى خشي ازدياد نفوذ الجروى فبعث عمرو بن وهب الخزاعي على رأس جيش إلى مقره في تنيس ، فترك الجروى حصار الاسكندرية ورجع إلى تنيس حيث أخرج جيش السرى منها . ومن ثم تطورت المنافسة الخفية بين الجروى والسرى إلى نزاع علني بينهما .

(١) ساويرس : سير الآباء البطارقة — س ٢٠ — ٢٣١

(٢) (atr. Orient. t. X)

(٢) السكندى ص ١٦٣ .

(٣) السكندى ص ١٦٣ — ١٦٤ ، خطط المقرئى ج ١ ص ١٧٢ .

وربما خشي الاندلسيون على مصيرهم فأروا أن يتقوا بانضمامهم إلى
الوالي ، لذلك نراهم يدعون في الاسكندرية للسري بن الحكم سنة ٢٠١هـ^(١)
على أن السري مالبث أن اختلف مع آل عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي ،
وكانوا وجوه أهل خراسان بمصر ، فبايعهم الجند على القيام ضد السري
وأظهروا كتابا من طاهر بن الحسين (قائد المأمون) بولاية سليمان بن غالب
ابن جبريل البجلي على مصر ، فلم يكن من السري إلا الرضوخ لهم وذلك
في ربيع الأول سنة ٢٠١هـ فكانت ولاية السري في هذه المدة ستة أشهر^(٢)
أمر سليمان بن غالب السري بن الحكم بترك العاصمة والذهاب إلى
اخميم . على أن السري مالبث أن تقوى ثانية بانضمام بني مدلج وكثير من
الناس إليه . فسار بهم يريد القسطنطينية ، ولما علم سليمان بن غالب بذلك أرسل
إليه جيشا لمحاربتة قبل أن يصل إليها فدارت الدائرة على السري وأسر هو
وابنه ميخون ، فأمر سليمان بردهما ثانية إلى اخميم وسجنهما . وذلك في جمادى
الأولى سنة ٢٠١هـ^(٣) ، ولا نعرف لماذا لم يقتل سليمان بن غالب السري بعد
أن ظفربه ، وربما دعاه إلى هذا التصرف خوفا من أتباع السري ومن
نورتهم ضده ، ومالبث أهل خراسان بمصر أن قاموا ضد سليمان بن غالب
وذلك لتقديمه أتباعه وبطانته عليهم ، وانتهى الأمر بأن خلفه الجند من
ولاية مصر في شعبان من سنة ٢٠١هـ ثم لحق سليمان بالجروى^(٤) . بعد
عزل سليمان ، ولي السري بن الحكم مصر للمرة الثانية على أنه في هذه المرة

(١) الكندي ص ١٦٥ .

(٢) الكندي ص ١٦٥ .

(٣) الكندي ص ١٦٦ .

(٤) الكندي ص ١٦٦ - ١٦٧ .

لم يتولاها كالمرة الأولى بمبايعة الجند له وإنما حولها بأمر من الخليفة المأمون^(١) ويظهر أن اضطراب الحال في الدولة الإسلامية دعا المأمون إلى التسليم بالأمر الواقع في مصر ريثما تهدأ الأمور فولى السرى الذى كان له أتباع كثيرون إذ ذاك .

وحدث في سنة ٢٠١ هـ أن بايع المأمون لولاية عهده عليا الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق وسماه الرضا من آل محمد ، وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخضره شعار العلويين ، وكتب بذلك إلى جميع الآفاق .

وقد ظن أهل بغداد أن هذا من عمل الفضل بن سهل الذى كان يدبر أمور المأمون في مرو . والفرس كما نعلم كانوا يميلون إلى العلويين . ولذا نجد أهل بغداد يبايعون بالخلافة إبراهيم بن المهدي عم المأمون في سنة ٢٠١ هـ ويخلعون المأمون . اضطربت الأحوال في الدولة الإسلامية ، ولم يعلم المأمون بذلك إذ كتم الفضل بن سهل هذه الأخبار عنه ، ويقال إن الذى أعلمه بهذه الأمور عليا الرضا بل إنه أشار عليه بالرجوع إلى بغداد تهدأ الحالة وليضبط الأمور بنفسه ، فسار المأمون إليها وفي طريقه إلى هناك مات الفضل بن سهل سنة ٢٠٢ هـ ثم مات علي الرضا في طوس سنة ٢٠٣ هـ . وأخيراً دخل المأمون بغداد في سنة ٢٠٤ هـ واختفى إبراهيم بن المهدي ، واستطاع المأمون بعد دخوله بغداد أن يقبض على ناصية الحال في الدولة الإسلامية ويقضى على الاضطرابات التى سادت فيها بعد أن تخلص من النفوذ الفارسي ومن النفوذ العلوي ، وقد استعطفه إبراهيم بن المهدي فصصح عنه .

(١) الكندي ص ١٦٧ .

أما في مصر فإن أمورها في تلك الفترة كانت تسير دائما متأثرة بما يجري في الخلافة فينعكس عليها ما يحدث هناك واضحا جليا . لذا نرى الخليفة المأمون يكتب إلى السرى بن الحكم يأمره بالبيعة فيها لولى عهده على الرضا في المحرم سنة ٢٠٢ هـ فبويغ له بها ، على أن المضريين انقسموا على أنفسهم كما حدث في بغداد وسائر الدولة الإسلامية ، إذ كتب إبراهيم بن المهدي إلى وجوه الجند بمصر يأمرهم بخلع المأمون وولى عهده ، والثورة ضد السرى ، وكان من السهل أن يلتقى إبراهيم بن المهدي أنصارا له بمصر ، لاحبا في خلافته وإنما طمعا من بعض الزعماء في السلطان أولتذرهم من ولاية السرى أو غير ذلك من الأغراض المختلفة التي كانوا يسترونها وراء قيامهم بالدعوة لأحد الخلفاء أو لأحد الخارجين على الخلافة . فقام بالدعوة لإبراهيم في مصر الحارث بن زرعة بن قحزم بالفسطاط ، وعبد العزيز ابن الوزير الجروى بالدلتا وسلامة ابن عبد الملك الأزدي الطححاوى بالصعيد ، وسليمان بن غالب بن جبريل الذى كان منضما إلى الجروى . وعقدوا الولاية لعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدي ، على أن السرى حاربه حتى ظفر به ، وقتله في صفر سنة ٢٠٣ هـ^(١) وانضم بعد ذلك كل من كره بيعة على الرضا إلى الجروى لعظم سلطانه إذ ذاك ، فسار الجروى إلى الإسكندرية للمرة الثانية لمحاربة الاندلسيين بها فحاصرها وانتهى الأمر بأن اصطالح الاندلسيون على فتح حصن الإسكندرية والدعوة للجروى بها . ثم دعى للجروى بالصعيد أيضا .

وعندما علم الجند بموت على الرضا وانخزال إبراهيم بن المهدي أظهروا بيعة المأمون والدعوة إليه ، وقد ورد كتاب المأمون إلى السرى بذلك وبفسل النار التي دعى عليها لعلى الرضا ففسلت^(٢) . واتهمز الاندلسيون أيضا هذه

(١) الكنى ص ١٦٨ .

(٢) الكنى ص ١٧٠ .

الفرصة فأخرجوا عامل الجروى بالإسكندرية منها وأغلقوا الحصن دونه وخلصوا الجروى ودعوا إلى السرى بن الحكم ، فسار إليهم الجروى في رمضان سنة ٢٠٣ هـ . على أن القبط بسخا ناروا ضده وانضم إليهم بنو مدلج فهزمهم الجروى وهرب بنو مدلج ثم بعث الجروى بجيوش إلى الإسكندرية لحاصرتها^(١) . وربما دعا القبط إلى الثورة ضد الجروى ما أتاه من أفعال ؛ إذ يذكر ساويرس^(٢) أن الجروى كان يذاب على قتل الناس وأخذ أموالهم وكان يدفن في الأرض ما يأخذه من أموال ، وإذا دفن المال يقتل الذين ساعدوه على دفنه كي لا يبيعوا بسره . وكذلك جمع الجروى قمح أرض مصر جميعها ووضع في الأهراء تحت تصرفه ، حتى نذر القمح وعن وجوده ، فحدثت مجاعة كبيرة بسبب ذلك ولا سيما بالإسكندرية ، وكان يرى من وراء ذلك إلى أن تسلم إليه البلاد جميعها .

لكن السرى بن الحكم أفسد على الجروى خططه فأرسل جيشاً في ذى القعدة سنة ٢٠٣ هـ إلى بلاد الصعيد لاستخلاصها منه ، فنهزم سلامة ابن عبد الملك الطحارى حليف الجروى بالصعيد ، وأسر هو وابنه إبراهيم وأرسل إلى القسطنطينية حيث قتل هناك في المحرم سنة ٢٠٤ هـ^(٣) .

وفي تلك الأثناء سار عبد العزيز الجروى لحصار الإسكندرية للمرة الرابعة فأغلق الأندلسيون حصنها ولكن الجروى حاصرهم حصاراً شديداً وأخذ يضرب الحصن بالهجانيق وظل على ذلك سبعة أشهر من بداية شعبان سنة ٢٠٤ هـ إلى آخر صفر سنة ٢٠٥ هـ . وانتهى الأمر بأن قتل الجروى

(١) الكنى من ١٧٠ .

(٢) سير الآباء البطركية . من ٤٥٥ — ٤٥٦ . (Patr. Orient. t. X).

(٣) الكنى من ١٧١ .

أثناء الحصار . ومات السرى بن الحكم بعده بثلاثة أشهر في القسطنطينية
في آخر جمادى الأولى سنة ٢٠٥ هـ بعد أن ولى مصر ثلاث سنين
وتسعة أشهر .

ببيع بولاية مصر بعد السرى بن الحكم ابنه أبو نصر بن السرى ،
ولم يكن معنى ذلك القضاء على المنازعات التي قامت حول ولاية مصر ، إذ
ورث أبناء السرى والجروى نزاع والديهما . فكان بيد أبي نصر من أرض
مصر القسطنطينية والصعيد وغربي الدلتا وكان بيد علي بن عبد العزيز الجروى ،
بقية الوجه البحرى بما فى ذلك الحوف الشرقى ، وقد وقعت الحروب بينهما ،
ثم اصطالحا على أن يكف أحدهما عن الآخر . وأخيراً توفى أبو نصر فى
٨ شعبان سنة ٢٠٦ هـ بعد أن ولى مصر أربعة عشر شهراً^(١) .

بايع الجند عبيد الله بن السرى بولاية مصر بعد وفاة أخيه فى شعبان
سنة ٢٠٦ هـ ولم يتعرض كل من عبيد الله وعلي بن الجروى للآخر حتى انتهت
سنة ٢٠٦ هـ ، حين عقد المأمون ولاية مصر لـ خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى
وبعثه إليها فى جيش من ربيعة فلما دخل الحدود المصرية أرسل إلى عبيد الله
يعلمه بذلك فاستنعت عبيد الله عن التسليم له واحتج بأن كتاب المأمون قد ورد
إليه بولايته هو ، واستعد عبيد الله للحرب خالد فحفر خندقاً حول القسطنطينية
وجند الجنود ، فسار خالد إلى خندق عبيد الله وهناك وقع القتال بينهما
وانتهى بأسر خالد بن يزيد فأكرمه عبيد الله بن السرى وخيره بين المقام
فى مصر أو الرحيل حيث شاء فاختار الذهاب إلى مكة عن طريق القلزم^(٢) .
ويظهر أن الأمور فى مختلف أنحاء الدولة الإسلامية شغلت المأمون حتى ذلك

(١) السكندى ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٢) السكندى ص ١٧٣ — ١٧٦ .

الوقت عن التفرغ للقضاء على الفوضى في مصر وإرجاعها ثانية إلى حظيرته، فأرسل رسولا من قبله يقر عبيد الله على ما بيده من أرض مصر ويقر علياً ابن الجروى على ما بيده^(١).

حدث بعد ذلك نزاع بين عبيد الله بن السرى وبين علي بن الجروى وسببه أن قوما من أهل الخوف ممنوا ابن الجروى من جباية الخراج وكتبوا إلى عبيد الله بن السرى يطلبون منه المساعدة ضد علي الجروى ، فأمدهم بما طلبوا وبعث إليهم أخاه أحمد بن السرى في سنة ٢٠٧ هـ ف وقعت حروب بينهما كان نتيجةها أن دخل عبيد الله تنيس ، مقر ولاية الجروى ، وهرب ابن الجروى إلى الفرما ثم العريش في ربيع الأول سنة ٢٠٩ هـ^(٢) ، أى أن مصر كلها خضعت لعبيد الله بن السرى إذا استثنينا الاسكندرية التي كانت تحت سلطة الأندلسيين . على أنه لم يكن من السهل أن يتخلى ابن الجروى عن ولايته في مصر السفلى . فحدثت مناوشات وحروب بينه وبين ابن السرى^(٣) ، وبينهما كذلك قدم عبد الله بن طاهر بن الحسين من الشام موفداً من قبل الخليفة المأمون ليقتضى على تلك الفوضى التي سادت في مصر منذ نحو إحدى عشرة سنة ، كادت مصر في أثنائها تكون مستقلة عن الخلافة ، لا ترسل إليها الخراج والأموال ولا ترضخ فيها لأوامر الخليفة ولا تقبل المال الذين يوليههم وقد تنلب على كل ناحية فيها قائد أو زعيم .

سار عبد الله بن طاهر إلى مصر فاستقبله علي بن الجروى بالأموال والأتزال وانضم إليه ، ثم أرسل ابن طاهر إلى عبد الله بن السرى يدعوه إلى

(١) الكندى ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٢) الكندى ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(٣) الكندى ص ١٧٨ — ١٧٩ ، خطط المقرئى ج ١ ص ١٧٩ .

الطاعة ولكن عبيداً أخذ يستمد لحريه فخر خندقه وأعد سفنه وأحكم
أموره وكانت النتيجة أن اشتبك القريقتان ووقعت الحرب بينهما فانهزم عبيد
وقتل معظم أصحابه حتى أشرف على الهلاك فطلب الأمان . فكتب ابن طاهر
إلى الخليفة المأمون كتاباً يسأل فيه أمان عبيد فأجابه الخليفة إلى ذلك . ثم
كتب عبد الله بن طاهر لعبيد كتاب أمان أشهد فيه شهوداً من الجند
والفقهاء وأشرف أهل مصر في صفر سنة ٢١١ هـ وخلع عليه ابن طاهر
وأجازه بمشرة آلاف دينار وأمره بالخروج إلى المأمون^(١) وبذلك خلصت
معظم مصر للخلافة على يد عبد الله بن طاهر وكان أمامه أن يقضى على
الجمهورية التي أقامها الأندلسيون بالاسكندرية منذ عشر سنوات .

سار عبد الله بن طاهر في قواده إلى الاسكندرية في بداية صفر
سنة ٢١٢ هـ وحاصرها في شهر ربيع الأول فطلب أهلها الأمان ، وصالح
الأندلسيين على أن يسيرهم من الاسكندرية حيث أحبوا فخرجوا إلى جزيرة
أقريطش (كريت) وملكوها وكان أميرهم أبو حفص عمر بن عيسى ، ثم
ولى ابن طاهر على الإسكندرية الياس بن سامان ، ورجع ثانية إلى القسطنطينية
في جمادى الآخرة سنة ٢١٢ هـ^(٢) .

وهكذا عادت مصر بفضل مجهودات عبد الله بن طاهر ولاية خاضعة
للخلافة بعد أن سادت فيها الفوضى وكادت تخرج من حكم الخليفة وتستقل
بأمورها ، منتهزة فرصة النزاع بين الأمين والمأمون ثم الاضطراب الذي قام
في أوائل حكم المأمون . ويجدر بنا أن نلاحظ أن السرى بن الحكم ،
الخراساني الأصل ، استطاع أن يكون لنفسه ولأسرته من بعده ملكاً شبه

(١) الكندي ص ١٨٠ — ١٨٢ .

(٢) الكندي ص ١٨٣ — ١٨٤ ، خطط المقرئ ج ١ ص ١٧٣ .

مستقل دام نحو عشر سنوات ولم تسيطر هذه الأسرة على مصر طوال هذه المدة وإنما سيطرت على العاصمة دائماً وعلى الوجه القبلى فى الغلب . ونلاحظ أيضاً أن أسرة السرى كانت كغيرها من الأسرات التى استقلت بمصر فيما بعد ، مثل الطولونيين والأخشيديين ، أى أنه لم يكن لها أساس قوى فى البلاد التى اتخذتها مسرحاً لنشاطها . فهذه الأسرات التى قامت فى مصر الإسلامية لم تكن نتيجة لحركات قومية وإنما كانت حركات فردية قام بها ذوو الشخصيات الطموحة القوية . ولذا لم يكن من المنتظر أن تعمّر طويلاً بعد وفاة مؤسسها ، وخاصة إن كان خلفاء هؤلاء المؤسسين لا تتوفر لديهم القوة والشخصية التى كانت لأسلافهم . ويصح أن تعتبر أسرة السرى أول أسرة شبه مستقلة فى مصر الإسلامية . وكانت هذه الأسرة مقدمة لأسرة ابن طولون التى استقلت بمصر استقلالاً فعلياً فى الواقع وذاتياً فى الظاهر .

ج - مصر والمحنة بخلق القرآن

مسألة خلق القرآن هى إحدى المسائل التى أثارتها المعتزلة حين ظهرت بتعاليمها كما ظهر غيرها من الفرق والمذاهب .

ولا يعنى هنا أن نبحث فى آراء المعتزلة الدينية ومعتقداتهم وإنما يهمنا أن الدولة العباسية فى وقت ما اتخذت الاعتزال مذهباً رسمياً لها ، وحلت جميع رعايا دولتها على اعتناق ذلك المذهب مستعملة فى ذلك جميع وسائل القوة والبنف ، وكانت مصر ممن حمل على اتخاذ ذلك المذهب . كانت مسألة خلق القرآن هى المسألة التى ركز فيها الاعتزال فى تلك الفترة (٢١٨ - ٢٣٤هـ) لكثرة القول والجدل فيها ، ولأنها مبنية على أكبر أصل من أصولهم وهو

التوحيد وعدم تعدد صفات الله^(١) .

وقد أظهر المأمون القول بخلق القرآن في سنة ٢١٢ هـ^(٢) ، إلا أنه لم يحمل الناس على اتباعه إلا في سنة ٢١٨ هـ قبيل وفاته وهو خارج بغداد لغزو الروم ، إذ كتب إلى والي بغداد إسحق بن إبراهيم يطلب منه أن يمتحن القضاة والفقهاء والمحدثين في خلق القرآن ويماقب من لا يقر بخلقه . على أن المأمون توفي بعد ذلك بنحو أربعة أشهر (رجب سنة ٢١٨ هـ) فحمل هذا الأمر من بعده أخوه المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) ثم الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) وقد عذب كثير ممن امتنعوا عن القول بخلق القرآن نذكر منهم الإمام أحمد بن حنبل ، وقتل البعض الآخر ، وبقدر ما كان الخلفاء يشتدون في تلك المسألة كان العلماء والشعب يمارضون فيها^(٣) ، وقد أصبحت كلمة المحنة تعني اختبار العلماء في القول بخلق القرآن وما لاقوه في ذلك من عذاب^(٤) ، وهكذا أصبحت الدولة الإسلامية كلها موضوع محاكمة . ويهمننا ما كان من أمر مصر في هذه المسألة .

في ولاية كيدر نصر بن عبد الله على مصر (٢١٧ - ٢١٩ هـ) ورد عليه كتاب المعتصم (صاحب إقطاع مصر حينذاك) في جمادى الآخرة سنة ٢١٨ هـ يأمره بأخذ الناس بالمحنة بخلق القرآن وأن يمتحن قاضي مصر إذ ذاك هرون بن عبد الله الزهرى وأن يمتحن المحدثين والفقهاء والشهود ، وأن يعزل القاضي إن لم يقر بخلق القرآن ، وكذلك طلب منه

١ (١) أحمد أمين بك : ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٦٥ .

(٢) الطبرى ج ١٠ ص ٢٧٩ .

(٣) أحمد أمين بك : ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٥٦ - ١٨٢ .

(٤) المرجع نفسه ص ١٦٦ .

ألا يأذن لأحد في حديث أو فتوى أو شهادة إلا إذا أقر بخلق القرآن^(١) .
ويظهر أنه لم تقم في مصر في أول الأمر معارضة شديدة للقول بخلق القرآن ،
كما قامت في العراق مقر الخلافة ، ولم تتعرض مصر لما تعرضت له العراق
من قتل وتعذيب واضطهاد لهذا السبب ، وربما أقر المصريون القول بخلق
القرآن تقية فكفاهم هذا شراً كثيراً . فيذكر الكندي أنه حين ورد
كتاب المعتصم على كيدر يأمره بأخذ الناس بالحنة أحضر هرون بن عبد الله
القاضي ودعاه إلى هذا فأجاب إليه ووافقه على ذلك عامة الشهود ومن عرف
بالعدالة كما أجاب أكثر الفقهاء إلا من هرب منهم وكذلك كان هرون
ابن عبد الله يوقف شهادة من لا يقول بخلق القرآن ويقبل شهادة من يقر
بخلقه^(٢) .

ظل هرون بن عبد الله يلى قضاء مصر إلى أن ورد عليه كتاب الخليفة
المعتصم في سنة ٢٢٦هـ يأمره بالتوقف عن الحكم . وولى القضاء بعده محمد
ابن أبي الليث الخوارزمي . ولعل المصريين لم يقوموا بمعارضة شديدة ضد الحنة
طالما لم يؤخذوا فيها بالشدة ، فيذكر الكندي^(٣) أن أمر الحنة كان سهلاً
في خلافة المعتصم ، « فلم يكن الناس يؤخذون بها شاءوا أو أبوا حتى مات
المعتصم وقام الواثق سنة سبع وعشرين ومائتين فأمر أن يؤخذ الناس بها
وورد كتابه على محمد بن أبي الليث بذلك وكأنها نار أضرمت » . فالخليفة
الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢هـ) كان يقول بخلق القرآن عن عقيدة كما قال به
الأمون ، لذا نجاهه يرسل إلى قاضي مصر محمد بن أبي الليث يأمره بامتحان

(١) الكندي ص ١٩٣ ، ٤٤٥ — ٤٤٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة

ج ٢ ص ٢١٨ — ٢١٩ .

(٢) الكندي ص ٤٤٧

(٣) الكندي ص ٤٥١ .

الناس جميعا حتى لم يبق أحد من فقيه أو محدث أو مؤذن أو معلم حتى أخذ بالحنة ، وعندئذ عارض كثير من المصريين الحنة وثاروا ضدها . ففلت السجون منهم كما هرب الكثيرون .

وقد أمر ابن أبي الليث أن يكتب على المساجد لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق ، كما منع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المسجد وأمرهم أن لا يقربوه وقد اختص أصحاب مالك والشافعي بالمنع لأنه لم يكن للمذاهب الأخرى أتباع في مصر حينذاك .

وكان ممن هرب بسبب الحنة أحد علماء مصر المشهورين في ذلك الوقت وهو ذو النون بن إبراهيم الأحمسي لكنه وقع في يد القاضي ابن أبي الليث فأقر بخلق القرآن^(١) ، ومن امتنع عن القول بخلق القرآن أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي المصري صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنه^(٢) ، فقد حمل إلى بغداد وظل ممتنعا عن القول بخلق القرآن ولم يزل محبوسا هناك إلى أن توفي سنة ٢٣١ هـ .

وعلى وجه الإجمال نلاحظ أن أمر الحنة في مصر كان سهلا خفيف الوطأة على المصريين فلم يقاسوا بسببها إلا بضعة سنوات في عهد الخليفة الواثق ففلت السجون منهم ، كما تحمل البعض الآخر مشقة الرحيل عن وطنهم . ولكننا لا نسمع عن كثير من حوادث قتل أو تعذيب كما كانت الحال في العراق . فلما ولي الخليفة التوكل العباسي وجد أن المسألة طال أمدها فأبطل هذه الحنة من مصر ومن جميع أنحاء الدولة الإسلامية . ففي شهر جمادى الآخر سنة ٢٣٤ هـ ورد كتاب التوكل على هرثة بن النصر الجبلي

(١) الكندي ص ٤٥٣ هـ

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٢٦٠ — ٢٦١ هـ

نائب مصر إذ ذاك من قبل صاحب إقطاعها إيتاخ (٢٣٣ — ٢٣٤ هـ) يأمره بترك الجدل في القرآن وبإبطال المحنة^(١) ، ففرح الناس بهذا فرحا عظيما وعظموا المتوكل ومدحه الشعراء ، وبلغ من الثناء عليه وتعظيمه أن قال قائلهم : الخلفاء ثلاثة . أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوم الردة ، وعمر ابن عبد العزيز في رد مظالم بني أمية ، والمتوكل في إحياء السنة^(٢) . وربما دعاهم إلى هذا ما لاقوه من اضطهاد وتعذيب وضيق زمن المحنة حتى أولوا الخليفة المتوكل احتراما كبيرا لإبطال تلك المحنة التي كانت سببا في تفريق كلمة المسلمين .

(١) الكندي ص ١٩٧ ، الهريزى : الخطط ج ١ ص ٣١٢ ، أبو المحاسن

ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٢٧٥ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء . ص ٢٣٠ .

الباب الثالث

انتشار الاسلام وتعريب مصر

العرب والقبط

كان للفتوحات العربية أثر ملحوظ في سرعة انتشار الدين الإسلامي في كافة الأقاليم التي فتحها العرب خارج شبه الجزيرة العربية . فدخل الدين الإسلامي في هذه البلاد بدخول العرب فيها وما لبث أن تغلب على الأديان التي وجدت قبله وأصبح المسلمون أغلبية فيها . ومع ذلك كله فالثابت أن الدولة العربية التي قامت على أساس الدعوة الدينية والتي كان شعارها حماية ذلك الدين والقيام لنصرته لم تضطهد أحداً من أهل الذمة أو ترغمه على ترك دينه . ذلك أن القرآن لا يرضى الإكراه للدخول في الدين الإسلامي . وفي هذا يقول تعالى : (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي^(١)) . ويقول سبحانه مخاطباً الرسول : (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكفر الناس حتى يكونوا مؤمنين^(٢)) . وإلى غير ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة التي تفيد هذا المعنى . وقد رأينا العرب في مصر وفي غيرها من البلاد التي فتحوها يخبرون أهالي البلاد المفتوحة بين ثلاثة أمور : الإسلام أو الجزية أو الحرب . ولم يشتط العرب في تقدير الجزية ، بل راعوا في تقديرها ثروة الفرد ، فالغني لا يجبي منه مثل الفقير أو متوسط

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦

(٢) سورة يونس آية ٩٩

الحال . ويقول الكونت دى كاستري^(١) « إن الإسلام لم يكن له دعاة مخصوصون يقومون بالدعوة إليه وتعليم مبادئه كما في الديانة المسيحية ولو أنه كان للإسلام أناس قوامون لسهل علينا معرفة السبب في انتشاره السريع فأنا شاهدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام في حروبه ركبا من القسس والرهبان ليباشروا فتح الضمائر والقلوب بعد أن يكون هو قد باشر فتح الدائن والأقاليم بجيوشه التي كان يصلي بها الأمم جريا تحمل الولدان شيئا ولكننا لا نعلم للإسلام مجما دينيا ولا رسلا وأخبارا وراء الجيوش ولا رهبنة بعد الفتح فلم يكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان » .

تلك كانت سياسة العرب الدينية العامة في مصر وفي غيرها من الدول التي فتحوها ، لكن الذي نعني به هنا هو ما كان من أمرهم في مصر . فقد دخل الإسلام فيها لأول مرة بدخول العرب فأنهم .. وبلاحظنا النقيوسى^(٢) أنه منذ دخول العرب مصر وقبل أن يتم فتحها نهائيا أسلم كثير من المصريين وحاربوا المسيحيين بعد إسلامهم ومن هؤلاء يوحنا أحد رهبان دير سيناء .

وقد أخذ الدين الإسلامى ينتشر تدريجيا في مصر كلما تقدم المهد بالعرب فيها . على أنه وجدت فترات معينة كان التحول فيها إلى الدين الإسلامى بكثرة وما ذلك إلا تحت تأثير ظروف وعوامل مختلفة ناشئة عن سياسة الخلفاء وولاتهم الذين يمثلون تلك السياسة .

وقبل أن نبدأ في تفصيل ذلك الموضوع يجدر بنا أن نبين أولا كيف كان موقف القبط من الفتح العربى .

(١) الإسلام خواطر وسوانح من ٣٩ — ٤٠

(٢) تاريخ من ٥٨٥

كان معظم المصريين في ذلك الوقت من الأقباط الذين تسميهم بعض المراجع « اليماقبة » والذين غلب عليهم بعد ذلك اسم الأقباط الأورتودوكس وفيما عدا ذلك كانت مصر تحوى طوائف وأفرادا ينقسمون إلى عدة شعوب وأقوام كان أهمها قبيل الفتح العربى طائفة الروم الملكانيين أى الذين يدينون بالمذهب الملكانى — وكانوا فى عداوة مع الأقباط — وطائفة اليهود . وكان هناك أيضا أفراد من الأقباط يدينون بالمذهب الملكانى أو الخلقدونى ^(١) . ولكن هذه كانت أحوالا شاذة . ونحن إذا تحدثنا عن المصريين فى ذلك العصر إنما نتحدث عن الأقباط الأرتودوكس .

كان العرب فى فتحهم لمصر يحاربون البيزنطيين لا المصريين . وكان المصريون إذ ذاك قد أنهكتهم الأعباء السالية والاضطهادات الدينية حتى أن للؤرخين المصريين المسيحيين فى المصور الوسطى يشعروننا بأن انتصار المسلمين هو غضب من الله على الروم . كذلك يتجلى لنا من ثنايا كتاباتهم مدى العداوة بينهم وبين الروم . فيقول حنا النقيوسى ^(٢) أن جميع الناس يذكرون أن سبب انتصار المسلمين على الروم هو استبداد هرقل والاضطهادات التى أنزلها بالأرتودوكس . والتى كان قيرس الآلة المحركة لها .

كذلك يذكر ساويرس ^(٣) أن الله كان يخذل جيوش الروم أمام المسلمين بسبب عقيدتهم الخلقدونية الفاسدة .

لهذا لا نمجب إذ رحب المصريون بالعرب واعتبروهم منقذين لهم من حكم البيزنطيين الجائر . على أننا لا نجد فى المراجع القديمة ما يشير إليه بعض

(١) ساويرس ص ٢٢٦ — ٢٢٧ (١. ١).

(٢) تاريخ ص ٥٨٤ .

(٣) ص ٢٢٨ — ٢٢٩ (١. ١).

المحدثين — مثل ميزبشر *Butcher* من أن الأقباط استنجدوا بممر بن الخطاب لينقذهم من ظلم الروم^(١) أما فيما يختص بترحيب المصريين بالعرب ففي المصادر القديمة إشارات كثيرة تفيد هذا المعنى . بل لقد كتب حنا النقيوسي^(٢) أن المصريين الذين تركوا الدين المسيحي وأسلموا صحبوا جيوش العرب أثناء الفتح .

ونحن لا نعرف إذا كان هؤلاء قد انضموا إلى العرب بسبب كراهتهم للبيزنطيين أو بدافع الحماسة لنصرة الدين الجديد أو للسببين معا .

ويذكر ابن عبد الحكم^(٣) ومن نقل عنه من المؤرخين مثل المقرئ^(٤) وأبو المحاسن^(٥) والسيوطي^(٦) أنه كان « بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو ميامين^(٧) فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بقتل عمرو فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ أعوانا لعمرو .

ثم يمود ابن عبد الحكم^(٨) مرة ثانية فيذكر أنه عند ما فرغ عمرو ابن العاص من فتح حصن بابليون وعقد الصلح مع المقوقس خرج إلى الإسكندرية مع المسلمين حين أمكنهم الخروج ، « وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق

(١) انظر تاريخ الأمة القبطية وكنيستها للسيدة بوقصر ج ٢ ص ١٠٤

(٢) تاريخ ص ٦٥٠

(٣) فتوح مصر — طبعة المعهد الفرنسي ص ٥٣ — ٥٤

(٤) خطط ج ١ ص ٢٨٩

(٥) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧

(٦) حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٦

(٧) يقصد بالأسقف أي ميامين هنا البطرك بنيامين الذي كان معاصرا للفتح

(٨) فتوح مصر — طبعة المعهد العلمي الفرنسي ص ٦٦

وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم »
فهذه الروايات تدل على أن القبط ساعدوا العرب منذ دخولهم الأراض
المصرية حتى أتموا فتح مصر . وإذ كنا لا نستطيع أن نأخذ بكل ما
فيها إذ أن بطرك القبط بنيامين كان في ذلك الوقت مختفيا في الصعيد وليد
في الإسكندرية . وجدير بالذكر أن وجود مصريين كثيرين في جيد
البيزنطيين المدافع عن مصر كان من أسباب فشله في حمايتها من العرب لأنه
لم يخلصوا في الدفاع عنها

على أننا لا نستبعد أن يكون هناك فريق من المصريين قد وقف موقه
الحياة لأنهم يعرفون أن ترحيبهم بالعرب معناه انتقالهم من تبعية إلى تب
أخرى فإنهم لم يكونوا في موقف يستطيعون معه طرد البيزنطيين والعرب
في وقت واحد . وقد حارب فريق من الشعب المصري ممن كانت صفيا
للبيزنطيين في صفهم أو ربما حارب معهم منتظرا أن يكون النصر للبيزنطيا
لا للعرب .

فيذكر المقرئ (١) « أنه كان على تنيس رجل يقال له أبو ثور م
العرب المنتصرة فلما فتحت دمياط سار إليها المسلمون فبرز إليهم نحو عشرين
ألفا من العرب المنتصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت إلى وقو
أبي ثور في أيدي المسلمين وانهزام أصحابه » ولكن الروح السائدة من جان
المصريين بوجه عام كانت روح الترحيب بالعرب كما تبين من النصوص السابقة
ذلك هو موقف الأقباط بالنسبة للفتح العربي ولنبحث الآن كيف كانت
معاملة العرب لهم .

لم يكتف العرب بانتصارهم على البيزنطيين في مصر وإخراجهم منه

فدراهم يتحببون إلى الأقباط وهم أهل البلاد كي يضمنوا ولاءهم وإخلاصهم إذ لم يكن العرب غزاة أتوا للسلب والنهب وإنما كانوا فاتحين يستعمرون البلاد استعماراً منظماً ويعرفون كيف يوطدون مرا كزهم في البلاد التي فتحوها فلم يترك العرب أثراً للمسفل في فتوحاتهم إلا ما كان لا بد منه في كل حرب وقتال^(١).

ويذكر الرواة أن الرسول عليه الصلاة والسلام أوصى بقبط مصر في عدة أحاديث نذكر منها قوله « إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم منكم شهراً وذمة » إذ كانت هاجر زوج إبراهيم الخليل عليه السلام وأم ولده اسماعيل منهم كما كانت مارية القبطية زوج الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أيضاً^(٢). ولسنا نعرض هنا لصحة هذا الحديث ، فإنه يشهد ، على كل حال ، بموقف المسلمين من القبط في فجر الإسلام وحين جمعت الأحاديث .

فبعد أن تم استيلاء عمرو بن العاص على الإسكندرية ودخول الجيش العربي فيها نقل سانوتيوس^(٣) إلى عمرو بن العاص قصة بطرك القبط بنيامين الذي اختفى هرباً من اضطهاد الروم ولما كان الموضع الذي اختفى فيه الأب بنيامين غير معروف بالضبط فقد كتب عمرو إلى جميع أقاليم مصر كتاباً يقول فيه « الموضع الذي فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له المهد والأمان

(١) دى كاسترى : الإسلام ص ٣٥

(٢) القرىزى ج ١ ص ٢٤ - ٢٥ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣٣

(٣) يقول ساويرس عن سانوتيوس « سانوتيوس التمس المؤمن » والتكس
بمعنى بها الدوق duke . وسانوتيوس هذا كان عميد الأقباط يوم دخول العرب فتولى إدارة شئون الكنيسة مدة اختفاء البطرك بنيامين . وأحسن إدارتها وجمع كلمة الأمة بعد أن كانت الحوادث قد جعلتها أشتاتاً

والسلامة من الله فليحضر آمناً مطمئناً ويدبر حالة بيعته ونياسة طائفته^(١)»
وعند ما علم الأب بنيامين بذلك عاد إلى الإسكندرية مسروراً بعد غيبة دامت
ثلاثة عشر عاماً أمضى منها عشر سنين أثناء حكم هرقل وثلاث سنوات أثناء
الفتح العربي إلى أن فتح المسلمون الإسكندرية .

وقد طرب أهل مصر جميعاً لعودة زاعيهم . ولما أبلغ سانوتيوس عمرو
ابن الماص مقدم بنيامين أمر عمرو بإحضاره إليه معزواً مكرماً فلما مثل بين
يدي عمرو أكرمه وبالغ في حفاوته وأعطاه الحرية ليشرّف على الكنائس
ويرعى أحوال الأقباط^(٢) .

وكان من نتائج عودة بنيامين إلى كرسي البطركية أن رجع كثير إلى
المذهب الأرثوذكسي بعد أن كانوا نبذوه نتيجة لاضطهاد هرقل . كما عاد الذين
كانوا قد اختفوا خوفاً من هذه الاضطهادات^(٣) وبعد أن تم لبنيامين جمع
قومه من القبط ولم شعثهم أتجه إلى بناء ما كان هرقل قد هدمه من الكنائس
والأديرة .

ولا محجب إذ عم السرور والفرح أهل مصر جميعاً . ولا يستبعد أن
يكون القبط قد وقفوا من وراء زاعيهم يشدون أزر العرب ضد الروم
حينما أغاروا على الإسكندرية سنة ٢٥ هـ . وقد ذكرنا سابقاً أن أهل مصر
الحواء على عثمان بن عفان في سنة ٢٥ هـ أن يرسل عمرو بن الماص إليهم لطرد
الروم لأنه أعلم الناس بحربهم ومدافعتهم .

وكتب القريزي^(٤) : «أنه كان بوادي هيب (الذي يقع بين مريوط .

(١) ساويرس ص ٢٣١ — ٢٣٢ (٤. ٤) .

(٢) ساويرس ص ٢٣٢

(٣) ساويرس ص ٢٣٣

(٤) الخط ج ١ ص ١٨٦

والفيوم ويعرف أيضاً باسم وادى النطرون وهو الاسم الحالى له) مائة دير للنصارى وأنه خرج منه سبعمون ألف راهب^(١) فلقوا عمرو بن العاص بالطرانة بالقرب من الإسكندرية وسألوه الأمان لأنفسهم وأديارهم فكتب لهم بذلك أماناً بقي عندهم .

لم يجد الأقباط إذاً في العرب عدوا لدينهم ولا لمذهبهم الدينى كما كان البيزنطيون ، بل كفّل لهم العرب الحرية التامة في إقامة شعائر دينهم واتباع مذهبهم الأرثوذكسى . وكما أن روح الإسلام الحقّة هى التى حفزت العرب إلى اتباع سياسة التسامح الدينى نحو المصريين فقد كان أيضاً للعوامل السياسية أكبر الأثر في حلهم على ترك مقاليد الأمور في يد أهل مصر من الأقباط محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليا وتنفيذ أحكام الدين . أى أن الأقباط أصبحوا يتمتعون بحرية تامة في الدين كما أصبح لهم نصيب كبير في إدارة بلادهم ربما لم يصلوا إليه قبل الفتح العربى . ولا شك أن القبط حلوا محل الروم الذين غادروا مصر والذين كانوا يشغلون كثيراً من الأعمال فيها . وقد رأينا في الباب الأول كيف كانت نظم الحكم التى اتبناها العرب في مصر ولّى أى حد كان الأقباط يتمتعون بإدارة بلادهم .

ونضيف إلى ما ذكرنا سابقاً أنه كان في الحكومة المركزية بالفسطاط

(١) طبعى أن هذا العدد مبالغ فيه فإن معناه أن كل دير كان يسع حوالى ٧٠٠ راهب وهذا العدد الكبير يصعب تموينه في الصحراء . والآن في العصر الحديث القى زادت فيه سرعة وسائل المواصلات وتعددت لا يزيد عدد رهبان الدير على ٣٠ أو ٤٠ راهباً كما يجد الرهبان مشقة في تموين أنفسهم . ولاشك أن الرهبان قديماً كانوا أكثر من الرهبان الحاليين وربما كانت كثرة عدد رهبان الأديرة حينذاك ترجع إلى فرارهم من الاضطهادات البيزنطية كما أن المسيحية في ذلك الوقت كانت هى السائدة في مصر . والرجبة كما نعلم من أصول المسيحية الأولى

أو حلوان كاتبان قبطيان لإدارة مصر العليا ومصر السفلى وقد أشار ساويرس^(١) أسقف الأشمونين إلى الكاتبين الأرتودكسيين اثناسيوس واسحق في عهد عبد العزيز بن مروان .

وكان هؤلاء الكتاب أو الرؤساء المسيحيون خاضعين للوالى بطبيعة الحال والظاهر أن رؤساء المالية كانوا قبطا طوال العصر الأموي وقد أشار ساويرس^(٢) إلى ظهور رئيسين من المسلمين في بداية العصر العباسي .

ونلاحظ أيضاً أنه في نهاية ولاية عبد العزيز بن مروان كان والى الصعيد قبطياً اسمه بطرس على أنه اعتنق الإسلام بعد ذلك^(٣) . وكان حاكم مريوط قبطياً اسمه تاوفانس^(٤) . كذلك ولى المأمون حين قدم مصر على مدينة بورة وما حولها قبطياً من أهلها فبنى ذلك القبطى كنائس كثيرة بها^(٥) .

ونلاحظ أن الفتح العربى ساعد أولاً على إحياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية التى كانت اللغة الرسمية منذ عهد البطالسة . فالدروس الدينية التى كانت تقرأ باليونانية وتشرح باللغة القبطية ، سارت لا تقرأ إلا باللغة القبطية . كذلك نجد أن البلاد والأقاليم التى كانت تغلب عليها الأسماء اليونانية ، أصبحت تعرف بأسمائها القبطية التى ترجع إلى الأسماء المصرية القديمة . فمثلاً نجد اسم أنخيم بدلاً من يانوبوليس Panopolis

(١) سير الآباء البطارقة ص ١٢ . Patr. Orient. t.v.

(٢) سير الآباء البطارقة ص ١٨٨

(٣) ساويرس ص ٥٢

(٤) ساويرس ص ٥٢

(٥) سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ج ٢

ص ٥٨ — ٥٩ ، آدم متز : الحضارة الإسلامية ص ١٠٧

وأهناسيا بدلا من هيراكليوبوليس Héracléopolis والأشمونين بدلا من هرموبوليس . على أن هذا كله كان بعثا لتقديم لم يندثر تماما فإن اللغة القبطية أو الأسماء المصرية كانت قد غلبت على أمرها حينما من الدهر ثم استمادت مكانتها بعد الفتح العربي . والمعروف أن الأسماء العربية لكثير من بلدان القطر المصري الآن مأخوذة من الأسماء المصرية القديمة^(١) كما أننا نستعمل في الوقت الحالى كثيراً من الألفاظ العامية التى ترجع إلى اللغة المصرية القديمة وإلى اللغة القبطية التى اشتقت منها^(٢) .

وقد كان لوالى مصر حق الإشراف على انتخاب البطارقة بوصفه رئيس الحكومة وممثل الخليفة فى مصر . ويظهر من النصوص أن الأساقفة كانوا يستشيرون الوالى قبل انتخاب البطررك كما أن البطررك والأساقفة كانوا يذهبون من الإسكندرية مقر البطارقة إلى العاصمة لمقابلة والى مصر بعد الانتخاب للبطركية^(٣) ويظهر أن هذه كانت مجرد مسائل شكلية إذ لم يعرف عن الولاة أنهم عارضوا فى انتخاب أحد البطارقة ما دام الأساقفة يتبعون القوانين الكنسية . ونعرف أن عبد العزيز بن مروان أبطل انتخاب أحد البطارقة بعد ما علم أن البطررك المتوفى كان قد أوصى بشخص غير الذى انتخب وتم للوالى ما أراد فمين إسحق بطركا بدلا من جرجة الذى كان قد انتخب^(٤) .

وقد بنيت عدة كنائس فى ظل الحكم العربى ووجدت كنائس أخرى

(١) سليم حسن بك : أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى ص ١٥٤

(٢) Dr. George Sobhy : The Survival pp. 65-69

(٣) ساويرس ص ٢٢ — ٢٣ (t. V.) ، ص ٤٨١ — ٤٨٢ T. X.

(٤) ساويرس ص ٢٣ — ٢٤ (t. V.)

ففي أيام البطررك أغاثون (٦٦١ - ٦٧٧ م = ٤١ - ٥٨ هـ) عمرت كنيسة أبي مقار^(١). ويذكر ابن المميد^(٢) والمقرزي^(٣) أن البطررك أغاثون بنى كنيسة القديس مرقس بالاسكندرية في ولاية عمرو بن العاص الثانية وقد ظلت هذه الكنيسة قائمة إلى أن هدمها السلطان العادل أخو صلاح الدين الأيوبي في القرن السابع الهجري .

كذلك بنيت أول كنيسة في فسطاط مصر أثناء ولاية مسلمة بن مخلد عليها^(٤). ويذكر سعيد بن بطريق^(٥) أنه في ولاية عبد العزيز بن مروان بنيت كنيسة مار جرجس وكنيسة « أبو قير » في داخل قصر الشمع . وقد جدد البطررك إسحق كنيسة القديس مرقس وبني كنيسة بحلوان^(٦) كذلك بنيت كنائس أخرى في حلوان وذلك في ولاية عبد العزيز بن مروان وقد عهد الوالي بممارتها إلى أغريفوريس أسقف القيس^(٧) .

ويذكر الكندي^(٨) أن الوليد بن رفاعه (١٠٩ - ١١٧ هـ) أذن للنصارى ببناء كنيسة بالجرهاء تعرف بأبي مينا .
ويخبرنا أبو صالح الأرمني^(٩) عن بناء كنائس عدة في مصر في خلافة

(١) ساويرس ص ٦ T. V.

(٢) تاريخ المسلمين ص ٥٠

(٣) خطط ج ٢ ص ٤٩٢

(٤) ابن عبد الحكم — طبعة تورى ص ١٣٢ ، السيوطي : حسن المحاضرة

ج ٢ ص ٥

(٦) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ج ٢ ص ٤١

(٧) ساويرس ص ٢٤ t. V.

(٨) ساويرس ص ٤٢ t. V. وفي معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٢١٥ :

القيس كانت بمصر وقد خربت الآن وكانت في غرب النيل بعد الجيزة

(٩) الولاة والقضاة ص ٧٧

هشام بن عبد الملك بوجه خاص وفي الخلافة الأموية بوجه عام كما يذكر لنا كنيسة جددت في عهد الخليفة المأمون ، قام بتجديد عمارتها خدام الخليفة نفسه وهي المعروفة بكنيسة الروم بالقرب من قبة الهواء^(١)

وقد أذن موسى بن عيسى في ولايته الأولى على مصر (١٧١ — ١٧٢ هـ) للنصارى ببناء الكنائس التي هدمها الوالى الذى سبقه . وفي ذلك يقول الكندى^(٢) « فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة وقالوا : هو من عمارة البلاد ، واحتجوا أن عامة الكنائس التي بمصر لم تبني إلا في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين » وهذا لا يكشف سياسة الوالى إزاء المسيحيين فقط بل يبين لنا أن هذين الحجتين في الفقه الإسلامى كانا يقولان ببناء الكنائس وتعميرها وبعدها هذا من مظاهر التعمير في البلاد .

وجدد أنبا ميخائيل البطريرك (٧٤٤ — ٨٦٨ م = ١٢٧ — ١٥١ هـ) كنيسة الإسكندرية وأصلحها وبنى غيرها في شرق البلد وغربها^(٣) .

هذه أمثلة ترينا مدى الحرية الدينية التي تمتع بها الأقباط في ظل الحكم العربى . ويجدر بنا أن نشير أيضاً إلى أن الأقباط ظلوا يحتفلون بأعيادهم الدينية التي يمددها لنا المقرئى^(٤) في خططه . ولم نعرف أن العرب فعلوا شيئاً يحد من حرية الأقباط في احتفالاتهم الدينية بتلك الأعياد ، وإن كان ولاية مصر في ذلك العهد لم يشتركوا في الاحتفالات الرسمية بهذه الأعياد كما كان يحدث .

(١) قبة الهواء هذه هي التي بناها والى مصر حاتم بن هرثمة (١٩٤ — ١٩٥ هـ) فوق سفح المقطم ليقم فيها وموضعها الآن القلعة الحالية بعمرياء . أبو الحسن ج ٢ ص ١٤٤ و Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t. IV, p. 65

(٢) الولاة والقضاة ص ١٣٢

(٣) ساويرس ص ١٤٩

(٤) الخطط ج ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٩

مثلا في عهد الأخشيديين والخلفاء الفاطميين^(١) ولعل السبب في ذلك هو أن مصر كانت جزءاً من الخلافة فلم يحرص الولاة على أن يتقربوا للشعب بعكس الأخشيديين الذين كانوا يتقربون إلى الشعب ليماونهم في استقلالهم عن بغداد كذلك كان الفاطميون يتوددون إلى الشعب كي يتقربوا به ضد خلافة بغداد . أما المصريون المسلمون فلم يجدوا غضاضة في ذلك لأن الكثير منهم كان من أصل قبلي . وربما اكتفى ولاة مصر في ذلك العهد بمشاركة الأقباط في الاحتفال بوفاء النيل كل عام ، ذلك الاحتفال الذي ظل منذ عهد الفراعنة إلى الآن لأن النيل مصدر ثروة مصر ورخائها . وطبعاً كانت هذه الاحتفالات تختلف من حيث البهجة والمظمة باختلاف الأزمنة ومن أقدم ما نعرفه عن هذه الاحتفالات في العهد الإسلامي ما كتبه ابن رسته في كتابه الذي ألفه سنة ٢٩٠ هـ^(٢) .

ويذكر ابن عبد الحكم^(٣) ومن نقل عنه من المؤرخين^(٤) أنه لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه في شهر بؤوته فقالوا له . « أيها الأمير إن ليلتنا هذا سنة لا يجزى إلا بها فقال لهم : وما ذلك . قالوا : إنه إذا كان لائنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل . فقال لهم عمرو إن هذا لا يكون في الإسلام وأن الإسلام يهدم ما قبله .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ١ طبعة مصر من ٢١٢ — ٢١٣ ، خطط

المقريزي ج ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٩ Wiet: Précis t. II p. 148

(٢) العلاقات النفيسة من ١١٦

(٣) فتوح مصر طبعة توري من ١٥٠ — ١٥١

(٤) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان من ٦٥ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج

٣ ص ٢٩٥ وخطط المقريزي ج ١ ص ٥٨ وأبو الحسن ج ١ ص ٣٥ — ٣٦

فأقاموا بؤونه وأيبب ومسرى لا يجرى قليلا ولا كثيراً حتى هموا بالجلاء فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر : قد أصبت . بأن الإسلام يهدم ما كان قبله وقد بشت إليك ببطاقة فآلقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب^(١) بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً في ليلة وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر .

هذه الرواية انفرد بذكرها ابن عبد الحنكم ثم نقل عنه المؤرخون . على أنه لا يمتثل أن تبقى المسيحية على مثل هذه العادة إن كانت قد وجدت في عهد الفراعنة وقد ثبت أيضاً أن الفراعنة لم يتبعوا هذه العادة وهى إلقاء مزيئة على قيد الحياة في النيل . ومسألة « عروس النيل » معروفة منذ القدم ؛ ولكن المؤرخين الإسلاميين اعتبروها حقيقة لا مجازاً . والحق أن المصريين في العصر القديم كانوا يزجون تماثيل النيل بتماثيل عروسه^(٢) فالمسألة كانت مسألة رمزية لا حقيقية . إذ كان الشعب المصرى في كل العصور يرى من الواجب عليه أن يقدم هدية ثمينة إلى نهر النيل الذى يجلب لبلاده الخيرات الواسعة .

(١) عبد الصليب كان يحتفل به الأقباط في يوم ١٧ توت (خطط المقربرى ج ١ ص ٢٦٦) ويذكر الأستاذ فييت أن المسيحيين جعلوا للاحتفال بالنيل معنى دينياً فكانت الكنيسة تحتفل في يوم ١٧ توت الذى كان يوافق ١٤ سبتمبر قبل الإصلاح الجريجورى في التقويم بذكرى إعلاء الصليب المقدس Hist. de la Nation Egypt. t. IV. pp. 177-178

(٢) Wiet: Précis t. 11. p. 144

ونعرف أن الأقباط في مصر كانوا يحتفلون بميد الشهيد في اليوم الثامن من بشنس ويزعمون أن النيل لا يزيد في كل سنة حتى يلقوا فيه تابوتا من خشب فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتي ، ولكن هذا العيد أبطل في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٢ - ٧٣٨ هـ) ثم ألغى نهائيا في سنة ٧٥٥ هـ^(١) :

وفي عهد الولاة الذي نتحدث عنه كان المسلمون يشتركون مع الأقباط في الصلاة من أجل النيل إذا ما أتى النيل ناقصا في موعد فيضانه بحيث تصبح مصر في خطر من قلة المياه ، فكان المسلمون يصلون صلاة الاستسقاء كذلك كان الأقباط يصلون من أجله ففي ولاية حفص بن الوليد الثانية إلى مصر من قبل هشام بن عبد الملك حدث قحط بمصر فاستسقى حفص بالناس ودعا الله سبحانه وتعالى وصلى^(٢) . ويذكر ساويرس^(٣) أن المسلمين والأقباط صلوا من أجل النيل عندما نقصت مياهه في ولاية أبي عون على مصر (١٣٢ - ١٣٦ هـ) .

وقد انتصر المسلمون لليماقة القبط على الكنيسة المكانية فاسترد اليماقة أو أخذوا عددا من الكنائس والأديرة التي كانت في يد أعدائهم الملكانيين . كما انتهزوا فرصة حسن علاقتهم بالمسلمين لكي يجذبوا إلى مذهبهم كثيرا من الملكانيين^(٤) بل حدث في عهد قرة بن شريك أن فرض على الملكانيين جزية مضاعفة^(٥) .

(١) خطط المقرئ ج ١ ص ٦٨ — ٧٠

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٩١

(٣) سير الآباء البطارقة ص ١٩٤ — ١٩٦ (٤٧٠)

(٤) انظر سعيد بن بطريق : التاريخ ج ٢ ص ٤٥ — ٤٦ وابن السيد :

تاريخ المسلمين ص ٨٣ — ٨٤ .

(٥) Becker: Historische Studien pp. 864-865, Wiet: Art. Kibt p.399

أى أنه أصبح مضيقا على المسكانيين كما ضيقوا هم على الأقباط قبل الفتح . ولم يتمتع المسكانيون ببعض الحرية إلا في فترات معينة . ففي خلافة يزيد ابن معاوية استطاع تاوذوروس أحد أتباع المذهب المسكاني في مصر — بعد أن قدم أموالا طائلة للخليفة — أن يتسلط على الإسكندرية ومريوط وكل ما يليها كما سيطر على البطرك أغاثون وألزمه بدفع جزية سنوية مقدارها ستة وثلاثون دينارا سنويا كما ألزم البطركية اليقوبية بالإتفاق على الأسطول^(١) كذلك نجد الخليفة هشام بن عبد الملك — على أثر الاتفاق الذي حدث بينه وبين الأمبراطورية البيزنطية^(٢) — يرسل إلى عبيد الله بن الحبحاب يأمره بأن يسلم للمسكانيين كنائسهم التي كانت في يد اليعاقبة كما نصب بطركا لهم بعد أن كانوا قد أقاموا بغير بطرك منذ الفتح^(٣) كذلك عندما نجح بليطيان — البطرك المسكاني في مصر — في تطييب جارية للرشيد وهب له الخليفة مالا كثيرا وكتب له منشورا ليسترد كنائس المسكانيين التي تغلب عليها اليعاقبة فاسترد بليطيان من اليعاقبة كنائس كثيرة^(٤) .

ولم ينكر أحد زمن الفتوحات الإسلامية التسامح الديني الذي جرى عليه العرب في معاملتهم لأهل الذمة . وليس أدل على ذلك مما كتبه أحد الأساقفة النسطوريين بعد بدء الفتوحات العربية بنحو خمسة عشر عاما إذ قال : « إن العرب الذين وهبهم الله السيادة في أيامنا قد أصبحوا سادة لنا ولكنهم لا يحاربون الدين المسيحي قط بل يحافظون على ديننا ويحترمون

(١) ساويرس ص ٥ — ٦ (T.V.)

(٢) Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne t. IV p. 58

(٣) سعيد بن بطريق : التاريخ ص ٤٥ — ٤٦ ، ابن العسدي : تاريخ المسلمين

ص ٨٣ — ٨٤

(٤) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ج ١ ص ٨٣

الأساقفة والقديسين ويقدمون هدايا لكنائسنا وأديرتنا^(١)

وهكذا نرى أن العرب تركوا القبط أحرارا في دينهم وفي ثقافتهم وجعلوا لهم نصيبا وافرا في إدارة بلادهم . على أن الأقباط كانوا عرضة أحيانا لبعض المضايقات التي حملت بعضهم على ترك دينهم كي يتخلصوا منها ويصبحوا على قدم المساواة مع المسلمين . فالعرب كانوا يشعرون بعد هذه الفتوحات العظيمة بتفوق شعبهم على الشعوب الأخرى كما كانوا يعتزون بغلبة دينهم على الأديان الأخرى . ولم تكن هذه النزعة قوية في السنوات الأولى للفتوحات العربية حينما كانت تغلب عليهم روح البساطة والتواضع ، ولكنها سرعان ما وضحت بعد غلبتهم على الشعوب الأخرى ، كما حدث للرومان من قبلهم . وليس أدل على هذه الروح الجديدة مما ذكره المقرئ^(٢) عن معاوية بن أبي سفيان فقد أترعنه أنه قال : « وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف فثلث ناس وثلث يشبه الناس وثلث لا ناس فأما الثلث الذين هم الناس فالعرب والثلث الذين يشبهون الناس فالموالي والثلث الذين لا ناس المسألة يعني القبط » .

وقبل أن نسرد بعض ما كان يحدث للأقباط من مضايقات ومشدة يجب أن نقول إن هذه المضايقات التي كانت تقع على أقباط مصر لم تكن دأمة وإنما حدثت في فترات متقطعة كما أنها لم تكن ذات بال إذا قورنت باضطهاد المسيحيين في مصر أيام الأباطور الوثني دقلديانوس^(٣)

(١) Wiet Précis t.11 p. 181

(٢) خطط ج ١ ص ٥٠

(٣) هول مسز بتصرف في كتابها تاريخ الأمة القبطية وكنيستها ج ٢ ص ١٠٤

« أن الأقباط منذ الفتح العربي ظلوا يذوقون من العرب من العذاب ويسامون أنواع الظلم والفساد ويضطهدون اضطهاداً لا ينكر بجانبه اضطهاد دقلديانوس ونيرون » ولكنها بالرغم من قولها هذا لم تذكر حادثة واحدة قام بها العرب ضد الأقباط تقارن باضطهاد دقلديانوس للمسيحيين . وقد عرض الأستاذ ثيبت هذه المسألة في مقاله عن القبط ، في دائرة المعارف الإسلامية ، عرضاً يعتز بالإنصاف والدقة العلمية .

(٢٨٤ — ٣٠٥ م) أو باضطهادهم أيام الإمبراطور هرقل السيجي . كذلك لم تكن تلك المضايقات أيام العرب . لتقارن مثلاً باضطهاد كاثوليك أسبانيا للبروتستنت والمسلمين واليهود ولا تزال ذكرى محاكم التفتيش في اسبانيا باقية ما بقى التاريخ . ولنستعرض الآن بعض هذه المضايقات في العهد العربي ففي ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر نراه يهتم اهتماماً بالغاً بتعرف العلاقات التي كانت بين بطركية مصر وبين الحبشة والنوبة على أثر ما كتبه البطررك إلى ملكي الحبشة والنوبة ليزيل سوء التفاهم الذي كان بينهما . ذلك أن قوماً من أهل السمايات وشوا بالبطررك لدى عبد العزيز حتى ساء ظنه به ولشدة غضبه أمر بكسر جميع الصلبان التي في مصر وكتب عدة رقاع أمر بوضعها على أبواب الكنائس وفيها « محمد رسول الله »^(١) .

وكان الأصمغ بن عبد العزيز بن مروان يولي كثيراً من أمور مصر في ولاية أبيه ولكنه كما يقول ساويرس^(٢) كان مبغضاً للنصارى سفاكاً للدماء وكان يصحب شماساً اسمه بنيامين كثيراً ما كان يطلعه على أسرار النصارى حتى أنه ترجم له الإنجيل باللغة العربية ، وعدة كتب دينية أخرى وذلك ليعرف المسلمون إذا كان في هذه الكتب ما يعمس الدين الإسلامي بسوء .

أى أن العرب بدأوا ينظرون نظرة شك إلى الأقباط وقد دعاهم إلى هذا عدم معرفتهم للغة القبطية . ويحتمل أن التفكير في جعل اللغة العربية ، اللغة الرسمية في مصر يرجع إلى هذا العهد كي يضطر القبط إلى ترك لغتهم التي لم يفهمها العرب^(٣) وقد حدث فعلاً أن جعلت اللغة العربية لغة الدواوين

(١) ساويرس ص ٢٤ — ٢٥ ، t. IV.

(٢) المرجع نفسه ص ٥٠ — ٥١ .

(٣) Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne t. IV. p.43

الرسمية في مصر وذلك في سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م) في ولاية عبد الله بن عبد الملك وفي خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ) إذ أمر عبد الله بتدوين اللواوين في مصر باللغة العربية بعد أن كانت تكتب باللغة القبطية^(١) فجاء هذا العمل في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك تنمة لما بدأ الخليفة عبد الملك ابن مروان في أنحاء الدولة الإسلامية .

ولعل كثيراً من أهل الدمة اضطروا إلى التخلي عن مناصبهم للعرب أو إلى المصريين الذين تعلموا اللغة العربية . وربما دأبوا ذلك إلى تعلم اللغة العربية كي يهودوا ثانية إلى المناصب التي فقدوها . وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) لإحلال المسلمين محل المسيحيين حتى في الوظائف الصغيرة^(٢) ويحدثنا ساويرس^(٣) عن عمر بن عبد العزيز بأنه كان يفعل خيراً عظيماً أمام الناس وبفعل السوء أمام الله ، إذ أمر بإعفاء الأساقفة والكنايس من الخراج وهدم المدن التي خربت وأبطل الجبايات^(٤) فعاث الأقباط في أمن وهدوء ، ولكنه ما لبث أن أرسل كتاباً يأمر فيه الأقباط بالتخلي عن أعمالهم في الدولة ما داموا على دينهم أما من يريد منهم الاحتفاظ بمهله فليكن على دين محمد . ولهذا سلم الأقباط ما يبدون من الوظائف والأعمال إلى المسلمين . ويقول الكندي^(٥) أنه في خلافة عمر بن عبد العزيز « نزع

(١) الكندي . ص ٥٨ — ٥٩ والمقرري . خطط ج ١ ص ٩٨ وأبو الحسن ج ١ ص ٢١٠

(٢) Becker: Historische Studien p. 365

(٣) سير الآباء البطارقة ص ٧١ — ٧٢ t.v.

(٤) الجبايات معناها الضرائب المستحقة

(٥) الولاة والفضة ص ٦٩

موازيت^(١) القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليهم .
وربما أدى قرار عمر بن عبد العزيز إلى إسلام كثيرين إذ ذاك كي
لا يتركوا مناصبهم . مع أن القرار ذاته لا يمكن أن يكون قد استمر كثيراً
بعد وفاته ؛ لأن الأقباط ظلوا يشغلون كثيراً من مناصب الدولة . وظل بعض
الموازيت يختارون من القبط . وحسبنا أن إحدى الأوراق البردية المعروفة
في هيدلبرج وتاريخها سنة ١٧١ هـ فيها اسم مازوت قبطي^(٢) .
وقد أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ) في سنة ١٠٤ هـ
بكسر الصليبان في كل مكان وبمحو الصور والتماثيل التي في الكنائس^(٣) .
ولذا نرى ساويرس^(٤) يصفه بأنه سلك طريق الشيطان وحاد عن طرق الله .
وقد شمل هذا القرار اللا إيقوني (أو حركة كسر الصور) جميع بلاد
الدولة الإسلامية وكان من نتائج هذه الحركة في مصر أن كبرت التماثيل
والصليبان ومحيت الصور ولم تنج في هذه الحركة بعض الآثار الفرعونية من
الهدم والتخريب^(٥) .

ويظهر أن تلك الحركة ساءت المصريين كثيراً لأنها لا تتفق ومذهبهم
الديني وقد حدث بعد ذلك بنحو مائة عام أن احتج بطرك اليمامة في مصر

(١) موازيت أي رؤساء القرى هي القراءة الصحيحة لهذه الكلمة وليست

موازيت كما جاء خطأ في طبعة كتاب الكندي

(٢) Papyri Schott Reinhardt Inv. 481

(٣) الكندي ص ٦١ . ساويرس ص ٧٣ T.V. ، خطط الميرزني

ص ٢٠٣

(٤) سير الآباء البطارقة . ص ٧٢

(٥) الدكتور زكي محمد حسن : الفنون الأيرانية في العصر الإسلامي ص ٨٢ ،

وأحمد تيمور باشا وزكي محمد حسن : التصوير عند العرب ص ١٣٠ — ١٣١

Wiet : Hist. de la Nation, Egypt. t. IV. pp. 55, 56.

ضد الامبراطور تيوفيل بن ميخائيل (٨٢٩-٨٤٢ م = ٢١٤-٢٢٨ هـ) في مشروعه اللايقوني وناظره فيه^(١).

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الامبراطور البيزنطي ليو الأيسوري أصدر قراراً بحظر الصور والتماثيل الدينية مشابها لقرار يزيد بن عبد الملك وبعد قراره بنحو أربع سنوات أعني في سنة ٧٢٦ م (١٠٨ هـ). ويحتمل أن الدولة البيزنطية كانت متأثرة في ذلك بجارتها الدولة الإسلامية^(٢).

وقد أصاب أقباط مصر كثير من الأذى أثناء الفتن التي قامت من أجل النزاع حول الخلافة. فمما أتى الخليفة مروان بن محمد هارباً إلى مصر، عاث جنده في البلاد فساداً فقتلوا جماعة من رجال الدين ونهبوا أموالهم وسبوا نساءهم كما أحرقوا ديارات عدة وهدموا كثيراً من الكنائس واعتدوا على كثير من الراهبات^(٣) وفي أيام الفتنة بين الأمين والمأمون اعتدى على الأقباط في الإسكندرية وأحرقت مواضع عديدة لهم كما أحرقت ديارات وادى النطرون ونهبت فلم يبق بها من رهبانها إلا نفر قليل^(٤).

وعندما بنى الخليفة المتوكل مقياساً للنيل في جزيرة الروضة (سنة ٢٤٧ هـ) أمر بمزل النصارى عن قياسه، فمّين يزيد بن عبد الله التركي (والى مصر من قبله) للإشراف على المقياس أبا الرّداد المّسلم وكان من أهل البصرة ثم قدم مصر وحدث بها. وكان يتقاضى سبعة دنانير كل شهر نظير قيامه

(١) خطط المقرئى : ج ٢ ص ٤٩٤

(٢) Michel le Syrien, t. 2 p 491 وأحمد تيمور باشا والدكتور زكى محمد

حسن : التصوير عند العرب ص ١٣٠

(٣) ساويرس ص ١٦٣ — ١٦٤، أبو صالح الأرمي ص ٩٧، ١٠٧ —

١٠٨، ابن العميد ص ٩٩، خطط المقرئى ج ٢ ص ٤٩٣

(٤) خطط المقرئى ج ٢ ص ٤٩٣

بقياس النيل . ولم يزل المقياس في يده حتى توفى سنة ٢٢٦ هـ ثم صار في يد أولاده من بعده حتى عصر الماليك^(١) .

على أن هنالك أموراً كان يجب على أهل الذمة إتباعها من حيث بناء الكنائس ومن حيث لباسهم وزينهم والدواب التي يركبونها وغير ذلك مما يميز بينهم وبين المسلمين من الناحية الاجتماعية والأدبية . ولنستعرض الآن بعض آراء الفقهاء فيما يختص بذلك ثم نرى ما حدث فعلاً في مصر . فيذكر أبو يوسف^(٢) أنه ينبغي أن تختم رقابهم في وقت جباية جزية رؤوسهم حتى يفرغ من عرضهم ثم تكسر الخواتيم كما فعل بهم عثمان بن حنيف إن سألوا كسرهما وأن يتقدم في أن لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين في لباسهم ولا في مركبه ولا في هيئته وأن يجعل في أوساطهم الزنارات^(٣) مثل الخيط الغليظ يعقده في وسطه كل واحد منهم ، وبأن تكون قلائسهم مضرية^(٤) وأن يتخذوا على سروجهم في موضع القرايبس^(٥) مثل الرمانة من خشب ، وبأن يجعلوا شرك^(٦) نملهم مثنية ولا يحذوا على حذو المسلمين ، وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل^(٧) ويمنعوا من أن يحدوا بناء بيعة أو كنيسة في المدينة إلا

(١) الكندي ص ٢٠٣ والقلقشندي ج ٣ ص ٢٩٩ ، خطط المقرئ ص ١ ص ٥٨ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣١٠ — ٣١١

(٢) كتاب الخراج ص ٧٢ — ٧٣

(٣) الزنار والزنارة والجمع زنابير ما يشد على الوسط ، أو الحرام الخامس بأهل الذمة Dozy: Dictionnaire des noms des Vêtements p. 28

(٤) مضرية مخيطة بالقطن أي منجدة

(٥) القَرَبوس حشو السرج ، أي قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن

مؤخره . وها قربوسان والجمع قرايبس

(٦) الشرك سير النعل على ظهر القدم

(٧) الرحالة السرج من جلود لا خشب فيه والجمع رحائل

ما كانوا صولحوا عليه وصاروا ذمة وهى بيعة لهم أو كنيسة فما كان كذلك تركت لهم ولم تهدم ، وكذلك بيوت النيران ، ويتركوا يسكنون فى أمصار المسلمين وأسواقهم ، يبيعون ويشترون ولا يبيعون خمرأ ولا أخنزيراً ولا يظهرون الصليبان فى الأمصار ، ولتكن قلائسهم طوالاً مضرية » .

ويذكر الماوردى^(١) أنه يشترط على أهل الذمة فى عقد الجزية شرطان مستحق ومستحب . أما المستحق فستة شروط أحدها أن لا يذكر فى كتاب الله تعالى بطن فيه ولا تحريف له . والثانى أن لا يذكر فى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكذيب له ولا ازدراء . والثالث أن لا يذكر فى دين الإسلام بدم له ولا قدح فيه والرابع أن لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح والخامس أن لا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يترضوا لماله ولا دينه . والسادس أن لا يعينوا أهل الحرب ولا يودوا أغنياءهم . فهذه الستة حقوق ملتزمة فتلزمهم بغير شرط وإنما تشترط إشعاراً لهم وتأكيذاً لتفليظ العهد عليهم ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً للمعهد .

وأما المستحب فستة أشياء أحدها تغيير هيئاتهم بلبس الغيار^(٢) وشدة الزنار والثانى أن لا يعملوا على المسلمين فى الأبنية ويكونون إن لم ينقصوا مساوين لهم والثالث أن لا يسمعون أصوات نواقيسهم ولا تلاوة كتبهم ولا قولهم فى عزير والمسيح . والرابع أن لا يجاهروهم بشرب خمرهم ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم . والخامس أن يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بنذب عليهم ولا نياحة . والسادس أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقاً

(١) الأحكام السلطانية ص ١٣٨ — ١٣٩

(٢) الغيار علامة أهل القمة كالزنار للمجوس ونحوه

وهجانا^(١) ولا ينعوا من ركوب البغال والحمير . وهذه الستة المستحبة لا تلزم بمقد الذمة حتى تشترط فتصير بالشرط ملتزمة ولا يكون ارتكابهم بمد الشرط نقضاً للعهد لكن يؤخذون بها إجباراً ويؤدبون عليها زجراً ولا يؤدبون إن لم يشترط ذلك عليهم » .

هذا هو رأى اثنين من فقهاء المسلمين فيما يجب أن يكون عليه أهل الذمة من حيث زيهم وملابسهم وما يفعلونه ليطمئئنا عن المسلمين وما يجب عليهم اتباعه إزاء المسلمين وإزاء بناء الكنائس وغير ذلك مما ذكرناه . وأبو يوسف عاش في زمن الخليفة هرون الرشيد أى عندما كانت الخلافة العباسية في أوج عزها وقوتها . أما الماوردى فقد عاش في عصر انحلال الدولة العباسية . وعادة تنشأ الأشياء أولاً ثم يأخذ الفقهاء والعلماء في بحثها بحثاً نظرياً بحثاً أو بحثاً نظرياً عملياً . فأبو يوسف عندما يتحدث عن أهل الذمة إنما يريد أن يتبع الخليفة هرون الرشيد قوله النأج من دراسات لنظم قد اندثرت ولم تعد الخلافة تعمل بها . فنراه يخاطب الخليفة بقوله : « فر عمالك أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزى ، هكذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزى وقال حتى يعرف زيهم من زى المسلمين^(٢) » .

فهل اتبع مع أهل الذمة في مصر هذه الشروط التى ذكرها أبو يوسف والماوردى ؟ عرفنا مما سبق أن عمرو بن العاص فى صلح بابليون الأول أمن الأقباط ومن يريد أن يدخل فى عهدهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وأراضيتهم على أن يدفعوا الجزية حتى يصيروا أهل ذمة ولكنه لم يذكر شيئاً

(١) العتاق الخيل الأصيلة والمجان الخيل الغير منسبة

(٢) أبو يوسف من ٧٣

فما يختص بلباسهم وزيمهم وما يستحدث من الكنائس وغير ذلك مما ذكره أبو يوسف والماوردي . فلم يذكر الطبري أو مؤرخو مصر الإسلامية شيئاً من هذه الشروط الواجبة على أهل الذمة ضمن العهد الذي أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر ولكننا نجد المؤرخين^(١) يذكرون في موضع آخر أن عمرو بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص « أن يحتم في رقاب أهل الذمة بالرصاص وأن يظهروا مناطقهم^(٢) ويجزوا نواصيهم^(٣) ويركبوا على الأكف^(٤) عرضاً ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليهم الواسي ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين في لبوسهم » .

وهاك نص كتاب من نصارى أهل الشام ومصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب يذكرون فيه ما عاهدوا المسلمين به من التزام الحدود ويمتبه زيادات من الخليفة عمر فقد ذكر النويري^(٥) أنه وقف على كتاب « الدر الثمين في مناقب المسلمين ومثالب المشركين » تصنيف محمد بن عبد الرحمن بن محمد الكاتب ونقل منه نص كتاب أرسل إلى عمر بن الخطاب عن أهل الذمة . فقال : قال عبد الرحمن بن عثمان كتبنا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في نصارى أهل الشام ومصر . « لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائنا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا على أنفسنا

(١) ابن عبد الحكم طبع تورى ص ١٥١ ، خطط القريزي ج ١ ص ٧٦ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣

(٢) تنطق وانتطق وتنطق شد وسطه بمنطقة ، المرأة شددت نطقها على وسطها

(٣) يجزوا نواصيهم يملقوا نواصيهم والناسية مقدم الشعر أو الرأس

(٤) أكاف الحمار بردعته . جمها أكفة وأكف

(٥) نهاية الأرب ج ٩ ص ١٣٣٠ — ١٣٣١ (من المخطوط بدار الكتب)

أن لا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا صومعة راهب ،
ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان في خطط المسلمين وأن نوسع أبوابها
للجارة ولبنى السبيل ، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ،
ولا تأوى في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ، ولا نكتم عينا للمسلمين ،
ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع
أحدًا من ذوى قرابتنا الدخول في دين الإسلام إن أرادوا ، وأن نوقر
المسلمين ونقوم لهم في مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من
ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ، ولا تتسمى بأسمائهم ، ولا نتكفى بكنائهم ،
ولا نركب بالسروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ،
ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتيمنا بالعربية ، وأن نجزم مقادير رؤوسنا ،
ونلزم زيننا حيث كنا ، وأن نشد الزنابير على أوساطنا ولا نظهر صلباننا ،
ولا نفتتح كنفننا في طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب بنواقيسنا في
كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعبانيننا ولا طاغوتنا ،
ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نوقد النيران في طرق المسلمين ولا أسواقهم
ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين ،
ولا نطلع في منازلهم ، ولا تملو منازلنا منازلهم . فلما أتيت أمير المؤمنين
عمر بالكتاب زاد فيه : ولا نضرب أحدًا من المسلمين ، شرطنا ذلك على
أنفسنا وأهل ملتنا وقبلتنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه
لكم علينا وضمنناه عن أنفسنا وأهل ملتنا ، فلا ذمة لنا عليكم ، وقد حل بنا
ما حل بغيرنا من أهل الطائفة والشقاق .

قال عبد الرحمن بن عثمان: «وأجمع العلماء بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أنه متى نقض الذي عهده بمخالفة شرط من هذه الشروط المأخوذة عليهم ، فالأمام غير فيه بين القتل والأسر ويلزمهم مع ذلك أن يتميزوا عن المسلمين في اللباس والزي ولا يتشبهون بهم في أمر من الأمور ويشدون الزناير في أوساطهم ، ويكون في رقابهم خواتم رصاص أو نحاس أو جرس يدخل معهم الحمام ، وليس لهم أن يلبسوا المهائم والطليسان^(١) . وأما المرأة فتشد الزنار من تحت الازار وقيل من فوق الازار وهو الأولى ، ويكون في عنقها خاتم رصاص يدخل معها الحمام ، ويكون أحد خفيها أسود ليبقى مشتهراً ظاهراً والآخر أبيض ويركبون الحجير ولا يركبون بالسروج ولا يتصدرون في المجالس ولا يبتئون بالسلام ويلجئون إلى أضيق الطرق ويمنعون أن يملوا بناءهم على أبنية المسلمين وتجاوز المساواة ، وقيل لا تجوز ، بل يمنعون ، ويجعل الإمام عليها رجلاً يكتب أسماءهم ويستوفي عليهم ما يأخذون به من هذه الشرائط .

وقال أبو هريرة . « أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهدم كل كنيسة استجذت بعد الهجرة ، ولم يبق إلا ما كان قبل الإسلام وسير عمرو بن محمد فهدم الكنائس بصنعاء وصانع القبط على كنائسهم بمصر وهدم بعضها ولم يبق من الكنائس إلا ما كان قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم » .

(١) ولكن من المتعذر أن تثبت تماماً أن هذا التمييز بين المسلمين وأهل القنعة في الزي يرجع إلى عصر عمر . فإن المراجع التي تشير إلى هذا متأخرة بعض الشيء . ولعلها سجل ما كان متبعاً في العصر العباسي . ومن ثم فقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذه التفرقة ظهرت في عصر هارون الرشيد . انظر مادة « غيار » في دائرة المعارف وبلغة « قبط » للأستاذ ثبيت في المرجع نفسه

وهكذا يظهر أنه منذ عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه اشترط على أهل الذمة شروط خاصة أهمها ما يتعلق بزيتهم ولباسهم كي يتميزوا عن المسلمين . كذلك منعوا من بناء كنائس أو أديرة أو صوامع مستحدثة ومن تجديد ما خرب منها .

لكن مؤرخى مصر الإسلامية وإن كانوا قد ذكروا ذلك إلا أنهم لم يذكروا إلى أى حد اتبعت تلك الشروط ونفذت مع أهل الذمة والأرجح أن الخلفاء فى فجر الإسلام لم يلزموا أهل الذمة بتنفيذها لأننا رأينا أن هناك كنائس وأديرة بنيت فى مصر فى العهد الإسلامى كما جدد بناء كنائس أخرى . ويذكر ابن عبد الحكم^(١) أن أول كنيسة بنيت فى فسطاط مصر كانت أيام مسلمة بن مخلد (٤٧ - ٦٢ هـ) ولكن الجند أنكروا عليه ذلك وكلفت تقع فتنة بينه وبينهم .

على أننا نجد الخلفاء أو الولاة يأمرؤن أحيانا بإقفال حانات الخمر وبهدم الكنائس المستحدثة بمد الإسلام . ففى ولاية أيوب بن شريحيل على مصر (٩٩ - ١٠١ هـ) عطلت حانات الخمر وكسرت بأمر أمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز^(٢) وفى ولاية على بن سليمان العباسى فى مصر (١٦٩ - ١٧١ هـ) من قبل الخليفة الهادى ثم الرشيد منع الملاحى والخمر وهدم الكنائس المحدثه بمصر .

وكتب الكندى أن نصرانيا بمصر سب النبى صلى الله عليه وسلم فى ولاية على بن سليمان وكان قاضى مصر إذ ذاك الفضل بن فضالة ، فكتب فيه

(١) فتوح مصر طبعة تورى ص ١٣٢

(٢) الكندى ص ٦٨ وأبو الحسن ج ١ ص ٢٣٨

فجر الإسلام - (١٤)

المفضل بن فضالة إلى مالك بن أنس رحمه الله يسأله عن قتله فكتب مالك يأمر بقتله وشم هذا القتل^(١) . ولسنا ندري هل كان القضاة مكلفين باستشارة أهل الفتوى أم أن القاضي استشار الإمام في هذه المسألة خوفاً من أن ينفرد برأيه فيها لخطورتها .

وقد تنهاون معظم الخلفاء في تنفيذ الشروط التي ينسب إلى عمر بن الخطاب أنه ألزم أهل الذمة باتباعها . كما أصدر بعض الخلفاء شروطاً مثلها بعضها يخص أهل الذمة في جهة معينة وبعضها يخص أهل الذمة في جميع أنحاء الدولة الإسلامية . ومن بينها مصر . فيذكر أبو يوسف^(٢) أن عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) كتب إلى عامل له : « أما بعد فلا تدعن صليبا ظاهرا إلا كسر ومحق ، ولا يركبن يهودى ولا نصرانى على سرج ولا يركب على إكاف ، ولا تركبن امرأة من نسايتهم على رحالة ، وليكن ركوبها على إكاف ، وتقدم في ذلك تقدما بليغا وامنع من قبلك فلا يلبس نصرانى قباء^(٣) ولا ثوب خز^(٤) . ولا عصب^(٥) » وقد ذكر لي أن كثيرا ممن قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمام وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الجمام^(٦) والوفر ، وتركوا التقصيص . ولمعروى لئن كان يصنع ذلك فيها قبلك إن ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة ، وإنهم حين يراجعون ذلك

(١) الكندى ص ٣٨٢

(٢) كتاب الخراج ص ٧٣

(٣) القَبَاء — ثوب يلبس فوق الثياب . الجمع أقبية والقباء كالفرجية في أيامنا ويلبس تحته الجبة (Dozy : Dictionnaire des Vêtements p 852)

(٤) الخَز — الحرير . ما نسج من صوف وحرير . الجمع خزوز

(٥) الْعَصْب — العمامة . والعصبة والعصابة ربما كانت تعني قديماً نوعاً

من العمام (Dozy : op. cit. p. 300-301)

(٦) المِجْمَةُ — مجتمع شعر الرأس . الجمع جم ، واجمة معظم النمل أو الكثير منه

ليعلمون ما أنت ، فانظر كل شيء مهيت عنه فاحسم عنه من فعله والسلام » ولا يذكروا أبو يوسف العامل الذي وُجّه إليه هذا الكتاب ؛ ولكننا نتبين منه أن عمر بن عبد العزيز شعر في عهده أن الشروط التي كان أهل الذمة قد ألزموا باتباعها نقصت فأراد إلزامهم بها ثانية . ولا نعرف إذا كانت مصر في ذلك الحين قد شملها هذا القرار أم لا . ولكن يظهر أن أوامر عمر بن عبد العزيز شملت أنحاء الدولة الإسلامية وإن لم يذكر لنا مؤرخو مصر الإسلامية ذلك ، فقد رأينا أن هذا الخليفة أمر بتعطيل حانات الخمر في مصر كما أمر بعزل الأقباط عن تولى مناصب الدولة ولا نستبعد أن تكون شروط تمييز أهل الذمة عن المسلمين في زيارتهم وركوبهم قد روعيت تماما في عهده ولا أدل على مبلغ كراهية نصارى مصر له من تلك الكلمات التي يصفه بها ساويرس^(١) إذ يقول إنه كان يصنع خيرا عظيما أمام الناس ويفعل السوء أمام الله .

وقد جاء في الطبري أن الخليفة هرون الرشيد أمر (١٧٠ — ١٩٣ هـ) في سنة ١٩١ هـ بهدم الكنائس بالثغور وكتب إلى السندی بن شاهك يأمره بأخذ أهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم^(٢) .

وكانت أوامر الرشيد كما يظهر من النص قاصرة على كنائس الثغور وعلى أهل الذمة ببغداد أي أن مصر ومعظم الدول الإسلامية لم تدخل ضمن هذا القرار . ولا نعرف إذا كان الرشيد في أوامره هذه أراد أن يحدد ما يوجب إلى عمر بن الخطاب أو أن ذلك كان بمثابة رد على اعتداء الدولة

(١) سير الآباء البطارقة ص ٧١ (Patr. Orient. t. V.)

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ١٠٠

البيزنطية على الثغور الإسلامية ونحن نرجح الرأي الثاني لأن الرشيد عرف بالتسامح ، كما بنيت في عهده عدة معابد مسيحية في بيت المقدس على نفقة الامبراطور شارلمان الذي كان محالفا للخليفة الرشيد (١) .

ويظهر أن أقباط مصر أو أهل الذمة على وجه الاجمال من أقباط ويهود وغيرهم ، لم يضيق عليهم في الزى والركوب وبناء الكنائس وغير ذلك مما ينسب بدوه إلى عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز إلا في النادر . إلى أن جاء الخليفة المتوكل على الله العباسي (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) . ففي سنة ٢٣٥ هـ « أمر المتوكل بأخذ أهل الذمة بلبس الطيالة العلية والزناير وركوب السروج بركب الخشب وبكون السروج كهيئة الأكف ، وعلى رؤوسهم القلائس المختلفة الألوان ، وأن تخطط الرقاع على ظهورهم وصدرهم كل رقعة قدر أربع أصابع ولونها عسلي ، وأزر نساءهم عسلي ، وملبس مما ليكهم مثلهم ويمنعوا من لبس المناطق وهدم بيعة المحدث ، وأخذ العشر من منازلهم فإن كان الموضع واسعا صير مسجدا وأن كان لا يصلح أن يكون مسجدا صير فضاء وأمر أن تجعل على باب دورهم أساطين (٢) وقيل شياطين من خشب مسمومة تفريقا بين منازلهم ومنازل المسلمين ، ونهى أن يستمان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي تخالف أحكامهم فيها أحكام المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين وأن يعلمهم مسلم ، ونهى أن يظهرُوا في أعيادهم وشعائينهم صليبا وأمر أن تسوى قبورهم بالأرض لئلا تشبه قبور المسلمين وكتب الكتب إلى عماله في الآفاق بذلك . (٣)

G. Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t.IV. p. 25 (١)

(٢) الأسطوانة : العمود والجمع أساطين

(٣) بيبس الدوادار — زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٤ ص ١٧٣ ب

— ١١٧٤ وخطط القريري ج ٢ ص ٤٩٤

« ثم أمر أهل الذمة في سنة ٢٣٩ هـ بلبس دراعتين^(١) عسيتين على الدرايع والأقبية ، وبالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحير دون الخيل والراذين^(٢) »

ولم تكن أواصر المتوكل جديدة ، وإنما كانت تجديداً لما سبق كما رأينا . فالذميون ألزموا قبله بأمر تمييزهم عن المسلمين في الزي والركوب وبشروط خاصة ببناء الكنائس وغير ذلك مما ذكرنا . ولكن الخلفاء وولاتهم في مصر كانوا يتساهلون في تنفيذها في معظم الأحيان . وقد حدث في عهد هرون الرشيد أن ولي القضاء محمد بن مسروق الكندي ، وتحامل على أهل مصر فأمنوا في الطمن فيه ، ودعوا عليه في المساجد . فوقف على باب المقصورة وصاح قائلاً : « أين أصحاب الأكسية المسلية ، أين ... ؟ لم لا يشكلم متكلم بما شاء حتى يرى ويسمع ؟ فما تكلم أحد بكلمة^(٣) » . وربما قصد القاضي بقوله « أصحاب الأكسية المسلية » التحقير من شأن أهل الذمة الذين انحدر منهم المصريون المسلمون .

ولكننا نلاحظ على وجه الإجمال أن هذه الأواصر كانت تنفذ في حين صدورها بدقة ، ولكن التمسك بها كان يقل تدريجياً ، وكثيراً ما كان يتسامح مع أهل الذمة في بناء الكنائس وفي الاحتفال بأعيادهم . بل نجد الخلفاء في عصر متأخر يشاركون أهل الذمة في الاحتفال بأعيادهم الدينية . ومما يشهد بهذا التسامح أننا نقرأ في كتاب أحد بطارقة بيت المقدس بعد المراسيم التي أصدرها المتوكل بنحو عشرين سنة ، أي في سنة ٨٦٩ م

(١) الدراعة والجمع دراريع جبة مشقوفة للمقدم

(٢) البرذون — التكن من الخيل

(٣) الكندي : الولاة والقضاة ص : ٣٩

(٢٥٥ — ٢٥٦ هـ) — ما نصه : « إن المسلمين يظهرون كثيراً من المطفحوننا بالسباح لنا ببناء كنائسنا » .

“Multam Benevolentiam ostendunt (Saraceni) in nos, licentiam nobis praeberentes aedificandi ecclesias nostras.”^(١)

والواقع أن المسيحية الدينية تغلبت على العرب بعد الفتح وتغلب عليهم الشيعة بعزتهم وتفوقهم على غيرهم من الشعوب بعد أن أنشأوا إمبراطوريتهم الإسلامية بحمد السيف فرأوا أن يتميزوا عن غيرهم في اللباس والزي والركوب وغير ذلك مما يشمر في الوسط الاجتماعي بأنهم هم السادة وغيرهم دونهم . كما أنهم ، وقد أصبحت البلاد التي فتحوها ملكاً للمسلمين ، رأوا أن ليس عليهم أن يبنوا كنائس فيها ، ويكفيهم أن يبقوا على ما وجدوه منها ، وألا يتدخلوا في شئون أهل الذمة الدينية .

وربما كانت هذه الامتيازات الاجتماعية والأدبية للمسلمين على أهل الذمة سبباً كما قلنا في أن كثيراً من المسيحيين أقدم على اعتناق الدين الإسلامي ، ولا يمكننا القول بأن إسلام هؤلاء الذين يريدون التخلص من تلك المضايقات كان صحيحاً ؛ ولكن ذريتهم كانت تنشأ في الوسط الإسلامي فيعتزون بدينهم الإسلامي ويدمجون في الجماعة الإسلامية تماماً .

وقد كتب المستشرق آدم مترز^(٢) أن مسألة ختم رقاب أهل الذمة عادة قديمة ترجع إلى عصر الآشوريين الذين كانوا يعلقون في رقاب العبيد قطعة من الفخار اسطوانية مكتوباً عليها اسم العبد واسم سيده . وكان اليهود في عهد التلمود يعلون عبيدهم بالختم على الرقبة أو الثوب . وفي سنة ٥٠٠ بعد الميلاد كان حاكم مدينة الرها يعلق إلى رقبة الفقراء الذين يأخذون

Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t. IV. p. 25 (١)

(٢) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٧٧

رطل خبز كل يوم قطعة من الرصاص مختومة
ويظهر ان عادة ختم الرقاب أو الذراع لم تكن مستهجنة ولم تكن
موجبة للعار في العصور الوسطى إذا ما اتبعت مع اصحاب الطبقات الوضيعة
ويذكر ابن بطوطة^(١) في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)
عند وصفه لمدينة دمياط أنه « إذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج
عنها إلا بطابع الوالى ، فمن كان من الناس معتبراً طبع له في قطعة كاغد
يستظهر به لحراس بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به » .
وهكذا نرى أن أهل النعمة عوملوا معاملة الطبقات الدنيا مهما كانت
زوتهم أو سراكزهم في الدولة مما حمل الكثير على الرغبة في التخلص من
تلك المضايقات .

الوقباط والنظام الخالى

كانت سياسة الخلفاء بوجه عام ترى إلى استغلال مصر استقلالاً منظماً ،
وإن اختلف بعضهم عن البعض الآخر من حيث درجة الاستغلال ، إذ بينما يرى
بعض الخلفاء أو ولايتهم يشتط في جمع الضرائب ترى البعض الآخر يرى
أن من مصلحة الراعى أن يقص صوف غنمه وليس من مصلحته أن يسلخها .
وحسبنا أن نشير في هذه المناسبة إلى ما ذكره الماوردى^(٢) من أن
« الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه في أخذ الفضل من أموال
السواد فغنمه من ذلك وكتب إليه : لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص
منك على درهمك المتروك وأبق لهم لحوماً يعقدون بها شعوماً » فإن هذا

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٦٠

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٤٣

مثل يرينا كيف كانت سياسة هذا الخليفة ترمى إلى عدم تحميل البلاد فوق ما تحتمل كيلا يحجب معينها ويؤثر ذلك على مالية الدولة ولكن بعض الخلفاء لم يراع هذا المبدأ وراحوا يبتزون كل ما تملك البلاد ، فنرى الخليفة سليمان بن عبد الملك (٨٩٦ - ٩٠٩ م) يكتب إلى أسامه بن زيد التنوخى متولى خراج مصر « أحلب الدر حتى ينقطع وأحلب الدم حتى ينصرم ^(١) » وقد ظهر اهتمام الخلفاء بثروة مصر عقب الفتح مباشرة ، فيذكر ابن عبد الحكم ^(٢) عن هشام بن أبي رقية اللخمي أن عمرو بن الباص لما فتح مصر قال للقبط : إن من كنتنى كنزا عنده فقدرت عليه قتلتة . وسمع عمرو بأن أحد أهالى الصعيد يقال له بطرس عنده كنز فلما سأله أنكر ذلك ، وعندما تبين لعمرو ابن العاص صحة ما سمعه عنه أمر بقتله . فلما سمع بذلك الأقباط أخرجوا كنوزهم خوفاً من القتل . ولا نستطيع أن نتبين من هذا النص هل كان هذا نوعاً من الاغتصاب ، وهذا ما نستبعده وخاصة زمن الفتح ، أو كان الغرض من معرفة السكنوز حساباً ذلك فى تقدير الجزية ، أم كان القبط ملزمين بتقديم جزء من كنوزهم للمساهمة فى أمور الدولة ولتقدير ما يفرض عليهم من الضرائب الأخرى غير الجزية . كل هذا لا نستطيع استخلاصه من المصادر التى بأيدينا .

ويظهر أن العنصر المالى الرئيسى الذى كان يهتم به العرب هو الجزية . ولذا كانت الجزية سبباً فى إسلام كثير من الأقباط الذين أرادوا التخلص منها وهذا طبعاً معناه نقص فى دخل الدولة . وربما حدا هذا بالخلفاء إلى مضاعفة مقدار الجزية على من بقى من الأقباط على دينه حتى لقد قيل إن

(١) أبو الحسن ج ١ ص ٣٣١

(٢) فتوح مصر — طبعة تورى — ص ٨٧

الخليفة عمر بن عبد العزيز أرسل إلى حيان بن سريج عامله على خراج مصر أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم^(١). وإذا كان هذا النص صحيحاً وإذا كان الأقباط الأحياء يكلفون بجزية من مات منهم فلا نستبعد أن يجعلهم الخلفاء يتحملون جزية من أسلم منهم. ولا نستطيع أن نعرف بالتقريب ما هي نسبة نقص الجزية بسبب ائتمتاق الأقباط الدين الإسلامي لأن المؤرخين كثيراً ما يجمعون بين الجزية والخراج فيقال إن عمرو بن العاص جبي من مصر ١٢ مليون دينار وجباها عبد الله بن سعد بن أبي سرح في خلافة عثمان بن عفان ٢٤ مليون دينار وقد سر عثمان بن عفان من ذلك وعاتب عمرو بن العاص في هذه الكلمات :

« يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الأول فقال عمرو : « أضررتم بولدها » ويذكر آخرون أنه قال : « ذلك أن لم يمت الفصيل^(٢) » ويذكر المقرئ^(٣) أن الذي جباه عمرو ثم عبد الله إنما هو من الجاجم^(٤) خاصة دون الجراج .

وعندما زاد التحول إلى الدين الإسلامي بلغ خراج الأرض مع جزية الرءوس في أيام معاوية بن أبي سفيان خمسة ملايين دينار وبلغ في أيام هرون الرشيد أربعة ملايين دينار وبعد ذلك أصبح ما يجبيه الخلفاء حوالي ٣ ملايين

(١) ابن عبد الحكم . طبعة تورى . ج ١٥٤ وخطط المقرئ ج ١ ص ٧٧ يقول الماوردي في كلامه عن أهل الذمة والجزية « ومن مات منهم فيها أخذ من تركته بقدر ما مضى منها ومن أسلم منهم كان ما لزم من جزيته ديناً في ذمته يؤخذ بها . وأسقطها أبو حنيفة بإسلامه وموته » الأحكام السلطانية ص ١٣٩
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة تورى ص ١٦١ وخطط المقرئ

ج ١ ص ٩٨

(٣) الخطط ج ١ ص ٦٨

(٤) يقصد بالجاجم هنا جزية الرءوس

دينار^(١) إذا استثنينا فترات معصنة .

ونشهد المسكاتب التي دارت بين الخليفة عمرو بن الخطاب وعمرو بن العاص عقب الفتح مباشرة على مدى الاهتمام بحماية أموال مصر ؛ فعند ما بلغ عمرو بن الخطاب أن المقوقس جباها قبل عمرو بستة وعشرين مليون دينار وأن عمرو جباها اثني عشر مليون دينار كتب الخليفة إلى عمرو يستبطله في الخراج . وهذا ما دار بينهما من المسكابات :

كتب الخليفة إلى عمرو يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص . سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإني فكرت في أمرك والذي أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة في بر وبحر وأنها قد جالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم فمعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جذب ، ولقد أكرت في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير زرع ، ورجوت أن تفيق فترفع إلى ذلك فإذا أنت تأتيني بعمار يضربها لا توافق الذي في نفسي . ولست قابلا منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك . ولست أدري مع ذلك ما الذي أنفرك من كتابي وقبضك ؟ فلئن كنت مجزئا كافئا صحيحا إن البراءة لنافعة ولئن كنت مضيعا لظفا إن الأمر لعل غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت أن أبطل ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك . قد علمت أنه لم يمنك من ذلك إلا أن عمالك عمال سوء وما توألس عليه وتلفف اتخذوك كهفا وعندى بأذن الله

(١) اليعقوبي : البلدان ص ٣٣٩

دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتمطاه فإن النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعنى وما عنه تلجلج فإنه قد برح الخفاء والسلام^(١) .

فكتب إليه عمرو بن العاص . « بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص . سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبل وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام ، ولمرى للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام وذكرت أن النهر يخرج الدر فخلبتها حلباً قطع ذلك درهما وأكثرت فى كتابك وأنت وعرضت وثرثت وعلمت أن ذلك عن شئ تخفيه على غير خبر فحثت لعمري بالمفطحات المقدعات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولن بعده فكننا بحمد الله مؤدين لأماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أعتنا نرى غير ذلك قبيحاً والممل به سيئاً فيعرف ذلك لنا ويصدق فيه قيلنا ، معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجترأ على كل مأثم . فأقبض عملك فإن الله قد نزهنى من تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بمد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم فيه أخوا . والله يا ابن الخطاب لأننا حين يراد ذلك منى أشد لنفسى غضباً ولها إنزاهاً وإكراماً وما عملت من عمل أرى على فيه متعلقاً ولكنى حفظت ما لم تحفظ

(١) ابن عبد الحكم — طبعة نوري — ص ١٥٨ — ١٥٩ وخط المقرئ

ج ١ ص ٧٨ والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٤

ولو كنت من يهود يثرب ما زدت يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء
كنت بها عالماً وكان اللسان بها منى ذلولا ولكن الله عظم من حقت ما لا
يجهل والسلام^(١) .

ولم تقف المكاتبات بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص فيما يختص
بالحراج عند هذا الحد . فقد عاود عمر بن الخطاب الكتابة فكتب إلى عمرو
« سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فقد عجبت
من كثرة كتبي إليك في إبطائك بالحراج وكتابك إليّ بينيات الطرق
وقد علمت أني لست أرضى منك إلا بالحق البين ، ولم أقدمك إلى مصر
أجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكني ونجھتكم لما رجوت من توفيرك
الحراج وحسن سياستك فإذا آتاك كتابي فأجل الحراج فإنما هو فيء المسلمين
وعندي من قد تعلم قوم محصورون والسلام^(١) » .

فكتب إليه عمرو بن العاص . « بسم الله الرحمن الرحيم . لعمر بن
الخطاب من عمرو بن العاص . سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله
إلا هو . أما بعد فقد آتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطنني في الحراج ويزعم
أنني أعيد عن الحق وأنكب عن الطريق وأنى والله ما أرغب عن صالح
ما تعلم ولكن أهل الأرض استنظروني إلى أن تدرك غلتهم فنظرت المسلمين
فكان الرفق بهم خيراً من أن يخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم
عنه والسلام^(١) » .

هذه الرسائل ترينا إلى أي حد كان الخليفة يهتم بخراج مصر وأنه كان
يريد أن يجبي مثلما كان يجبيه الروم من قبل . ولذا نجد أن المصريين سرعان

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٥٩ — ١٦١ طبعة توري وخطط المقرئ
ج ١ ص ٢٨ و ٢٩ و السيوطي : حسن المحاضرة ص ٦٤ — ٦٥

ما عادوا إلى ما كانوا فيه تحت حكم الروم فوقعوا تحت الأعباء المالية الكثيرة التي تطلبها الخلافة وأصبح المطلوب منهم توفير المال اللازم لبيت المال وللمنتفعين من الولاية والموظفين أيضاً . ونلاحظ أن انتفاع مصر بدخلها في العصر الأموي كان أكثر منه في العصر العباسي لأن الولاية كانوا أكثر استقراراً من ولاية العصر العباسي . أما في العصر العباسي فقد اضطربت الأحوال المالية وذلك لكثرة تغيير الولاية وبسبب إقطاع مصر لبعض قواد الترك أو أولياء العهد فكان همّ الوالي جمع ما يمكن جمعه من المال لنفسه أولاً وللخلافة أو لصاحب الإقطاع ثانياً .

ولنستعرض الآن الفترات التي أشد التحول فيها إلى الدين الإسلامي بسبب المشاكل المالية ولنبدأ بولاية عبد العزيز بن مروان الذي كان يمثل الخليفة عبد الملك بن مروان في مصر (٦٥ - ٨٦ هـ) .

كان عهد عبد العزيز بن مروان عهد رخاء ويسر في مصر . فقد اهتم بترقية شئون البلد وأدخل فيها أسلحات كثيرة . كما عرف بالجود والكرم وكان يقول . « واهجبا من مؤمن يوقن أن الله يرزقه ويوقن أن الله يخلف عليه كيف يدخر مالا عن عظيم أجر أو حسن سماع ^(١) » . ويقال إنه كان لعبد العزيز بن مروان ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره وكانت له مائة حفنة تحمل على المعجل ويطاف بها على قبائل مصر . وفي ذلك يقول الشاعر :

كل يوم كأنه يوم أخفى عند عبد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنة مرقط كل يوم تمدها ألف قدر ^(٢)
ولا ريب أن مثل هذا الشر وغيره يشهد بما كان له من جود وافر على

(١) أبو الحسن ج ١ ص ١٧٥

(٢) الكتبي ص ٥١ - ٥٢

ما فيه من مبالغة صريحة ليست غريبة عند المؤرخين في المصور الوسطى .
وقد بنيت كنائس عدة في عهد عبد العزيز كما عرفنا سابقاً ، كذلك
جدد عبد العزيز بناء المسجد الجامع وزاد فيه ^(١) ، كما أنفق مالا كثيراً
في بناء مدينة حلوان ، يقال إنه بلغ مليون دينار ^(٢) وقد زيدت أعطيات
الجند في عهده ^(٣) كما اشتركت مصر في القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير
وقد تطلب هذا كله كثرة الإنفاق والأموال الكثيرة حتى قيل إن
عبد العزيز بن مروان كان يجي خراج مصر أسبوعياً خوفاً من فتنة تنزل
به يحتاج فيها إلى المال . ولم يزل على ذلك حتى قتل عبد الله بن الزبير وتم
الأمر لمبد الملك بن مروان ^(٤)

وكانت نتيجة حاجة هذا الوالى إلى المال أن اتجه إلى شيء لم يتجه
إليه أحد من قبل ، فأمر بإحصاء ^(٥) جميع الرهبان في كل الكور وفي
وادي النطرون وسائر الأماكن وفرض ديناراً جزية على كل راهب وأمر
ألا يترهب أحد بعد من أحصاه ، وكانت هذه أول جزية أخذت من
الرهبان ^(٦) . ويقال إنه أزم أساقفة الكور أن يؤدوا ألفي دينار سنوياً

(١) الكندى ص ٥١

(٢) سعيد بن بطريق : التاريخ ج ٢ ص ٤٠

(٣) الكندى ص ٤٩

(٤) سعيد بن بطريق ج ٢ ص ٤١ Wiet: Histoire de la Nation

Egyptienne p. 47.

(٥) ونذكر هنا أن بعض المخطوطات كان فيها تصحيف في كلمة « أحصى »
أو أن خطأ أدى إلى قراءتها « أخصى » فشاء بعض المستشرقين أن يستنبط منها توحش
المسلمين في هذه المناسبة . ولكن فطن إلى هذا الخطأ مستشرقون آخرون كالأستاذ فييت
في مقاله Kibt في دائرة المعارف الإسلامية . أنظر ساويرس Pat. Orient. t.V. p.51

(٦) ساويرس ص ٥١ (t.V.) وخطط القرطبي ج ٢ ص ٤٩٢

Wiet: art. Kibt (Encyclopaedia of Islam) p. 998.

بالإضافة إلى خراج أملاكهم^(١) ، ويُذكر أن بديامين الشماس الراهب الذي كان مصاحباً للأصبغ بن هبذ المزيز هو الذي كان يحرظه على كل بلاء ضد الأقباط .

ونحن نعلم أن الرهبنة كانت منتشرة حينذاك ، وقد ساعد على انتشارها ما وقع للمصريين من ظلم واضطهاد زمن الرومان ، ففضل الكثيرون أن يعيشوا في عزلة عن العالم منفردن أو بجاعات في أديرة . ولما كان الراهب لا يملك شيئاً ويمتس في عزلة عن العالم ، لذا لم تفرض عليه أى ضريبة . على أن الأديرة التي كانت تزاد كثرة على مر الأيام مالبث أن وقف عليها أملاك كثيرة وزادت ثروتها ، ولكن الحكومة في عهد الرومان والبيزنطيين لم تكثف باعفاها من الضرائب ، بل كانت تدفع لها قدراً معيناً من الإيرادات المالية^(٢) .

فلما فتح العرب مصر حافظوا على ما كان موجوداً قبلهم من التقليد الذي يحرم فرض أية ضريبة أو جزية على الرهبان . وبذلك وجدت تحت حكم العرب من أول الفتح طبقة ممتنزة من المسيحيين لا تقع تحت طائلة الأعباء المالية . وقد لجأ كثير من الأقباط إلى هذه الأديرة كي يتخلصوا من الضرائب^(٣) . ففطنت الحكومة إلى ذلك وادرت بإحصاء الرهبان ، وفرضت عليهم جزية الدبنار التي أشرنا إليها .

ولما احتاج هبذ المزيز بن مروان إلى المال لجأ إلى الأديرة التي أصبحت تملك ثروات ضخمة . وفرض على رهبانها جزية سنوية كي يسد بذلك هجر

(١) ساويرس ص ٢٠ (١.٧٠)

(٢) Munier : L. Egypte Byzantine. p. 77

(٣) Wiet : 'Precis de L'hist. d'Egypte. t. 11. p. 132

ميزانية الدولة^(١) ، وكان من أثر هذا أن اعتنق الكثيرون الدين الإسلامى . وبعد وفاة عبد العزيز ولى مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٨٦ هـ ولم تمض بضعة أشهر حتى توفى الخليفة عبد الملك بن مروان ، وبويع بعده بالخلافة ابنه الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦) فأقر الوليد أخاه عبد الله على ولاية مصر حتى سنة ٩٠ هـ . وقد تشدد عبد الله بن عبد الملك على الأقباط فى الأمور المالية . فألزم البطرك بدفع ثلاثة آلاف دينار أو يمتقله فلقى البطرك مشقة عظيمة فى جمع هذا المال من الأساقفة والرهبان والأقباط على العموم ، كذلك زاد عبد الله الخراج على المصريين ، فمن كان يدفع ديناراً خراجاً ألزمه بدفع دينار وثلثين ، حتى أن كنائس كثيرة سرى إليها الخراب لهذا السبب^(٢) ، وقد زاد وطأة ذلك الوالى على المصريين ما حدث فى أيامه من الفلاء ، وذلك على أثر انخفاض النيل^(٣) فى سنة ٨٧ هـ .

والظاهر أن هذا الوالى عمد إلى ابتزاز الأموال ، ولا سيما من القبط وربما أسلم نفر منهم ليتخلص من هذه الأعباء ، وقامت فى عهده حركة مقاومة مسلحية ضد هذه السياسة المالية من جانب الذين ضايقتهم الأعباء المالية والذين لم يريدوا تغيير دينهم بسببها . فأخذ بعض الأفراد يهربون إلى مناطق أخرى غير تلك التى كانوا مقيدين فيها بعد أن وجدوا ألا فائدة

(١) ذكر أبو يوسف فى كتاب الخراج (ص ٧٠) أن المترهبين إذا كان لهم يسار أخذت منهم الجزية ، وإن كانوا مساكين يتصدق عليهم أهل اليسار منهم لم تؤخذ منهم

(٢) ساويرس ص ٥٤ — ٥٥ (T.V.)

(٣) السكندى ص ٥٩ والمقرئى : لغافة الأمة ص ١١ . وأبو الحسن

من الاعتصام في الأديرة . غير أن هذا الوالى ومن جاء بعده تشددوا في مراقبة هذه الحركة التي كانت تثير الفوضى في البلاد ، فضلا عن تأثيرها في مالية الدولة . فأمر عبد الله بن عبد الملك بوسم الغرباء الذين وجدوا في الأقاليم المختلفة على أيديهم وجباههم وأرسلهم إلى مواضع مختلفة (١) .

وولى مصر بعد عزل عبد الله بن عبد الملك في سنة ٩٠ هـ قرّة ابن شريك ، وظل على ولايتها إلى أن مات بها في سنة ٩٦ هـ . ويذكر ساويرس أن قرّة أنزل بلایا عظيمة بالمسلمين والنصارى على السواء ، وبالكنائس والرهبان (٢) . وكتب المقرئى عن قرّة أنه « أنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها » (٣) . وتكثر النصوص والروايات من التحدث عن ظلم قرّة بن شريك وعسفه ، فيذكر أبو الحسن أن قرّة كان سيء التدبير ، خبيثا ظالما غشوما فاسقا مهتكا (٤) . وقيل إن عمر ابن عبدالعزيز رضى الله عنه ذكر عنده ظلم الحجاج وغيره من ولاية الأمصار أيام الوليد بن عبد الملك ، فقال : « الحجاج بالعراق ؛ والوليد بالشام ؛ وقرّة بن شريك بمصر ؛ وعثمان بالمدينة ؛ وخالد بكمكة ! اللهم قد امتلأت الدنيا ظلما وجورا فأرح الناس » (٥) . ولكن أوراق بردى كوم اشقاو ، التي عثر عليها في سنة ١٩٠١ تشهد بأن هذه الروايات غير صحيحة في مجملها فإن قرّة لم يكن بالرجل الظالم أو الفاسق . وقد رأينا في كلامنا عن النظام الإدارى في مصر كيف كان قرّة يهتم بمدالة حكام الأقاليم المختلفة وعدم

(١) ساويرس ص ٥٦ (T.V.)

(٢) ساويرس ص ٥٧

(٣) الخطط ج ٢ ص ٤٩٢

(٤) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٧ . في طبعة دار الكتب « منهمكا »

(٥) المرجع نفسه ص ٢١٨

الإجحاف بأهل الذمة . فيأمر عماله في الأقاليم ألا يقدرُوا على أهل الذمة
ضرائب فوق طاقتهم أو أقل مما يستطيعون أداءه^(١) ، كما يهدد عماله
بمعاقبتهم أشد العقاب إذا ظلموا الأهالي في تقدير الضرائب المفروضة عليهم^(٢) ،
كذلك يحذر عماله من قبول الرشوة من الأهالي^(٣) ، وفضلاً عن ذلك
فقد كان قرّة بن شريك يتدخل في كل كبيرة وصغيرة ، ويراقب الأمور
في البلاد مراقبة شديدة ، ويجتهد في المحافظة على نشر الأمن في البلاد
والعدل بين الرعية . كما كان يهتم بمراقبة التموين في البلاد ، فنراه يجتهد
منع غلاء الطعام بالفسطاط^(٤) ، ونجده يتجاوز أحياناً عن بعض ما كان
يدفع كل عام من الجزية ، فيقبل من أهل الذمة أقل مما اعتادوا دفعه كل
عام وفقاً بهم^(٥) . ومع ذلك نراه يشدد في طلب المتأخر من الجزية التي لم
تدفع منذ عهد الوالي الذي سبقه^(٦) ، ويأمر عماله على الأقاليم بأن يقدموا
له سجلات بأسماء القرى والأقاليم المختلفة ، وإحصاء الرجال والجزية الواجبة
عليهم وما يملكه كل رجل من الأراضي والخدمات التي يؤديها^(٧) .
ولكننا نراه أحياناً يفرض ضرائب غير عادية^(٨) .
وكان جباة الضرائب من أهل الذمة^(٩) كما كان حكام الكورات

Bell : Translation of the Greek Aphrodito Papyri (Der (١)

Islam, Band 11.) p. 282.

Bell : op. cit. p. 270 (٣)

Bell : op. cit. p. 282 (٢)

Becker : (Der Islam. Band 11.) p. 256, Grohmann : Arabic (٤)

Papyri vol. 111. p. 8

Becker : op. cit. pp. 253-254, Grohmann : op. cit. p. 16-17 (٥)

Becker : op. cit. d. 267, Grohmann : op. cit. p. 48 (٦)

Bell : op. cit. p. 272 (٧)

Bell : op. cit. p. 272 (٨)

Bell : op. cit. (Der Islam, Band 1V) p. 92 (٩)

المختامة منهم . وقد رأينا أن العرب تركوا معظم وظائف الدولة في أيدي
الذميين على أن هذا النظام لم يكن من مميزات حكومة قرة أو العهد
الأموي ، وإنما كان من مميزات النظام المالي نفسه ، الذي تركه البيزنطيون
لخلفائهم العرب^(١) .

ويذكر ساويرس^(٢) أن قرة فرض على البلاد مائة ألف دينار سوى
خراجها المعروف وقد استمرت في عهد قرة حركة الهرب التي بدأت في ولاية
عبد الله بن عبد الملك بل إنها اتخذت في عهده شكلاً واسعاً فكانت أسرات
بأسرها رجالاً ونساءً وأطفالاً تهرب من مكان إلى مكان ، لا تستقر في مكان
معين وذلك فراراً من دفع الضرائب . واضطر قرة إزاء هذا إلى إنشاء هيئة
خاصة لوقف تلك الحركة وإعادة كل شخص إلى موضعه^(٣) .

وتلقى أوراق بردي كوم اشقاو شعاعاً من النور على هذه الحركة التي
كان محورها الزراع أو الجالية^(٤) وكان الوالي يأمر باعادتهم إلى قراهم
الأصلية^(٥) . فنراه يكتب إلى صاحب أشقوه أنه علم بوجود جالية بأرضه
ويطلب منه أن يرد الجالية — أي الهاربين — إلى أرضهم الأصلية^(٦) ونراه

(١) Lammens : Un Gouverneur Omayyade. p. 115.

(٢) سير الآباء البطارقة ص ٦٤ (T.V.)

(٣) المرجع نفسه ص ٦٤

(٤) قيل لأهل الذمة الجالية لأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أجلاهم عن جزيرة
العرب ولزمهم هذا الاسم أينما حلوا ثم لزم كل من لزمته الجزية من أهل الكتاب
بكل بلد وإن لم يجلبوا عن أوطانهم . ويقال استعمل فلان على الجالية أى على جزية
أهل الذمة (لسان العرب)

(٥) لم يكن هذا جديداً في التاريخ المصرى فكثيراً ما كان الفلاحون يهجرون
قراهم في مصر البيزنطى فراراً من دفع الضرائب . أنظر Lammens: Un Gouverneur
Omayyade... p. 107

(٦) Grohmann : Arabic Papyri. vol. 111 p. 24

يرسل مندوبين للنظر في حركة الحرب ويطلب من صاحب الكورة أن ييسر مهمتهم وأن يرسل معهم رجالات ثقات يعرفون الكتابة ليقوموا في حضرتهم بكتابة أسماء الهاربين وألقابهم وليبينوا أيضاً من أين هرب كل شخص وإلى أى جهة ذهب . وذلك لحصر الذين عادوا إلى قراهم والذين سمح لهم بالاستقرار على أن يؤدوا الضرائب ، وليقوموا على وجه الإجمال بالاستفسار عن كل ما يجب أن يعرف . ثم يعود قرة فيطلب من صاحب الكورة أن يأمر هؤلاء الرجال بالعمل في هذه المسألة بجِد ونشاط وألا يقبل أحدهم هدية أو رشوة من أى شخص وإلا فسيحل العقاب بصاحب الكورة كما سيحل بالرجل المذنب^(١) وفى كتاب آخر لقرة نراه يطلب من صاحب أشقوه أن يرسل إليه الهاربين مع عائلاتهم وكل ما معهم من أشياء وأن يعد سجلاً يكتب فيه أسماء الأشخاص الذين أرسلوا ، وفى أى موضع من كورته هربوا ، وأملك كل شخص ، والوقت الذى أمضاه كل شخص فى كورته ، وكل شئ يعرفه عن الهاربين دون كذب أو محاباة ، وأن يرسل كل الأشخاص وهذه المعلومات مع المندوب الذى أرسله قرة لهذا الغرض ، ويهدده بأشد العقاب الجثمانى والمالى إن هو تولى عن النظر فى هذه المسألة وتغافل عن أحد الهاربين كما يهدد الأشخاص الذين يوجد بينهم أحد الهاربين بغرامة مالية كبيرة فوق مقدورهم^(٢) .

وظل قرة يتابع تلك الحركة بنشاط حتى يقضى عليها إلى أن مات سنة ٩٦ هـ . وفى عهد خلافة سليمان بن عبد الملك كان المتولى على خراج مصر

Bell : Translations of the Greek Aphrodito Papyri (Der (١) .
Islam, Band 11.) p. 270

Bell : op. cit. pp. 274-275 (٢)

أسامة بن زيد التنوخي فكتب إليه سليمان بن عبد الملك « احلب الدر حتى ينقطع » واحلب الدم حتى ينصرم^(١) « أى أن سياسة هذا الخليفة كانت سياسة استغلال لموارد مصر إلى أقصى حد ممكن وقد وجد من أسامة خير منفذ لأوامره . وقيل إن سليمان بن عبد الملك قال يوما وقد أحجبه فعل أسامة ابن زيد : « هذا أسامة لا يرتشى ديناراً ولا درهما » . فقال له ابن عمه عمر ابن عبد العزيز بن مروان : « أنا أدلك على من هو شر من أسامة ولا يرتشى ديناراً ولا درهما » . قال سليمان : « ومن هو » ؟ قال عمر : « عدو الله إبليس » فغضب سليمان وقام من مجلسه^(٢) .

نفذ أسامة بن زيد تعليمات الخليفة بكل دقة واشتد في طلب الخراج والجزية وأمر عماله ألا يتوانوا في جمع الضرائب فأسلم الكثيرون في عهده كي يتخلصوا من الأعباء المالية ولكن حركة الحرب استمرت من جانب الذين أثقلت كاهلهم الأعباء المالية ولم يرغبوا في اعتناق الدين الإسلامى .

وقد أمر أسامة ألا يأوى أحد غريباً في الكنائس أو الفنادق أو السواحل . ولشدة الخوف منه طرد الناس من كان هندهم من الغرباء أو المماريين^(٣) . ولكي لا يتمكن أحد من الحرب من منطقة إلى أخرى عملت سجلات للأهالى أشبه بجوازات السفر اليوم passport فالزم كل شخص يريد الانتقال من جهة إلى جهة في أنحاء القطر المصرى أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها أن يحمل معه سجله وقد أمر الوالى بالقبض على أى شخص يرى ماشياً في موضع ما أو عابراً من موضع إلى موضع وليس

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣١

(٢) المرجع نفسه ص ٢٣٢

(٣) ساويرس : سير الآباء البطركية ص ٦٨ (T.V.)

معه سجله . وإذا وجد شخص راكباً مركباً أو نازلاً منها وليس معه سجله تنهب المركب وتحرق بالنار . أما من فقد سجله أو أتلّفه فقد ألزمه الوالى بالحصول على سجل آخر مقابل دفع غرامة قدرها خمسة دنانير^(١) .

وقد عمل أسامة بن زيد لإحصاء ثانياً للرهبان بعد الإحصاء الأول الذى تم فى عهد عبد العزيز بن مروان وأمر الرهبان ألا يقبلوا فى الرهبة من يأتى إليهم وأمر بوسم كل راهب بحلقة حديد فى يده اليسرى ليكون معروفاً ، ووسم كل واحد منهم بإسم بيعته وديره والتاريخ المجرى وفرض على كل واحد منهم ديناراً جزية . أما من وجد هارباً أو غير موسوم فقد كان يلتقى عقاباً قاسياً^(٢) ويقال إن أسامة بن زيد من جبي مصر فى خلافة سليمان ابن عبد الملك اثنى عشر مليون دينار^(٣) وقد يكون فى هذا القول مبالغة ولكنه يدل على أن أسامة اشتد فى جباية خراج مصر إلى حد كبير .

ولما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) أظهر رغبته الشديدة فى نشر الإسلام . ويظهر أن نفراً كثيراً كان قد اعتنق الدين الإسلامى حينذاك بدليل أن حيان بن سريج متولى خراج مصر كتب إلى عمر بن عبد العزيز يقول : « أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث ابن ثابتة عشرين ألف دينار وتممت عطاء أهل الديوان فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فمل » وكان هذا الوالى يرى أن تبقى الجزية على من يسلم . وقال عمرو فى رده : « ... فضع الجزية عن أسلم ، قبح الله رأيك فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جانياً ، ولم يرى

(١) المرجع نفسه ص ٧٠

(٢) المرجع نفسه ص ٦٨ و ٧٠ وخط المقيزى ج ٢ ص ٤٩٢ — ٤٩٣

(٣) خط المقيزى ج ١ ص ٩٩

لمر أحقر من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه ^(١) « وبهذه المناسبة نذكر أن أول من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل القدمة الحجاج بن يوسف ، ثم كتب عبد الملك بن مروان إلى عبد العزيز بن مروان وإلى مصر من قبله أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الدمة فكلهم ابن حجيرة في ذلك وقال « أعيدك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر . فوالله أن أهل القدمة ليتحملون جزية من ترهب منهم فكيف تضمنها على من أسلم منهم ؟ » فتركهم عند ذلك ^(٢) .

وكتب عمر بن عبد العزيز أيضا إلى حيان بن سريج أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم ^(٣) كما ذكرنا من قبل وربما كان هذا الأمر هو الذى بعث ساويرس على أن يقول إن عمر بن عبد العزيز أمر بأن تؤخذ الجزية من سائر الناس الذين لا يسلمون حتى في الحالات التى لم تجر عاداتهم بالقيام بها .

ويظهر أن سياسة إعفاء الذين يمتنعون الإسلام من الجزية لم تستمر بصفة دائمة بعد عهد عمر بن عبد العزيز ، بدليل أنه بعد ذلك العهد نرى أن قرار أى خليفة برفع الجزية ممن أسلم كان يشجع الكثيرين على اعتناق الدين الإسلامى . وفضلا عن هذا فإننا لانعرف تماما متى بدأ أخذ الجزية ممن أسلم . والظاهر أن هذا بدأ قبل عهد عمر بن عبد العزيز ^(٤)

ويعلق السير توماس ارنولد ^(٥) Thomas Arnold على قرار عمر بن

(١) ابن عبد الحكم ص ١٥٦ طبعة تورى — خطط المقرئى ج ١ ص ٧٨

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٥٦ ، خطط المقرئى ج ١ ص ٧٧ — ٧٨

(٣) ابن عبد الحكم ص ١٥٤ ، خطط المقرئى ج ١ ص ٧٧

(٤) سير الآباء البطارقة ص ٧٢ (T.V.)

(٥) ابن عبد الحكم ص ١٥٦ و المقرئى ص ٧٧

(٦) The Preaching of Islam p. 103

عبد العزيز هذا بقوله . « ولكن الولاة المتأخرين اعتبروا أن مثل هذه السياسة تضر بمالية الدولة واستمروا في فرض الجزية على الذين أسلموا . وبالجملة لم يكن هناك استمرار في مثل هذه السياسة بل كان الولاة يتبعون في ذلك سياسات مختلفة على حسب أهوائهم دون السير على وتيرة واحدة ، وعلى كل حال فإن سياسة عمر بن عبد العزيز التي تنطوي على تشجيع من يعتنق الدين الإسلامي جذبت إلى الإسلام كثيرين من الأقباط .

ثم حدث أن الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ) أخذ المسيحيين بالشدة من الوجهة المالية فأعاد الخراج الذي كان عمر بن عبد العزيز قد رفعه عن الكنائس والأساقفة . ويدلنا على مبلغ كراهية المسيحيين له تلك الكلمات التي يصفه بها مؤرخ البطارقة إذ يقول « إنه سلك في طريق الشيطان وحاد عن طرق الله ^(١) »

ولما بويع هشام بن عبد الله الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) بالخلافة تفاءل المسيحيون خيرا . ويصفه مؤرخ البطارقة بأنه رجل يخاف الله مخلص للأرثوذكسيين ومحب لسائر الناس ^(٢) : وقد أمر هشام بأن يعطى كل من يدفع خراجا ايصالا باسمه كيلا يظلم أحد في مملكته ^(٣) .

على أن سياسة هشام بن عبد الملك المالية كانت كسياسة غيره من الخلفاء . وليس أدل على ذلك من أن عامله على خراج مصر وهو عبيد الله بن الحبجباب ظل في هذا المنصب منذ أن ولي هشام الخلافة إلى سنة ١١٦ هـ ^(٤)

(١) ساويرس : سير الأباء البطارقة . ص ٧٢ (T. V)

(٢) ساويرس ص ٧٣

(٣) ساويرس ص ٧٤

(٤) خطط المقرئى ج ١ ص ٢٠٨

أو إلى سنة ١١٤ هـ^(١) في قول آخر ، بينما تعاقب على حكم البلاد في زمنه خمسة ولاة ، وكان يتمتع أثناء ذلك بفؤوذ كبير لا يحده ؛ يولى من شاء من الموظفين ويعزل من يشاء . بل إنه نجح في عزل اثنين من الولاة ، وهما الحسرت بن يوسف ، وحفص بن الوليد . وجعل إليه الخليفة أمر اختيار من أحب من الولاة ، فاختار عبد الملك بن رفاعه^(٢) . وكان له الأمر أيضاً في تولية القضاة ، فقد قام بأمر توبة بن نمر الحضرمي حتى ولى القضاء في سنة ٢١٦ هـ^(٣) . وطبىي أن من الأسباب التي حصل بها ابن الحبحاب على هذه السلطة الواسعة أنه كان يمثل سياسة الخليفة المالية أحسن تمثيل . أما قوام هذه السياسة فتبينه من بعض أخبار هذا العامل على الخراج : فإننا نعرف مثلاً أنه لما ولى خراج مصر أمر بأن تحصى الناس والبهاشم ، وأن تقاس الأراضى الزراعية والأراضى البوز وبني أميالا أى علامات للمسافات في حقول مصر على الحدود والطرق ، وضاعف الخراج وأمر بأن تحتم رقاب الناس بالرماس من سن العشرين إلى ما فوق ذلك كما وسم أيدي النصارى بسمة الأسد^(٤) ، وذلك لتسهيل معرفة هؤلاء الذين تجب عليهم الجزية والضرائب . ويذكر القرىزى^(٥) أن الخليفة هشام ابن عبيد الملك أوصى عبيد الله بن الحبحاب بالعمارة ، فيقال إنه لم يظهر في خراج مصر بعد تناقصه كثرة إلا في وقتين ، أحدهما في خلافة هشام ابن عبد الملك عند ما ولى الخراج عبيد الله بن الحبحاب ، والوقت الثانى

(١) أبو الحسن ج ١ ص ٢٧٣

(٢) السكندى ص ٧٤ — ٧٥

(٣) السكندى ص ٣٤١ — ٣٤٢

(٤) ساويرس : سير الآباء البطارقة ص ٧٥

(٥) الخطط ج ١ ص ٩٨ — ٩٩

في إمارة أحمد بن طولون لما تسلم أرض مصر من أحمد بن محمد بن مدبر ،
فبعد أن كان خراج مصر دون الثلاثة ملايين دينار خرج ابن الحبحاب
بنفسه ومسح العامر من أرض مصر والعامر ^(١) فراكها كلها وأصلحها ،
واستطاع أن يجبي من مصر أربعة ملايين دينار .

ويذكر الكندي ^(٢) والمقريزي ^(٣) أنه في أمرة الحر بن يوسف
(١٠٥ — ١٠٨ هـ) كتب عبيد الله بن الحبحاب إلى هشام بن عبد الملك
بأن أرض مصر تحتل الزيادة ، فزاد على كل دينار قيراطاً ^(٤) ،

وإزاء هذه الأعباء المالية الثقيلة بدأ الأقباط للمرة الأولى يتكون
سبيل المقاومة السلبية ويقاومون حكومة العرب مقاومة إيجابية . فثار
الأقباط في سنة ١٠٧ هـ في الوجه البحري فبعث إليهم الحر جيشاً لمحاربتهم
فقتل منهم نفر كثير ^(٥)

وعند ما ولي مصر الوليد بن رفاعه من قبل هشام بن عبد الملك
(١٠٩ — ١١٧ هـ) خرج ليحصى أهلها ، وينظر في تعديل خراجهم ،
واصطحب معه جماعة من الكتاب والأعوان ليساعدوه في مهمته هذه ،
فأقام بالصعيد ستة أشهر حتى بلغ أسوان ، وأقام بالوجه البحري ثلاثة
أشهر ، فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية ، ولم يحصى في

(١) العامر الأرض الخراب أو البور

(٢) الولاة والقضاة ص ٧٣

(٣) الخطط ج ١ ص ٧٩

(٤) القيراط نوع من العملة المستعملة حينذاك فكان الدينار ينقسم إلى ٢٤

قيراطاً (ابن عبد الحكم — طبعة تورى ص ١٥٣)

(٥) الكندي ص ٧٣ — ٧٤ وساويرس ص ٧٦ (T.V.) وخطط المقريزي .

أصغر قرية منها أقل من خمسمائة رجل ممن تفرض عليهم الجزية ^(١) .
وقد تتابعت ثورات القبط ، فثار أقباط الصعيد وحاربوا عمال
الحكومة في سنة ١٢١ هـ ، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان وإلى مصر
(١١٩ — ١٢٤ هـ) جيشاً لمحاربتهم ، فانتصر عليهم وقتل منهم عدداً
كبيراً ^(٢) وفي ولاية حفص بن الوليد الثالثة على مصر (١٢٧ — ١٢٧ هـ)
أعلن إعفاء كل من يسلم من الجزية ، فاعتنق نحو أربعة وعشرين ألفاً من
الأقباط الدين الإسلامي ^(٣)

ومع ذلك فقد تتابعت ثورات القبط فخرج ثائر منهم بسمنود ، يدعى
يحنس ، فبعث إليه عبد الملك بن مروان ابن موسى بن نصير ، وإلى مصر
إذ ذاك جيشاً لمحاربتهم ، وكان ذلك في سنة ١٣٢ هـ ، فقتل يحنس مع
كثير من أصحابه ^(٤) .

ثم ثار القبط برشيد في سنة ١٣٢ هـ ، فأرسل إليهم مروان بن محمد
جيشاً لمحاربتهم ، وذلك حينما دخل مصر فاراً من بني المباس فهزمهم هذا
الجيش ^(٥) ، كذلك ثار ضده أهل البشروود ولكنه لم يستطع القضاء على

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى ص ١٥٦ وخطط المقرئ ج ١ ص ٧٤
والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣ — ٦٤ في مجموعة الارشيدوق رينر
بالمكتبة الأهلية في فينا وثيقة بردية تشير إلى إحصاء سكان مصر في ولاية الوليد بن
رفاعة . وتفصل هذه الوثيقة البيانات التي كان على الموظفين جمعها عن كل شخص . راجع
Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung (Wien 1894),
No 599 p 152.

(٢) خطط المقرئ ج ١ ص ٧٩
(٣) ساويرس : سير الآباء البطارقة ص ١١٦ — ١١٧
(٤) الكندي ص ٩٤ وخطط المقرئ ج ١ ص ٧٩
(٥) الكندي ص ٩٦ وخطط المقرئ ج ١ ص ٧٩

ثورتهن ، إذ سرعان ما هاجمه العباسيون وقضوا عليه ^(١) .

ولما قامت الدولة العباسية في مصر تفاءل الأقباط خيراً وخذت ثورة البشموريين من أجل ذلك ^(٢) ، إلا أن المشكلة المالية لم تنته وعادت إلى ما كانت عليه زمن الأمويين ، بل فاقت العهد السابق فلم تمض ثلاث سنوات على قيام الدولة العباسية بمصر حتى ضوعف الخراج على الأقباط ولم يتم ما وعدوا به من التخفيف عنهم ^(٣) .

ولكن حدث من ناحية أخرى أن قرّر الخليفة السفاح أن ينفى من الجزية كل من يمتنع الدين الإسلامي ويقيم شعائره ، فتخلى كثير من المسيحيين ، أغنياء كانوا أو فقراء ، عن دينهم واعتنقوا الدين الإسلامي بسبب فداحة الجزية والأعباء الملقاة عليهم ^(٤) . وسرعان ما عاد القبط الذين بقوا على دينهم إلى الثورة فثار الأقباط يسمنود في سنة ١٣٥ هـ في ولاية أبي عون الأولى على مصر (١٣٣ — ١٣٦ هـ) فبعث إليهم أبو عون جيشاً لمحاربتهم فهزموا وقتل أبو مينا زعيم تلك الثورة ^(٥) .

ثم ثار القبط في سخا سنة ١٥٠ هـ في ولاية يزيد بن حاتم بن قبيصة على مصر (١٤٤ — ١٥٢ هـ) وانضم إليهم أهل البشروود وبعض جهات الوجه البحري ، ولكن العرب انهزموا أمام القبط في هذه المرة ^(٦) . ثم خرج القبط في سنة ١٥٦ هـ في ولاية موسى بن عيسى بن رباح اللخمي

(١) ساويرس ص ١٥٦ — ١٥٧ و ١٦٢ و ١٨٨

(٢) ساويرس ص ١٨٨ (t. V.)

(٣) ساويرس ص ١٨٨ — ١٨٩

(٤) ساويرس ص ١٨٩ — ١٩٠

(٥) الكندي ص ١٠٢ وأبو الحسن ج ١ ص ٣٢٥ — ٣٢٦

(٦) الكندي ص ١١٦ وخطت المقرئ ج ١ ص ٧٩

(١٥٥ - ١٦١ هـ) فأرسل إليهم الوالى جيشاً هزمهم^(١) .
وكثيراً ما ثار العرب ضد الحكومة بسبب الخراج بعد أن زاد عددهم
وأصبحوا يملكون الأراضى فى البلاد ، وكثيراً ما اشتركوا مع الأقباط
فى ثوراتهم . وكانت آخر ثورة للأقباط تلك التى حدثت فى جمادى الأولى
سنة ٢١٦ هـ زمن الخليفة المأمون أثناء ولاية عيسى بن منصور على مصر
من قبل المعتصم (٢١٦ - ٢١٧ هـ) إذ ثار أهل الوجه البحرى كلهم
سواء فى ذلك العرب والقبط — فطردوا عمال الحكومة ، وقدم الأفشين
قائد المأمون من برقة لمحاربتهم ، فسار إلى الخوف وهزمهم وأرسل القواد
وعيسى بن منصور إلى مختلف جهات الوجه البحرى لمحاربة الثأرين . ثم
أقبل الأفشين فى جنوده إلى الإسكندرية فهزم كل من اعترضه فى طريقه
إلى أن دخلها فى ذى الحجة سنة ٢١٦ هـ ، ثم سار بعد فتحها إلى أهل
البشرود ، فامتنعوا عليه حتى قدم المأمون إلى مصر^(٢) .

وقد عرف أهل البشرود أو البشمر بغلظة طباعهم وحبهم للمصيان
والثورة منذ التاريخ القديم ، وقد شجعهم طبيعة المنطقة التى يعيشون فيها
على ذلك فإن هذه المنطقة الرملية على ساحل الدلتاين فرعى رشيد ودمياط^(٣)
كانت تحيط بها المستنقعات والأوحال التى تعمق حركة الجند^(٤) وقد ثاروا
زمن المأمون لكثرة الخراج الواقع على كاهلهم والقسوة التى كانت تستعمل
فى جبايته^(٥) وقبل مجيء المأمون إلى مصر كتب البطرك أنبا يوساب إليهم

(١) الكندى ص ١١٩ وخطط المقرئى ج ١ ص ٧٩

(٢) الكندى ص ١٩٠ - ١٩١

(٣) Wiet : Hist. de la Nation. Egypt. t. IV. p. 73

(٤) ساويرس : سير الآباء البطارقة ص ٤٨٧ (t. X.)

(٥) ساويرس ص ٤٨٦ - ٤٨٧

كتبوا ينصحهم بأن يرجعوا عن ثورتهم ويحذروهم من قوة السلطان فلم يرجعوا ، ولما رأى الأفشين تمادى البشموريين في ثورتهم كتب إلى الخليفة المأمون يعلمه بما حدث^(١) فرأى المأمون أن يأتي إلى مصر لإخماد تلك الثورة فجاء في جيشه وصحب معه البطرك ديونوسيوس بطرك أنطاكية^(٢) في المحرم سنة ٢١٧ هـ وقد سخط الخليفة على الوالى عيسى بن منصور وقال : « لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فمك وفمل عمالك ، حملتم الناس مالا يطيقون ويكتمون الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد^(٣) » .

وقد حاول المأمون أولا أن يخمد ثورة البشموريين باللين فأرسل إليهم البطرك أنبا يوساب والبطرك ديونوسيوس ورعدهم إلا يعاقبهم إن هم رجعوا عن ثورتهم ولكن البشموريين لم يجيبوا البطركين فسير المأمون إليهم الأفشين عندهم ولكنهم قاوموا جند الأفشين بشدة فلما علم المأمون بذلك سار إليهم بجيشه وركز جميع قواته ضدهم إلى أن سلم البشموريون فأعمل فيهم السيف وأحرقوا مساكنهم وهدموا كنائسهم^(٤) وغادر الخليفة مصر في سفر سنة ٢١٧ بعد أن مهد أمورها وزار بعض البلدان فيها ، وكانت مدة إقامته بمصر تسعة وأربعين يوما^(٥) .

وبعد ثورة البشموريين التي كانت آخر ثورة للأقباط في عهد الولاة ، أصبح المسلمون أغلبية في مصر وعلى الأخص في الوجه البحرى إذ يظهر

(١) ساويرس ص ٤٨٨ — ٤٩٠

(٢) ساويرس ص ٤٩٢

(٣) الكندى ص ١٩٢ — خطط المقرئى ج ١ ص ٨١

(٤) ساويرس ص ٤٩٣ — ٤٩٥ (t. X)

(٥) الكندى ص ١٩٢ — خطط المقرئى ج ١ ص ٨١ — أبو المحاسن

أن عدداً كبيراً من الأقباط أسلم في ذلك الوقت^(١).

وقيل في مناسبة زيارة المأمون لمصر إنه لما صار في قري مصر، كان يقيم في القرية يوماً وليلة فمر بقرية يقال لها طاء النمل ولم يدخلها لصغرها فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز اسمها مارية القبطية وهي تسيح . فظنها المأمون مستغيثة متظلمة فوقف لها فطلبت منه السيدة أن يشرفها بالزيارة في ضيعتها فأجابها المأمون إلى طلبها وكان معه أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ، ويحيى بن أكرم والقاضي أحمد بن أبي دواد عدا قواده وعساكره فأكرمهم كرماً كثيراً « ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئاً كثيراً فلما أصبح وقد غزم على الرحيل جاءته ومعهما عشر وصيفات مع كل وصيفة طبق ، وفي كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته . فقالت : لا والله لا أفعل . فتأمل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كله فقال هذا والله أعجب ، ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك فقالت يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحقرنا . فقال . إن في بعض ما صنعت الكفاية ولا نحب التثقل عليك ، فردى مالك بآرك الله فيك . فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين . هذا ، وأشارت إلى الذهب ، من هذا ، وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين وعندى من هذا شيء كثير . فأمر به فأخذ منها وأقطعها عدة ضياع وأعطاهما من قريبها طاء النمل مائتي فدان بغير خراج وانصرف متمجبا من كبر مروءتها وسعة حالها »^(٢).

وهكذا نرى أن المصريين أو الأقباط قبلوا تبعيتهم للعرب وقبلوا

(١) خطط الميرزى ج ١ ص ٧٩ — ٨٠

(٢) خطط الميرزى ج ١ ص ٨١

النظام المالى الذى فرضه الخلفاء حتى سنة ١٠٧ هـ ثم بدأوا يقاومون حكومة العرب مقاومة علنية دموية ظلت أكثر من قرن لاسيا في منطقة الدلتا. على أن ثورات القبط كان يقضى عليها سريعا . وكان يتبع إخمادها في العادة تحول جزء كبير من الأقباط إلى الدين الإسلامى. ولم تكن هذه الثورات حركات قومية بالمعنى الصحيح وإنما كانت حركات غير منظمة لم يعرف فيها القبط كيف يوحّدون أنفسهم وكيف يتخذون لهم قيادة حكيمة . وكان هدفها خفض الضرائب أو الهرب من دفعها. فبينما نجد أن الاضطهاد الدقلديانوسى ضد المسيحية في مصر قد زاد من قوتها وولد حركة قومية بين المسيحيين نجد أن القبط يفتلون على أمرهم في ثوراتهم ضد العرب . ومنذ سنة ٢١٧ هـ تبدأ الفترة الثالثة من ذلك العهد وأصبح الأقباط أقلية في القطر المصرى .

القبائل العربية في مصر

امتاز العرب على غيرهم ممن فتحوا مصر في مختلف العصور بأنهم اندمجوا في الشعب المصرى وامتزجوا به امتزاجا قويا وكان لهذا الامتزاج أكبر الأثر في تغلب الثقافة الإسلامية والدين الإسلامى في وادى النيل . وقد شجع الخلفاء وفود القبائل العربية إلى مصر فزاد المسلمون في مصر لتزايد العرب فيها باستمرار بما كان يرد من القبائل بعد الفتح وبتحول القبط إلى الدين الإسلامى .

ويمكننا أن نقدر جيش الاحتلال الذى استقر في مصر بعد الفتح بنحو ستة عشر ألفا من الرجال ، ولا نعرف تماما عدد سكان مصر حينذاك . وقد كتب ابن عبد الحكم^(١) أنه كان هناك أكثر من ستة مليون رجل ممن

(١) ابن عبد الحكم ، طبعة المعهد العلمى الفرنسى ص ٥٦ .

تجب عليهم الجزية — أى باستثناء الشيوخ والنساء والأطفال — وإذا فرضنا أن هؤلاء الذين وجبت عليهم الجزية يكونون ثلث السكان ، رأينا أنه كان بمصر إذ ذاك نحو ١٨ مليون نسمة . ولكننا نرى أن هذا الرقم مبالغ فيه . فإن سكان مصر في العهد البيزنطى أى قبل الفتح كانوا ٧ مليون نسمة باستثناء الإسكندرية التى كان يبلغ عدد سكانها ٣٠٠.٠٠٠ م (١) .

وكان الفاتحون كما رأينا أقلية ضئيلة بالنسبة لأهل البلاد وفضلا عن ذلك فإنهم لم يختلطوا بهم وإنما اختلطوا لهم مدينة عربية إسلامية في وسط المحيط المصرى القبطى . وقد كان تخطيط المدن من أهم الظواهر التى سارت جنبا إلى جنب مع الفتوحات العربية وذلك رغبة في إنشاء مراكز إدارية وحربية ودينية في البلاد الجديدة التى فتحتها العرب .

وقيل إن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها ، هم أن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها . وكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك . فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل ، فكتب عمر إلى عمرو : إلى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم في شتاء ولا صيف . فتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى القسطنطينية .

وقيل كذلك إن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو نازل بمدائن كسرى وإلى عامله بالبصرة وإلى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية : أن لا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت . فتحول سعد من مدائن كسرى إلى

Munier : L'Egypte Byzantine. p. 84 (١)

الكوفة — وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه . فنزل البصرة وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى القسطنطينية^(١) .

أى أن المؤرخين العرب يرجعون عدم اختيار الاسكندرية عاصمة للعرب إلى خوف عمر بن الخطاب من ركوب البحر ؛ ولكن الواقع أن الاسكندرية متطرفة وبعيدة عن أن تكون قاعدة متوسطة صالحة للحكم .

ولا ننسى أن الاسكندرية عند فتح العرب لها كانت مدينة يونانية بمعنى الكلمة ، يونانية فى سكانها وعاداتها وميولها فلم يكن من المتطرق أن يتخذها العرب عاصمة لهم .

أما عن كيفية اختيار موقع القسطنطينية فيذكر المؤرخون العرب أن عمرو بن العاص لما أراد التوجه لفتح الاسكندرية بعد استيلائه على حصن بابليون أمر بنزع قسطنطينية فإذا فيه يمام قد فرخ فقال عمرو : لقد تحرم بنا ، وتركه ولما عاد المسلمون من الاسكندرية وقالوا أين نزل ؟ قال : القسطنطينية ، لقسطنطينية الذى كان قد خلفه^(٢) .

وقال الجوهري : القسطنطينية بيت من شعر . قال ومنه قسطنطينية مدينة مصر وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة قسطنطينية ولذلك قيل لمصر قسطنطينية^(٣) . وقال الزمخشري . القسطنطينية اسم لضرب من الأبنية ، والذي

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ٩١ وخطط المقرئ ج ١ ص ٢٩٦ — السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٧

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ٩١ وابن دقاق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٢ — القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٣٠ — خطط المقرئ ج ١ ص ٢٩٦ — السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٧

(٣) ابن دقاق ج ٤ ص ٢ والقلقشندي ج ٣ ص ٣٣٠ وخطط المقرئ ج ١ ص ٢٩٦

عليه الجمهور أنه يسمى بذلك لمكان فسطاط عمرو بن العاص رضى الله عنه
يعنى خيمته^(١) .

على أن الرواية التي يذكرها المؤرخون عن تسمية الفسطاط واختيار
موقعها أقرب إلى الخيال منها للحقيقة . فالمؤرخون ينسجون كثيراً من
الخيال حول حوادث فتح العرب لمصر كأن المصادفة والحظ قادا العرب دائماً
إلى ما هو حسن .

ولكن المواقع الهامة في أنحاء العالم عرفها الانسان منذ القدم وإن
تغيرت أسماء تلك المواقع بتغير الأزمان ، وقد عرف المصريون القدماء ومن
أتى بعدهم على مر الزمن مزايا موقع منف والمنطقة المحيطة به ، وإن اتخذ
هذا الموقع أسماء مختلفة باختلاف الأزمنة مثل الفسطاط والقاهرة . ويمتاز
هذا الموقع بتوسطه بين مصر السفلى ومصر العليا وله عدة مزايا تجارية
وسياسية وحربية . ويذكر سترابو أن حصن بابليون الذي يقع قريباً من
موقع منف كانت فيه إحدى الحاميات الثلاث في مصر^(٢) وقد عرف
العرب كما عرف غيرهم أهمية ذلك الموقع فاختلفوا مدينة الفسطاط في الفضاء
الواقع شمالى بابليون . ويذكر المقرئى^(٣) أن موضع الفسطاط كان فضاء
ومزارع فيما بين النيل وجبل المقطم الذي يقع في شرق مصر ، ولم يكن
فيه من البناء والمهارة سوى حصن بابليون أو قصر الشمع ، فلما فتح عمرو
ابن العاص مدينة الإسكندرية فتحها الأول نزل بجوار هذا الحصن واختط

(١) الفقهى ج ٣ ص ٣٣٠

(٢) Quatremère: Mémoires Géog. et Hist. sur l'Egypte. t.1. p.46

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٨٦

جامعه واختطت قبائل العرب من حوله فصارت مدينة عرفت بالفسطاط ونزل الناس بها .

أما اسم فسطاط فالراجح أن أصله غير عربى وأنه مشتق من اللفظ اليونانى *ποδδατον* « فُسَّاطُنْ » ذلك اللفظ الذى اشتق من اللفظ اللاتينى *fossatum*^(١) الذى كان يطلقه الرومانيون على معسكراتهم الحربية . وتؤيد أوراق البردى ذلك القول؛ ففي إحدى الأوراق البردية المكتوبة باللغتين العربية واليونانية بتاريخ سنة ٩٠ هـ وفي أخرى مشابهة بتاريخ سنة ٩١ هـ نجد اسم باب اليون *ποδδατον* والفسطاط ، فاسم فسطاط كان موجودا قبل تأسيس الفسطاط . وقد احتفظ العرب بتلك التسمية بعدما احتلوا المعسكر الحربى^(٢) وقد اتخذت كل قبيلة من القبائل العربية التى فتحت مصر خطة فى الفسطاط أى أن كل قبيلة نزلت فى جهة معينة أو قسم من تلك المدينة التى اختطوها . ويذكر المقرئى^(٣) أن الخطط التى كانت بمدينة فسطاط مصر هى بمنزلة حارات القاهرة فى زمنه أى فى القرن التاسع الهجرى . وقد عرفت كل خطة باسم الجماعة التى نزلت فيها فقل مثلًا خطة تجيب وخطة مهرة الخ .

ولما اختط العرب مدينة الفسطاط فى سنة ٢١ هـ تنافست القبائل فى المواضع فانتدب عمرو بن العاص من خطط الخطط فمن تلك الخطط خطة أهل الراية وهم جماعة من قريش والأنصار وأسلم وغفار وجهينة ويسبون لراية عمرو بن العاص ويقال إن الراية قريش فقد كانت معهم راية عمرو بن

(١) كلمة *fossatus, fossatum* اللاتينية معناها معسكر أو فندق ، كلمة (f)

fossa' ae معناها خندق والفعل *fosso, ari, avi, atum* أى يحفر الخندق

(٢) Leone Caetani : *Annali dell'Islam* vol. IV. pp. 544 — 545

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٩٦

الماص والأرجح أنهم سموا أهل الراية لأث قوما من أفناء القبائل من العرب كانوا قد شهدوا الفتح مع عمرو بن الماص ولم يكن من قومهم عدد فيقفوا مع قومهم تحت رايتهم وكرهوا أن يقفوا تحت راية غيرهم فقال لهم عمرو : أنا أجعل راية لا أنسبها إلى أحد أكثر من الراية تقفون تحتها ، فرضوا بذلك .

ومن تلك الخطط خطة مَهْرَة وخطة نُجَيْب وخطة لَحْم وجُذَام وخطة بنى بحر وهم قوم من الازد وخطة ثَقِيف وخطة غافق وخطة حضرموت وخطة يَحْصِب وخطة المافر وخطة سبأ وخطة بنى وائل وخطة القَبْض وخطة مَذْحِج وخطة بنى غُطَيْف وبنى وَعْلان وخطة بَيْل وخطة خَوْلان وخطة المصدف وخطة تَمْنُث وخطة سلامان وخطة الشَّلَف وخطة رُعَيْن وخطة الكَّلَاع وخطة نافع وخطة مراء وخطط الجراوات والفراسيين ذلك أنه دخل مع عمرو بن الماص قوم من غير العرب يقال لهم الجراء والفراسيون ، فأما الجراء فقوم من الروم فيهم بنو يَثْنَة وبنو الأزرق وبنو روبيل والفراسيون قوم من الفرس وزعموا أن فيهم قوما من الفرس الذين كانوا بصنماء إلى غير ذلك من الخطط التي درست^(١) .

وصفوة القول أن مدينة الفسطاط قسمت إلى خطط ، كل خطة تسكنها قبيلة . ومن الخطط من كان يسكنها من هو من أصل فارسي أو رومي وهؤلاء كانوا أقلية ضئيلة أما الأكثرية المظمية فكانوا من العرب ولا سيما عرب الجنوب أو اليمنية .

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ٩٨ — ١٢٩ — ابن دقاق ج ٢ ص ٣ — ٥ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٣٣١ — ٣٣٢ ، خطط القريري ج ١ ص ٢٩٧ — ٢٩٨

وقد نشأت مدينة الفسطاط صغيرة بسيطة في أول الأمر وما لبثت أن اتسعت وكثر العمران فيها . ويدلنا على بساطة البناء في ذلك العهد أن خارجة بن حذافة بنى غرفة فيها (أى دارا علوية أو بناء مرتفعا) فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فكتب إلى عمرو بن العاص « سلام . أما بعد فإنه بلغنى أن خارجة بن حذافة بنى غرفة ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه فإذا أتاك كتابى هذا فاهدمها إن شاء الله والسلام ^(١) » .

على أن العرب ما لبثوا أن تخطوا عهد البساطة وتوسعوا في البناء فبنى عبد الله بن سعد بن أبي سرح في خلافة عثمان بن عفان قصره الكبير الذى يعرف بقصر الجن . ولفخامة ذلك القصر إذ ذاك قال له المقداد : إن كان من مال الله فقد أسرفت وإن كان من مالك فقد أفسدت . فقال عبد الله بن سعد : لولا أن يقول قائل أفسد مرتين لهدمتها ^(٢) وبنى في الفسطاط الحمامات والأسواق وبنى عبد العزيز بن مروان القيساريات مثل قيسارية المسلى وقيسارية الحبال وقيسارية الكباش والقيسارية التى يباع فيها البز وهى التى تعرف بقيسارية عبد العزيز ، وبنى هشام بن عبد الملك قيساريته التى تعرف بقيسارية هشام ^(٣) .

وبعد أن كان البناء في أول أمره باللبن والدار من طبقة واحدة يحدثنا الاصطخري ^(٤) الذى عاش في القرن الرابع الهجرى بأن الفسطاط في غاية العماره وأن بها قبائل وخطط للعرب تنسب إليهم محالها ومعظم بنائهم بالطوب وهو عبارة عن طبقات وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ثمانى

(١) ابن عبد الحكم طبعة تورى ص ١٠٤

(٢) ابن عبد الحكم ص ١١٠

(٣) ابن عبد الحكم ص ١٣٦

(٤) كتاب مسالك الممالك ص ٤٩

طبقات . وقد اثبتت الحفائر الحديثة في أطلال الفسطاط أن بيوتها كانت غنية بوسائل الترف وعلى رأسها المياه الجارية^(١) .

وقد عنى العرب منذ تخطيط الفسطاط ببناء مسجد جامع لهم . وكان تأسيس المساجد الجامعة يسير جنبا إلى جنب مع تخطيط المدن في البلاد المفتوحة ، فبنى عمرو بن العاص المسجد الجامع في الفسطاط سنة ٢١ هـ ولما كان هذا المسجد أول جامع بني في مصر الإسلامية فقد عرف باسم تاج الجوامع والجامع العتيق وجامع عمرو بن العاص وكان المسلمون يقيمون في المسجد الجامع شعائرهم الدينية فيقيمون فيه الصلوات الخمس ويجمعون الجمع ، كذلك كان المسجد الجامع بمثابة مدرسة دينية يتعلم فيه الناس الدين الإسلامي كما كان مركزاً للقضاء^(٢) وقد ظل جامع عمرو بن العاص المسجد الجامع الوحيد في مصر في عهد الولاة إلى أن بنى الفضل بن صالح بن على العباسي في ولايته على مصر من قبل الخليفة المهدي جامع العسكر في سنة ١٦٩ هـ في مدينة العسكر التي اختطها العباسيون في سنة ١٣٣ هـ . وبعد عهد الولاة كثر بناء الجوامع في مصر وخاصة في عهد المماليك . على أن جامع عمرو وهو أقدم جامع في مصر ظل موضع عناية حكام مصر في عصورها المختلفة . فبالرغم من أن بناءه كان بسيطا جداً في أول عهد الفتح نرى أن ولاية مصر وحكامها في العصور المختلفة يهتمون بتوسيعه وإقامة المنابر والمحاريب له وتزيينه

(١) على بهجت بك والبير جبريل : كتاب حفريات الفسطاط

(٢) انظر Johs. Pedersen : Art. Msadjud, Ecnyclopaedia of Islam

Vol. III. pp. 325-331, 346-350

وفي هذا المقال يتكلم عن المسجد باعتباره مكاناً دينياً للعبادة يصل فيه الناس ويجمعون الجمع ويتلى فيه القصص الدينية والخطب وباعتباره مركزاً للإدارة العامة فبه كان يجلس عامل الخراج كما كان يعتبر مركزاً للقضاء ومعهداً علمياً ومكتبة أيضاً /

بشتى الزخارف المعمارية إلى غير ذلك مما يبين لنا تطور الفن الإسلامى فى مصر كما يبين لنا عناية حكام مصر بأول جامع بنى فيه .

كذلك اختط العرب مدينة الجيزة . فعندما اختطت القبائل الفسطاط نزلت همدان موضع الجيزة . وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بذلك فكتب إليه عمر « كيف رضيت أن تفرق أصحابك ولم يكن ينبغى لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر لا تدرى ما يفحام فلعلك لا تقدر على غيائهم حين ينزل بهم ما تكره فاجمعهم إليك فإن أبوا عليك وأعجبهم موضعهم بالجيزة وأحبوا ما هنالك فابن عليهم من فى المسلمين حصناً » فلما عرض عليهم عمرو بن العاص رأى أمير المؤمنين فضلوا البقاء بالجيزة فبنى لهم عمرو بن العاص الحصن بالجيزة فى سنة ٢١ هـ وفرغ من بنائه سنة ٢٢ هـ واختطوا فى الجيزة خططا عرفت بهم مثل خطط الفسطاط^(١)

ونزل قوم من العرب فى الإسكندرية ، على أن الإسكندرية لم يكن فيها خطط وإنما كانت « أحاذ » ، أى من أخذ منزلاً نزل فيه ، ويقال إن الريز بن العوام اختط بالإسكندرية^(٢) .

وهكذا نرى أن العرب الذين استقروا فى مصر ومعظمهم من النوبة كانوا يقيمون فى الفسطاط أو الجيزة أو الإسكندرية . وقد حرم عليهم عمر ابن الخطاب الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض فلم يكونوا يعنون بغير السياسة والحكم والحرب ولذا لم يختلط العرب بالمصريين فى البداية ولم يكن لهم تأثير يذكر على القبط سواء أكان هذا التأثير من ناحية انتشار الدين

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى من ١٢٨ — ١٢٩ وخطط المقرئ

ج ١ ص ٢٠٦ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٩

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٣٠ والسيوطى : حسن المحاضرة ص ٥٨

الإسلامي أو اللغة العربية . وكان اختلاط القبائل العربية بأهل مصر عن طريق الزواج أو الولاء نادراً في أول الأمر وكان العرب أقلية ضئيلة في مصر في ذلك العهد .

على أن أغلب الولاة الذين حكموا مصر في فجر الإسلام كانوا يصحبون معهم جيوشاً عربية حتى نهاية العهد الأموي أو عربية ومن شعوب أخرى غير العرب كالحرسانيين والآتراك في العصر العباسي . فكانت القبائل العربية تغد باستمرار إلى مصر إما مع الولاة أو يبعث بها الخلفاء لتعزيز الجند واستيطان البلاد ، ولذا نرى أن عدد الجند في مصر أيام معاوية بن أبي سفيان بلغ أربعين ألفاً^(١) .

وكانت الأغلبية في مصر من عرب اليمنية أو عرب الجنوب ، وكانت قيس^(٢) أو عرب الشمال عامة أقلية بمصر . فعند ما ولي مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز بن مروان على مصر في سنة ٦٥ هـ قال عبد العزيز : يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أبي^(٣) ؟ فلما جاء عهد هشام ابن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) حدث تطور في تاريخ القبائل العربية بمصر ، ذلك أنه في ولاية الوليد بن رفاعة الفهمي (١٠٩ — ١١٧ هـ) نقلت إلى مصر بطون كثيرة من قيس . ولم يكن للقيسية قبل ذلك عدد كبير في وادي النيل^(٤) . وقد حدث هذا النقل حين وفد عبيد الله بن الحبحاب

(١) ابن الحكم . طبعة تودي م ١٠٢ والمقريري ج ١ ص ٩٤

(٢) غلب اسم قيس على سائر العدنانية أو عرب الشمال حتى جعل في المثل مقابل عرب اليمن فاطبة فيقال قيس ويمن (القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٣٩)

(٣) السكندی م ٤٧

(٤) ويخالف ما كايكل Macmichael المؤرخين العرب في ذلك فيرى أنه بين سنتي ٧٠٩ — ٧٢٧ (٩١ — ١٠٩ هـ) حكم مصر ثلاثة من الحكام القيسيين =

على الخليفة هشام بن عبد الملك في سنة ١٠٩ هـ وسأله أن ينقل إلى مصر بيوتاً من قيس إذ لم يكن في مصر حتى ذلك الوقت إلا نفر قليل منهم ، فأذن له هشام في ترحيل ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم إلى مصر على ألا ينزلهم القسوط . فقدم بهم ابن الحبحاب وأنزلهم الحوف الشرقى وفرقهم فيه^(١)

وقد جاء في الكندي أن عبيد الله بن الحبحاب لما ولاء هشام على مصر قال : « ما أرى لقيس فيها حظاً إلا لناس من جديلة ، وهم فهم وعدوان . فكتب إلى هشام : إن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحى من قيس ونعمشهم ورفع من ذكركم ، وإني قدمت مصر فلم أر لهم فيها حظاً إلا أبياتاً من فهم ، وفيها كور ليس فيها أحد وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجاً ، وهى بلبيس ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل . فكتب إليه هشام . أنت وذلك . فبعث إلى البادية ، فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نصر ، ومائة أهل بيت من بنى عامر ، ومائة أهل بيت من أبناء هوازن ، ومائة أهل بيت من بنى سليم . فأنزلهم بلبيس وأمرهم بالزرع ، ونظر إلى الصدقة

== قبل الوليد بن رفاعة الفهمى : اثنتان من فهم وواحد من عبس ولا بد أن يكون صاحب هؤلاء أعداد كثيرة من قبائلهم كذلك كان في القسوط زمن الفتح خطة لكنانة فهم ونحن نعلم بأنه كانت هناك خطة في القسوط لكنانة فهم وأنه بين سنتي ٩١ — ١٠٩ هـ ولى مصر قررة بن شريك العبسى (٩٠ — ٩٦ هـ) ثم عبد الملك بن رفاعه ابن خالد بن ثابت الفهمى (٩٦ — ٩٩ هـ) وولى عبد الملك بن رفاعه مرة ثانية سنة ١٠٩ هـ حوالى خمسة عشر يوماً . ولكن ذلك ليس معناه أن قبائل قيس بمصر كانت عديدة . وقد رأينا من تخطيط القسوط أن معظم القبائل تكاد تكون كلها يمنية . ولم نسمع أى ذكر عن قبائل قيس بمصر قبل زمن هشام بن عبد الملك ولذا نرى أن تأخذ بكلام المؤرخين العرب في هذه المسألة وربما حمل الخليفة هشام على ألا ينزل قيساً بالقسوط وجود اليمنية بها نفى الخليفة من وقوع المنازعات بينهم .

(١) الكندي ص ٧٦ والمقرئى : البيان والإعراب ص ٥٠ .

من المشور فصرفها إليهم ، فاشتروا إبلًا . فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم ، وكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل . ثم أمرهم باشتراء الخيول ، فجعل الرجل يشتري المهر ، فلا يمكث إلا شهراً حتى يركب ، وليس عليهم مؤونة في إعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم . فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية ، فكانوا على مثل ذلك ، فأقاموا سنة فأتاهم نحو من خمسمائة من أهل بيت ، فأت هشام ببلييس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس^(١) .

أى أن العرب في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك أخذوا يتخلون عن السياسة التي اتبعوها منذ الفتح وهي سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالي وعن الاشتغال بالزراعة . وقد وافق قدوم هذه البطون القيسية إلى مصر في سنة ١٠٩ هـ قيام ثورات الأقباط التي بدأت في سنة ١٠٧ هـ . وقد يكون الخليفة أراد بنقل هذه البطون إلى مصر والسماح لها بالاشتغال بالزراعة أن يتقوى المسلمون بالعرب ضد الأقباط الذين بدأوا ثوراتهم ، أو أن يحل العرب محل من يموت من الأقباط في هذه الثورات ، أو من يهجر أرضه ، وذلك حتى لا يصيب الزراعة ضرر . وقد ساعد وجود العرب في القرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالأهالي ، وكان لهذا الاختلاط أثره في انتشار الإسلام بمصر نتيجة للتزاوج أو للموالة بينهم وبين أهالي البلاد . ولذا يقول المقرئ^(٢) « ولم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عند ما أنزل عبيد الله ابن الحبحاب مولى سلول قيسا بالحواف الشرقى . فلما كان بالمائة الثانية من سنى الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها » .

(١) الكندى : ص ٧٦ — ٧٧ ، والمقرئ : البيان والإعراب ص ٥٠ — ٥١

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٦١

وبذا كرلين بول^(١) أن الذي دعا عبيد الله بن الحبش إلى إحضار قيس إلى مصر هو ما رآه من عدم انتشار الإسلام بين الأقباط . ولكننا لا نعرف مرجعاً قديماً يؤيد هذا القول .

أخذت القبائل العربية بعد ذلك تفد إلى مصر وتستقر في القرى المصرية . ويذكر المؤرخون أنه في زمن مروان بن محمد عند ما ولى الحوثة ابن سهيل الباهلي مصر (١٢٨ - ١٣١ هـ) مالت إليه بطون قيس ، فأتى مروان وبها ثلاثة آلاف أسرة منهم ، ثم توأدوا وقدم عليهم من البادية كثير من ذوى قرباهم^(٢)

ويظهر أن القبائل العربية أخذت تفد إلى مصر باستمرار ، وأخذت تصاهر أهل البلاد ، ومن قدم إلى مصر في ذلك العهد أولاد الكنز ، وأصلهم من ربيعة بن معد بن عدنان ، أى من عرب الشمال . وكانوا ينزلون اليمامة ، وقد قدم كثير منهم إلى مصر في خلافة التوكل على الله العباسي (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) بعد سنة ٢٤٠ هـ ، وانتشروا في أنحائها ، ونزلت طائفة منهم بأعلى الصعيد ، وكانت البجة تشن الغارات على القرى الشرقية في كل وقت حتى أخربوها ، فقامت بطون ربيعة تصدهم ، ثم تزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب بوادي الملاقي ، فكثرت أموالهم وأصبحوا في سعة من العيش . وبلاد البجة كما يذكر المقرئى^(٣) تمتد من صحراء قوص إلى أول بلاد الحبشة ، ولم يهتم العرب عند ما فتحوا مصر بإخضاعها .

(١) A History of Egypt in the Middle Ages p. 28

(٢) الكندي ص ٧٧ والمقرئى : البيان والإعراب ص ١٠١

(٣) المقرئى : البيان والإعراب ص ٣٨

(٤) خطط المقرئى ج ١ ص ١٩٤

ويذكر المؤرخون أن عبد الله بن سعد عند ما قفل من غزو النوبة سنة ٣١ هـ تجمع له البجة على شاطئ النيل ، فسأل عنهم وهان عليه أمرهم ، فتركهم ولم يكن لهم عقد ولا صلح ، وأول من صالحهم عبيد الله بن الحبحاب^(١) ، ولكنهم كثيراً ما كانوا يغفرون على مصر فحاربهم الخليفة المأمون ، وأصبحت بلاد البجة تابعة للخلافة بمقتضى عهد عقد بين الخليفة وبين رئيسهم في سنة ٢١٦ هـ ، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى الإغارة على صعيد مصر ، فحاربهم الخليفة المتوكل العباسي ، وسار رئيسهم إلى الخليفة المتوكل بسر من رأى في سنة ٢٤١ هـ ليقدم إليه فروض الولاء والطاعة . ولما تسمع الناس بوجود معدن التبر في أرض البجة وفدوا إلى أرضهم ، فقدم عليهم أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمري بعد محاربته النوبة في سنة ٢٥٥ هـ ومعه بطون من ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب^(٢) .

على أن ازدياد القبائل العربية بمصر سبب كثيراً من الاضطرابات فيها ، فمن منازعات قبلية بين القيسة واليمينية ، ومن منازعات بين العرب وأهالي البلاد الأصليين ، فضلاً عن أن العرب بمصر كثيراً ما كانوا يشتركون في المشاكل التي قامت حول الخلافة كما بينا سابقاً ، ونقدر زيادة عددهم بمصر بقدر ما كانت تزيد مشاكلهم واضطراباتهم فيها

كذلك لما أصبح للعرب في مصر حق امتلاك الأرض وزراعتها وجب عليهم دفع الخراج ، فكان ذلك سبباً لبعض الثورات . وقد بدأ العرب في مصر يشتغلون بالزراعة في أواخر العهد الأموي ، وقامت ثوراتهم

(١) ابن عبد الحكم طبعة تورى من ١٨٩ وخطط المقرئى ج ١ ص ١٩٥

(٢) خطط المقرئى ج ١ ص ١٩٥ — ١٩٦

من أجل الخراج في العهد العباسي ، وتمددت تلك الثورات ، ففي ولاية موسى بن مصعب الخثعمي على مصر من قبل الخليفة المهدي (١٦٧ — ١٦٨ هـ) تشدد في جباية الخراج ، وزاد على كل فدان ضعف ما كان يجبي عليه وجعل خراجاً على أهل الأسواق وعلى الدواب حتى قال الشاعر :

لو يعلم المهدي ماذا الذي . يفعل له موسى وأيوب

بأرض مصر حين حلا بها لم يتهم في النصح يعقوب

وقد ثار أهل الحوف من أجل ذلك وطرّدوا عمال الوالي ، ولم تهدأ ثورة الحوف إلا في ولاية الفضل بن صالح بن علي العباسي سنة ١٦٩ هـ^(١) .

وفي خلافة هارون الرشيد ولي مصر إسحاق بن سليمان العباسي (١٧٧ — ١٧٨ هـ) فزاد الخراج على المزارعين زيادة أجحفت بهم ، واثارت أهل الحوف ، فبعث إليهم جيوشاً لم تنل منهم شيئاً ، فأرسل إلى هارون الرشيد يخبره بذلك ، فبعث الخليفة بجيش على رأسه هرثمة ابن أعين . وكانت النتيجة أن رضخ أهل الحوف وأدوا الخراج^(٢) .

وثار أهل الحوف أيضاً في ولاية الليث بن الفضل (١٨٢ — ١٨٧ هـ) ذلك لأن الليث بعث بمساح يمسخون الأراضي الزراعية ، فانتقصوا من القصبه أصابع ، فتظلم الناس إلى الليث فلم يسمع منهم ، فساروا إلى القسطنطينية لمحاربة الوالي ، فخرج إليهم الوالي سنة ١٨٦ هـ فانهزم أولاً ، ولكن ما لبثت الدائرة أن دارت على أهل الحوف ، غير أنهم مع هذا منعوا الخراج ، فخرج الليث إلى أمير المؤمنين في المحرم سنة ١٨٧ هـ ،

(١) الكندي ص ١٢٥ — ١٢٩

(٢) الكندي ص ١٣٦ وخط المقرئ ج ١ ص ٨٠ وأبو المحاسن : النجوم

الزاهرة ج ٢ ص ٨٧ — ٨٨

وطلب منه أن يرسل معه جيشاً يساعده في جباية الخراج ، ولكن محفوظ ابن سليمان ضمن للتخليفة جباية الخراج كله بلا سوط ولا عصافولاه الرشيد الخراج وصرف الليث عن صلاة مصر وخراجها^(١) .

وفي ولاية الحسين بن جميل (١٩٠ - ١٩٢ هـ) على مصر امتنع أهل الخوف عن أداء الخراج ، وقاموا بأعمال كثيرة في التخريب والنهب وقطع الطريق ، وأغاروا على قرى من فلسطين ، فبعث الخليفة الرشيد يحيى بن معاذ على رأس جيش أفلح في إخضاعهم سنة ١٩١ هـ .

وقد نتابعت ثورات القبائل العربية في مصر من أجل الخراج ، فقامت ثورة في ولاية عيسى بن يزيد الجلودى على مصر (٢١٢ - ٢١٤ هـ) ، وهزم الثوار جيوش هذا الوالى سنة ٢١٤ هـ .

ومزل بعدها عيسى بن يزيد عن إمرة مصر وولى عمير بن الوليد من قبل المعتصم في صفر سنة ٢١٤ ، فأرسل جيشاً لهاربة أهل الخوف ليردهم إلى الطاعة ، وفي تلك الأثناء أراد الخليفة المأمون أن ينهى ثورتهم عن طريق السلم لا عن طريق الحرب ، فأرسل أبا خالد المهلبى إلى اليمنية ومحمد ابن دواله العيسى إلى العبسية أو القيسية لمفاوضة الثائرين في أمر الصلح ، ولكنهما لم يفلحا في مهمتهما السلمية ، وأقبل أهل الخوف على القتال ، وقد قتل الوالى عمير أثناء محاربته لهم في ربيع الآخر سنة ٢١٤ هـ بيد أن ولى مصر ستين يوماً^(٢) ، فأرجع المعتصم عيسى بن يزيد الجلودى إلى منصب الوالى (٢١٤ - ٢١٥ هـ) وسير عيسى جيوشه لمحاربة أهل الخوف ، وحدثت بينه وبينهم وقائع انتهى أمرها بأن فر الوالى منهزماً إلى القسطنطينة

(١) الكندى ص ١٤٠ وخطط المقرئى ج ١ ص ٨٠

(٢) الكندى ص ١٨٥ - ١٨٦

في رجب سنة ٢١٤ هـ . فقدم المعتصم صاحب إقطاع مصر على رأس جيش من أرسنة آلاف من جنده الترك لإخماد تلك الثورة ، وانتصر على أهل الخوف انتصاراً باهراً ، وقتل زعماءهم ، ثم خرج من مصر في المحرم سنة ٢١٥ هـ .

وكانت آخر ثورات العرب بمصر من أجل الخراج تلك التي قامت في سنة ٢١٦ هـ في ولاية عيسى بن منصور والتي اشترك فيها العرب مع الأقباط وانتهت بقدوم المأمون إلى مصر لإخضاعها^(١)

وكان العرب إلى عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) يتميزون عن الأقباط الذين أسلموا ، فكانوا يأخذون المطاء ، بينما يحرم منه أهل البلاد الذين يعتنقون الإسلام .

وكثيراً ما كان أهل البلاد يشعرون بأنهم دون العرب مهما أسلموا ، فتذكر الروايات أن نفرأ من العرب كانوا يتحرشون بأهل الحرس^(٢) ، ويؤذونهم ، فذهب أهل الحرس إلى زكرياء بن يحيى كاتب العمري قاضي مصر إذ ذاك من قبل الخليفة هارون الرشيد (١٨٥ — ١٩٤ هـ) وكان هذا الكاتب منهم ، فقالوا له : حتى متى تؤذى ويظمن في أنسابنا ؟ فأشار عليهم زكرياء بجمع مال يدفعونه إلى العمري — وكان ذلك القاضي ممن عرفوا بقبول الرشوة — ليسجل لهم سجلاً بإثبات أنسابهم ، فجمعوا له ستة آلاف دينار ، وشهد جماعة لهم بأنهم عرب^(٣) .

فيقال إنه لما ولي قضاء مصر هاشم بن أبي بكر البكري من قبل

(١) الكندي ص ١٩٠ — ١٩٢

(٢) حرس بالتحريك قرية في شرق مصر (ياقوت . معجم البلدان ج ٢ ص ٢٣٩) والظاهر أن أهلها كان يشك في عربيتهم وكانوا يعدون من القبط الذين أسلموا .

(٣) الكندي ص ٣٩٧ — ٣٩٩

الأمين (١٩٤ — ١٩٦ هـ) بثت بعض العرب في مصر وفداً إلى الخليفة وذكروا ما فعل المصري مع أهل الحرس ، وأنه ألحقهم بالعرب ونسبهم إلى حوتكة بن أسلم بن الحاف بن قضاة ، فبثت الأمين إلى البكرى بكتاب يذكر فيه أنه لا يمنع أحداً من غير العرب اللحاق بالعرب ويأمره أن يردهم إلى ما كانوا عليه من أنسابهم ، فرجع الوفد بذلك . ودعا البكرى أهل الحرس بالسجل الذي دونه المصري لهم ، فأتوه به فزقه وقال لهم : العرب لا تحتاج إلى كتاب من قاض ، إن كنتم عرباً فليس ينازعكم أحد^(١) .

* * *

وقد تم اندماج العرب بالمصريين زمن الخليفة المعتصم العباسي إذ كانت سياسة هذا الخليفة منذ كان ولياً للمهد تنطوي على الاعتماد على الأتراك وعدم الثقة بالعرب أو الفرس . فلما بويغ بالخلافة أرسل إلى والي مصر كيدر نصر ابن عبد الله (٢١٦ — ٢١٩ هـ) يأمره بإسقاط من في الديوان من العرب وقطع أعطيائهم فتم ذلك^(٢) . ويظهر أن الاختلاط في ذلك الوقت كان قد عظم بين العرب وبين أهل البلاد ، بدليل أن قرار المعتصم بصرفهم عن ديوان الجند لم يكن له رد فعل عنيف . فعند ما قطع كيدر العطاء تار يحيى ابن الوزير الجروي في جمع من ثلم وجذام وقال : « هذا أمر لا تقوم في أفضل منه لأنه منمننا حقنا وفيئنا » . ولكن لم يتبعه أكثر من خمسمائة رجل . ومات كيدر في ربيع الآخر سنة ٢١٩ هـ فخرج مظفر بن كيدر والي مصر من بعده إلى يحيى بن الوزير وقاتله في بحيرة تنيس فأسر يحيى بن الوزير ، وتفرق عنه أصحابه في جمادى الأولى سنة ٢١٩ هـ^(٣) .

(١) الكندي ص ٤١٢ — ٤١٥

(٢) الكندي ص ١٩٣ وخطط المقرئ ج ١ ص ٩٤

(٣) الكندي ص ١٩٤ وخطط المقرئ ج ١ ص ٩٤

فجر الإسلام - (١٧)

ونلاحظ أن العرب في مصر احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان ، فإننا نرى في معظم شواهد القبور التي اكتشفت حديثاً في مقابر أسوان والفسطاط أن أسم الميت يتبع باسم قبيلته في خلال القرنين الأولين للهجرة ، ولكن في خلال القرن الثالث الهجرى نجد أن اسم القبيلة قد حل محلها اسم الجهة أو الاقليم الذى ينتسب اليه المتوفى ، فيكتب فلان الكوفى أو المصرى الخ^(١)...

وهذا يدل على أنه في القرن الثالث الهجرى أصبح العرب في مصر لا يتميزون عن أهل البلاد . ولم يكن هناك بعد قرار المعتصم ما يحسد عليه العرب من نسل الفاتحين . إذ أنه بعد ما فقد العرب مركزهم السامى في الدولة الإسلامية ، اضطروا إلى الانتشار في الريف والاختلاط بالمصريين والتزوج من بناتهم والاشتغال بالزراعة والصناعة والتجارة ، وغير ذلك من الأعمال التى كانوا يترفعون من قبل عن الاشتغال بها . فكان هذا العمل الذى قام به المعتصم ضد العرب مما أفاد الإسلام في مصر وساعد على انتشاره بين المصريين كما كان له أكبر الأثر في انتشار اللغة العربية بمصر وقضاها على اللغة القبطية .

والحق أن انتشار الإسلام بمصر لم يكن كله راجعاً إلى تأثير الحكومة المركزية بدار الخلافة ، بل انتشر الإسلام منذ أول الفتح بتأثير عوامل أخرى . فلقد اعتنق بعض الأقباط الدين الإسلامى منذ البداية حباً في الانتماء إلى دين الطبقة الحاكمة والتمتع بما لها من حقوق ، والمغلوب مولع أبداً بتقليد الغالب ، على حد قول ابن خلدون .

Wiet: Précis de l'hist. d'Egypte. t. 11. pp. 136 — 137 (١)

ولا ريب في أن فريقاً من القبط أقبلوا على إعتناق الدين الإسلامي عن إيمان وإقتناع ، ولعل فريقاً كان قد ملّ الخلافات الدينية التي كانت تقسم العالم المسيحي في ذلك الوقت ، والاضطهاد الذي كان يتعرض له أصحاب المذهب الذي لا تؤيده الحكومة السائدة .

وقد تبع انتشار الإسلام في مصر انتشار اللغة العربية فيها أيضاً ، فأصبحت لغة الكتابة ولغة التخاطب . على أن انتشار اللغة العربية بمصر كان أبطأ من انتشار الدين الإسلامي فيها . وقد عرفنا مما سبق كيف كان احتلال العرب سبباً في إنعاش اللغة القبطية في أول الأمر ، بعد أن كانت اللغة اليونانية حتى الفتح العربي هي اللغة الرسمية للحكومة وللكنيسة والتعليم والتجارة والعلاقات الخارجية . ولا نعرف بالضبط متى أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب بين المصريين ، وإنما لا بد أن الذين اعتنقوا الدين الإسلامي كانوا يتعلمون اللغة العربية ، لغة القرآن . كذلك اضطر الأقباط الذين كانت تستخدمهم الحكومة العربية إلى تعلم تلك اللغة منذ أن أصبحت لغة الدواوين الرسمية سنة ٨٧ هـ فضلاً عن أن هجرة القبائل العربية إلى مصر واستقرارها بها قد ساعد على جعل تلك اللغة لغة التخاطب بين أهل البلاد .

ويذهب القس رنودو Renaudot إلى أنه بعد فتح العرب لمصر بنحو قرن ، تلاشت اللغة القبطية نهائياً في معظم القطر المصري ، ولم تعد تعرف إلا بين العلماء الذين كانوا يدرسون تلك اللغة دراسة خاصة^(١) . ولكننا نستبعد ذلك الرأي . ففي عهد الخليفة المأمون الذي أصبح

Quatremere : Recherches sur la langue et la littérature de (١)

فيه الشعب المصري ، يدين معظم أفرادہ بالإسلام ، كانت اللغة القبطية لا تزال لغة التخاطب بين المصريين . ويدلنا على ذلك ما ذكره المقرئى^(١) في كلامه عن زيارة المأمون لمصر إذ يقول : « وكان لا يعيش أبداً إلا والتراجم بين يديه من كل جنس »

ولكننا نرى البطرک المکاني سميد بن بطريق يكتب كتابه في التاريخ باللغة العربية ، وذلك في القرن الرابع الهجري . وكذلك نرى ساويرس أسقف الأشمونيين يؤرخ للبطارقة في أواخر القرن الرابع الهجري باللغة العربية ، ويقوم بجمع الوثائق اليونانية والقبطية وترجمتها ، مما يدلنا على أن اللغة العربية أصبحت لغة الكلام ولغة التخاطب بين المصريين عامة ولم تعد اللغة القبطية تفهم بين عامة الشعب .

ويذكر متر أن القبط لم يبدأوا في ترك لفهم القبطية إلا حوالى أواخر القرن الرابع الهجري^(٢)

ولكن ليس معنى هذا أن اللغة القبطية اندثرت أو زالت نهائياً وإنما بقيت محصورة في نطاق ضيق ، ولا زالت تدرس إلى اليوم ، كما أن كثيراً من الكلمات العامية التي نستعملها اليوم ترجع إلى اللغة القبطية^(٣) .

ولا ريب في أن انتشار اللغة العربية في مصر ميزة للعرب على غيرهم من الفاتحين ، فإن الشعوب المختلفة التي توالت على مصر قبل العرب لم تستطع القضاء على لغة المصريين .

وهذه ظاهرة تستحق إيمان النظر ، لأن تنازل شعب عريق في المدنية

(١) الخطط ج ١ ص ٨١

(٢) الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٨٩

(٣) Dr. Georgy Sobhy bey : The Survival of Ancient Egypt

pp. 65—67

كالشعب المصري ، عن لفته ، واتخاذ لغة شعب لا يوازيه في الحضارة أمر غير عادى .

ولم يقف الأمر عند انتشار اللغة العربية بل إننا نجد مصر في أواخر عصر الولاة تشارك في الحياة الأدبية العربية مشاركة تبدو واضحة منذ آخر القرن الثانى الهجرى فيظهر فيها من له شأن فى العلم باللغة العربية وآدابها إذ نسمع حين قدوم الإمام الشافى إلى مصر ، وهو الإمام فى العربية وعلوم الدين ، أنه التقى برجل من أهل مصر يعرف باسم « سرج النول » ، وكان هذا الرجل حجة فى اللغة ، وكان الأمام الشافى شديد الأئس به ، يقول لتلميذه الربيع بين حين وآخر - « يا ربيع ادعى لى سرجا » فيأتى به ويذاكره الشافى وينظره ويمجب بفزارة علمه حتى يقول بعد انصرافه . « يا ربيع نحتاج أن نستأنف طلب العلم . »^(١)

ونبغ فى مصر فى القرن الثانى الهجرى وبداية الثالث مثل أبى عبد الله أحمد بن يحيى التجيبى ولأء ، المصرى ، الحافظ النحوى ، أحد الأئمة الذى كان من أعلم أهل زمانه بالشعر والأدب والتاريخ وعلوم الدين « وفى هذا مايشهد بلشتراك مصر فى الحركة الأدبية العربية اشتراكا قويا منذ ذلك العهد »^(٢)

وكانت مصر إحدى الأمم القليلة التى تخلت نهائيا عن ماضئها الوطنى وعن لغتها القديمة ورمت بنفسها فى أحضان الإسلام والمدنية الإسلامية فلم يقض فتح العرب لإيران والهند على لغتهما القومية ولم يقض على العقائد

(١) السيوطى : بنية الوعاة فى طبقات اللغوين والنحاة ص ٢٥٢

والأستاذ أمين الحولى : مصر فى تاريخ البلاغة ص ٨

(مجلة كلية الآداب — المجلد الثانى ج ١ سنة ١٩٣٤ م)

(٢) الأستاذ أمين الحولى ، المرجع نفسه ص ٨

الدينية التي وجدت فيها قبل الفتح قضاء تاما . ولم يمنع اعتناق الأتراك للدين الاسلامى من الاحتفاظ بلغتهم القومية . ونرى الأندلس ، التي كانت تزدهر فيها حضارة إسلامية بمد أن فتحها العرب ، تغلب على أمرها في أواخر المصور الوسطى وتمود ثانية دولة مسيحية الدين بميدة عن اللغة العربية^(١) .

ونجد مصر في الفترة ما بين الفتح العربى والفتح المماني لا تصبح دولة إسلامية بحسب بل تزعم العالم الإسلامى كله ، فبعد أن كانت مصر خاضعة للخلافة في عهد الولاة نجدها تصبح مركزاً للخلافة الفاطمية (٣٦٢ — ٥٦٧ هـ) التي نافست الخلافة العباسية في وقت ما ، ثم نجد مصر تصبح مركزاً للخلافة العباسية بعد زوالها من بغداد على أيدي المغول في سنة ٦٥٦ هـ وانتقالها إلى مصر في عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ هـ ، تلك الخلافة التي ظلت قائمة بها إلى الفتح المماني سنة ٩٢٣ هـ ، أى أن مصر في هذه المرة بعد فتح العرب لها خرجت نفورة بحضارتها الإسلامية وبزعامتها للعالم الإسلامى أجمع . وحسبنا دليلا على علو مركز مصر في العالم الإسلامى منذ المصور الوسطى أن نذكر قول ابن خلدون . « ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهى أم العالم وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع^(٢) » .

(١) الدكتور زكى محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ٢٤

(٢) المقدمة . ص ٤٨١ (فصل في أن حلة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم)

الباب الرابع

حضارة مصر في فجر الاسلام

١ — الزراعة

تعتمد مصر اعتماداً رئيسياً في ثروتها على الزراعة وكانت الزراعة مصدر خيراتها الوفيرة . ولم يختلف العرب عن غيرهم من الفاتحين الذين تابعوا على البلاد المصرية منذ القدم فقد جاءوا لفتحها وهم يعلمون بثروتها وخيراتها . وكثيراً ما أظهروا إعجابهم بتلك الخيرات والمنعم التي خص بها الله مصر والمصريين . ومن هذه الخيرات الوفيرة كانت مصر تقدم للفاتحين المال والطعام فلا عجب إذا قال عمرو بن العاص : « ولاية مصر جامعة ^(١) ، تعدل الخلافة ^(٢) » . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها في الدنيا فليُنظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها وتُسَوَّر ثمارها ^(٣) . ولعل أبداع وصفه العرب لمصر ، ما جاء في الكتاب الذي ينسب إلى عمرو بن العاص أنه كتبه إلى الخليفة عمر بن الخطاب حين بعث إليه الخليفة يسأله أن يصف له بمصر ، فقال : « اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ، يكتنفها

(١) يقصد إذا اجتمعت الامارة والولاية على الخراج لشخص واحد ، فضم إلى الادارة العامة النظر في الأمور المالية

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ١٩٢ وخطط القريري ج ١ ص ٢٧

(٣) خطط القريري ج ١ ص ٢٥ .

جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات
تجرى فيه الزيادة والتقصان كجرى الشمس والقمر له أوان ، يدر حلاله ،
ويكثر فيه دبابه ، تمتد عيون الأرض ويتنايمها حتى إذا ما اضلختم مجاجه
وتعظمت أمواجه ، قاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بمضها إلى
بعض إلا فى صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن فى الخايل
ورق الأسائل ، فإذا تكامل فى زيادته ، نكص على عقبه كأول ما بدأ
فى جريته ، ولما فى درته ، فمئذ ذلك تخرج أهل ملة محقورة ، ودمة مخفورة
يحرثون باطن الأرض ويبيدونها بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ،
لتيرم ما صنعوا من كدهم ، فتاله منهم بغير جدم ، فإذا أحرق الزرع
وأشرق ، سقاء الندى وغذاء من تحته الثرى ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين
لؤلؤة بيضاء ، إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء فإذا هى ديباجة
قشاه ، فتبارك الله الخالق لما يشاء ، الذى يصلح هذه البلاد وينمىها ويقر
قاطنيتها منها ، ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، وألا يستأدى خراج ثمرة
إلا فى أوانها وأن يصرف تلك ارتفاعها^(١) فى عمل جسورها وترعها ، فإذا
تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى
يوفق فى المبدأ والمآل .

وزعموا أن الخليفة حين ورد عليه هذا الكتاب قال : لله درك يا ابن
الماص ! لقد وصفت لى خبراً كأنى أشاهده^(٢) .

(١) الارتفاع . ثمنه الخراج أو ما يبيع من البلد .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢ — ٣٣ يشك بعض الأدباء
المحدثين فى نسبة هذا الكتاب إلى عمرو بن الماص . انظر كامل حسين :
(فى الأدب المصرى الإسلامى ص ٨٨ — ٩٠) .

ولا يشهد هذا الوصف بثروة مصر الزراعية فحسب ، بل يدل أيضاً على أن العرب كانوا يطمون أنه يجب عليهم حفر الترع وعمل الجسور وغير ذلك من الأمور التي تضمن كثرة الحراج ودوام تلك الثروة .

والواقع أن مصر كان لها مكانة خاصة عند المسلمين منذ البداية فقد ذكرت في القرآن في عدة مواضع كما ذكرت في الأحاديث النبوية . وقد كانت بعض الأحاديث التي تنسب إلى النبي عن « فضائل مصر » نواة لفصول في هذا الصدد كتبها المؤرخون والمؤلفون المصريون في العصور الوسطى ، بل ألقت كتب مستقلة عن فضائل مصر منها كتاب فضائل مصر لمعمر بن محمد الكندي وفضائل مصر لابن زولاق^(١) .

ولاريب في أن العرب كانوا يقدرّون مصر بسبب خيراتها الوفيرة الناتجة من الزراعة . وكانت مصر كما هي الآن تنتج الحبوب بكثرة وخاصة القمح وكذلك الخضروات والفواكه ، وكان يزرع فيها الكتان بكثرة . فكثيراً ما نرى الإشارة إلى زراعته في أوراق البردي^(٢) التي ترجع إلى عصر الولاة . وتشير أوراق البردي التي ترجع إلى القرن الثاني الهجري إلى زراعة قصب السكر فيها^(٣) . وقد نسب إلى الأمام الشافعي ، الذي عاش بمصر في أواخر القرن الثاني ، أنه قال : « لولا قصب السكر ما أقت بمصر^(٤) » .

(١) أنظر . النويري : نهاية الأرب ج ١ ص ٣٣٤ — ٣٤٣ ، خطط المقيزي ج ١ ص ٢٣ — ٣٠ الدكتور زكي محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية . ص ٣٠ ونذكر بهذه المناسبة أن هناك نسخة خطية لكتاب فضائل مصر للكندي بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٢ كما أن هناك نسخة خطية لكتاب ابن زولاق بمكتبة الأزهر تحت رقم ٦٦٩ .

(٢) Grohmann : Arabic Papyri, vol. 2 p.p. 44, 46—48.

(٣) وانظر أيضاً آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٦١ PapyrusErzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung p. 183

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة (ج ٢ فصل ذكر الفواكه)

وكان القمح أهم ما ترسله مصر إلى الخلافة بعد الفتح فبعد أن كانت ترسل القمح سنويا إلى روما ثم بيزنطة ، أصبحت بعد الفتح العربى ترسل القمح إلى الحجاز . وقد استمرت عادة إرسال القمح إلى الحجاز حتى بعد أن انتقل مركز الخلافة من الحجاز إلى الشام ثم إلى العراق . بل استمرت تلك العادة إلى اليوم . لذا يذكر المؤرخون أن من فضائل مصر أنها تميز الحرمين الشريفين وتوسع على أهلها^(١) .

ولا نعرف أن العرب ، في فجر الإسلام ، أدخلوا أصنافا جديدة من المزروعات في مصر ، أو طرقا جديدة للزراعة والرى غير تلك التى كانت موجودة في مصر . والواقع أن طريقة زراعة الأراضى في مصر ظلت كما هى منذ عهد الفراعنة ، وإن كانت قد تقدمت نوعا في عهد الرومان إلا أنها ظلت على حالها من غير تغييرات أخرى حتى أوائل القرن التاسع عشر^(٢) .

وقد كانت الطريقة الشائعة للرى حتى القرن التاسع عشر ، هى طريقة رى الحياض ، اللهم إلا في بعض الجهات التى كان يمكن رىها رىبا دأعما مثلما كان يحدث مثلا في أراضى الحدائق بالفيوم^(٣) . ومن الزراعات الشتوية في مصر القمح والسكر والشعير والفول والعدس . ومن الزراعات الصيفية . القطن وقصب السكر والقلقاس والسهم واللوبيا والبطيخ والكرم والتين والتفاح والتوت واللوز والخوخ^(٤) .

وعرف العرب أن واجب أى حكومة تحكم البلاد المصرية ،

(١) النويرى : نهاية الأرب : ص ٣٤١ — ٣٥٤ (في الطبعة الأولى) خطط
المريزى ج ١ ص ٢٨ .

(٢) Munier : L'Egypte Byzantine p. 81

(٣) Johnson: Roman Egypt vol. 2. p. 7.

(٤) خطط المريزى ج ١ ص ١٠١ — ١٠٣ .

أن يشرفوا على أمور الري والزراعة . فإن نظام الري والزراعة هو الذى جعل مصر أسبق الأمم منذ المصور القديمة ، إلى الوحدة والنظام وإلى الخضوع لحكومة منظمة موحدة ، تنظم الإنتاج ، وتنظم الري ، وتحفر الترعة ، وتقسم الأحواض ، وتهتم بالجسور ، وتدفع خطر الفيضان وغير ذلك من الأمور التى تتطلبها هذه البلاد ، والتى لا يستطيع الأفراد القيام بها من غير هيئة عليا تشرف عليها وتقوم بالنفقات التى تلزم لها .

ويذكر المؤرخون أنه عقب الفتح مباشرة كانت حكومة العرب تباشر حفر الترعة ، وإقامة الجسور ، وبناء القناطر ، وغير ذلك مما يلزم للري والزراعة . وكان يقوم بذلك العمل صيفاً وشتاءً حوالى ١٢٠٠:١٣٠٠ عام^(١) . ولا تمطينا كتب التاريخ شيئاً مفصلاً عن مدى عناية العرب وإشرافهم على الري والزراعة طوال عصر الولاة . ولكن لا نستبعد أن يكون الخلفاء وولاة مصر قد حدوا حدو عمر بن الخطاب وعمر بن العاص فى هذا الشأن .

كذلك نرجح أن المهال الذين كانوا يكلفون بالعناية بالترعة والجسور ، وإقامة القناطر كانوا يعملون بطريق السخرة ، كما كان الحال قبل الفتح العربى . وكما كان بعد الفتح حتى المصور الحديثة . بل إن السخرة ظلت تفرض على الأهالى فى مصر فى أوقات الفيضان (ويعرفها الأهالى باسم الموتة) للعناية بالجسور والمحافظة عليها حتى ألغيت فى عام ١٩٣٧ م ، وأصبح الأهالى يتقاضون أجوراً عن أعمالهم بعد أن كانوا يعملون بدون أجر .

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١٥١ . خطط المقرئى ج ١ ص ٧٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة . ج ١ ص ٦٣ .

وهناك بصفة عامة نوعان من الجسور ، جسور رئيسية تهم البلاد كلها وجسور محلية تهم أهل الجهة دون الأخرى . وكان يطلق على الجسور الرئيسية في زمن المقریزی الجسور السلطانية ، وكان يطلق على النوع الآخر من الجسور ، الجسور البلدية . ويذكر المقریزی^(١) أن الجسور السلطانية من القرى بمثابة سور المدينة ، الذي يتعين على السلطان الاهتمام بهامة ، وكفاية الرعاية أمره . أما الجسور البلدية فكانها الدور التي من داخل السور ، فيلزم صاحب كل دار أن يصلحها ويزيل ضررها . ويذكر المقریزی^(٢) أيضاً أنه كان يفرض على كل ناحية مال معلوم ليصرف في عمل الجسور والمحافظة عليها ، وأن ذلك بطل في زمانه . ونحن لا نستبعد أن يكون العرب بمد الفتح قد جبوا ضريبة الجسور ، وأن ذلك كان استمراراً لما كان قبل الفتح ، إذ كانت تجبي ضرائب من المصريين للمحافظة على الجسور .

وقد اهتم العرب عقب الفتح مباشرة ببناء مقاييس للنيل لمعرفة مقدار الزيادة والنقصان في مياهه ، ليكون ذلك مقياساً صادقاً للزراعة والرى والضرائب في كل عام . على أن العرب لم يكونوا أول من بنى مقاييس للنيل في مصر ؛ وإنما عرفت مقاييس النيل منذ التاريخ القديم . ورغم وجود مقاييس للنيل قبل الفتح العربي نرى الخليفة عمر بن الخطاب يهتم ببناء مقاييس جديدة ، وكانت مقسمة على أساس الذراع ، وكل ذراع ينقسم إلى أربعة وعشرين أصبعاً^(٣) ، وقد بنى عمرو بن العاص مقاييس

(١) الخطط ج ١ ص ١٠١

(٢) الخطط ج ١ ص ١١٠

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٩ ، خطط المقریزی ج ١ ص ٥٨

— ٥٩ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣١٢ — ٣١٣ ،

السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٧

بمحلوان وأسوان ودندرة ، ثم بنى فى أيام معاوية بن أبى سفيان مقياساً بأنصنا^(١) . ثم بنى عبد العزيز بن مروان فى ولايته على مصر مقياساً بمحلوان التى اتخذها عاصمة للديار المصرية . وفى خلافة سليمان بن عبد الملك بنى أسامة بن زيد التنوخى عامل الخراج مقياساً بجزيرة الروضة سنة ٩٧ هـ ثم بنى الخليفة المتوكل مقياساً بجزيرة الروضة فى سنة ٢٤٧ هـ . وكان يعرف فى ذلك المهد بالجديد^(٢) . وقد عثر على مقياس المتوكل فى جزيرة الروضة ، وقد كتبت عليه السنة ، وهى سنة ٢٤٧ هـ كما كتب عليه « بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين أمر عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين ببناء هذا المقياس الهاشمى لتعرف به زيادة النيل ونقصانه ، وأطال الله بقاء أمير المؤمنين ، وأدام له المزمز والتسكين والظفر على الأعداء وتنازع الإحسان والنماء وزاده فى الخير رغبة وبالرعية رافة ، وكتبه أحمد بن محمد الحاسب فى رجب سنة سبع وأربعين ومائتين » . وكتب فى موضع آخر أن الماء بلغ فى السنة التى بنى فيها هذا المقياس المتوكل سبعمائة ذراعاً وثمانية عشر أصبعاً^(٣) .

• وطبيعى أن العرب عملوا على كل ما من شأنه زيادة الإنتاج ، لأن ذلك

(١) أنصنا وهى مدينة من نواحي الصعيد على شرق النيل (ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٣٨١) .

(٢) القلقشندى : ج ٣ ص ٢٩٨ وخطط المقرئى ج ١ ص ٨ وأبو الحسن ج ٢ ص ٣١٠ — ٣١١

(٣) أنظر Van Berchew : *Materiaux pour un Corpus Inscriptionum*

Arabicarum. Egypte. I p. 21; Répertoire Chronologique

d'epigraphie Arabe. t. 2. d.p.4,4 53, 55—56

يكفل لهم كثرة المال وكثرة القمح . وزى في عقود إيجار الأراضي في ذلك العهد أن المؤجر يشترط على المستأجر شرطاً هذا نصه : « وما بورت فمليك خراجة^(١) » أى أنه يلزمه بدفع الخراج عن الأراضي التي يتركها دون زرع حتى تصبح أراضي بور ، وطبيعى ألا يرضى المزارع أن يدفع خراجاً عن الأراضي البور التي لا يستفيد منها ، فكان هذا الشرط يحمل المزارعين على الانصراف إلى الزراعة ، وعدم إهمال الأرض . ولعل هذا الشرط الذى اعتاد المؤجرون أن ينصوا عليه ، كان بسبب حرص الحكومة على زراعة الأرض وعدم إعفاء الأرض البور من الخراج .

وقد كانت الأراضي بمصر تقاس بالفدادين^(٢) كما هو الحال الآن وكان إيجار الأراضي يدفع نقداً أو نقداً وعيناً ، ولكننا لم نعثر للآن على أوراق بردية تدلنا على أن الإيجار كان يدفع عيناً فقط . وكان إيجار فدان القمح يتراوح في ذلك العهد الذى نتحدث عنه بين دينار ودينارين وأحياناً يزيد على الدينارين أو ينقص عن الدينار فيكون الإيجار ½ دينار أو ⅔ دينار^(٣) .

ولاشك في أن الثورات التي كانت تحدث بمصر من وقت إلى آخر كانت تسبب أضراراً كثيرة بالزراعة إذ كانت تقل بسببها الأيدى العاملة كما كان المزارعون يهجرون قراهم أحياناً . ولكن حكومة العرب عملت على قمع مثل تلك الحركات بشدة لتلافي الخطر الناتج عنها . كذلك رأينا كيف كان قرة ان شريك يتتبع حركة الحرب ليقضى عليها دون هوادة . كما أن الخلافة

Grohmann : Arabic Papyri. vol.. 2. pp. 45—48. (١)

Grohmann : op. cit. pp. 32. 44. 45. 48 etc.. (٢)

op. cit. pp. 32—34. (٣)

منذ عهد هشام بن عبد الملك أخذت تشجع القبائل العربية على الوفود إلى مصر والاشتغال بالزراعة .

فصر كانت إذا معينا فياضاً للأموال والغلال ولم تكن الخلافة لتنفل أمرها إذ أن كل ضرر يحيق بها لا بد وأنه كان يؤثر من ناحية أخرى فيما تجبیه الخلافة منها .

وحسبنا دليلاً على رخاء مصر وازدهار زراعتها في فجر الإسلام ما كتبه النويرى في الكلام على فضائل مصر (نهاية الأرب ج ١) ، فقد جاء فيه : « وقال سعيد بن عقبة : كنت بحضرة المأمون حتى قال ، وهو في قبة الهواء : لمن الله فرعون حين يقول : « أليس لي ملك مصر » فلو رأى العراق ! . فقلت : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا فإن الله عز وجل قال : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » فاظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله ، هذا بقيته ؟ قال : ثم قلت : لقد بلغنى أن أرضنا لم تكن أعظم من مصر ، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها . وكانت الأنهار بقناطر وجسور وتقدير حتى إن الماء يجري تحت منازلهم وأفنيتهم : يحبسونه متى شاءوا ويرسلونه متى شاءوا . وكانت البساتين بحافتي النيل من أوله إلى آخره ، ما بين أسوان إلى رشيد إلى الشام متصلة لا تنقطع . ولقد كانت الأمة توضع المكتل على رأسها فيمتلئ مما يسقط من الشجر . وكانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج إلى خمار لكثرة الشجر »

٢ — الصناعة

اشتهرت مصر منذ التاريخ القديم بعدة صناعات بالرغم من أن ثروتها الرئيسية تتوقف على الزراعة . فازدهرت فيها صناعات هامة مثل صناعة البناء والورق والزجاج والنسيج والديباغة وصناعة الخشب والفنون الدقيقة كالحلى وأدوات الزينة ، وصناعة الزيوت والمطور والفخار . ونلاحظ أن الصناعات التي نشأت بها كانت تعتمد في معظم الأحيان على المواد الخام المنتجة في البلاد ولكن مصر كانت تضطر إلى استيراد بعض المواد الخام من الخارج مثل الحديد والخشب والجلود والحزير .

وقد كان حكامها المختلفون يشجعون هذه الصناعات ، فلما فتخها العرب وجدوا بها صناعة مصرية راقية وأساليب فنية زاهرة . على أن العرب الذين أتوا إلى مصر لم يكونوا من البدو الذين لا حضارة لهم ولا فن ، وإنما كان معظمهم من المنصر اليمنى الذى اشتهر منذ القدم بحضارته الراقية وبفنونه الرائعة ، ولو أن هذه الحضارة كانت قد اضمحلت عند قيام الإسلام إلا أنه كان عندهم استعداد لقبول الحضارة وكان عندهم ملكة واسعة فى التصور والذوق الفنى نتيجة اتصالهم الدائم بالشموب الأخرى مثل البيزنطيين والفرس والأحباش والمصريين فى أثناء رحلاتهم للتجارة .

لذا نجد أنه بعد فتح مصر نشأت صناعة إسلامية مصرية وفن إسلامى مصرى كان للمصريين اليد الكبرى فيه ، وإن كان العرب قد أفلحوا فى طبعه بطابع دينهم ، وفى إظهار شخصيتهم فيه بحيث تميزت الصناعات والفنون الإسلامية عما كان موجوداً فى مصر قبل الفتح ، كما كان عمادها من المصريون لا العرب .

وكان معظم الصناع بمصر في فجر الإسلام من المصريين ، سواء أكانوا ممن بقى على دينه من الأقباط أم ممن أسلم منهم . فالعرب في أول ذلك العهد كانوا لا يتدخلون في الصناعات وغيرها من المهن ، وإنما كان بيدهم السياسة والحكم والحرب . وحتى بعد أن بدأ العرب يختلطون بالأهالي ويملكون الأراضي ويشتغلون بالزراعة منذ أوائل القرن الثانى الهجرى لم يصبحوا الأغلبية بين الصناع في مصر . ولا شك فى أن كثيراً منهم اشتغلوا بالصناعة وخاصة بعد أن أمر الخليفة المعتصم باستقاطهم من الديوان ، ولكن المصريين كان لهم الغلبة والكثرة العددية على إخوانهم من العرب .

البناء

عرف المصريون منذ القدم بتقدمهم فى صناعة البناء وفى فن العمارة وتشهد بذلك آثارهم فى مختلف المصور . فلما جاء العرب اختلطوا بمدينة القسطنطينية وبنا فيها المسجد الجامع إلا أن أبنيتهم كانت بسيطة جداً وذلك بحكم عيشة الخشونة التى كانت تغلب عليهم فى أول الأمر ثم ما لبث الرخاء أن طغى عليهم وتدفقت الثروة إليهم من كل جانب فبدأوا ينزعون عنهم عيشة البساطة وينعمون فى حياتهم وفى مساكنهم . وأسرعوا إلى تذوق الحضارة الراقية والترف والنعم وبدأ ذلك واضحاً جلياً فى العمارة الإسلامية فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية ولما يعمض على الفتوحات الإسلامية قرن من الزمان . ولا زالت المآثر التى بنيت فى ذلك العهد المتقدم باقية إلى اليوم ، مثل قبة الصخرة التى بناها فى بيت المقدس عبد الملك ابن مروان ومثل الجامع الأموى الذى بناه فى دمشق الوليد بن عبد الملك وأسرف فى تزيينه .

تقدمت العمارة الإسلامية فى جميع أنحاء المملكة دون استثناء ومن بينها

مصر . فسرطان ما نمت مدينة القسطا ط ودب فيها العمران والحضارة وبنيت فيها الحمامات والأسواق كما بنيت الدور العالية بعد أن كان البناء بسيطا . وقد عرفنا أنه في خلافة عثمان بن عفان بنى عبد الله بن سعد قصراً كبيراً عرف باسم قصر الجن^(١) وفي أثناء الشهرين اللذين أقامهما في مصر مروان ابن الحكم أمر ببناء الدار البيضاء ليسكنها وقال إنه لا ينبغي لخليفة أن يكون ببلد ليس له فيها دار^(٢) . كذلك أمر عبد العزيز بن مروان ببناء الدار المذهبة سنة ٦٧ هـ في غربى المسجد الجامع وكانت تدعى المدينة^(٣) . وحسبنا هذه التسمية لتعرف مبلغ تلك الدار من العظمة والفخامة .

وبنى عبد العزيز الدور والمساجد في حلوان التي اتخذها عاصمة له ، وعمرها أحسن عمارة وغرس فيها الأشجار والنخيل ، حتى قيل إنه أفق في بنائها مليون دينار^(٤) .

وهكذا نرى أن العمارة الإسلامية أخذت تتقدم بسرعة في مصر . ولما سقطت الدولة الأموية وجاءت دولة بنى العباس ، اختط العباسيون مدينة المسكر وبنوا فيها جامع المسكر . أما جامع عمرو بن العاص فقد ناله من التحسينات والزيادات والتزيين بقدر ما نال العمارة الإسلامية من التقدم في ذلك العهد . فتذكر الروايات أنه لم يكن لجامع عمرو في بادىء الأمر محراب مجوف ويقال إن أول من جمل المحراب قرة بن شريك^(٥) . وكان جامع عمرو في بادىء الأمر طوله خمسون ذراعا وعرضه ثلاثون ذراعا . وكان

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١١٠

(٢) الكندى ص ٤٥

(٣) الكندى ص ٤٩

(٤) سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع ج ٢ ص ٤٠

(٥) خطط المقرئى ج ٢ ص ٢٤٧

هناك بابان في شرق المسجد يقابلان دار عمرو بن العاص ، وجعل له بابان في شماليه وبابان في غربيه وكان سقفه واطناً جداً ولا صحن له وكان بينه وبين دار عمرو سبع أذرع . ويقال إن عمرو بن العاص اتخذ منبراً فيه فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره بكسره لأنه لا يرضى أن يكون عمرو قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيه ، فكسره عمرو^(١) .

ولكن المسلمين لم يتركوا ذلك الجامع بسيطاً كما كان ؛ ففي ولاية مسلمة ابن مخلد الأنصاري على مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان (٤٧ — ٦٢ هـ) ضاق المسجد بأهله وشكوا ذلك إلى مسلمة فكتب مسلمة فيه إلى معاوية ، فأمره معاوية بالزيادة فيه ، فزاد فيه مسلمة في سنة ٥٣ هـ من شرقيه ومن شماليه وجعل له رحبة في شماليه وطلاء بالجص وزخرف جدرانه وسقفه ولم يكن قبل ذلك فيه طلاء أو زخرف . كذلك أمر ببناء منار المسجد فجعل مسلمة للجامع أربع صوامع أو مآذن في أركانه الأربعة . وهو أول من جعلها فيه ، كذلك فرش الجامع بالحصر وكان قبل ذلك مفروشاً بالحصباء^(٢) . وفي ولاية عبد العزيز بن مروان أمر بالزيادة في هذا الجامع فهدم كله وزاد فيه من جوانبه كلها وذلك في سنة ٧٧ هـ^(٣) . وفي ولاية عبد الله بن عبد الملك أمر برفع سقف المسجد وكان واطناً وذلك في سنة ٨٩ هـ . ثم هدمه قرعة بن شريك سنة ٩٢ هـ بأمر الوليد بن عبد الملك وابتدأ في بنيانه في شعبان من السنة المذكورة^(٤) وجعل على بنائه يحيى بن حنظلة مولى بني عامر بن

(١) المرجع نفسه ص ٢٤٧ و ٢٤٨ Creswell : Coptic Influences on Early Muslim Architecture p.29.

(٢) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٤٧ — ٢٤٨

(٣) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ١٣١ والكندى ص ٥١

(٤) عثر على نص يدل على أن إصلاح جامع عمرو تم في ولاية قرعة بن شريك

في رمضان سنة ٩٢ هـ

Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. 1. pp. 17—18.

لثوى وكانوا يجمعون الجمعة في قيسارية العسل حتى فرغ من بنائه وذلك في شهر رمضان سنة ٩٣ هـ . ونصب المنبر الجديد في سنة ٩٤ هـ ونزع المنبر الذي كان في المسجد . وقيل إن المنبر القديم هو منبر عمرو بن العاص ، وقيل هو منبر عبد العزيز بن مروان ، وذكر أنه حمل إليه من بعض كنائس مصر ، وقيل إن ملك النوبة أهداه إلى عبد العزيز بن مروان وبعث معه نجاره الذي ركبه واسمه بقطر من أهل دندرة . ولم يزل هذا المنبر في المسجد حتى زاد قرة بن شريك في الجامع فنصب منبراً سواه . ولم يكن يخطب في القرى إلا على العصي إلى أن ولي عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير مصر من قبل مزوان بن محمد فأمر في سنة ١٣٢ هـ بأتخاذ المنابر في القرى^(١) ويذكر الأستاذ كريزول أن شكل المنبر الإسلامي مشتق من المنبر المسيحي الشرقي^(٢)

وهكذا نرى أن ولاية مصر وحكامها أخذوا يتعهدون جامع عمرو بن العاص بالزيادة والزخرفة والتحسينات . ونكرر هنا أن العرب لم يشتغلوا في أول الأمر بالصناعة في مصر وإنما قام ببناء المارة الإسلامية فيها معماريون وبناءون من أهالي البلاد وصنغها الفاتحون بصنفة دينهم . ولا شك في أن المارة القبطية كانت متقدمة حين فتح العرب مصر ، وقد نقل العرب من المعابد والكنائس القديمة كثيراً من الأعمدة والتيجان ، استخدموها في مساجدهم وبيوتهم كما يتجلى من وجود الأعمدة القبطية في جامع عمرو^(٣) . ونجد كثيراً من أعمدة الكنائس الرخامية في معظم المساجد ، ولكن لا يجب

(١) خطط القريري ج ٢ ص ٢٤٨ . Creswell : op. cit. p. 80.

(٢) . Creswell : op. cit. p. 30.

(٣) الدكتور زكي محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية في الفنون

الإسلامية ص ٧ — ٨

أن يتطرق إلى أذهاننا أن الكنائس خربت عمداً لتسد حاجة البناء في المساجد وخاصة في العهد الأول للإسلام ، إنما كان من السهل أن يأخذ العرب بقايا ما خربه الفرس أثناء غزوهم لمصر قبيل الفتح العربي^(١) . وقد اتخذ العرب كثيراً من كنائس النصارى ، مساجد لهم بعد أن غلبوا على القري في عهد الخليفة المأمون^(٢) وهذا نتيجة منتظرة لانتشار الإسلام وازدياد عدد المسلمين فضلاً عن أنه لم يكن جديداً في التاريخ ، فانه لما أصبحت المسيحية في القرن الرابع للميلاد الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية حول النصارى في مصر الهياكل إلى كنائس بأن نقشوا الصليبان على أعتاب أبوابها وأعمدتها وأبادوا الأصنام وغطوا ما كان منقوشاً على جدرانها من صور الآلهة القديمة بطبقة من الجص رسموا عليها صور السيد المسيح والرسل والقديسين ، وبنوا مذابح لإقامة القداس ، ولا تزال آثار ذلك ظاهرة إلى يومنا هذا بأغلب معابد الوجه القبلي . كما نرى في بعض هذه الكنائس والأديرة أحجاراً انتزعت من المعابد الفرعونية القديمة استخدمها القبط في أبنيتهم الجديدة^(٣) كذلك نرى البطرك كيرلس يهدم بعض بيوت اليهود ويستعمل الأخرى كنائس^(٤) .

ومهما يكن من شيء فإن المماراة الإسلامية أخذت عن القبط بعض العناصر الممارية ؛ فكثيرون من العلماء يظنون أن المحراب مأخوذ عن « الحنية » التي توجد في صدر الكنيسة إلى جهة الشرق ، وأن مأذن

Mrs. Devonshire : L'Egypte Musulmane p. 11. (١)

(٢) خطط القريزي ج ٢ ص ٢٦١ — ٢٦٢

(٣) الدكتور زكي محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية ص ٨

وما ذكره من مراجع

Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne. T. IV. p. 28. (٤)

الجوامع الإسلامية مأخوذة عن أبراج الكنائس^(١).

كذلك أخذ المسلمون عن القبط في زخرفة المباني كثيراً من الموضوعات الزخرفية النباتية والهندسية كما أخذوا عنهم طلاء المباني بطبقة من الجص^(٢).

ولم يقتصر الأمر على استخدام العرب للصناع المصريين في بناء أبنيتهم في هذه البلاد بل كثيراً ما استخدموهم في الأبنية التي أنشئت في غير مصر . ففي كتاب قرة بن شريك إلى صاحب كورة أشقوه نراه يحدد أجر أحد العمال الذي سيرسل للعمل بجامع دمشق لمدة ستة أشهر^(٣) . وفي كتاب آخر منه نراه يطلب عدة رجال من أماكن مختلفة للعمل في بناء قصر الخليفة الوليد ابن عبد الملك^(٤) . وفي كتاب ثالث يطلب أحد العمال ويحدد أجره للعمل لمدة ستة أشهر في جامع بيت المقدس^(٥) . ونجد كتاباً آخر من قرة يختص بالنفقة على أربعين من مهرة العمال الذين استخدموا في بناء جامع دمشق^(٦) . ونجد كتاباً آخر يختص بالنفقة على الفعلة والعمال المهرة الذين يعملون في جامع بيت المقدس وفي قصر أمير المؤمنين^(٧) . وهناك كتب أخرى تختص

(١) الدكتور زكي محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية ص ٩ وما ذكره من مراجع

(٢) المرجع نفسه ص ١٠

(٣) Bell : Translations of the Greek Aphrodito Papyri (Der Islam vol. 2) p. 274.

(٤) Bell : op. cit. p. 274.

(٥) Bell : (Der Islam vol. IV) p. 93.

(٦) Bell : (Der Islam 8) p. 133.

(٧) cf. Bell : op. cit. p. 388.

بالصرف على المال الذين يعملون في بيت المقدس أو دمشق أو قصر أمير المؤمنين^(١).

ويذكر البلاذري^(٢) أن الخليفة الوليد بن عبد الملك كتب إلى عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة يأمره بهدم المسجد وبنائه ، وبعث إليه بمال وقسيفساء ورخام وثمانين صانعا من الروم والقيط من أهل الشام ومصر ، فبناه عمر بن عبد العزيز وزاد فيه وكان ذلك في سنة ٨٧ هـ ويقال في سنة ٨٨ هـ . وهذا يدلنا على مدى تقدير العرب لمهارة المصريين في فن البناء والمهارة وكيف كانوا يستخدمونهم في مصر وفي غيرها من البلاد الإسلامية . فصر كانت تابعة للخلافة الإسلامية سياسيا ولا بد أنها أثرت وتأثرت بالخلافة من الناحية الفنية أيضا .-

المسوجات

ومن الصناعات التي ازدهرت بمصر في فجر الإسلام صناعة المنسوجات ، صوفية كانت أو تيلية أو حريرية أو قطنية^(٣) . ولم تكن هذه الصناعة أو غيرها من الصناعات التي اشتهرت بها مصر في عهد الولاة شيئا أحدثته الخلافة . وإنما كانت نما اشتهرت به مصر منذ القدم . فاستمرت صناعة النسيج زاهرة في عهد الولاة واستغلتها الخلافة كثيراً لسد حاجاتها المختلفة ،

(١) Bell, (Der Islam 3) p. 133, 137, (Der Islam IV) p. 95, (Der Islam XVIII) p. 6.

(٢) فتوح البلدان ص ٧ . p. 32. Creswell : op. cit.

(٣) يشك الأستاذ Lamm في إنتاج القطن في مصر في ذلك العهد الذي نتحدث عنه ولكنه لا يجزم بذلك لأن القطن كان ينمو حينذاك في كل البلاد الإسلامية هربا ولا بد أنه كان ينمو في مصر أيضاً أنظر C. J. Lamm : Cotton in Mediaeval Textiles of the Near East pp. 4-6

كما أن القاعين بتلك الصناعة كانوا من المصريين ، شأنهم في ذلك شأن أصحاب الصناعات الأخرى في ذلك العهد . إلا أن الأقباط حملوا لواء هذه الصناعة لمدة طويلة لم يشاركهم فيها أحد ، ويدلنا على ذلك أن العرب كانوا يطلقون على المنسوجات المصرية اسم قباطي^(١) ، ولا بد أن هذه التسمية نسبة إلى قبط مصر الذين أظهروا مهارتهم الفنية في ميدان النسيج ، كذلك يذكر ياقوت^(٢) الذي عاش حتى أوائل القرن السابع الهجري أن فلسجى الثياب في دمياط وتنيس من القبط . وعلى كل حال فإن المراكز الرئيسية لصناعة النسيج في مصر الإسلامية كانت ، في أغلب الأحيان ، المدن التي اشتهرت بالنسيج في مصر القبطي . وكان عدد كبير من سكانها لا يزالون على دينهم المسيحي^(٣) ، وقد كانت صناعة النسيج زاهرة في عهد الفراعنة ثم تقدمت تقدماً كبيراً في مصر القبطي . فكانت مصر تصدر إلى بزنطة وإلى بابوات رومة كثيراً من الأقمشة النفيسة التي كان يذهب جزء كبير منها إلى الكنائس المسيحية^(٤) . ويذكر Pliny أن مصر في العهد الروماني كانت تستورد سلع بلاد العرب والهند في نظير تصديرها للمنسوجات السكتانية التي كانت مطلوبة جد الطلب للتجارة الشرقية^(٥) .

أما في مصر الإسلامية فقد تطورت صناعة المنسوجات وزخرفتها تطوراً عظيماً غير فجائي . وكان العرب منذ الفتح يميلون في الزخرفة إلى

(١) الأزرقي : أخبار مكة ج ١ ص ١٣٧ و ١٦٨ ، المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ ، خطط المقرئ ص ١ ص ١٨١

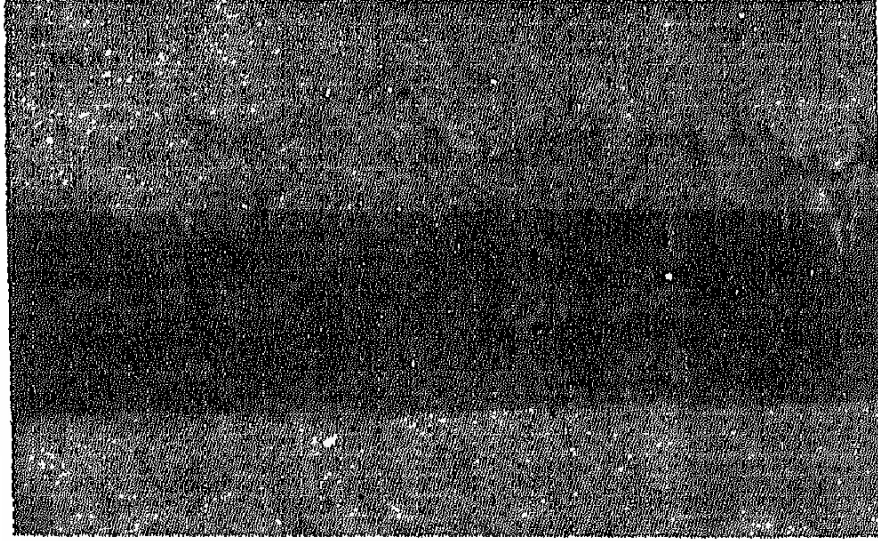
(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٦٠٢

(٣) الدكتور زكي محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية ص ١٦

(٤) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر ج ١ ص ٨٣ ، ٩٠٦

(٥) Johnson : Roman Egypt vol. 2. p. 338

العناصر الهندسية والنباتية لكراميتهم تصوير الانسان والحيوان (شكل ١) .



(شكل ١) قطعة نسيج محفوظة بدار الآثار العربية في القاهرة
ولعلها من صناعة مصر أو سورية في فجر الاسلام

وكان هذا الميل نفسه قد دب إلى الفنون القبطية منذ منتصف القرن الخامس الميلادى ، فأصبحت الرسوم الآدمية والحيوانية في زخارف المنسوجات القبطية محورة عن الطبيعة إلى حد بعيد (شكل ٢) . وهكذا لم يجد المصريون صعوبة كبيرة في إرضاء الفاتحين وإنتاج التحف الفنية التي تنفق ومزاجهم . وعلى كل حال فإن صناعة النسيج لم تطبع في مصر بطابع إسلامي ظاهر إلا في العصر الفاطمي ، وحتى حين أصبحت صناعة المنسوجات في العصر الفاطمي إسلامية بحتة لم تفل في زخارفها مما يدل على بعض العلاقة بماضيها في وادى النيل^(١) .

وكانت مصر مشهورة على الأخص بنسيج الكتان لوفرة زراعته ،

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى في مصر ج ١ ص ٩٠ ، بعض .



(شكل ٢) قطعة قماش من
الصوف محفوظة بدار الآثار
العربية في القاهرة وهي من
صناعة مصر في القرن الثالث
الهجري (٢٩٠ م)

وكذلك كان يصنع فيها المنسوجات الصوفية
والقطنية والحريرية . وإن كنا نرجح أن القطن
والحرير الخام في مصر لم يكفيا الاستهلاك المحلي
والتصدير وأن مصر استوردت في استيرادها كما
كان الحال قبل الفتح العربي . بينما كانت مصر
تنتج من الصوف ما يكفي حاجتها ، فيذكر
المقريزي^(١) أن أرض الصعيد كثيرة المواشي من
الضأن وغير ذلك ، لكثرة تاجه . وفضلا عن
ذلك فإن العرب الذين استقروا في مصر عنوا برعى
الإبل والماشية كما كان الحال في بلادهم ؛ ويذكر
ابن الفقيه^(٢) أن أهل مصر يقولون : « الصوف
والكتان لنا ، ليس لأحد من أهل البلدان مثلها » .
وكانت أهم مراكز النسيج في الوجه البحري ،
كما كانت توجد أيضاً مراكز هامة للنسيج في مصر الوسطى والعليا .
وزاعت شهرة الاسكندرية في هذه الصناعة . ويذكر المقريزي^(٣) أن الثياب
المنسوجة بالاسكندرية لانظير لها ، وتحمل إلى أقطار الأرض ، وأن في ثياب
الاسكندرية ما يباع الكتان منه إذا عمل ثياباً ، يقال لها الشرب ، كل
زنة درهم بدرهم فضة .

واشتهرت تنيس أيضاً بالثياب الفاخرة والفرش ، وكان معظم أهلها

(١) الخطط ج ١ ص ١٩٠ .

(٢) مختصر كتاب البلدان ص ٦٩ .

(٣) الخطط ج ١ ص ١٦٣ .

يشتغلون بالنسج ، وكان يحاك بها الثياب المعروفة بالشرب . ومما يدل على عظمة تنيس في النسج أنه كان يصنع بها للخليفة ثوب يقال له البدنة ، لا يدخل فيه من الغزل سداة ولحمة^(١) غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة . وتبلغ قيمة هذا الثوب ألف دينار . وظل ذلك التصدير من تنيس إلى ما بعد سنة ٣٦٠ هـ ، حين ولي وزارة الفاطميين يعقوب بن كلس فنع الإصدار^(٢) . وإلى جانب هذه الثياب الجيدة كان يوجد ثياب رقيقة « مهلهلة النسج كأنها المنخل »^(٣) ، وهي المسماة بالقصب ، وكان هذا القصب يلون ، وكان الملون منه ينسج بتنيس ، ولم ينسج في أى مكان آخر قصب ملون مثله ، وكان يعمل منه عمامم للرجال وملابس للنساء ، أما الأبيض فكان ينسج بدمياط^(٤) . إذ يذكر المقدسى^(٥) أن من تنيس الثياب الملونة لا من دمياط .

وكانت دمياط تقارب تنيس في شهرتها في النسج ، وكان يعمل بها الثياب الشرب والقصب . ويذكر الأدريسى أن الثياب التي كانت تعمل بها من الكتان ، وربما بلغ الثوب من ثيابها إذا كان مذهبا ألف دينار ونحو ذلك ، وما لم يكن فيه ذهب المائة والمائتين ونحوه^(٦) .

(١) السدى من الثوب خلاف اللحمة وهو مامد من خيوطه . واللحمة ما نسج عرضا من الثوب وهو بخلاف سداة

(٢) ابن رسته : الأعلام النفيسة ص ٩٠ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ الأدريسى : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٥٦ ، ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٨٢ ، خطط القرى ج ١ ص ١٧٧

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٩٠

(٤) آدم متر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٩٧ — ٢٩٨

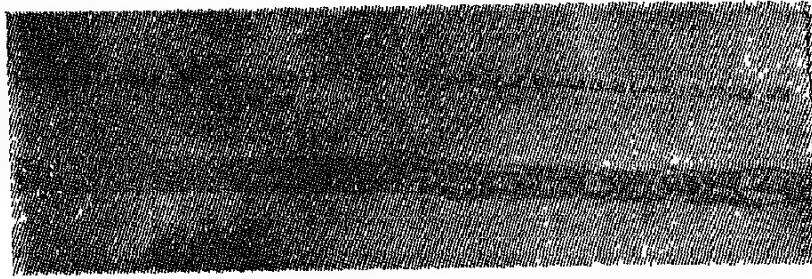
(٥) أحسن التقاسيم ص ٢٠٣

(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ ، الأدريسى صفة المغرب ... ص ١٥٦

— ١٥٧ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٦٠٢ — ٦٠٣ ، خطط القرى ج ١ ص ١٧٧ .

وقد اشتهر في النسيج أيضاً من بلدان مصر السفلى شطاً ودميرة وتونة وكلها قريبة من تنيس ودمياط^(١) . وقد اشتهر في النسيج من بلدان مصر الوسطى والعليا مدينة البهنسا ، فكان ينسج بها الصوف والقطن ، وكان إذا صنع بها شيء من الصوف أو القطن كتب عليه اسم المتخذ له ، وقد اتخذوا ذلك عادة لهم جيلاً بعد جيل^(٢) . وقد كانت الكتابة ذات شأن في صناعة المنسوجات في العصر الإسلامي ؛ ففي دار الآبار العربية قطعة من الكتان الأبيض تشبه كثيراً الأقمشة القبطية وعليها شريط من زخارف فيه رسوم طيور محوّرة عن الطبيعة ومنسوج على هذه القطعة بالخط الكوفي البسيط سطر بالحرير الأحمر نصه :

« هذه الهامة لسمويل بن موسى . عملت في شهر رجب من الشهور الحمديّة من سنة ثمان وثمانين^(٣) » (شكل ٣) .



(شكل ٣) قطعة قماش من الكتان الأبيض محفوظة بدار الآثار العربية في القاهرة . ومؤرخة من سنة ٨٨ هـ (٧٠٧ م)

واشتهرت القيس أيضاً بثياب الصوف وأكسية المرعش^(٤) التي لم يكن

(١) الأدريسى : صفة المغرب ص ١٥٦ ، خطط المقرئ ص ١٧٧ و ٢٢٦

(٢) اليعقوبي : كتاب البلدان . ص ٣٣١ ، خطط المقرئ ص ١ و ٢٢٧

(٣) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر ج ١ ص ٨٦

(٤) المرعش الذين من الصوف .

لها مثيل والقيس كما نعرف ، على مقربة من البهنسا ، من أعمال مديرية
النيابة^(١)

وكان هناك مصانع للنسيج في الأشمونين^(٢) وأسيوط وإخميم وأهناس^(٣)
وبوصير قريدس^(٤) وغيرها من بلاد الوجه القبلي .

وكانت هذه المنسوجات تنسب في العادة إلى البلاد التي تعمل فيها ،
فيقال الثياب الشطوية والقيسية ، ويقال التنيسى والدبمياطي الخ ..

أما نسيج الحرير فقد ازدهرت صناعته في مصر في فجر الإسلام . ومن
المدن التي قامت فيها هذه الصناعة مدينة دبيق^(٥) وقد عثر في أخميم على
لباس من الحرير كتب عليه اسم الخليفة مروان . ولسنا نعرف هل المقصود
هنا مروان بن الحكم أو مروان بن محمد^(٦)

وهناك أيضا منسوجات حريرية من إخميم في المتحف البريطاني نسجها
الصناع القبط وترجع إلى هذا العهد الذي نتحدث عنه أو بعده بقليل^(٧)
ويتجلى فيها الميزات القبطية والعربية . والحق أن زخارف المنسوجات
لمصرية بين الفتح العربي وقيام الدولة الفاطمية كانت لا تزال محتفظة بقسط
وافر من روح الزخارف في المنسوجات القبطية (شكل ٤) ، وتعتبر عصر

(١) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٣٣١ ، خطط المقرئى ج ١ ص ٢٣٧

(٢) الأصطخرى : مسالك الممالك ص ٥٣

(٣) اليعقوبي : البلدان ص ٣٣١

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٢

(٥) خطط المقرئى ج ١ ص ٢٢٦

(٦) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. 1, No.

36 p. 28.

(٧) انظر Butler : Islamic Pottery p. 31

انتقال بين الطراز القبطي والمنسوجات ذات الزخارف الإسلامية الخالصة
في العصر الفاطمي . .



(شكل ٤) قطعة قماش من الصوف والكتان محفوظة بدار الآثار العربية
في القاهرة . وهي من صناعة مصر في القرن الثالث الهجري (٩ م)

ولم يكن الفضل في اتساع نطاق فن النسيج في مصر في العصور
الوسطى راجعاً إلى الأهالي فقط. وإنما كان يرجع إلى الحكومة أيضاً فقد
كانت تسيطر على مصانع النسيج ، والواقع أن هذه السيطرة نظام لم ينشئه
المسلمون في مصر بل أخذوه عن بيزنطة ، فالراجح المحتمل أن يكون
البيزنطيون قد أنشأوا فيها مصانع حكومية للنسيج إلى جانب المصانع
الأهلية ، فلما جاء المسلمون أبقوا على هذا النظام^(١) .

ولفظ طراز مشتق من الفارسية « ترازيدن » و « تراز » بمعنى التطريز
وعمل الدبج broderie تم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير أو

(١) Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne t. IV. p. 174.

السلطان ورجال الحاشية لا سيما إذا كان فيها شيء من التطريز وعليها أشرطة من الكتابة ، واتسع مدلول هذا اللفظ حتى انتهى في العربية والفارسية إلى الدلالة على المصنع والمكان الذي تصنع فيه مثل هذه المنسوجات^(١) على أن كلمة « طراز » استعملت في معان أخرى ، مثل الدلالة على أى قش من النقوش التى توضع على شريط مستمر من أى نوع كان سواء أ كان من الحجارة أو الفسيفساء أو الزجاج أو الفخار أو محفوراً فى الخشب . كذلك أطلق لفظ طراز على الكتابة الرسمية التى كانت تكتب على درج البردى^(٢)

ولم يبق نظام الطراز وفقاً على مصر بل نكاد نجده فى كل الأقاليم الإسلامية كسورية والمراق وإيران وآسيا الصغرى واسماييا وخراسان صقلية^(٣) . ويظهر أنه كان هناك نوعان من هذه المصانع الخشبية . الأول طراز الخاصة وكان لا يعمل إلا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته . والثانى طراز العامة وكان يتبع أيضاً بيت مال الحكومة ، ولكنه كان يعمل لحساب بلاط الخليفة وأفراد الشعب^(٤) . وقد كتب على بعض المنسوجات التى صنع عليها والتي ترجع إلى هذا العهد أنها صنعت فى طراز الخاصة وعلى البعض الآخر أنها صنعت فى طراز العامة^(٥) *

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٨٤

(٢) أدولف جردمان : أوراق البردى العربية ج ١ ص ٣ (١٩٠٤) ص ١٠٠
الدكتور حسن إبراهيم حسن

(٣) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٨٥

(٤) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١١٠ وما بعدها

(٥) Repertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. 1. pp.75,

1974, t. 1. pp. 98, 139.

والذى يهمننا بيبانه هو أن الخلفاء عنوان منذ الفتح الإسلامى بتشجيع صناعة المنسوجات المصرية ، وكثيراً ما كان الخلفاء يستعملون هذه المنسوجات للابسهم أو للخلع التى كانوا يخلعونها على كبار رجال دولتهم ، فكان الخلفاء أو الأمراء يكافئون أفراد رعيّتهم ويظهرون رضاهم عنهم بما كانوا يخلعونهم عليهم من الخلع والملابس

وقد رأينا مما سبق أنه كان يصنع للخلفاء بتنيس ثياب فاخرة تعرف باسم البدنة . ويذكر المؤرخون أن معاوية بن أبى سفيان لما كبرت سنه كان لا يدفأ ، فاتفقوا أنه لا يدفئه إلا الأكسية التى تعمل بمصر من صوفها المرعز فعمل له منها عدد فسا احتاج منها إلا إلى واحد (١) .

وقد عني الخلفاء والأمراء بكتابة أسمائهم على هذه الأقمشة الثمينة ، وكانت الكتابة على النسيج بلحمة من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان ، وكانت الكتابة تشمل اسم الخليفة وألقابه وبعض عبارات الأدعية وكثيراً ما كان يذكر فيها اسم المدينة التى فيها الطراز واسم الوزير وصاحب الخراج وناظر الطراز . وكان الغرض من هذه الكتابات الملكية على الأقمشة بيان الأمير الذى عملت باسمه أو الشخص الذى خلعت عليه (٢)

وقد عثر على قطع منسوجات صنعت فى مصر وكتب عليها أسماء الخلفاء العباسيين ، فهناك قطعة نسيج صنعت للخليفة المهدى فى طراز تنيس سنة ١٦٢ هـ وكتب عليها « بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع فى طراز

(١) خطط القرينى ج ١ ص ٢٠٤

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٨٥

تفيس على يدى الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة^(١) . وهناك قطعة صنعت فى طراز تونة سنة ١٩٠ هـ للخليفة هرون الرشيد^(٢) كما صنعت له قطعة أخرى فى سنة ١٩٣ هـ^(٣)

وقد عثر أيضاً على قطعة نسيج صنعت بطراز العامة بمصر للخليفة الأمين^(٤) . ولا نعرف متى صنعت . وهناك قطعة صنعت للخليفة المأمون فى سنة ٢٠٦ هـ^(٥) كما عثر على قطعة أخرى صنعت لنفس الخليفة فى طراز الخاصة ٢١٦ هـ^(٦) (شكل ٥) ، وهناك قطعة صنعت للخليفة المستعين بالله فى سنة ٢٥٢ هـ^(٧) وأخرى صنعت فى طراز الخاصة بمصر فى سنة ٢٥٤ هـ لأمير المؤمنين^(٨) وهو إذ ذاك المعتز بالله .



(شكل ٥) قطعة نسيج محفوظة بدار الآثار العربية وعليها كتابه نصها
» بركة من الله لعبد الله الامام المأمون أمير المؤمنين أعزه الله مما عمل
فى طراز الخاصة سنة ست عشرين ومايتين «

وقد عني الخلفاء أيضاً منذ الفتح العربى لمصر بأخذ كسوة الكعبة

Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. 1. p. 35. (١)

op. cit. p. 62. (٢)

op. cit. p. 68. (٣)

op. cit. p. 75. (٤)

op. cit. p. 115. (٥)

op. cit. p. 165. (٦)

op. cit. t. 2. p. 122. (٧)

op. cit. t. 2. p. 128. (٨)

من المنسوجات النفيسة التي كانت تصنع بها ، فيذكر الأزرق^(١) أن عمر ابن الخطاب كسا الكعبة القباطي من بيت المال ، وكان يكتب إلى مصر لتصنع له فيها ، وكذلك فعل عثمان من بعده . فلما كان معاوية ابن أبي سفيان كساها كسوتين ، كسوة عمر القباطي ، وكسوة ديباج . فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء ، وتكسى القباطي في آخر شهر رمضان .

ويقول القريري : إن الفاكهي ذكر في كتابه أخبار مكة أنه رأى كسوة من قباطي مصر ، مكتوباً عليها « بسم الله بركة من الله مما أمر به عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان ، أن يصنع في طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسleme عامه سنة تسع وخمسين ومائة^(٢) .

ويذكر الفاكهي أيضاً أنه رأى كسوة من كساء المهدي ، مكتوباً عليها « بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع في طراز تنيس على يد الحكم ابن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة^(٣) » . كذلك يقول الفاكهي أنه رأى كسوة لهرون الرشيد من قباطي مصر ، مكتوباً عليها « بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هرون أمير المؤمنين أكرمه الله ، مما أمر الفضل بن الربيع أن يعمل في طراز تونة سنة تسعين ومائة^(٤) » .

ومن بين ما رآه الفاكهي كسوة لهرون الرشيد أيضاً من قباطي

(١) أخبار مكة ج ١ ص ١٦٨ — ١٦٩

(٢) الخطط ج ١ ص ١٨١ ، Répertoire. t. 1. p. 34.

(٣) خطط القريري ج ١ ص ١٨١. Répertoire t. 1. p. 35.

(٤) خطط القريري ج ١ ص ١٨١. Répertoire t. 1. p. 62.

مصر، مكتوباً عليها . « بسم الله بركة من الله لعبد الله هرون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مما أمر به الفضل بن الربيع ، مولى أمير المؤمنين بصنعه في طراز شطا كسوة الكعبة سنة إحدى وتسعين ومائة ^(١) » . ورأى الفاكهى أيضاً كسوة في الكعبة ، مكتوباً عليها « مما أمر به السرى ابن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى ، بأمر الفضل بن سهل ، ذى الرياستين ، وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة ^(٢) . ويذكر أيضاً أنه رأى قطعة من قباطى مصر في الكعبة ، مكتوباً عليها بخط رقيق أسود « مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين ^(٣) » .

ويجدر بنا أن نذكر أن مصر ، كما استمرت ترسل القمح سنوياً إلى الحجاز حتى بعد أن انتقل مقر الخلافة واستقلت عنها مصر ، كذلك استمرت ترسل كسوة الكعبة سنوياً ، بل إن إرسال كسوة الكعبة من مصر إلى مكة كان يشير إلى زعامة مصر على الحجاز وعلى العالم الإسلامى كله ، وكان النزاع الذى نشأ بين السلطان الملك الأشرف برسبای سلطان مصر (٨٢٥ - ٨٤١ هـ) وشاه رخ ابن تیمورلنك بسبب إرسال كسوة الكعبة معناه نزاع حول الزعامة فى العالم الإسلامى ^(٤) .

الورق

واشتهرت مصر فى فجر الاسلام بصناعة الورق من البردى الذى كان ينمو بكثرة فيها ، وخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم . وشهرة مصر فى

(١) خطط المقرئى ج ١ ص ٢٢٦ أنظر Repertoire t. 1. p. 63.

(٢) خطط المقرئى ج ١ ص ١٨١ Repertoire t. 1. p. 115.

(٣) المقرئى : ج ١ ص ١٨١ ، Repertoire t. 1. p. 74.

(٤) Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne p. t. IV. pp. 563—564.

صناعة الورق من البردى شهرة قديمة ، وخاصة منذ العهد الروماني^(١) .
ويذكر ابن الفقيه^(٢) في أواخر القرن الثالث الهجري أن لأهل مصر
القراطيس التي لا يشركهم فيها أحد ، ويذكر اليعقوبي^(٣) أن القراطيس
كانت تصنع في بورة ، وهي حصن على ساحل البحر من عمل دمياط وفي
مدينة إخنو وهي على ساحل البحر غربي فرع رشيد ، ويقال لها وسيمة .

وطالبا كان الناس يستعملون البردى للكتابة ، كانوا يعتمدون على
مصر . أما في القرن الرابع الهجري فيحدثنا الثعالبي أن كواغيد سمرقند
عطلت قراطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها ؛ لأنها
أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ، ولا تكون إلا بسمرقند والصين
ويذكر كراباتشيك Karabacek أن صناعة إعداد ورق البردى للكتابة
انتهت في مصر بالإجمال حوالى القرن الرابع الهجري . والواقع أن ورق
البردى المؤرخ الذي وصل إلينا ينتهي في عام ٣٤٣ هـ على حين أن الوثائق
المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ^(٤) . وهكذا نرى أن
مصر كانت طوال عهد الولاة تقريباً تكاد تحتكر صناعة الورق . وكان
صناع الورق ، كغيرهم من الصناع في مصر من المصريين ، وكانت أغليبتهم
أو كلهم في أول عهد الفتح من الأقباط ، وإلى أواخر القرن الأول الهجري
وأوائل الثامن الميلادي كان الطابع الذي يطبع على الورق يشمل هذه
الكلمات . « الأب والابن وروح القدس » ، ومع أن ذلك الطابع

(١) Johnson : Roman Egypt vol. 2. p. 387.

(٢) مختصر كتاب البلدان : ص ٦٦

(٣) البلدان ص ٣٣٨ .

(٤) آدم متر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٠٨ .

استبذل بعد ذلك بما يتفق ، والدين الاسلامي ، إلا أن الكتبة ظلوا يرسمون علامة الصليب على ظهر أوراق الحكومة^(١) .

الخشب

وقد مهر المصريون منذ عهد الفراعنة في صناعة الخشب بالرغم من قلة الأخشاب في مصر ، وأن ما يوجد بها من الشجر لا يصلح خشبه إلا لأعمال النجارة البسيطة ، مثل شجر الجيز والسنت والزيتون والسرو والبندق . وكان المصريون منذ المصور القديمة يستوردون من البلاد المجاورة ما يلزمهم من خشب الأرز والصنوبر والأبنوس والساج ، وغيرها من أنواع الخشب الثين . وكان جفاف الجو يساعد على بقاء الخشب في حالة جيدة^(٢) . وقد ظلت لمصر السيادة في الحفر على الخشب وصناعته ، حتى القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي .

وكما خلف لنا الفراعنة التماثيل الخشبية النادرة ، مثل تمثال شيخ البلد وغيره من التماثيل ، نرى أن الفن القبطي ورث مهارة قدماء المصريين في صناعة الخشب ونقش الزخارف عليه ، وقد تطورت هذه الصناعة على يد النجارين القبط الذين تأثروا بالفن البيزنطي ، فازدادت صناعتهم جمالا ، وزاد إنتاجهم كثيراً .

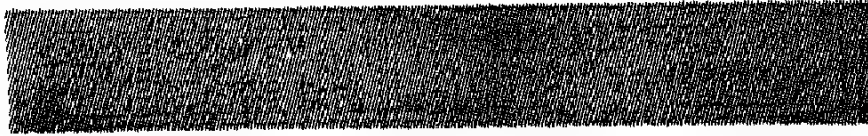
وقد اشتغل الرهبان بالنجارة أيضاً وأتقنها الكثير^(٣) منهم ، فلما جاء المسلمون تركوا الصناعة في يد الأقباط كما كانت سياستهم . وقد وصلت

(١) Wiet : Précis de l'hist. d'Egypte t. 2. p. 147.

(٢) الدكتور زكي محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ص ١٣ — ١٤

(٣) الدكتور زكي محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ص ١٣ — ١٤

إلينا قطع كثيرة من الخشب ذى الزخارف ، مستعملة فى الأبنية ، أو فى قطع الأثاث . وأقدم هذه القطع يرجع إلى القرنين الثانى والثالث الهجرى (الثامن والتاسع الميلادى) ، وقد وجد فى القرافة القديمة بالفسطاط حيث كان يستعمل بعد كسره من الأبنية والأثاث لمنع انهيار الأتربة فى المدافن وقد ظهرت فى هذه القطع الأساليب القبطية فى الصناعة ، مع تطورها التدريجى لتتخذ لنفسها مسحة إسلامية^(١) . وقد وصلت إلينا قطع خشبية ترجع إلى عصر الانتقال بين الصناعة القبطية البحتة ، فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) والصناعة الإسلامية فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وهذه القطع مزخرفة بالنقوش التى امتاز بها الشرق الأدنى فى العصر المسيحى . وبعض القطع المذكورة لا تكاد تميزه عن القطع القبطية إلا بما عليه من كتابات عربية^(٢) (شكل ٦) .



(شكل ٦) لوح من الخشب محفوظ فى دار الآثار العربية فى القاهرة وهو من صناعة مصر فى القرن الأول أو الثانى بعد الهجرة (٧ — ٣٨ م)

ولا يبعد أن يكون العرب فى مصر قد اتخذوا لأنفسهم شكل الكثير من قطع الأثاث القبطية ، كالدواليب والموائد ، ولعلهم أخذوا عنهم أيضاً الكرسي الذى يحمل عليه المصحف ، والذى يعرفه القبط باسم منجليه ، (أى محل الإنجيل^(٣)) .

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٩٢ — ٩٣ وما ذكره من مراجع
(٢) الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية . ص ١٤
(٣) المرجع نفسه ص ١٥

الخزف والزجاج والمعادن

وتم صناعة أخرى اشتهرت بها مصر حينذاك وهي صناعة الخزف .
ويذكر الأستاذ بتلر أن صناع الخزف في مصر ظلوا محتفظين بمهارتهم
وبسر هذه الصناعة منذ عهد الفراعنة ، كما تأثروا بالفن البيزنطي من حيث
النماذج والزخرفة . وتدل التحف الخزفية التي ترجع إلى فجر الاسلام .
على أن طلاء الخزف بالفسان كان متقناً حينذاك ، كما أن الخزف ذا البريق
المعدني كان معروفًا ؛ ولكننا لا نعرف تمامًا هل نشأت صناعة هذا الخزف
في مصر أم نقلت إليها من إيران أو العراق^(١) .

وكانت صناعة الزجاج مزدهرة في مصر منذ المصور القديمة وكان
مركزها قبل الاسلام مدينة الاسكندرية . ولا ريب في أنها لم تهمل في



(شكل ٧) ختم زجاجي باسم عيد الله
ابن الجباب مؤرخ من سنة ١١٠ هـ
(٨٢٩ م)

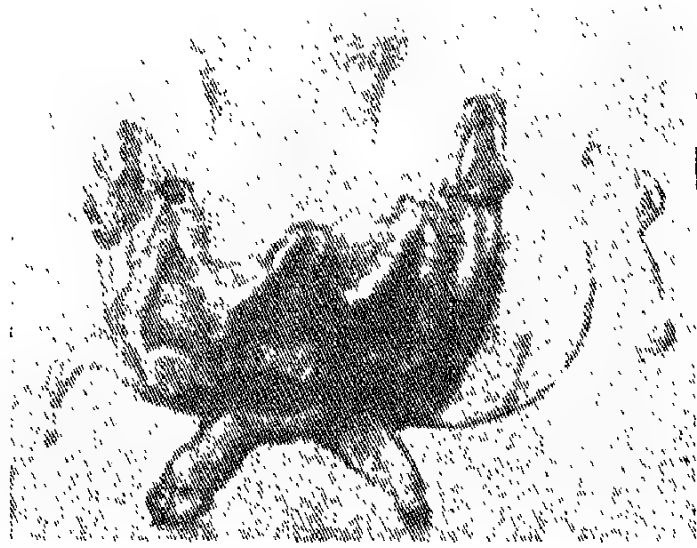
فجر الاسلام ، فإنه فضلًا عن عمل
الأوزان الزجاجية والخواتم والأختام
التي كان يطبع بها على الأواني لبيان
أحجامها المختلفة^(٢) (شكل ٧) ،
كان المصريون لا يزالون محتفظين
بمعظم ما عرفه أجدادهم من أسرار
صناعة الزجاج (شكل ٨ و ٩) .

وكانت صناعة المصادن مزدهرة
في مصر الفرعونية واحتفظ القبط

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر ج ١ ص ١٠٠ — ١٠٤

(٢) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر ج ١ ص ١١٧ — ١١٨

Flinders Petrie : Glass Stamps and Weights (London 1926).



(شكل ٨) قنينة من الزجاج على هيئة حيوان ، كانت محفوظة في القسم الاسلامي من متاحف الدولة في برلين ، وهي من صناعة مصر في فجر الاسلام



بالتفوق فيها والراجح أنهم نقلوها إلى تلاميذهم من الصناع العرب في فجر الاسلام ، ولكننا لا نعرف تماماً أي آثار معدنية مصرية من هذا العصر . أما أبريق البرونز الذي كشف في أبي سير الملق (شكل ١٠) فيرجع إلى القرن الأول أو الثاني بعد الهجرة ولكنه يتبع الطراز الساساني في الصناعة والزخرفة .

(شكل ٩) وعاء من الزجاج كان محفوظاً في القسم الاسلامي من متاحف الدولة ببرلين ولعله من صناعة مصر في فجر الاسلام .
أما النقود فقد كان الولاة في مصر يتخذون منها ما تتخذها عاصمة الخلافة ولكن بعض قطع السكة كانت تضرب في مصر (شكل ١١) .

ومن الصناعات الشعبية التي ازدهرت في مصر منذ فجر الاسلام صناعة شواهد القبور . وكانت هذه الشواهد في البداية بسيطة من الحجر والرخام ، ثم اكتسبت طابع الاتقان تدريجياً حين دخلت الزخرفة على الخط الكوفي الذي ظلت تكتب به إلى نهاية العصر الفاطمي (شكل ١٢) .

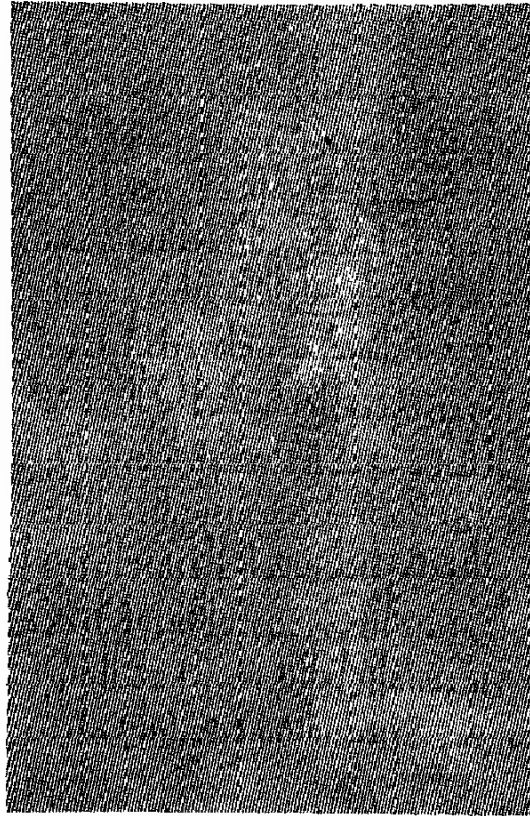


(شكل ١٠) إبريق من البرونز محفوظ بدار الآثار العربية في القاهرة وينسب إلى الخليفة الأموي مروان ابن محمد . ولعله من صناعة القرن الاول أو الثاني الهجري (٧ - ٨ م)



(شكل ١١) دينار من عصر الخليفة المأمون ضرب في سنة ١٩٩ هـ (٨١٤ م)

والآن وقد استعرضنا أهم الصناعات والفنون التي اشتهرت بها مصر في ذلك العهد ، نرى من الواجب علينا أن نقول إن الولاة من قبل الخلفاء شجعوا هذه الصناعات المختلفة ، وعضدوا الصناع المصريين الذين توارثوا هذه الصناعات المختلفة منذ أقدم العصور ، والذين كانوا يفوقونهم من غير شك في كافة مظاهر الحضارة المادية ، وقد ظل العرب لا يتدخلون في هذه الصناعات ولا يشاركون المصريون فيها حتى عهد المعتصم على الأقل حين غير العرب ما بأنفسهم ، وتركوا الجندية ، وأصبحوا يعيشون في مصر كالمصريين .



(شكل ١٢) شاهد قبر من سنة ٢٣٦ هـ . محفوظ بدار الآثار العربية
في القاهرة . ونص كتابته : بسم الله الرحمن الرحيم — إن في الله عزاء
من كل مصيبة و — خلف من كل هالك ودرك لما فا — ت وأن أعظم
المصائب المصيبة — بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم — هذا ما تشهد به جنة
ابنت ا — لفرح ابن يونس تشهد لإلا إله إلا — الله وحده
لا شريك له وأن — محمد عبده ورسوله صلى الله عليه — عليه
وسلم وأن الجنة والنار وا — لموت حق والساعة
آتية لا — ريب فيها وأن الله يبعث من
في القبور — توفيت في رجب
سنة ست وثلثين
ومايتين

٣ — التجارة

يتطلب النشاط الزراعى والصناعى نشاطا فى التجارة أيضاً . وإن كانت مصر قد نشطت فى التجارة فلم يكن ذلك راجعاً إلى تقدم الزراعة والصناعة فقط وإنما يرجع إلى موقع مصر الممتاز بين قارات أفريقيا وأوروبا وآسيا . وقد ظهرت قيمة هذا الموقع الجغرافى العالمى منذ عهد الإسكندر المقدونى أى فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد حين اتصلت مناطق الحضارة المختلفة بعضها ببعض وامتدت بينها أسباب التجارة وصلات السياسة والثقافة .

وظلت مصر منذ عهد الإسكندر الأكبر تتمتع بهذا المركز الممتاز العالمى فلم تكف بتصدير ما يزيد عن حاجة البلاد من الزراعات أو الصناعات واستيراد ما تحتاج إليه البلاد ، بل كانت تلعب دور الوسيط بين الشرق والغرب ، فكانت مخزناً للبضائع الشرقية والغربية تصدر منتجات الأسواق الشرقية إلى الأسواق الغربية وبالعكس . وهكذا كانت التجارة تلعب دوراً هاماً فى حياة مصر الاقتصادية .

ولم يغيّر الفتح العربى فى الدور التجارى الذى لعبته مصر منذ القدم ، فكما اهتم العرب باستغلال موارد البيئة المحلية بمصر ، اهتموا أيضاً باستغلال الموقع الجغرافى العالمى لمصر . وكان أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب وقبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (فى القرن ٩ هـ و ١٥ م) هو طريق البحر الأحمر ، إذ كان هذا الطريق يقلل ، إلى أدنى حد ممكن ، المصاعب والنقبات الطائلة التى يسببها النقل البرى . فإذا استثنينا الشريط البرى الضيق بين البحر الأحمر والنيل ، كانت البضائع التى ترسل من بلاد الهند والصين تسلك دائماً طريق البحر وتتبع الطريق المباشر ، أى أقصر

الطرق للوصول إلى موانئ إيطاليا وفرنسا وإسبانيا . وقد استفادت مصر بموقعها المتوسط من ذلك الطريق ، ونسبتطيع أن نقول عن مصر كلها ما قاله وليم الصوري عن الاسكندرية بأنها كانت سوق العالمين forum publicum utrique orbi^(١) . ورغم الصعاب التي كانت تكتنف الملاحة في هذا البحر فإنه كان ولا زال قبلة الأنظار للتجارة وللمواصلات بين الشرق والغرب ، وزاد في أهميته حديثاً حفر قناة السويس التي تصل بينه وبين البحر الأبيض المتوسط .

وقد كانت تجارة البحر الأحمر تنتهي أحيانا إلى ميناء Leuce Come (الحورة الحالية) على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر ومنها تتخذ طريق القوافل إلى سوريا ، وكانت أحيانا تصل إلى أيلة عند العقبة الحالية ومنها أيضاً تخرج التجارة إلى فلسطين وسوريا . وكثيراً ما كانت تنتهي التجارة الشرقية عند ميناء Berenice (رأس بناس الحالية) أو Leucos Limen (القصير الحالية) أو Myosttormos (أبو شعر الحالية) ، ومن هذه الموانئ تتجه التجارة عن طريق الصحراء الشرقية إلى قفط على النيل وتتخذ طريق النيل حتى الاسكندرية ، ومن الإسكندرية تتصل التجارة الشرقية بأسواق الغرب عن طريق حوض البحر الأبيض المتوسط . وكانت السفن التجارية تواصل السير أحيانا في البحر الأحمر إلى القلزم وهي السويس الحالية ثم تسير في القناة النيلية التي تصل بين البحر الأحمر والنيل عن طريق البحيرات المرة ووادي طميلات . وهذه القناة اهتم بحفرها الفراعنة وأعاد حفرها البطالسة والرومان ، وكانت تسهل كثيراً على التجار

Heyd : Hist. du Commerce du Levant. vol. 1. p. 378. (١)

ويستخدمونها للوصول إلى الإسكندرية عن طريق النيل بعد أن ينتهى طريق البحر عند ميناء القلزم .

وقد اهتم المصريون ، أو الذين حكموا الشعب المصرى فى العصور المختلفة منذ الأزمنة القديمة بالسيطرة على الطرق الطرق التجارية ليضمنوا سلامة استقلالهم السياسى والاقتصادى ، وليجعلوا مصر الطريق الرئيسى لمرور التجارة ، وكثيراً ما دفعهم هذا إلى الاستيلاء على فلسطين وسوريا ، للسيطرة على طرقهما التجارية ولتأمين الحدود المصرية . واهتم العاملون من حكام مصر فى العصور المختلفة بإصلاح الطريق الصحراوى الذى تمر فيه قوافل التجارة بين البحر الأحمر والنيل ، وبإقامة الحاميات فيه ، وبحفر الآبار على طول ذلك الطريق ، وبالقضاء على القرصنة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبإنشاء الموانىء على الشاطئ الغربى لذلك البحر فى أكثر المواقع صلاحية لرسو المراكب وللاتصال بالنيل ، وبشق طرق تجارية جديدة بين البحر الأحمر والنيل ، وبالاهتمام بالقناة التى تصل أحدهما بالآخر إلى غير ذلك من ضروب الاهتمام بالتجارة .

وكانت هناك طرق تجارية بين مصر والشام وسائر البلاد الشرقية ، وبين مصر والواحات الغربية والمغرب ، وبين مصر وأثيوبيا وأواسط إفريقيا .

وقد زاد نشاط مصر التجارى فى فجر الإسلام نتيجة لاهتمام العرب بالتجارة على الخصوص ، ولأن مصر وبلاد المغرب وسوريا وفلسطين ، وبلاد العرب أصبحت كلها جزءاً من إمبراطورية واحدة . وقد فطن المؤرخون المسلمون إلى ذلك الموقع الممتاز الذى تتمتع به مصر ، فكتبوا أن من فضائل مصر « أنها فرضة الدنيا يحمل من خيرها إلى سواحلها ،

وذلك أن من ساحلها بالقلم ينقل إلى الحرمين وإلى جدة وإلى عمان وإلى الهند وإلى الصين وصنعاء وعدن والشحر والسند وجزائر البحر ، ومن جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلد الروم وأقاصى الافرنجة وقبرص ، وسائر سواحل الشام والثغور إلى حدود العراق ، ومن جهة الاسكندرية فرضة اقريطش وصقلية وبلد الروم والمغرب كله إلى طنجة ومغرب الشمس ومن جهة الصعيد فرضة بلد النوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن^(١) .

وإن كانت مصر أفادت كثيراً من التجارة التى تمر بها ومن مركزها العالمى لتصدير منتجاتها الزائدة عن حاجتها ولاستيراد ما يلزمها من البضائع فإن الفائدة لم تكن قاصرة على المصريين فحسب ، بل استفادت الشعوب التجارية الأخرى من هذه التجارة العالمية ، ولا سيما البيزنطيون وسكان الجمهوريات الايطالية واليهود الذين كان لهم شأن عظيم فى التجارة والذين كانوا يملكون سفناً تجارية تمخر فى البحر الأبيض طولا وعرضا^(٢) .

وقد اهتم عمر بن الخطاب بإعادة حفر القناة النيلية التى كانت تصل البحر الأحمر بالنيل شمالى مدينة منف القديمة أى عند السكان الذى كان يتفرع منه النيل إلى فروعه فى الدلتا . وقد كانت هذه القناة ، منذ حفرها فى عهد الفراعنة أو البطالسة ، تهمل حيناً وتجدد حيناً آخر ويماد حفرها . وكان الإهتمام بها راجعاً إلى الرغبة فى تسهيل سير السفن بين البحر الأحمر والنيل .

ولكى نفهم ظروف حفر هذه القناة القديمة يجب أن نتذكر التغييرات التى طرأت على جغرافية نهر النيل خلال الألفى سنة الماضية . فنهري النيل

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ١ ص ٣٤١ ، خطط المقرئى ج ١ ص ٢٨ .

(٢) Heyd : Hist. du Commerce du Levant. vol. 1. pp. 125—126.

كان يتفرع شمالى بابليون بمسافة قليلة حيث موضع القاهرة الحالى تقريباً ، إلى ثلاثة فروع كبيرة منها فرعاً دمياط ورشيد الحاليان ، أما الفرع الثالث فهو الفرع البلوزى الذى كان فى شرقى فرع دمياط وينتهى بالقرب من مدينه بلوزيم القديمة (أو الفرما أو طينة الحالية) . وفى وسط ذلك الفرع تقريباً كان هناك بحيرة واسعة تتصل بمدينة بوباستيس القديمة أو تل بسطة الحالية القريبة من الزقازيق . ومن هذه البحيرة كانت قناة نخاو تسير نحو ميناء أرسنوى Arsinöe أو السويس ، ولكنها كانت تنهى عند البحيرات المرة التى كانت تقع فى الشمال الغربى لرأس البحر الأحمر . أما قناة بطليموس فقد امتدت من البحيرات المرة إلى البحر الأحمر نفسه عند السويس ماره بمدينة Heroöpolis التى يظن أنها كانت فى شمال غربى السويس وتبعد عنها بنحو ١٥ ميلاً وفى جنوب شرقى البحيرات المرة وتبعد عنها بنحو ٥ أو ٦ أميال . ويظن كثير من الكتاب أن البحر الأحمر نفسه أو خليج السويس كان يمتد شمالاً عما هو الآن ، ليس إلى البحيرات المرة ولكن إلى مدينة هروأوبوليس على الأقل . وعندما جفت مياه القناة الطبيعية التى كانت بين البحيرات المرة وخليج السويس الحالى ، حفر الملك دارا الفارسى والملك أجزر كسيس (القرن الخامس ق م) قناة توصل بين البحيرات المرة والخليج . وقد أعيد حفرها فى حكم بطليموس الثانى (القرن الثالث ق م) . وفى اثناء الحكم الرومانى لمصر كان الفرع البلوزى قد بدأ يجف كما أن القناة التى بين بوباستس والبحر الأحمر لم تمتد صالحة للملاحة السفن الكثيرة فى العهد الرومانى . ولذا اهتم الامبراطور تراجان فى القرن الثانى الميلادى (٩٨ — ١١٧ م) باصلاح تلك القناة وتمييقها كما أنه حفر قناة تخرج من النيل بالقرب من المنطقة التى تقوم فيها القاهرة الآن وتتقابل مع قناة نخاو

عند بلبيس الحالية في نقطة متوسطة بين بوباستيس والبحيرات المرة^(١) .
ولكن قياة تراجان هذه أهملت على ممر الأيام حتى أصبحت غير صالحة
للملاحة في بداية القرن السابع الميلادي^(٢) . فلما فتح العرب مصر في أوائل
ذلك القرن اهتموا بإعادة حفر هذه القناة . ويذكر ابن عبد الحكم^(٣) ومن
نقل عنه من المؤرخين مثل المقرئ^(٤) والسيوطي^(٥) أن أهل المدينة المنورة
أصابهم جهد شديد في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك في عام
الرمادة^(٦) ، فبعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يستنجده ، فبعث
إليه عبراً عظيمة ، كان أولها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضاً ، فلما
قدمت على الخليفة وسع بها على الناس فأعطى أهل كل بيت بالمدينة وماحولها
بميراً بما عليه من الطعام . ونحن وإن كنا نلصق في هذه الرواية شيئاً كثيراً
من المبالغة إلا أنها تدل على أن بلاد العرب أصبحت تعتمد بعد فتح مصر
اعتماداً رئيسياً عليها لإطعام أهل الحجاز . ثم يذكر المؤرخون أن عمر بن
الخطاب أمر بحفر قناة توصل بين النيل والبحر الأحمر وذلك ليسهل حمل
الطعام من مصر إلى المدينة ومكة . فأعاد عمرو بن العاص حفر القناة التي

(١) Wilson : The Suez Canal ... pp. 3-5.

(٢) Munier : L'Egypte Byzantine ... p. 82.

(٣) فتوح مصر — طبعة توري — ص ١٦٢ — ١٦٤ .

(٤) الخطط ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢ .

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٨ .

(٦) يذكر ابن الأثير في كتابه الكامل ج ٢ ص ٤٣٣ — ٤٣٤ ، أنه

في سنة ١٨ هـ أصاب الناس مجاعة شديدة وجذب وقحط ، وهو عام الرمادة ، وكانت
الريح تسفي تراباً كالرمادة ، فسمى عام الرمادة . وفي هذه السنة أيضاً كان طاعون
عمواس . فكتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأمصار ، يستغيثهم لأهل المدينة ومن
حولها ويستمدهم ، ومن بين الذين استغاث بهم عمرو بن العاص أمير مصر .

كانت توصل النيل بالبحر الأحمر ولم يمض على ذلك عام حتى جرت السفن في القناة وحل الطعام إلى أهل الحرمين . وسميت هذه القناة باسم خليج أمير المؤمنين نسبة إلى عمر بن الخطاب .

ويتبين من هذه الرواية أن الغرض الأساسي من حفر خليج أمير المؤمنين كان حمل الطعام والقمح إلى الحجاز ، وليس تسهيل التجارة . وذكر المقرئى نقلاً عن السكندى في « كتاب الجند العربي » أن عمرأ حفره في سنة ثلاث وعشرين وفرغ منه في ستة أشهر وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز في الشهر السابع^(١) . ويظهر أن العرب استعملوا السخرة في حفر هذا الخليج أو القناة كما أنهم استخدموا عدداً عظيماً من أهل البلاد وذلك لأن عمرأ أعاد حفرها في وقت قصير ذكر المؤرخون أنه لم يتجاوز السنة . ويذكر حنا النقيوسى^(٢) أن المسلمين فرضوا على المصريين إعادة حفر قناة تراجان من بابلين إلى البحر الأحمر وأن نيرهم على المصريين كان أشد وطأة من نير فرعون على بني إسرائيل .

وبالرغم من أن عمر بن الخطاب إنما اهتم بحفر قناة تراجان لتسهيل حمل الغلال والطعام من مصر إلى الحجاز ، فقد أفاد ذلك العمل التجارة والتجار ، فيذكر المقرئى^(٣) نقلاً عن ابن الطوير أن هذا الخليج كان مسلكاً للتجار وغيرهم ، ويذكر أيضاً أن السفن كانت تسير فيه إلى البحر الأحمر وتمر في البحر إلى الحجاز واليمن والهند . ولم يزل على ذلك إلى أن قدم محمد النفس الزكية ثائراً في الحجاز زمن الخليفة المنصور العباسي فكتب

(١) خطط المقرئى ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢) تاريخ ص ٧٧ • (ed. Zotenberg)

(٣) الخطط ج ٢ ص ١٤٣ .

النصور إلى عامله على مصر يأمره بطم الخليج حتى لا تحمل الميرة من مصر إلى المدينة فطمه وانقطع من حينئذ اتصاله ببحر القلزم^(١) . ويقال إن ولاية مصر أهملوا أمر هذا الخليج بعد عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز فقلب عليه الرمل وصار منتهاء إلى ذنب بحيرة التماسح^(٢) .

كذلك يقال إن عمرو بن العاص فكر في حفر قناة توصل ما بين البحر الأبيض والبحر الأحمر رأساً ولكن عمر بن الخطاب لم يوافق على ذلك^(٣) . ولو تمت هذه الفكرة حينذاك لسهلت الطريق التجارى كثيراً بين الشرق والغرب . ويذكر ابن خلدون^(٤) أنه ما زال الملوك في الإسلام وقبله يرومون شق ما بين البحرين إلا أن ذلك لم يتم .

ويذكر السعوى^(٥) والسيوطى أن الخليفة هرون الرشيد أراد أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم مما يلي القرما . فقال له يحيى بن خالد البرمكى : كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام وتدخل سراكبهم الحجاز . فمدل الرشيد عن هذه الفكرة .

وبالرغم من أن إهمال خليج أمير المؤمنين جعله غير صالح للملاحة السفن في أوائل العصر العباسى ، وأن هذا الإهمال لا يدل على بعد نظر فى شيء — فيما عدا أنه كان علاجاً مؤقتاً لطرف من الظروف ، إن صح أن أبا جعفر

(١) الخطط ج ٢ ص ١٣٩

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة تبرى — ص ١٦٤ ، خطط المقربرى ج ٢ ص ١٤٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٨ .

(٣) السعوى : مروج الذهب — طبعة أوربا — ج ٤ ص ٩٩ .

(٤) المقدمة ص ٣٩ (المقدمة الثانية فى قسط العمران من الأرض) .

(٥) السعوى — مروج الذهب — طبعة أوربا — ج ٤ ص ٩٨ — ٩٩ ،

السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٨٩

النصور أمر بسده كي يقطع الميرة عن أهل الحجاز عندما ناروا عليه — بالرغم من هذا يظهر أن طريق التجارة عن طريق القلزم وبرزخ السويس ظل يطرقة التجار طوال عصر الولاة الذي نتحدث عنه . وبؤيد كلامنا هذا ما كتبه الجغرافى المشهور ابن خرداذبه^(١) عن التجارة ، فى أواخر القرن الثالث الهجرى . فقد تحدث عن التجار اليهود الراذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والأفريقية والأندلسية والصقلبية ، وذكر أنهم يسافرون من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق براً وبحراً ، يجلبون من الغرب الخدم والجوارى والعلمان والديباج وجلود الخنز والفراء والسمور^(٢) والسيوف ، ويركبون من إفريقية^(٣) فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم إلى الجار وجدة^(٤) ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ، ثم يحملونه إلى الفرما ، ثم يركبون فى البحر الغربى ، فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم ، وربما صاروا بها إلى ملك إفريقية فيبيعونها هناك ، وإن شاءوا حملوا تجارتهم من إفريقية فى البحر الغربى فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية ثم يركبون فى

(١) كتاب المسالك والممالك من ١٥٣ — ١٥٤ والكتور زكى محمد حسن :

الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى من ٧ — ٩

(٢) السمور حيوان برى يقبه ابن عرس وأكبر منه ، لونه أحمر ، ماثل لى السواد ، يتخذ من جلده فراء ثميّة ، وربما أطلق السمور على جلده ، والجمع سلبير :

(٣) يقصد إفريقية هنا فرنسا .

(٤) الجار كانت ميناء المدينة المنورة ، أما جدة فهي ميناء مكة .

الفرات إلى بغداد ثم يركبون في دجلة إلى الأبله ومن الأبله إلى عمان والسند والهند والصين ، كل ذلك متصل بمضنه ببعض .

ويبين هذا النص أهمية مركز مصر التجارى ، كما يبين أن طريق القلزم والفرما كان من أهم حلقات الاتصال بين الشرق والغرب .

ولدينا نص متأخر عن ذلك ، كتبه المسعودى^(١) في القرن الرابع الهجرى وهو يبين أهمية ذلك الطريق التجارى أيضاً . فيقول إن مصر « هى البرزخ بين البحرين المذكورين فى القرآن^(٢) ، لأن من الفرما التى على ساحل بحر الروم إلى القلزم التى هى ساحل بحر الصين مسيرة ليلة ، يحمل إليها من جميع الممالك المحيطة بهذين البحرين من أنواع الأمتعة والطرائف والتحف من الطيب والأفاويه والمقاير والجوهر والرقيق وغير ذلك من صنوف المآكل والمشارب والملابس ، فجميع البلدان تحمل إليها وتفرغ فيها » .

وبالرغم من الأهمية التى كانت لخليج أمير المؤمنين فى التجارة ، أو لطريق القلزم — الفرما ، بعد سد ذلك الخليج ، فلا نستبعد أن يكون بعض التجار قد اتخذوا الطريق الصحراوى الذى يوصل بين البحر الأحمر والنيل طريقاً لمسيرهم خصوصاً بعد سد خليج أمير المؤمنين ، ونظراً لصعوبة الملاحة فى البحر الأحمر . وكان بعض التجار يتخذون هذا الطريق قبل الفتح ، فكانوا يسرون من القصير أو برنيس إلى قفط على النيل ثم يسرون فى النيل إلى البحر الأبيض المتوسط . ولكن يظهر أن هذا الطريق لم يكن

(١) التنبية والاشراف ص ٢٠

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بينهما برزخ لا يبغيان)

سورة الرحمن ، آية ١٩ — ٢٠

مفضلاً على غيره في فجر الإسلام؛ لأن الجغرافيين والمؤرخين العرب في ذلك العصر لم يطلبوا في الحديث عن أهميته كما فعل المؤرخون في عصر المماليك فبينما نرى اليعقوبي^(١)، أحد الجغرافيين الذين زاروا مصر في القرن الثالث الهجري لا يزيد على القول بأن عيذاب كانت ميناء تجارية، يذكر القريري^(٢) أن صحراء عيذاب كانت مزدهرة في القرن الخامس الهجري باعتبارها طريقاً للحج وللتجارة بين مصر والحجاز وغيرها من البلاد، ويذكر أن حجاج مصر والغرب كانوا لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب فيركبون النيل حتى قوص ويمبرون الصحراء إلى ميناء عيذاب ومنها يركبون البحر إلى جدة، وكذلك كان تجار الهند واليمن والحبشة يركبون البحر إلى عيذاب ثم يسلكون الصحراء إلى قوص ومنها يسيرون في النيل إلى مصر أو الإسكندرية. فالحق أن صحراء عيذاب ظلت آهلة بالتجارة والحجاج أكثر من مائتي سنة، وذلك بين سنتي ٤٥٠ هـ و ٦٦٠ هـ. أي أنها كانت مسلكاً للتجار والحجاج وبلغت درجة عظيمة من الازدهار في عهد متأخر عن العهد الذي نبحث فيه.

ولم يكن فتح العرب مصر سبباً في قصر تجارتها على دول الشرق وضعف علاقاتها التجارية مع بلاد الغرب، فقد رأينا من نصوص جغرافي العرب كيف كانت مصر طريقاً للتجارة بين الشرق والغرب معاً. وكذلك لم تفقد الإسكندرية مكانتها التجارية العالمية التي كانت لها قبل الفتح. فقد زار الإسكندرية بعد فتح العرب لمصر بنحو ثلاثين سنة (حوالي سنة ٦٧٠ م و ٥٠ - ٥١ هـ) أركولف Arculf أحد حجاج بيت المقدس فتكلم عن

(١) كتاب البلدان ص ٣٣٥

(٢) الخطط ج ١ ص ٢٠٧

الأسكندرية باعتبارها ملتقى التجارة العالمية حيث يتبادل البضائع فيها شعوب لا حصر^(١) لها . وإن كانت شهرة الأسكندرية قد تضاءلت قليلا بعد ذلك أمام شهرة بغداد التجارية ، فقد احتفظت رغم ذلك بمركزها التجارى الهام . ويذكر آدم متز^(٢) أنه حينما أخذت تجارة المسلمين إلسكان الأول فى التجارة العالمية فى القرن الرابع الهجرى كانت الأسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم فى ذلك العصر ولا سيما فى البضائع السكالية . وكما ظلت الأسكندرية محتفظة بأهميتها التجارية فقد ظلت أيضا العلاقات التجارية مستمرة بين مصر وأم الغرب ، فى أوائل القرن التاسع الميلادى (نهاية القرن الثانى وبداية الثالث الهجرى) نرى الحكومة البيزنطية تفكر فى أن تحرم على بحارتها الرسو فى الشواطئ السورية والمصرية . ولا بد أن البيزنطيين فى ذلك الوقت كانوا يتبادلون التجارة مع المسلمين^(٣) . وإذا كان الامبراطور شارلمان قد استطاع أن يرسل المساعدة إلى الفقراء المسيحيين فى الإسكندرية فلا بد أنه كان يستورد من مصر ما يلزمه من الحاجات وعلى الأخص التوابل التى كثيراً ما نجد ذكرها فى الوثائق المعاصرة^(٤) :

وطبىي أن طرق الحج وطرق البريد كانت أيضاً مسلكا للتجار فى ذلك العصر ، لأن الخلافة كانت تهتم بمهارة هذه الطرق وبالعناية بها وبتوفير الراحة فيها . فعندما كان خليج أمير المؤمنين مستعملا لملاحة السفن كان بعض الحجاج يتخذون هذا الطريق أيضاً للحج ، ويذكر السيوطى^(٥) أن حجاج

(١) Kammerer : La Mer Rouge. t. 1, p. 12—18.

Heyd : Hist. du commerce. t. 1. p. 41

(٢) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣١٢

(٣) Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t. 1V, p. 174.

(٤) Wiet : op. cit. p. 174.

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٩ .

البحر كانوا يسرون فيه إلى القلزم ومن القلزم ينتقلون إلى المراكب الكبار ،
ورأينا كذلك أن الطريق الصحراوي بين البحر الأحمر والنيل كان مسلكا
للتجار والحجاج . على أن هناك طريقا بريا كان يرتاده الحجاج بكثرة وهو
طريق أيلة التي كانت عند موضع العقبة الحالية . فيسير الحجاج من مصر
عن طريق البر إلى القلزم فإما أن يركبوا البحر إلى الجار ميناء المدينة —
وإما أن يسيروا إلى أيلة وبعدها إلى بلاد الحجاز .

وكان هناك ست مراحل^(١) بين القلزم وأيلة^(٢) . ويذكر المقرئ^(٣)
أن أيلة أول حد الحجاز ، وقد كانت مدينة جليلة على ساحل البحر بها التجارة
الكثيرة وأهلها أخلاط من الناس ، وكانت في الإسلام منزلا لبني أمية
وأكثرهم موالى عثمان بن عفان وكانوا سقاة الحاج ، وكان بها علم كثير وآداب
ومتاجر وأسواق عامرة .

وكانت بلاد الحجاز نفسها ملتقى للحجاج وللتجار فكانت البضائع
الشرقية تنبع إلى الحجاج المديدين ، فضلا عن أنها كانت تصل إلى أسواق
الغرب بواسطة التجار المصريين الذين يرافقون الحجاج في عودتهم إلى مصر
بالطريق البري حول خليجي البحر الأحمر أو بواسطة التجار السوديين
الذين يحملون هذه البضاعة في اتجاه دمشق^(٤) .

أما طرق البريد فأولها الطريق المعروف الذي أتت منه الجيوش المغيرة
على مصر في العصور المختلفة . مثل جيوش قهيز والاسكندر الأكبر ،

(١) المرحلة المسافة التي يقطعها المسافر في يومه ، الجمع مراحل .

(٢) خطط المقرئ ج ١ ص ٢١٣

(٣) الخطوط ج ١ ص ١٨٤ .

(٤) Heyd : Hist. du commerce. vol. 1. p. 41.

وعمر بن العاص ، وهو يمر بالرملة بفلسطين وبمدينة غزة ورفح والريش والفرما وبلبيس ثم الفسطاط . وهناك طريق آخر يخرج من الفسطاط إلى برقة وأفريقية وبلاد المغرب ، وآخر يخرج من الفسطاط إلى المغرب دون أن يمر بالإسكندرية ولكنه يلتقي بالطريق الذي يخرج من الإسكندرية في ذات الحمام^(١) .

كذلك لا نشك في أن مصر كانت تتبادل التجارة في هذا العهد مع النوبة والسودان وأواسط أفريقية ، فنشد الفتح العربي كانت هناك شبه اتفاقية تجارية بين مصر والنوبة تقضي بأن تستورد مصر الرقيق من النوبة وتصدر إليها القمح والعدس والحبوب^(٢) ، ولا بد أن مصر كانت في علاقات تجارية مع الحبشة وأواسط أفريقية وكانت تصل إليها منتجات هذا الإقليم ، إما عن طريق البحر الأحمر أو عن طريق النيل عند أسوان . ولا ننسى في هذه المناسبة ما كان هناك من علاقات دينية بين مصر وبين هذه الأقطار المختلفة ، إذ أن البطرك الأرثوذكسي في مصر كانت ولا تزال له الرئاسة الدينية على نصارى الحبشة والنوبة وسائر المسيحيين في السودان ، وهو الذي يرسم أساقفتهم^(٣) ولا بد أن هذه العلاقة الدينية قد تبعها علاقة تجارية أيضا . ويذكر اليعقوبي^(٤) أن التجار كانت تأتي إلى ثغر عيذاب فيحملون التبر والعاج وغير ذلك في المراكب . ولا شك أن مصر كان يصيبها شيء من تجارة أواسط أفريقية عن طريق هذا الميناء .

(١) قداية بن جعفر : كتاب الخراج ص ٢١٩ — ٢٢٥

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ١٨٨ — ١٨٩ ، الكندي :

الولاة والقضاة ص ١٢ — ١٣

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٠٨

(٤) البلدان ص ٣٣٥

ولا نعرف تماماً ما الذى كانت تصدره مصر فى ذلك العهد وما الذى كانت تستورده ، لكننا نرجح فى الغالب أنه فضلاً عن دور الوسيط الذى كانت تقوم به مصر بين الشرق والغرب ، كانت تصدر جانباً من القمح بالإضافة إلى ما كانت ترسله سنوياً إلى الحجاز . ولا نستبعد أن مصر كانت تصدر الكتان فى ذلك العهد لوفرة زراعته بها ، كما أننا نرجح أن أهم ما كانت تستورده مصر هو الأخشاب ، لندرة الأنواع الطيبة من الخشب فى مصر مما كان يلزم للبناء والسفن ، وكذلك المعادن . ويظهر أيضاً أن تجارة الرقيق كانت رائجة فى ذلك العهد أيضاً ، فقد كان هناك سوق للرقيق بمصر فى القسطنطينية منذ أول عهد الفتح^(١) .

(١) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ٩٢ ، السيوطى : حسن
المحاضرة ج ١ ص ٥٩ .

٤ — الحركة العلمية

تركزت الحركات العلمية، في كافة الأمصار الإسلامية في صدر الإسلام في الناحية الدينية ، وكان أكثر العلماء الذين ظهوروا إذ ذاك علماء دين . أما العلوم الدنيوية والفلسفية فقد كان شأنها ضعيفاً في ذلك العصر بل كان ما ينمو منها إنما يحتاج في نموه إلى الدين يعتمد عليه ويصطبغ به^(١) .

وقد تفرق الصحابة في كافة البلدان التي فتحتها الجيوش الإسلامية بل انضم كثير منهم إلى الجيوش التي فتحت تلك البلدان . وربما تعدد الخلفاء تفريقهم ليعلموا أهلها الدين الإسلامي . وكان ممن حضر فتح مصر من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، غير عمرو بن العاص قائد الجيش الفاتح ، عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العاصري والزيير بن الموام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمر ابن الخطاب وخارجة بن حذافة العدوي ومسلمة بن مخلد وأبو رافع مولى رسول الله وشريك بن سمي النخعي المراتي وعبد الله بن الحارث بن حزم ابن عبد الله بن معدي كرب الزبيدي المذحجي وكان آخر صحابي مات بمصر ، توفي في سنة ست أو سبع أو ثمان وثمانين من الهجرة ، وغيرهم كثير^(٢) ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أخذ الصحابة يفدون إلى مصر بعد

(١) أحمد أمين بك : فجر الإسلام ج ١ ص ٢٣٣

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة توري ص ٩٢ — ٩٣ ، السيوطي : حسن

المحاضرة ج ١ ص ٧٣ — ١٠٠

الفتح . إذ شجعهم على ذلك مارأوه من وفير الخيرات وسهولة الميش . فكان العالمون منهم بأمور الدين يقومون بمهمة تعليم الشعب المصرى أصول الدين الإسلامى . وهؤلاء الصحابة العلماء كانوا أساس مدرسة مصر الدينية كما كان غيرهم من الصحابة أساس المدارس الدينية فى مختلف الأمصار .

على أن أشهر من علم بمصر من الصحابة بعد الفتح هو عبد الله بن عمرو ابن العاص ؛ فيذكر المقرئى^(١) أن أهل المدينة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عمرو . رضى الله عنهما ، وأن أهل الكوفة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما ، وأن أهل مكة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، وأن أهل مصر كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

ولأهل مصر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قرابة مائة حديث^(٢) . وقد أسلم عبد الله بن عمرو قبل أبيه^(٣) وكان فاضلاً عالماً قرأ القرآن والكتب المتقدمة واستأذن النبي صلى الله عليه وسلم فى أن يكتب عنه فأذن له فقال : يا رسول الله أكتب ما أسمع فى الرضا والغضب . قال : نعم فإنى لا أقول إلا حقاً^(٤) . ويذكر ابن سعد^(٥) عن اسحاق بن يحيى عن مجاهد أنه قال : رأيت

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٣٢

(٢) ابن عبد الحكم - ص ٢٥٤

(٣) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ١٨٩ ، ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٣ ص ٢٣٣ ، ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ج ٤ ص ١١٢

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٢٣٣

(٥) الطبقات الكبير . ج ٧ ص ١٨٩

عند عبد الله بن عمرو صحيفة فسأله عنها فقال : هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه فيها أحد . وقال أبوهريرة : ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مني إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا أكتب . وقال عبد الله : حفظت عن النبي صلى الله عليه وسلم ألف مثل ^(١) .

وقد اختلف في سنة وفاة عبد الله بن عمرو وفي أي جهة توفي ، ويذكر بعض المؤرخين أنه توفي عند ما قدم مروان بن الحكم إلى مصر لاستخلاصها من عامل ابن الزبير . وفي اليوم الذي قتل فيه الأكدر بن حمام بن عامر سيد لحم في النصف من جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ ولم يستطع أحد أن يخرج في جنازة عبد الله بن عمرو إلى المقبرة لشغب الجند على مروان ^(٢)

ويعتبر عبد الله بن عمرو بن العاص بحق مؤسس مدرسة مصر الدينية إذ أخذ عنه كثير من أهلها وكانوا يكتبون عنه ما يحدث .

وإن كان عبد الله بن عمرو هو المعلم الأول في مصر فقد أخذت مصر دروسا دينية أيضا عن غيره من الصحابة وسمعت أحاديث نبوية من مختلف الصحابة الذين وفدوا إليها عقب الفتح . وسرعان ما أصبحت مصر بعد الفتح مركزا علميا دينيا في الدولة الإسلامية . وكان الخلفاء يوفدون علماء الدين إليها ليفقهوا أهلها وليكونوا مرجعا لهم في أحكامه وكافة أموره ، فمثلا نرى عمر بن الخطاب يبعث إلى أهل مصر حبان بن أبي جيلة ليفقههم ^(٣) . ويبعث الخليفة

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٢٣٣ وابن حجر : الإصابة ج ٤

ص ١١٢

(٢) الكندي ص ٤٦ وخطط القريري ج ٢ ص ٣٣٨

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٨١ — ٨٢

عمر بن عبد العزيز نافعا مولى ابن عمر فقيه أهل المدينة إلى مصر ليعلمهم السنن^(١).

وقد تتلمذ على أيدي الصحابة بمصر التابعون الآخذون عنهم وكانوا لا يتعدون فتاويهم إلا اليسير مما بلغهم عن غير من كان في بلادهم من الصحابة^(٢). على أننا نلاحظ أن أكثر حملة العلم في عصر الصحابة كانوا من العرب لأن أكثر الصحابة عرب ، فلما قام علماء الصحابة بالتعليم في الأمصار المفتوحة اشترك العرب وغيرهم في تلقى العلم عنهم حتى إذا كان عصر التابعين وتابعيهم انعكست الآية فأصبح بعض حملة العلم عربا وأكثرهم من الموالى وأبنائهم^(٣) وبدلنا على ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز جعل الفتيا بمصر إلى ثلاثة رجال : رجلا من الموالى ورجل من العرب ؛ فأما العربي فجعفر بن ربيعة ، وأما المولىان فيزيد بن أبي حبيب وعبد الله بن أبي جعفر . وأظهر بعض العرب إنكارهم ذلك فقال عمر بن عبد العزيز : ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون !

واشتهر من مصر كثير من العلماء والفقهاء والأئمة المجتهدين . نذكر منهم الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى ولد بمصر سنة إحدى وستين وقيل ثلاث وستين ، وأبوه عبد العزيز بن مروان أمير عليها ، « وقد تفقه حتى بلغ رتبة الاجتهاد وله مناقب كثيرة »^(٤) ومن اشتهر بمصر أيضا يزيد بن حبيب واسمه سويد الأزدي أبو رجاء المصرى ، كان فقيه مصر وشيخها ومفتيها ، ولد سنة ٥٢ هـ بمصر وهو أحد ثلاثة فوض إليهم عمر بن عبد العزيز أمر الفتيا

(١) المرجع نفسه ص ١١٩

(٢) خطط القرطبي ج ٢ ص ٣٣٢

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٠ — ٤٨١ (فصل في أن حملة العلم في

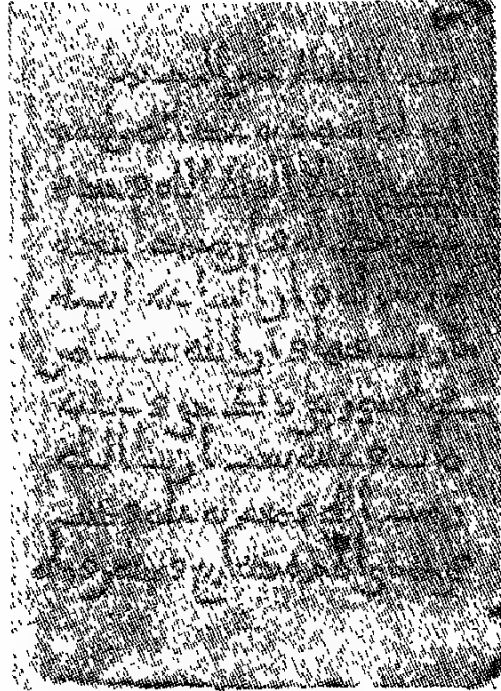
الاسلام أكثرهم السجم) وأحمد أمين بك : فجر الاسلام ج ١ ص ١٨٣

(٤) السيوطى : حس المحاضرة ج ١ ص ١١٩

بمصر . وقد أخذ عنه عبدالله بن لهيعة والليث بن سعد وآخرون ، وكان الليث ابن سعد يثنى عليه ويقول « ابن أبي حبيب سيدنا » وتوفى يزيد بن أبي حبيب بمصر في سنة ١٢٨ هـ .^(١)

ومن علماء مصر ومحدثيها وفقهاءها أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الحضرمي النافق المصري الفقيه الذي ولد في سنة ٩٧ هـ وقيل سنة ٩٦ هـ وولى قضاء مصر عشر سنين (١٥٥ — ١٦٤ هـ) ومات بها في منتصف شهر ربيع الأول سنة ١٧٤ هـ (شكل ١٣) وقيل سنة ١٧٠ هـ^(٢) . ومن أشهر فقهاءها وأئمتها في ذلك العهد أيضا الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي مولاهم الأصبهاني الأصل المصري ، ولد في مصر في بلدة قرقشندة^(٣) سنة ٩٤ هـ وكان ثقة كثير الحديث صحيحه اشتغل بالفتوى في زمانه . ويقال إن دخله كان في كل سنة خمسة آلاف دينار ، كان يفرقها في الصلوات وغيرها . ولا نعرف ما هو مصدر ثروته هذه ، وقيل إن الإمام مالك كتب إليه من المدينة « بلغني أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق وتمشي في الأسواق » فكتب إليه الليث بن سعد : (قُلْ من حَرَّمَ زينة الله) . وكان الليث كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها في عصره بحيث أن القاضي والنائب كانا من تحت أمره ومشورته وكان الشافعي يتأسف على فوات لقاءه . وتذكر الروايات أن الشافعي قال « كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه » .

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٤٣ و ٣٠٨ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١١٩ — ١٢٠
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٣١٣ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٧٧ السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٠
(٣) قرقشندة : قرية بأسفل مصر . ولد بها الليث بن سعد (ياقوت . معجم البلدان ج ٤ ص ٦٤) وهي قرقشندة بمديرية القليوبية .



(شكل ١٣) شاهد قبر عبد الله بن لهيعة ، محفوظ بدار الآثار العربية في القاهرة . ونص كتابته : بسم الله الرحمن الرحيم — هذا ما يشهد به عبد الله بن لهيعة — الحضرمي أنه لا إله إلا الله وحده — لا شريك له وأن محمداً عبده — ورسوله وأن الساعة آتية — لا ريب فيها وأن الله يبعث من — في القبور على ذلك حيي وعليه — مات وعليه يبعث إن شاء الله — رحمت الله ومغفرته عليه وكتب في جمدي الآخرة سنة أربع وسبعين ومائة

وقال يحيى بن بكير : « ما رأيت أحداً أكل من الليث ، كان فقيه النفس ، عربي اللسان ، يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر ، حسن المذاكرة » . وقد توفي الليث بن سعد سنة ١٧٥ هـ ، وقال قائل حين مات ذهب الليث فلا ليت لكم ومضى العلم غريباً وقبر^(١)

(١) ابن خلكان : وفیات الأعيان ج ١ ص ٥٥٤ — ٥٥٥ وخطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٢ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٨٢ والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٠ — ١٢١ وأحد أمين بك : فجر الاسلام ج ١ ص ٢٣٠

وقد شمر كثير من التابعين في الأمصار المختلفة بضرورة الانتقال من جهة إلى جهة للدرس وتحصيل العلم . فالصحابا العلماء الذين أخذ عنهم أهل الأمصار المختلفة كان بعضهم يزيد على الآخرين في أشياء وينقص في أشياء أخرى ؛ إذ كان بعض الصحابة يغيبون عن مجلس النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأوقات التي يحضر فيها الآخرون وبالعكس فيفوت كل واحد منهم ما غاب عنه . فلما قُبِحت البلدان وتفرق الصحابة في الأقاليم أصبح كل إقليم متأثراً بالصحابة الذين علموا فيه . فلما جاء عهد التابعين وتابعيهم شعر كثير منهم بالحاجة إلى التفقه على علماء الأقاليم الإسلامية الأخرى فكثرَت الرحلة إلى الأمصار المختلفة^(١) ، وتقابل العلماء في مختلف الجهات ، وازدهرت في ديار الإسلام مراكز عديدة للعلم يفد إليها الطلاب من مختلف الأقاليم الإسلامية . ويقال إن أول من رحل من أهل مصر إلى المراق في طلب الحديث هو أبو سعيد عثمان بن عتيق مولى غافق الذي توفي سنة ١٨٤ هـ^(٢) . وتأثرت مصر بالمذاهب الإسلامية التي ظهرت في العصر العباسي . ففي ذلك العصر امتزجت العقلية العربية بالعقلية الفارسية واليونانية وارتفع مستوى الثقافة بين العلماء بفضل تشجيع بعض الخلفاء للعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وإقبال نخبة من العلماء على تعريب الكتب الأجنبية ودراستها .

ونشأت في العصر العباسي مذاهب انقرض بعضها في العصر العباسي نفسه ولا يزال بعضها الآخر قائماً حتى اليوم . وقد كان فريق من الفقهاء يغالون في اتباع

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى

ص ٦ — ٧

(٢) خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٢ — ٣ و ٣٣٣ وأحمد أمين بك : فجر الاسلام

ج ١ ص ٢٣٠ — ٢٣١

الرأى وفريق آخر يغالى فى اتباع الحديث وفريق ثالث يتبع طريقا وسطا بين الاثنين . وأهم المذاهب التى ذاعت فى العصر العباسى هى المذاهب الأربعة التى قدر لها البقاء إلى اليوم . واقدم هذه المذاهب الأربعة هو مذهب الإمام أبى حنيفة وقد ولد الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت بالكوفة سنة ٨٠ هـ وقيل سنة ٦١ هـ وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ هـ ويعد أبو حنيفة لإمام أهل الرأى والقياس ، وكان أشهر من دُون مذهبه تلميذه أبو يوسف يعقوب بن محمد القاضى (١١٣ — ١٨٣ هـ)^(١) . وثانى أئمة المذاهب الأربعة هو الإمام مالك ابن أنس الأصبحى الذى ولد بالمدينة المنورة فى سنة ٩٣ هـ أو سنة ٩٥ هـ وتوفى بها سنة ١٧٩ هـ ويمتاز مذهبه باعتاده على الحديث أكثر من أبى حنيفة ، ويقال لأصحابه أهل الحديث^(٢)

وثالث هؤلاء الأئمة فى القدم الإمام محمد بن ادریس الشافعى القرشى وقد ولد بنزة سنة ١٥٠ هـ ، وتلقى العلم فى مكة والمدينة وبغداد ثم أتى إلى مصر فى سنة ١٩٨ هـ وصنف بها كتبه وكون بها مذهبه الجديد وتوفى بها فى سنة ٢٠٤ هـ^(٣) ويذكر ابن خلدون^(٤) أن الإمام الشافعى مزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب أى أنه جمع بين

-
- (١) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢١٨ وأحمد تيمور باشا :
 نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة ص ٨ — ٩
 (٢) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٥٥ — ٥٥٦ ، وأحمد
 تيمور باشا : المرجع السابق ص ١٩
 (٣) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٦٥ — ٥٦٦ وأبو الحسن
 النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٧٦ — ١٧٧ السيوطى حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢١ —
 ١٢٢ وأحمد تيمور باشا : المرجع نفسه . ص ٢٨
 (٤) المقدمة ص ٣٧٥

مذهبي الرأي والحديث . ويحذر أن نشير هنا إلى أن قدومه بمصر كان مع عبد الله بن والي مصر العباس بن موسى بن عيسى العباسي الذي أرسله أبو خليفة له على ولاية مصر^(١) .

ورابع هؤلاء الأئمة هو الإمام أحمد بن حنبل الشيباني الذي ولد ببغداد سنة ١٦٤ هـ وقيل يبرو وحمل إلى بغداد وهو رضيع وتوفي بها سنة ٣٤١ هـ وكان ابن حنبل يغالى في اتباع الحديث إذ كان يقول ضعيف الحديث أقوى من الرأي^(٢)

بالرغم من أن مذهب أبي حنيفة هو أقدم المذاهب إلا أن مذهب مالك هو الذى دخل مصر أولا وانتشر بها . ويذكر المقرئ^(٣) أن « أول من قدم بعلم مالك إلى مصر عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمع وكان فقيها روى عنه الليث وابن وهب ورشيد بن سعد وتوفى بالإسكندرية سنة ١٦٣ هـ ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم فاشتهر مذهب مالك بمصر أكثر من مذهب أبي حنيفة لتوفر أصحاب مالك بمصر . ولم يكن مذهب أبي حنيفة رحمه الله يعرف بمصر » .

ويذكر ابن فرحون^(٤) والسيوطي^(٥) أن عثمان بن الحكم الجذامى هو أول من أدخل علم مالك بمصر وتوفى سنة ١٦٣ هـ .

(١) الكندى ص ١٥٤ وأبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٦١

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٠ و ٦٥٥ وأحمد تيمور باشا . ص ٣٨

(٣) الخطط ج ٢ ص ٣٢٤

(٤) الديباج ص ١٨٧

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢١

وكلا القولين صحيح ففي ترجمة عثمان الجذامي من « تهذيب التهذيب »
لابن حجر المستقلاني ما نصه : « وقال ابن وهب أول من قدم مصر بمسائل
مالك عثمان بن الحكم وعبد الرحيم بن خالد بن يزيد » .

فيظهر أنهما بعد أن تفقها غني الإمام مالك عادا معا إلى مصر ونشرا
بها مذهبه^(١) وقد اشتهر من مدرسة مصر كثير من الفقهاء المالكية
نذكر منهم طليب بن كامل اللخمي الذي كان من كبار أصحاب مالك ، عاش
بالإسكندرية وروى عنه ابن القاسم وابن وهب ، وتفقه عنه ابن القاسم قبل
رحلته إلى مالك . وقد مات طليب في حياة مالك بالإسكندرية سنة ١٧٣هـ^(٢) .
ومن فقهاء المالكية في مصر سعيد بن عبد الله بن أسعد المعافري المصري ،
كان من كبار أصحاب مالك تفقه بآب وهب وابن القاسم ومات بالإسكندرية
سنة ١٧٣هـ^(٣) .

ومن أشهر فقهاء المالكية في هذا العصر أبو عبد الله عبد الرحمن بن
القاسم بن خالد بن جُنادة المُتقي بالولاء إذ تفقه على الإمام مالك رضي الله
عنه ونظرائه وصحب مالكا عشرين سنة وانتفع به أصحاب مالك بعد موت
مالك وعنه أخذ سحنون (من أشهر فقهاء أفريقية) وقد ولد ابن القاسم
في سنة ١٣٢ وقيل سنة ١٣٣ وقيل سنة ١٢٨هـ وتوفي بمصر سنة
١٩١هـ^(٤)

(١) تيمور باشا : نظرة في حدوث المذاهب الأربعة ص ٢٠

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢١

(٣) المرجع نفسه ص ١٩٠

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٦ — ٣٤٧

ومن فقهاء المالكية بمصر في ذلك العهد عبد الله بن وهب بن مسلم
المصرى الفهرى مولاهم ، ولد سنة ١٢٥ هـ وقيل سنة ١٢٤ هـ وقد صحب
الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه عشرين سنة : رحل ابن وهب إلى الإمام
مالك في سنة ١٤٨ هـ ولم يزل في صحبته إلى أن توفى ، وسمع من مالك ، وسمع
من مالك قبل عبد الرحمن القاسم ببضع عشرة سنة . وكان مالك يكتب إليه
إذا كتب في المسائل : إلى عبد الله بن وهب المقتى ، ولم يكن يفعل هذا مع
غيره . وذكر ابن وهب وابن القاسم عند مالك فقال : ابن وهب عالم وابن
القاسم فقيه . وقد توفى ابن وهب في مصر سنة ١٩٧ هـ ^(١) .

ومن الفقهاء المالكية في ذلك العهد أيضا أشهب بن عبد العزيز بن
داود بن إبراهيم القيسى العامرى المصرى فقيه مصر وقيل اسمه مسكين ولقبه
أشهب . ولد سنة ١٤٠ هـ ومات في سنة ٢٠٤ هـ بعد موت الإمام الشافعى
بثمانية عشر يوما . وكان الشافعى يقول : « ما أخرجت مصر أفقه من أشهب
لولا طيش فيه » ^(٢) .

ومن مشاهير فقهاء المالكية في مصر في ذلك العهد عبد الله بن
عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع المصرى . كان أعلم أصحاب مالك بمختلف
قوله وأفضت إليه رئاسة الطائفة المالكية بعد أشهب . وكان من ذوى الأموال
والجاه ، يقال إنه دفع للإمام الشافعى عند قدومه إلى مصر ألف دينار من

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣١٢ والسيوطى : حسن المحاضرة

ج ١ ص ١٢١

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٧٥ — ١٧٦ ، والسيوطى :

حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٠

ماله ، وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألف دينار ومن رجلين آخرين ألف دينار . ولد في سنة ١٥٠ هـ وقيل سنة ١٥٥ وتوفي سنة ٢١٤ هـ ودفن بجوار قبر الإمام الشافعي . وقد أخذ عنه الفقه كثير من أهل مصر ومن أخذ عنه بنوه ، نذكر منهم عبد الرحمن بن عبد الحكم صاحب كتاب فتوح مصر الذي توفي سنة ٢٥٧ هـ ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وقد صحب محمد هذا الإمام الشافعي عندما قدم مصر وتفق عليه ، فلما مات الشافعي رجع محمد إلى مذهب مالك وانتهت إليه الرياسة بمصر . قال ابن يونس : كان المفتي بمصر في أيامه . وقال غيره : كان من العلماء الفقهاء مبرزاً ، من أهل النظر والمناظرة والحجة وإليه كانت الرحلة من الغرب والأندلس في العلم والفقه وقد كان محمد هذا فقيه مصر في عصره على مذهب مالك كما رسخ في مذهب الشافعي وله مصنفات كثيرة وتوفي سنة ٢٦٨ هـ^(١) .

هؤلاء الفقهاء المالكية بمصر ، نذكرهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر . أما المذهب الحنفي فيظهر أن أحداً من أهل مصر لم يذهب إليه إذ ذاك إلا من كان من قضاتها الذين ولتهم الخلافة وخاصة منذ عهد الخليفة هارون الرشيد الذي ولي قضاء بغداد بعد سنة ١٧٠ هـ أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم أحد أصحاب أبي حنيفة ، ولم يقلد الخليفة القضاء ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلا من أشار به القاضي أبو يوسف واعتنى به^(٢) وطبيعي ألا يولي أبو يوسف أحداً إلا من كان من أصحابه أي ممن يذهب مذهب أبي حنيفة .

(١) ابن خلكان وفیات الأعيان ج ١ ص ٣١١—٣١٢ والسيوطي : حسن

المحاضرة ج ١ ص ١٢٢—١٢٤

(٢) خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٣

وقد ظل الخلفاء العباسيون يؤثرون للمذهب الحنفي على غيره من المذاهب ،
طوال ذلك العهد الذي نتحدث عنه في مصر ^(١) .

على أنه إذا كان ولي القضاء بمصر في العصر العباسي قضاة على مذهب
أبي حنيفة إلا أن عامة أهلها لم يتبعوا ذلك المذهب وإنما كان مذهب مالك
هو المنتشر بها . وكان أول من ولي قضاءها من أتباع مذهب أبي حنيفة
القاضي اسماعيل بن اليسع الكندي (١٦٤ - ١٦٧ هـ) ويذكر الكندي ^(٢)
عن أحد الرواة أنه قال : « قدم علينا اسماعيل بن اليسع الكندي قاضياً بعزل
ابن لهيعة ، وكان من خير قضائنا غير أنه كان يذهب إلى مذهب أبي حنيفة ،
ولم يكن أهل مصر يعرفونه وشناؤه » .

ويقال إن الليث بن سعد كتب فيه إلى الخليفة المهدي : إنك وليتنا
رجلاً يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا مع أنا ما علمناه في
الدينار والدرهم إلا خيراً » . فكتب المهدي بعزله ^(٣) .

ورغم إيثار الخلفاء العباسيين للمذهب الحنفي إلا أن قضاة مصر في
العصر العباسي لم يكونوا كلهم ممن يتبعون المذهب الحنفي ^(٤) .

ومن هذا نرى أن حظ المذهب الحنفي كان قليلاً في مصر في ذلك العهد
وكان محصوراً في مكان ضيق حينذاك ، وظل المصريون يتبعون المذهب المالكي
حتى قدم الإمام الشافعي إلى مصر وكون مذهب الجديد بها . فعندئذ أخذ
كثير من المصريين يتبعونه ، ولم يمض قرن من الزمان حتى أصبح المذهب

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٢٣

(٢) الولاية والقضاة ص ٢٧١

(٣) الولاية والقضاة ص ٢٧٢

(٤) الولاية والقضاة ص ٢٨٢ ، ٢٩٣

الشافعي منافساً للمذهب المالكي في مصر . وقد شعر بعض المصريين حين
قدوم الإمام الشافعي إلى بلادهم بالانقسام الذي أحدثه بينهم في مذهبهم
الديني . ولا أدل على ذلك مما ذكره الكندي^(١) عن أحد الرواة إذ يقول :
« سمعت ابن المنكدر يصيح بالشافعي والشافعي يسمع : يا كذا دخلت هذه
البلدة وأمرنا واحد ورأينا واحد ففرقت بيننا وألقيت بيننا الشر فرق الله
بين روحك وجسمك » .

وكان من أبرز فقهاء الشافعية في ذلك العهد أبو يعقوب يوسف بن يحيى
البويطى الذى كان الشافعي يقول عنه : ما رأيت أحداً أبرع بحجة من كتاب
الله مثل البويطى . « ولما مات الشافعي تنازع محمد بن عبد الحكم والبويطى
في الجلوس موضع الشافعي حتى شهد الحميدى على الشافعي أنه قال البويطى
أحق بمجلسي من غير » . فاجلسوه مكانه . وقد سعى به القاضي بن أبي الليث
الحنفى قاضى مصر إذ ذاك لدى الخليفة الواثق زمن الهنة بخلق القرآن فحمل
البويطى إلى بغداد ولكنه امتنع عن القول بخلق القرآن فسجن ببغداد
ومات في السجن سنة ٢٣١ هـ^(٢) .

ومن فقهاء الشافعية في ذلك العهد عبد العزيز بن عمران بن أيوب
الخزاعى المصرى ، كان من أكابر العلماء المالكية فلما قدم الشافعي مصر
لزمه وتفقّه على مذهبه . وتوفى في سنة ٣٣٤ هـ^(٣)

ومن أبرز الشافعية حينذاك الربيع بن سليمان بن داود الأزدي الجيزي
مات بالجيزة في سنة ٢٥٦ هـ^(٤)

(١) الولاة والقضاة ص ٤٣٨

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٦٠ — ٢٦١ والسيوطى : حسن

المحاضرة ج ١ ص ١٢٣

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٧ (٤) المرجع نفسه

وهكذا نرى أنه أصبح بمصر في ذلك العهد مذهبان يتعادلان : هما المالكي والشافعي ، ومذهب أقل شأنا تؤيده الخلافة وهو المذهب الحنفي . أما المذهب الحنبلي أو المذاهب الأخرى السنية فلم يكن لها ذكر بمصر إذ ذاك . أما عن المذاهب التي لا تمتد من مذهب أهل السنة مثل الشيعة والخوارج فلم يكن لها أثر إلا في ظروف سياسية معينة ، تحدثنا عنها في الباب الثاني ، ولكنها لم تتمر طويلا إذ لم يقبل المصريون على مثل تلك المذاهب . وبالرغم من أنه في وقت ما حكمت مصر دولة شيعية هي الدولة الفاطمية ، إلا أن التشيع لم يبق بمصر بعد زوال تلك الدولة .

وكان مركز الحركة العلمية الدينية في مصر وقلبها النابض في ذلك العهد جامع عمرو بن العاص مثله في هذا مثل الأزهر الشريف الآن . فكان جامع عمرو ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة وإليه يلجأ الناس للاستفتاء وإليه يفد الطلاب لتلقى العلوم التي كانت تدرس في ذلك الحين ومنه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء .

وأصبحت مصر مركزاً علمياً هاماً خصوصاً في أواخر عصر الولاة . فكان يفد إليها الطلبة لتلقى العلم وخاصة من إفريقية والمغرب والأندلس وبذلك أثرت مصر على المغرب والأندلس في المذاهب وفي العلوم الدينية التي كانت تدرس حينذاك . ومن علماء مصر المشهورين حينذاك ورش المقرئ واسمه عثمان بن سعيد المصري الذي تحدر من أصل قبلي وكان مولى لآل الزبير بن العوام . وأخذ القراءة عن نافع وهو الذي لقبه بورش لشدة بياضه . والورش شيء يصنع من اللبن . وقيل بل ولقبه ورشان وهو طائر معروف . وقد انتهت إليه رئاسة القراءة بالليار المصرية وكان ماهراً في اللغة العربية

وتوفي سنة ١٩٧ هـ (١).

ومن أئمة القراءات في مصر أيضاً أبو يعقوب الأزرق يوسف بن عمرو ابن يسار المدني ثم المصري . لزم ورشاً مدة طويلة واتقن عنه الأداء وخلفه في الأقراء بالليار المصرية وانفرد عنه بتخليط اللامات وترقيق الرات . وقال أبو الفضل الخزاعي : « أدركت أهل مصر والمغرب على أبي يعقوب وورش لا يعرفون غيرها » وتوفي أبو يعقوب حوالى سنة ٢٤٠ هـ (٢).

ومن علماء إفريقية الذين أخذوا عن المصريين البهلول بن راشد إذ كان ممن أخذ عنهم الليث بن سعد . وقد توفي البهلول في سنة ١٨٣ هـ وقيل سنة ١٨٢ هـ (٣).

ومن علماء الأندلس الذين تلقوا العلم على الفقهاء المصريين في فجر الإسلام عيسى بن دينار ، إذ سمع من ابن القاسم وصحبه وعول عليه . وقد أدرك عيسى أيضاً ابن وهب وأشهب إلا أنه سمع من ابن القاسم واقتصر عليه ثم انصرف إلى الأندلس فكان لا يتقدمه أحد من قرطبة في الفتيا وكانت له فيها رئاسة وبه ويحيى ابن يحيى انتشر مذهب مالك في الأندلس . وتوفي عيسى سنة ٢١٢ هـ في طليطلة (٤).

ومن أساتذة ذلك العهد أيضاً زكريا أبو يحيى الوقار المصري . كان من موالى قریش وقيل من موالى عبد الدار وروى عن ابن القاسم وابن وهب

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٥٥ والسيوطي : حسن المحاضرة

ج ١ ص ٢٠٧

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٧

(٣) Ben Cheneb: Classes des Savants de l'Ifrigiya, pp. 112-125

وابن فرحون : الديباج ص ١٠٠ — ١٠١

(٤) ابن فرحون : الديباج ص ١٧٨ — ١٧٩

وأشهب وغيرهم وكان مختصاً بابن وهب . وقد ذهب إلى أفريقيا سنة ٢٠٥ هـ علم فيها ثم عاد إلى مصر وتوفي بها سنة ٢٥٤ هـ وقيل سنة ٢٦٣ هـ (١)

ومن يستحق التنويه من مدرسة مصر في ذلك العهد أيضاً أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم وقيل الفيض ابن إبراهيم المصري المعروف بذي النون . كان أواحد وقته علما وورعا وأديبا وزهداً ، روى عن الإمام مالك والليث ابن سعد وعبد الله بن لهيعة والفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة وغيرهم وكان مولد ذي النون بأخميم . ويعد ذو النون من أقطاب الصوفية . وله فضل كبير في وضع كثير من القوائم الصوفية كما نعرفها الآن . وقد انكر عليه أهل مصر وقالوا أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة وسمى به بعض أعدائه لدى الخليفة التوكل فاستحضره الخليفة من مصر فلما دخل عليه وعظه فبكي التوكل ورده مكرماً . وتوفي ذو النون بمصر في سنة ٢٤٥ هـ (٢) .



وكانت الإسكندرية عند الفتح العربي أهم مراكز في الشرق نشع منه الثقافة اليونانية الرومانية . ولكنها فقدت بعد الفتح مكانتها السياسية وكان طبيعياً أن تفقد مكانتها العلمية تبعاً لذلك . ولسنا نستطيع أن نغفل الحديث عن أمر طالما كثر فيه الجدل . ذلك هو حريق مكتبة الإسكندرية التي

(١) Ben Cheneb: *Classes des Savants*. P. 174 . وابن فرحون :

الدياج ص ١١٨

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٦ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٢٠ — ٣٢١ السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٨ والدكتور زكي محمد حسن : مصر والمحاضرة الإسلامية ص ٢٦ وآدم متر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٥ .

(٣) بطر : فتح العرب لمصر ص ٣٤٨ — ٣٧٠

نسبه بعض المؤرخين إلى عمرو بن العاص ونفي مؤرخون آخرون هذه التهمة عن القائد العربي وعن الخليفة عمر بن الخطاب الذي ينسب إليه أنه أمر عامله عمراً بأن يحرق المكتبة .

وأول من تحدث عن حريق هذه المكتبة هو عبد اللطيف البفدادى المتوفى سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ ميلادية) وقد ذكر أنها حُرقت بأمر عمرو بن العاص ولكنه لم يذكر عن الحادث أى تفاصيل تجلى غوامضه . أما الذى أتى على قصة طويلة فى مناسبة الكلام عن حريق المكتبة فهو أبو الفرج ابن العبرى . وهو مؤرخ ولد فى ملطية بأرمينية سنة ١٢٢٦ ميلادية ودرس اليونانية والعربية والسريانية ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت ونصب بعد ذلك اسقفا وتوفى سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م) .

وملخص القصة التى رواها أبو الفرج اللطى هذا أنه فى زمن فتح العرب مصر اشتهر فى البلاد رجل اسمه يحيى النحوى (يوحنا غراما طيقوس) والظاهر أنه كان من القسس اليعاقبة فى الاسكندرية وأنه رجع عما يمتقده اليعاقبة فى طبيعة المسيح وطلب إليه الأساقفة بمصر أن يعود إلى المذهب الأرثوذكسى فلم يرجع فمزله مجمع منهم . وعاش يوحنا هذا إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية فأتصل بعمرو وأعجب هذا بفزارة علمه فقرّبه إليه . ثم قال يوحنا له فى يوم من الأيام : « إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على ما فيها ولست أطلب إليك شيئا مما تنتفع به بل شيئا لا نفع له عندك وهو عندنا نافع » فقال عمرو : « وما الذى تقصد ؟ » فأجاب يوحنا : « كتب الحكمة الموجودة فى خزائن الروم » فأجاب عمرو بأن ذلك أمر ليس له فيه رأى قبل استئذان الخليفة . وكتب إلى عمر بن الخطاب يستفتيه فى المسألة فأجابه عمر : « وأما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق

ما جاء في كتاب الله ففي كتاب الله غنى عنه . وإذا كان ما فيها يخالف كتاب الله فلا أرب لنا فيه وتقدم بإعدامها ه فأمرو عمرو بتوزيع الكتب على حمامات الإسكندرية فما زالوا يحرقونها في مواقدها ستة أشهر .

هذه هي القصة التي رواها أبو الفرج في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (١٣م) كما أشار إليها من قبل عبد اللطيف البغدادي وابن القفطي صاحب كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء من كتاب النصف الأول من القرن السابع (١٣م) . وربما كان ابن القفطي وأبو الفرج بن العبري أخذاهما عن البغدادي .

وعلى كل حال فإن الشك في صحتها قديم بين المؤرخين المحدثين فإب إدوارد جيون المؤرخ الإنجليزي المشهور الذي كتب بين سنتي ١٧٧٠ و ١٧٨٧ مؤلفه المشهور عن تدهور الدولة الرومانية وسقوطها ناقش هذه القصة ونفاها (جزء ٩ ص ٤٣٧ وما بعدها) .

وربما كان الأفضل بنا الآن أن نلخص في بضع نقط الجدل الذي دار حول هذه المسألة .

أولا — إن اتهم المسلمين بإحراق المكتبة لم يذكره المؤرخون إلا بعد أكثر من خمسمائة سنة مرت على فتح الإسكندرية . وإذا جاز لنا أن نتهم المؤرخين المسلمين المتقدمين أمثال ابن عبد الحكم والبلاذري واليعقوبي والطبري بأنهم أحجموا عن الإشارة إلى ذلك تمصبا منهم للمسلمين — مع أن هذا غير محقول لأن عقلية العرب لم تكن لتتغير بهذه السرعة — نقول إذا جاز ذلك فلسنا نجد شيئا يفسر به عدم الإشارة إليها في كتب المؤرخين المسيحيين مثل حنا النقيوسي الذي كان قريب العهد بفتح الإسكندرية ومثل سميد بن بطريق (أوتينا) المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٦٠ م) .

ثانياً — أثبت الدكتور الفرد بتلر مؤلف كتاب فتح العرب لمصر أن يحيى النحوى أحد أبطال هذه القصة مات قبل غزو العرب مصر بزمان طويل ثالثاً — إن كتاب القرين الخامس والسادس وأوائل القرن السابع بعد ذلك لم يذكر شيئاً عن مكتبة الإسكندرية والواقع أن المكتبتين اللتين قد تشير القصة إلى واحدة منهما أو إليهما معا كانتا قد ضاعتا قبل الفتح العربى بزمان طويل — فالأولى وهى مكتبة المتحف أو الجامعة اتلفتها النار سنة ٤٨ ق . م فى الحريق الذى أحدثه بوليوس قيصر ليرد أعداءه عن أسطوله ويؤيد هذا القول المؤرخ اليونانى بلوتارك المتوفى سنة ١٢٥ م وغيره من النورخين . أما المكتبة الثانية وهى مكتبة السرايوم فليس العلماء متفقين فى أمرها ولا يمكن القول يقينا هل نقلت من السرايوم قبل سنة ٣٩١ م وهى السنة التى اشتد فيها النزاع بين الوثنيين والمسيحيين وحكم الطرفان الإمبراطور ثيودورسيوس ففضى للمسيحيين واستطاع هؤلاء أن يخرّبوا السرايوم وكان حصن الوثنية المنيع بل الواقع أن بحاة الكتب غير معقولة بسبب تعصب المسيحيين الثأر من واعتبارهم هذه الكتب كتب الوثنية الضالة . ويمكننا إذن أن نجزم بأن هذه الكتب كان مصيرها الضياع ولا سيما أن اوراسيوس الذى كتب فى سنة ٤١٦ ميلادية ذكر أنه رأى الرفوف أو الصناديق فى السرايوم فارغة ليس فيها شيء من الكتب ولم يشر إلى وجود أى مكتبة تستحق الذكر فى الإسكندرية .

رابعاً — إذا سلطنا جدلاً بأن الإسكندرية كانت تحتوى وقت الفتح الإسلامى على مكتبة كبيرة فأن الهدنة التى عقدت بين المسلمين وأهل الإسكندرية كانت طويلة وكان فى استطاعة القوم أن ينقلوا كنوز هذه المكتبة إن لم يكن لقيمتها العلمية فلقيمتها المادية . ونحن نعلم أن العرب

أباحوا للروم نقل ما يريدون من متاع وأموال .
خامساً — إن عناصر القصة تدل على أنها خرافية ولا أثر للتباسك بين
أجزائها المختلفة . من ذلك تفريق الكتب على الحمامات المختلفة وأخذها وقوداً
مدة ستة شهور . فإن القائد الذى يأبى إعطاءها لصديقه ويريد حرق الكتب
تنفيذاً لأمر الخليفة يحرقها حيث هى أو يشرف على هذه العملية على أقل
تقدير — ولا يدفع الكتب إلى الحمامات حيث يمكن أصحابها أن يبيعوها
للناس بثمن بخس . ثم إن أكثر هذه الكتب كانت مكتوبة على الرق .
والرق لا يصلح للوقود وليس من المقول أن يكفى الباقي مدة ستة أشهر
وقوداً للأربعة آلاف حمام التى زعم العرب وجودها فى الإسكندرية

سادساً — إن الذين يؤيدون دعوى إتهام المسلمين بحرق المكتبة بأنهم
حرقوا مكاتب الفرس عند الفتح لا يستطيعون أن يأتوا على هذا الزعم الثانى
بأى دليل من المؤرخين الأقدمين ويكتفون بحاجى خليفة وهو كما نعلم من
مؤرخى القرن الحادى عشر الهجرى (١٧م) فلا يجوز الاعتماد عليه كل الاعتماد
سابعاً — إن الاحتجاج بأن رواية حريق المسلمين للمكتبة لم يروها
ابن العبرى فقط ، وقد يطمئن فى قوله بالتمصّب ؛ بل رواها مؤرخان مسلمان
هما عبد اللطيف البغدادى وابن القفطى ، هذا الاحتجاج ليس قوياً لأن هؤلاء
المؤرخين عاشوا كلهم فى القرن السابع الهجرى (١٣م) ، ولعلمهم ،
ثلاثتهم ، أخذوا عن مصدر مشترك كان متمصباً ضد الإسلام ولم يصل
إلينا . أو لعلمهم صدقوا الروايات التى كانت تتناولها الألسن والتى لم يكن
الغرض منها إلا الطعن على المسلمين فضلاً عن أن عبد اللطيف لم يشر إلى
المسألة إلا عرضاً عند كلامه على عمود السوارى .

ثامناً — إن التعاليم الإسلامية تحترم الديانات السماوية وإن المسلمين لم

يكونوا ليقدموا على هذا العمل ، ولا سيما أن من شروط الصلح أن تترك للمسيحيين الحرية الدينية وأن لا يتدخل المسلمون في شئونهم — وحرقت المكتبة يعتبر خرقاً لهذه الشروط لأنه لا شك في أنها كانت تحتوى على كتب دينية كثيرة .

وهكذا نتعشى إلى أن مكتبة الإسكندرية حُرقت منذ عهد يوليوس قيصر سنة ٤٧ ق . م بعد ذلك بأربعمائة سنة حين اشتد النزاع بين الوثنية والمسيحية وقضى الأباطور تيودوسيوس بالقضاء على المعابد الوثنية .

ومع ذلك كله فإن في التاريخ أمثلة عديدة تثبت أن إحراق الكتب لم يكن في يوم من الأيام وفقاً على شعب من الشعوب أو أتباع ديانة من الديانات فالصليبيون أحرقوا الكتب في طرابلس الشام في القرن الثالث عشر والأسبان أحرقوا الكتب العربية بعد أن طردوا العرب من الأندلس . وكذلك أحرق الفرنسيون الكتب التي وقعت في أيديهم عند ما فتحوها مدينة قسطنطينية في تونس كما يشهد بذلك المؤرخ الفرنسي سديلو نفسه وليس ببعيد أيضاً ما فعله الألمان قبيل الحرب الأخيرة بالكتب التي ألفها اليهود أو الاشتراكيون أو الشيوعيون .

ومهما يكن من الأمر ، فإن الفتح العربي لم يقض على الحياة العلمية في الإسكندرية ، ولا سيما في العلوم العقلية ، وذلك بالرغم من أن معظم علماء الروم غادروها بعد الفتح

وحسبنا دليلاً على النشاط العلمى في الاسكندرية في فجر الإسلام ما ذكره ابن النديم^(١) من أن خالد بن يزيد بن معاوية حينما أراد تعلم الكيمياء أمر

(١) الفهرست (طبعة ليزج سنة ١٨٧١ م) ص ٢٤٢

باحضار جماعة من فلاسفه اليونانيين الذين كانوا يقيمون بمصر ولهم إلمام بالعربية، وطلب منهم نقل كتب الصنعة (الكيمياء) من اليونانية والقبطية إلى العربية، فكان هذا أول نقل إلى العربية في الإسلام. وذكر ابن أبي أصيبعة أنه كان في الاسكندرية زمن الفتح طبيب اسمه ابن ابجر وكان يدرس بها، وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد عليه في صناعة الطب حين كان أميراً وبعد أن صار خليفة. كذلك أرسل الخليفة هرون الرشيد في طلب بليطيان أحد علماء الاسكندرية المشهورين لتطبيب جارية له^(٢).

وقد احتذى حنين بن اسحق، طبيب بغداد الذي عاش القرن الثالث الهجري، حذو الاسكندرانيين في التأليف^(٣). لكن يظهر أن مدرسة الاسكندرية أخذ شأنها يقل بعد ذلك، فإن الأقباط لم يهتموا اهتماماً كبيراً بدراسة الثقافة اليونانية الرومانية. أما العرب والأقباط الذين أسلموا فقد أقبلوا على دراسة العلوم الإسلامية الدينية. ولعل يعض المصريين المسلمين أقبلوا على دراسة الثقافة اليونانية الرومانية، فيذكر ابن النديم^(٤) أن ذا النون المصري كان من الفلاسفة الذين تكلموا في علم الصنعة (الكيمياء). والواقع أنه إن كان لمصر في عصر الولاة نصيب في حفظ تراث اليونان والمسيحية الشرقية أو نقله إلى الغرب، فإنما هو في تركها علماء الروم يفادرون مصر بمؤلفاتهم وكتبهم زمن الفتح، وفي عدم تمرضها لمدرسة الاسكندرية أو للأديرة التي كانت مراكز الثقافة المسيحية في مصر.

(١) طبقات الأطباء — (القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ) — ج ١ ص ١٦٦

(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ج ٢ ص ٨٢ — ٨٣.

(٣) الفقهى ص ١٧١ — ١٧٢

(٤) الفهرست ص ٣٥٣

الخاتمة

تبوأ مصر مركزاً ممتازاً في الدولة الإسلامية عقب الفتح العربي وذلك لثروتها وخيراتها الوفيرة ولموقعها العالمي الممتاز . وقد بلغ من اهتمام الخلفاء بأمرها أنهم كانوا يولونها أحياناً أبناءهم أو اخوتهم أو أفراداً من البيت الخلفي القائم بالحكم . وقد كانت مصر كالمراة تنعكس عليها الحركات السياسية والدينية التي تحدث في دار الخلافة ، كما كانت قبلة أنظار الشخصيات الطامحة إلى منصب الخليفة . وبالرغم من أنه نشأت في مصر فتن وخلافات دينية عديدة منذ أيام دقلديانوس حتى الفتح ، وبالرغم من أنه نشأت في الإسلام بدع ونحل وفتن دينية كثيرة ، إلا أن مصر بعد الفتح العربي أقبلت على اعتناق الإسلام ولم يكن لها يد في إثارة الخلافات الدينية التي قامت في العالم الإسلامي . وإن كان قد أثير فيها بعض الفتن فقد كان هذا نتيجة لتأثرها بحوادث الخلافة وسرعان ما كانت تعود الحياة ثانية إلى مجاريها .

ويشبه التقسيم الإداري في العصر الإسلامي التقسيم الذي كان معروفاً في العصر اليوناني الروماني ولكنه لم يكن مماثلاً له كل المماثلة . كذلك نلاحظ أن النظام البيروقراطي ، وبعبارة أخرى النظام الديواني الذي كان سائداً في الإدارة المصرية قبل الفتح أثر في العرب فكانت الإدارة مركزة في دواوين الحكومة بالعاصمة وأهمها ديوان الخراج والأموال ، وديوان الرسائل أو الانشاء ، وديوان الجند وديوان القضاء . ولهذا يقول لامانس

Lammens : Un gouverneur Omayyade d'Egypte. p. 106. (١)

فجر الإسلام - (٢٢)

Lammens أن الوثائق البردية المديدة التي اكتشفت حديثا تقدم دليلا ماديا على وجود نظام بيروقراطي استمدته العرب من البيزنطيين .

ويظهر أن مصر العليا ومصر السفلى كانا اقليمين منفصلين من الوجهة الإدارية ومع ذلك فإن أصحاب الكورات كانوا خاضعين مباشرة لوالى البلاد . والظاهر بوجه عام أننا نعرف عن كبار الموظفين في العصر الإسلامى من الوجهة النظرية عامة أكثر مما نعرف عن حقيقة الأداة الحكومية الفعالة .

ونلاحظ أن الغرض الأساسى للإدارة كان ينطوى على جمع الضرائب واستثمار الأرض واستغلال الفلاح كما كان الحال في العهد البيزنطى .

وكان العامل على الصلاة والعامل على الخراج متساويين في الحقيقة على الرغم من أن الأول كان رئيس الهيئة التنفيذية في القطر ، بل حدث كثير من الأحيان أن كان صاحب الخراج أعظم نفوذا من والى . وأحيانا كان والى يجمع بين المنصبين . وفي الواقع لم تكن سلطة والى مطلقة في ولايته على مصر ، بل كان يجد منها نفوذ العامل على الخراج ونفوذ الجند ونفوذ الموظفين . ونظرا لأهمية منصب العامل على الخراج فقد كان والى يسعى دائما إلى أن يضاف إليه اختصاص هذا المنصب ليصبح واليا على الصلاة والخراج معا . ولم يكن في الجمع بين هذين المنصبين بأس ما دامت الحكومة المركزية في مقر الخلافة قوية مرهوبة الجانب . ولكن عندما تطرق الضعف إلى الخلافة العباسية أصبح الجمع بين هذين المنصبين أكبر عون على استقلال والى وتفكك الامبراطورية ، فترى ابن طولون يتنازع مع ابن المدبر صاحب خراج مصر ، ولم يبدأ استقلاله إلا بعد تخلصه من ابن المدبر .

والظاهر أن العرب وجدوا في مصر عند الفتح نظاما زراعيا وماليا لم يستطيعوا تركه تماما . وكان هذا النظام يبعدهم إلى حد كبير عن الاتصال

بِالْفلاحين ودافى الضرائب مباشرة ، وكان قوام هذا النظام طائفة من الأعيان وكبار الملاك الذين كانوا يدفعون أو يضمنون دفع الضرائب عن مساحات زراعية كبيرة ، بينما كان الفلاحون أنفسهم مرتبطين بالأرض إلى حد كبير جدا ، وكانوا لا يغيرون مقرهم إلا بترخيص . ولسنا نعرف تماما هل أخذ الموظفون يحلون محل هؤلاء الملاك في جمع الضرائب ، وإلى أى حد وبأى سرعة تم هذا التغيير . ومن الراجح أن هؤلاء ظلوا يضمنون دفع الضرائب ، ولكن أخذ العرب يحلون محلهم تدريجيا في امتلاك الأرض وقسم الخراج . وقد كان فلاحو القرية متضامنين في الضرائب التي تفرض عليهم وكان لا يجوز لهم الهجرة من مقرهم إلا بأذن من الحكومة وقد اتخذت الحكومة في بداية العصر الإسلامي إجراءات شديدة لمنع الهجرة من كورة إلى أخرى ولسكشاف المهاجرين وإعادةهم أو الاذن لهم بالاستقرار في مقرهم الجديد ضمنا لحسن سير فلاحية الأرض وجمع الضرائب . كما كان لا يجوز نقل المحاصيل أو النقولات من مكان إلى آخر إلا بتصريح ، وبدل على ذلك أمثلة عديدة في أوراق البردي^(١) .

وقد كان في مصر ديوان للخراج والأموال^(٢) ويظهر أن بيت المال في مصر لم يكن وقفا على حفظ أموال الضرائب فحسب^(٣) ، فانا نعلم أن الخليفة أبا جعفر المنصور أرسل إلى أبي عون وإلى مصر (١٣٣ - ١٣٦ هـ) يأمره بإدخال أموال اليتامى في بيت المال^(٤) ، وربما كان يرد إلى بيت المال أيضا

(١) Voir: J. Karabacek: Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung. Wien 1894. pp. 153, 148

(٢) خطط المقريري ج ١ ص ٩٨ .

(٣) يذكر ابن رسته أن مقر بيت المال كان في المسجد الجامع (الأعلام

التفيسه ص ١١٦)

(٤) السكندى ص ٣٥٥

الموارث التي يموت أصحابها دون أن يكون لهم ورثة . ولعل خمس الغنيمة التي كان يقسمها المصريون في فتوحاتهم في الغرب والجنوب كانت ترد إلى بيت المال أيضا .

ويبدو من المصادر الإسلامية والسيحية في تاريخ عصر الولاة أن الهدف الرئيسي الذي كان يعنى به العرب هو الجزية التي كانوا يجمعونها من القبط . ويظهر أن الإدارة المالية كانت معقدة وأن الذين كانوا يفهمونها أكثر من غيرهم هم الموظفون القبط . ويمكننا القول بأن دخل البلاد قبل الدولة الطولونية كان يذهب إلى بيت مال الخلافة أو جيوب الولاة وعمل الخراج بدون أن تفيد مصر نفسها شيئا كثيرا . ولما كانت البلاد في عصر الولاة لا تحكمها أسرة تحرص على ازدهارها ، لم تكن من الوجهة المالية إلا شبه مزرعة تستغل بدون كبير رعاية لازدهارها أو بقاء قدرتها على الإنتاج ، إذ كان غرض الخلافة الأساسي هو جباية أكبر دخل ممكن .

ومن النظم التي وجدت قبل الفتح العربي وأخذ بها العرب نظام الالتزامات المعروف في العالم الكلاسيكي باسم *Leiturgia* ومعناه التزام الشخص أو الجماعة ببعض الخدمات للدولة . ففي أثينا كان كل مواطن يمتلك نصيباً معيناً من الأملاك يقدم إلى الدولة بعض الخدمات الشخصية^(١) .

ولكن هذا النظام لم يكن في العصر الإسلامي عاماً كما كان عند الإغريق بمعنى أنه كان ظاهراً في الضرائب وما يتصل بها ، فكانت السكورة تلزم بأداء نوع من الخدمة للدولة أو بدفع مبلغ في مقابل إعفائها من ذلك . وفي بعض

(١) كانت هذه الخدمات كثيرة النفقات وكانت في البداية نتيجة طبيعية للامتيازات السياسية التي ينعم بها الأثرياء . فكانوا يؤدونها للجمهورية ليكون نصيبهم من الضرائب أثقل من نصيب الفقراء . ولكن لما ازدهرت الديمقراطية في أثينا وأصبح المواطنون متساوين في الحقوق السياسية تغيرت طبيعة تلك الالتزامات وصارت نوعاً من ضرائب الدخل .

الأحيان كان الوالى يوصى عماله على الكورات بجمع الأشخاص أو المواد اللازمة لهذه الخدمات وبعدم قبول المال مقابل الإعفاء من أدائها . ومن أهم أنواع الالتزام أو الليتورجيا .

١ — تقديم المال والأدوات اللازمة لتشبيد الطرق وحفر الترغ أو كريبها

٢ — تقديم مواد غذائية مختلفة مما تشتهر بانتاجه الكورات .

٣ — إيواء الجند وضيافتهم .

٤ — تقديم الموظفين ذوى الخبرة لبعض الأعمال الحكومية .

٥ — تقديم المواد والأيدى العاملة اللازمة لتشبيد المباني العامة في

مصر بل ولعمارة المساجد في الشام وبلاد الحجاز .

٦ — تقديم البحارة ومواد بناء السفن^(١) .

ورأينا أيضاً أنه كان هناك مصانع حكومية للنسيج (طراز الخاصة) ومصانع حكومية أو أهلية تراقبها الحكومة (طراز العامة) . وكانت الحكومة في عصر الولاة بل والى العصر الفاطمى تحصل على معظم حاجتها من مصانعها الخاصة بينما أصبحت في عصر المماليك تعتمد على المصانع الأهلية العامة .

ولا نعرف إذا كانت التجارة الخارجية في عصر الولاة مع أقاليم البحر الأبيض المتوسط ظلت على ما كانت عليه في العصر اليونانى الرومانى ، أم أخذت في النمو والزيادة تمهيداً للازدهار الذى وصلت إليه في عصر الأيوبيين والمماليك . والظاهر أن تجارة الهند لم تصبح مصدراً كبيراً لثروة ذوى الأحر في مصر إلا منذ الدولة الأيوبية . ويبدو أن المصريين أنفسهم لم يساهموا في النشاط التجارى الخارجى إلا بقدر ضئيل ولعل هذا يرجع إلى عدم إقبال المصريين بوجه عام على التجارة في المصور القديمة . ويرجح أن معظم التجار

في عصر الولاة كانوا من الخارج مثل أسرة المادرائين المراقية ، التي اشتهرت قبيل العصر الطولوني وظلت واسعة النفوذ ورفيعة المكانة إلى العصر الأخشيدي ، وكان لليهود شأن عظيم في التجارة في ذلك العصر .

ولا نعرف إذا كانت مصر في عصر الولاة قد عرفت نظام احتكار بعض البضائع أو الحاجيات ، اللهم إلا إذا استثنينا ما فعله ابن المدبر في نهاية هذا العصر من الحجر على النطرون بعد أن كان مباحا لكل الناس^(١) كذلك أدخل ابن المدبر المرامي ، أى الكلاً الذى ترعاه الدواب ، في الديوان وحرّم على الناس أن يبيعوا المرامي أو يشتروها إلا من الديوان^(٢) .

وقد احتفظت مصر في هذا العصر من الناحية الفنية (العمارة والفنون الزخرفية) بكيانها الخاص ، وكان التحول إلى الروح الإسلامية في هذه الفنون تحولاً بسيطاً . ويعتبر عصر الولاة عصر الانتقال من الأساليب الفنية القبطية إلى الأساليب الفنية العباسية التي سادت مصر في العصر الطولوني .

ولم يكن للمصريين في عصر الولاة حق الاشتراك في الجيش فكان رجال الجيش النظامي والأسطول من العرب . ولكن كانت هناك فرق غير نظامية مثل المطوعة وربما كان أغلبهم من المصريين ، كذلك كان يجمع من أنحاء القطر مساعدون وأعوان وفقاً لنظام الالتزامات أو الليتورجيا . ولا ينفي هذا ما ذكرناه من أن المصريين لم يشتركوا في صلب الجيش إذا كانوا يقومون بأدوار ثانوية كما أنهم لم يثبتوا في ديوان الجند ولم يصرف لهم المعطاء الذى كان يصرف للفرق النظامية . ونجد أن المنصر العربى في الجيش

(١) خطط القريزى ج ١ ص ١٠٣ ، ١٠٩

Zaky M. Hassan: Les Tulunides. p. 244.

(٢) خطط القريزى ج ١ ص ١٠٧ . Zaky M. Hassan: op. cit. p. 244.

والأسطول يقل ابتداءً من العصر المباسى لإقباله على وظائف الإدارة أو على الزراعة والتجارة ويصبح قوام الجيش من الفرس أولاً ثم الترك ثانياً حتى أتى المعتصم في بداية القرن الثالث الهجرى فأمر بإسقاط العرب نهائياً من الديوان .

وقد ترك العرب للمصريين أراضيهم وأمنوم عليها وفرضوا عليها الخراج ولم تكن أرض مصر ، في بداية هذا العصر ، أرض خراج فحسب بل نشأت فيها أرض المشر ، إما قطيعة منحت لبعض المسلمين . أو أرض حصلوا عليها من الحكومة أو القبط بطريق الشراء ، أو أرض موات احتلوها . كذلك كان القبطى الذى يعتنق الإسلام تصبح أرضه عشرة . ولكن نجد أنه معضى الوقت أصبحت أرض مصر كلها يفرض عليها الخراج دون النظر إلى مالكتها سواء أكان قبطياً أم مسلماً ، ولا نعرف متى كان هذا التحول بالضبط والراجح أنه كان في العصر المباسى

وكانت أول ثورة للعرب بسبب زيادة الخراج زيادة مجحفة زمن الخليفة المباسى المهدي (١٥٨ — ١٦٩ هـ) حين كان موسى بن مصعب الخثعمي والياً على مصر (١٦٧ — ١٦٨ هـ) . ولا بد أن بعض ولاية مصر وعمال خراجها وبعض الموظفين فيها تمكنوا من الاتراء وجمع الأموال الطائلة ، وخاصة في العصر المباسى ، حين كثر تولية المال وعزلهم . ولا نعرف هل كان الولاية في هذا العصر يلزمون بعض الموظفين والأثرياء بدفع ثرواتهم أو جزء كبير منها إلى خزانة الدولة ثانية ، كما كانت يحدث في عصر الطولونيين والأخشيديين ، رغم أن هذه السياسة كانت معروفة جداً في مقر الخلافة في القرن الثالث الهجرى ولا سيما في حالة الوزراء حين عزلهم ^(١) . وربما كانت

(١) انظر كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء تأليف أبي الحسن الهلال الصابى

مثل هذه المصادر مألوفة في عصر الولاة المستقلين من الطولونيين والأخشيديين رغبة منهم في تنمية ثرواتهم الخاصة^(١).

ومن المدن التي اشتهرت في عصر الولاة مدينة الفسطاط عاصمة مصر ومقر حكومتها، ومدينة الإسكندرية عاصمة مصر الثانية ومينائها الهام ومقر البطركية. « وقد ظلت الإسكندرية محافظه على مكانتها الخاصة التي كانت لها في عهد البطالسة حتى أول القرن الرابع الهجري، حيث نجد في إحصاء أموال الدولة أفراد باب خاص بعنوانه. مصر والإسكندرية، فقد حافظت الإسكندرية على مكانتها باعتبارها قسما مستقلا بجبايته كما كان الحال على عهد البطالسة^(٢) ». ومن المدن الهامة أيضا في هذا العصر تنيس ودمياط وبورة وتونة ودميرة وديق وشطا واهناسيا والبهنسا وأسيوط وإخميم والفيوم. وكلها تدين في شهرتها للصناعات وخاصة صناعة النسيج. كذلك اشتهرت منطقة البشمور بثورتها المتعددة كما رأينا في الفصول السابقة.

وقد حدثت في عصر الولاة مجاعات كالتى حدثت في العصور التى تلتها مثل العصر الأخشيدى والفاطمى والأيوبي. وعصر المماليك. ويذكر الكندى^(٣) والمقرئى^(٤) أن أول غلاء وقع بمصر بعد فتح العرب كان في سنة ٨٧ هـ، وكان هذا أول غلاء وأول شدة رآها المسلمون بمصر. ولا يذكر الكندى أو المقرئى مجاعة أخرى حدثت في مصر قبل ذلك أو بعده طوال عصر الولاة. على أن المؤرخ ساويرس، الذى استند معلوماته من

(١) تارن آدم متر: الحضارة الإسلامية ج ١ ص ١٤٠، ١٩٤

(٢) متر: الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٠٨

(٣) الولاة والقضاة ص ٥٩

(٤) إغانة الأمة ص ١١

وثائق ترجع إلى هذا العصر ، يتحدثنا عن مجاعات أخرى حدثت فيه .
فيذكر أنه في ولاية عبد الله بن أبي سرح على مصر (٢٥ - ٤٥ م)
حدث غلاء عظيم كان يموت بسببه كل يوم عدد لا يحصى^(١) ولكن
لا يذكر لنا في أي سنة كان هذا الغلاء أو المدة التي دام فيها .

وفي عهد أسامة بن زيد عامل خراج الخليفة سليمان بن عبد الملك حدث
غلاء عظيم مات بسببه خلق كثير^(٢) كذلك حدث غلاء عظيم لنقص مياه
النيل في أول سنة من ولاية القاسم بن عبيد الله بن الجبحاب خراج مصر^(٣)
كذلك حدث مجاعة في خلافة المأمون قبيل ثورة البشموريين التي أخضعها
الخليفة^(٤) .

ونلاحظ أن المجاعات التي حدثت في مصر منذ المصور القديمة يرجع
معظمها إلى نقص مياه النيل نقصاً يضر بالزراعة أو زيادته زيادة تضرها ،
ولما كانت ثروة مصر الرئيسية تتوقف على الزراعة كان يترتب على الإضرار
بالزراعة غلاء ومجاعات .

ويذكر القريري^(٥) أن الغلاء إنما يحدث من آفات سماوية في غالب
الأمر كقصور جرى النيل بمصر وعدم نزول المطر بالشام والمراق والحجاز
وغيره ، أو آفة تصيب الغلال من سمائم تحرقها أو رياح تهيفها أو جراد
يأكلها ، وما شابه ذلك . ولا بد أن المجاعات والأوبئة التي حدثت في
مصر ، والثورات القبطية ، والغزوات الأجنبية ، والحروب الأهلية ، والفن

(١) سير الآباء البطارقة (Patr. Orient. t. 1. p. 237)

(٢) Part Orient. t. 5. p. 67.

(٣) Patr. Orient. t. 5. p. 97.

(٤) Patr. Orient. t. X p. 486.

(٥) إغاثة الأمة ص ١٤

للداخلية والمحن الدينية ، لا بد أن كل هذا أثر في رخائها وثروتها ، إلا أنه لم يؤثر فيها تأثيراً بليغاً كما كنا ننتظر في قطر آخر ، وذلك لأن هذه الظروف كانت متقطعة ومتفرقة ، فضلاً عن خصوبة أرض مصر المدهشة^(١) وقد كانت هجرة القبائل العربية إلى مصر ، ثم اختلاط العرب بأهل وادي النيل ، ثم تحول الحكم في العالم الإسلامي إلى ملك استبدادي يعتمد على الفرس ثم الأتراك ، كان كل ذلك مؤدياً إلى ضياع هيبة العرب الحاكمين وإلى اندماجهم في سلك المحكومين وتغير المركز الذي كان يريده لهم الخليفة عمر بن الخطاب . فالفكرة الأساسية الأولى في حكومة الأمبراطورية العربية كانت تنطوي على أن تكون الدولة العربية حربية تديرها الارستقراطية العربية وتقوم بأودها الشعوب المحكومة من أهل الذمة الذين يحميهم العرب والذين يقومون في مقابل ذلك بالعمل وتوفير أسباب العيش والراحة للارستقراطية العربية . فهو شبيه من بعض الوجوه بنظام الحماية في العصر الحديث . ولكن هذه الفكرة لم تتحقق طويلاً للأسباب السابقة ، ونظراً لأن الدين الإسلامي نفسه ذو طابع دولي فكان من السهل بمرور الزمن أن يمتزج المسلمون الجدد بالمسلمين من السلالة العربية . وعندما قضى نهائياً على مقاومة القبط في بداية القرن الثالث الهجري — ذلك القرن الذي شهد أيضاً انحدار العنصر العربي وفقده امتيازاته اللهم إلا من الناحية اللغوية والدينية — كان من السهل أن تتم فيه حركة الاندماج بين العرب والمصريين .

وظاهرة تمصير العرب وتعريب مصر ونشر الإسلام فيها هي أهم الظواهر التاريخية في مصر الإسلامية . واستمرت تلك الظاهرة بعض الشيء إلى عصر المماليك . ونلاحظ أن تعريب مصر وانتشار الإسلام فيها ليسا مترادفين

(١) الياس الأيوبي : تاريخ مصر الإسلامية ج ١ ص ١٤٧ - ١٤٨

وقد كان هناك عوامل لها بمض الأثر الضعيف في تعريب مصر . ومن ذلك تعريب الدواوين الذي حدث نظرياً في سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ - ٧٠٦ م) ؛ ولكن وثائق البردي في مجموعة افروديتو تدل على أن الحكومة في عصر هذه الوثائق كانت تستخدم العربية واليونانية ، بينما كانت السلطات المحلية في الريف تكتب كثيراً بالقبطية . وكذلك نجد وثائق ذات لغتين (عربية ويونانية) إلى القرن الثاني الهجري بل أنه وجد اتصال بدفع الضرائب تاريخه سنة ٢٤٦ هـ عليه كتابة قبطية^(١) . ومن العوامل ذات الأثر الضعيف في التعريب أيضاً اتصال العرب في العاصمة الجديدة (الفسطاط) بالأهلين واتصال كبار الموظفين العرب وأعوانهم في الريف بأهله .

على أن أهم عوامل تعريب مصر هو نزول القبائل العربية في الريف المصري واستقرارها على جانبي الشريط الخصب بوادي النيل وفي الدلتا ، مما أدى إلى اختلاطهم بالقبط اختلاطاً كبيراً ومن ثم إلى انتشار اللغة العربية في مصر وإلى تعريب البلاد . فقد كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربي واللغة التركية في العهد العثماني لغة البلاد الرسمية ، ولكن هذا لم يجعلهما لغة الشعب المصري ، فكان اليونان ينزلون المدن ويصبنونها بمحضارتهم ولكن نفوذهم الثقافي لم يذهب للريف إلا قليلاً ، فلم تنتشر اللغة اليونانية إلا في بيئات خاصة ، وعاش اليونانيون في مصر كأنهم جزر يونانية في وسط المحيط المصري الواسع . وكذلك عاش الأتراك في بيئات خاصة في مصر ولم يستطيعوا جعل لغتهم لغة البلاد الأصلية بالرغم من أن الحكم التركي دام عدة قرون . ولكن حدث في عهد العرب تفاعل واختلاط بينهم وبين المصريين ، وبدون هذا التفاعل والاختلاط لا يمكننا أن نفسر كيف ترك

(١) جرومان : المحاضرة الرابعة عن الأوراق البردية العربية ص ٨

الفلاح المصرى القديم لفته رغم تمسكه بالقديم وحرصه عليه . أما عن انتشار الإسلام فى مصر فنلاحظ أن بيكر Becker من الكتاب الذين يشيرون إلى أن العامل الأساسى فى انتشار الإسلام بين القبط هو العامل المالى والاجتماعى ، وإن كانت هناك اضطهادات وإرغام على اعتناق الإسلام فقد كانت نادرة^(١) .

ولسنا نستطيع أن نخرج بغير هذه النتيجة إذا قرأنا ساويرس أسقف الأشمونين ، وهو الذى لا يشك فى كتاباته فى هذا الصدد ، والذى لم يكن لينقل تفصيل الكلام على أى اضطهاد يصيب المسيحيين .

على أن القبط الذين ظلوا على دينهم لم يقفوا مكتوفى الأيدى طوال هذا العصر أمام مطالب الحكومة المالية ، بل قاوموها ، فعند ما زاد عدد القبط الذين دخلوا فى الإسلام وقل تبعاً لذلك دخل البلاد ، زاد العبء على من بقى على دينه من القبط ، وكذلك اشتدت الحكومة فى استعمال الأرض الموات وفى مراقبة الزراعة والهجرة ، فلم يزل القبط يقومون بالثورة بعد الأخرى طوال القرن الثانى الهجرى ، وشملت ثوراتهم الوجهين البحرى والقبلى ، على أن معظم تلك الثورات كانت فى الوجه البحرى . وكانت حكومة العرب من جانبها تقابل القوة بالقوة فلم تتوان عن محاربة الثائرين عليها وإرغامهم على النزول على إرادتها ، وكان آخر هذه الثورات وأعظمها تلك الثورة التى انتهت فى بداية القرن الثالث الهجرى (٢١٧ هـ ، ٨٣٢ م) بمجىء الخليفة المأمون وإخضاعه للثائرين . ومنذ ذلك التاريخ أصبح المسلمون أغلبية فى القطر المصرى .

Becker: Islamstudien, 1. p. 254

(١)

وانظر أيضاً L. Massignon : Annuaire du Monde Musulman p. 114.

كذلك نلاحظ أن الرهبان كانوا يمتنعون الولاية لأنهم كانوا يفلتون في البداية من دفع الجزية إلى أن بدأ عبد العزيز بن مروان سنة فرض الجزية عليهم . ولعل الولاية كانوا يحاربون الرهينة لأنها تحرم البلاد من الأيدي العاملة . وهذه العداوة بين الرهبان والولاية تفسر تعصب المؤرخين والكتاب المسيحيين في ذلك العصر — وجلهم من الرهبان — ضد الاسلام والحكومة الاسلامية .

وقد ظل الاسلام ينتشر في مصر إلى عصر المماليك . وحدث في عصر الناصر محمد بن قلاوون منذ سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) أن دخل المسيحيون أفواجا في الدين الاسلامي على أثر سلسلة من المشاغبات والفتن بين المسلمين والأقباط^(١) . والظاهر أن حياد الحكومة نفسها وهدوء موقفها إزاء القبط كل ذلك لم يمنع الشعب نفسه من أن يسيء معاملة القبط في بعض الأحيان . وزى أن التضييق على أهل الذمة بالتزام أنواع خاصة من الملابس ، وبتحريم ركوب الخيل أو إنشاء كنائس جديدة ، لم يكن يراعى إلا فترات قصيرة جداً ثم يهمل شأنه ، وربما كان غضب المسلمين بين حين وآخر لاهمال هذه الالتزامات هو الذي كان يدفع الحكومة إلى العمل على تنفيذها في فترات معينة . والظاهر أن الدواوين كانت غاصة بالموظفين القبط إلى عصر المماليك مما كان سبباً في قيام عدة ثورات في هذا العصر (القرن ٨ هـ ، ١٤ م) أشار إليها القريري^(٢) ، وكان المسلمون يهدفون بها إلى إخراجهم من الدواوين .

وكانت الحكومة نفسها تعمل على حماية أهل الذمة تمسكا بروح الدين

(١) خطط القريري ج ٢ ص ٤٩٧ . — ٥٠٠ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٥١٢ — ٥١٧ .

وما يقضى به من التسامح وضمانا لحسن سير الأعمال العامة ، ولكنها كانت تضطر أحيانا إلى التقرب إلى بعض طبقات الشعب بالسكوت على بعض الحركات الاضطهادية ضد المسيحيين أو الاشتراك فيها .

ونلاحظ أن مصر في فجر الإسلام كانت مركزاً هاماً للحركة العلمية الدينية في الدولة الإسلامية . وكان جامع عمرو بن العاص هو قلب هذه الحركة النابض كما هو الحال بالنسبة للأزهر الشريف الآن . وقد أنجبت مصر منذ أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجرى علماء أدب ودين ولغة وتاريخ لهم مكانتهم الرفيعة في التراث العربى . وكان علماء مصر أساتذة لعلماء أفريقية والأندلس بوجه خاص .

وقد رأينا أن الشعور الوطنى بين المصريين كان ضعيفا في فجر الإسلام فلم يكن فى ثورات القبط ضد حكومة العرب عنصر وطنى ، بل كانت كلها بسبب الضرائب . ولعل ضعف هذا الشعور الوطنى كان أكبر عون للعرب على القضاء على حركات القبط وعلى دفعهم إلى اعتناق الدين الإسلامى وإلى استعمال اللغة العربية .

وقد كانت الحالة فى مصر بعكس إيران مثلاً . فلا نعرف فى مصر حركة شعوبية كما كان فى شرق العالم الإسلامى . فى عهد الدولة العباسية التى قامت على أكتاف الفرس بدأ هؤلاء يتكلمون ويكتبون ويناقشون العرب ويعددون مزايا الفرس . وقد عرفت هذه المناقشات الأدبية بين الشعراء والأدباء من العرب والعجم باسم حركة الشعوبية فكان العجم يقولون بالتسوية بين المسلمين جميعا ولذا عرفوا بالشعوبية أو أهل التسوية ، ولما اشتد الجدل بين العرب والعجم أصبح الشعوبى هو الذى يصغر من شأن العرب ولا يرى

لهم فضلا على العجم^(١) وهذه الحركة وإن كانت مناقشات كلامية ومساجلات أدبية بين العرب والعجم ، إلا أنها تعبر عن تمسك الإيرانيين بترائهم الوطني وثورتهم على سيادة الغرب التي قضت على ملك كسرى وقضت على استقلال الفرس وهم شعب ذو حضارة عتيقة ، كما أنها تشهد بأن الروح الوطنية بين الفرس لم تمت بفتح العرب لبلادهم . وعندما شعر الفرس بقوتهم منذ قيام الدولة العباسية وبضعف العرب قاموا بحركات مختلفة تدعو الناس إلى اتباع محل غربية على الدين الإسلامى ، ولم تكن هذه الحركات فى الحقيقة سوى حركات سياسية دينية إرادية ترمى إلى إقامة دولة فارسية تعود إلى التقاليد القديمة وتتخلص من العرب ولغتهم ودينهم . كذلك نجد أن بعض الأسرات التى قامت فى فارس كانت أسرات فارسية كما كانت الحال فى الدولة الطاهرية بخراسان (٢٠٥ — ٩٥٢ هـ) والدولة الصفارية بفارس (وهو الإقليم الإيرانى الذى يقع شرق الخليج الفارس) (٢٥٤ — ٢٩٠ هـ) ودولة بنى ساج فى آذربيجان (٢٦٦ — ٣١٨ هـ) والدولة السامانية فى إقليم ما وراء النهر (٢٦١ — ٣٨٩ هـ) .

أما فى مصر فإن الأسرات التى قامت فيها كانت أجنبية عنها مثل الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك . وقد ظل الروح الوطنى قائما فى إيران حتى أمكن قيام شاعر وطنى ، مثل الفردوسى الذى نظم الشاهنامة بالفارسية فى القرن الرابع الهجرى ، بينما فى مصر اضطرت رجال الدين الأقباط منذ القرن الرابع الهجرى إلى الكتابة باللغة العربية وإلى مخاطبة أبناء دينهم بها بعد أن أصبحت لغة التخاطب بينهم . وكانت

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد - ط . القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ - ٢ >

مصر خاضعة خضوعاً تاماً للخلافة طالما كانت الخلافة قوية الجانب . ولكن بدأ الضعف يدب في جسم الخلافة العباسية في أثناء النزاع بين إيلخية الأمين وأخيه المأمون . وما لبث أن وضع ذلك الضعف بعد أن استعان الخليفة المعتصم في حكم الدولة بالأتراك الذين تحكموا في شئون الدولة المدنية والحربية ، حتى أصبح بيدهم منذ خلافة المتوكل على الله (٢٣٢ — ٢٤٧هـ) انتخاب الخلفاء وعزلهم ، ولذا نجد أن النزعة إلى الاستقلال تظهر في مصر واضحة جلية في أثناء النزاع بين الأمين والمأمون ، وكان يمثل هذه النزعة السرى بن الحكم وعبد العزيز الجروى وأولادهما ، بل إن السرى وأولاده استطاعوا الاستقلال عن الخلافة وحكموا القسطنطينية عاصمة مصر أكثر من عشر سنين ، إلى أن نجح المأمون في إعادة مصر إلى حوزة الخلافة ثانية في سنة ٢١٢هـ .

على أن أحمد بن طولون الذي قدم إلى مصر في سنة ٢٥٤هـ واليا على الصلاة من قبل بابك صاحب إقطاعها ، وجد مصر ولاية إسلامية تامة ، التكوين ، ووجد الخلافة ضعيفة ، ولا سيما بسبب ثورة الزنج ، فسرعان ما تحدى سلطة الخلافة واستقل بمصر استقلالاً فعلياً في الواقع واسمياً في الظاهر ، بل إنه نجح في ضم سورية إلى مصر وفي تأسيس دولة طولونية دامت نحو ٣٨ عاماً ، وكانت هذه أول مرة تستقل فيها مصر الإسلامية .

المراجع

١ - المصادر القديمة

- ١ - ابن الأثير (المتوفى ٦٣٠ هـ و ١٢٣٢ م) : « الكامل في التاريخ »
١٢ جزءاً . لندن ١٨٦٦ - ١٨٧٤ م .
- ٢ - - - - : « أسد الغابة في معرفة الصحابة » ٥ أجزاء . القاهرة ٩٢٨٥ - ١٢٨٦ هـ .
- ٣ - الأزرقى (ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م أو ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م أو ٢٢٣ هـ / ٨٣٨ م) :
« أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار » جزءان . الطبعة المأجدية بمكة المكرمة . ١٣٥٢ : ١٣٥٧ م .
- ٤ - ابن أبي أمية (ت ٢٦٨ هـ / ١٢٦٩ - ١٢٧٠ م) :
« طبقات الأطباء » جزءان . القاهرة ١٢٩٩ هـ .
- ٥ - البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٣ - ٨٩٣ م) : « كتاب فتوح البلدان »
لندن ١٨٦٦ م .
- ٦ - بيريوس الدوادار (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) : « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » الجزء الرابع مخطوط رقم ٢٤٠٢٧ بمكتبة جامعة فؤاد الأول .
- ٧ - حاجي خليفة (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م) : « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون » ٧ أجزاء . لينزج - لندن ١٨٣٥ - ١٨٥٨ م
- ٨ - ابن حنجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ - ١٤٤٩ م) : « الإصابة في تمييز الصحابة » ٨ أجزاء . القاهرة ١٣٢٣ - ١٣٢٥ هـ .
فجر الإسلام - (٢٤)

٩ — حنا النقيوسى (ت أواخر القرن الأول الهجرى/السابع الميلادى) :
« تاريخ »

Chronique de Jean, évêque de Nikiou. Texte Ethiopien
publié et traduit par M.H. Zotenberg (Notices et extraits
des Manuscrits de la Bibliothèque Nationale et autres
bibliothèques. t. 24. Paris 1883).

١٠ — ابن خرداذبه (ت حوالى ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) : « كتاب المسالك
والممالك » (المجلد السادس من مجموعة المكتبة الجغرافية) .
ليدن ١٨٨٩ م .

١١ — ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) : « العبر وديوان
المبتدأ والخبر » ٧ أجزاء . القاهرة ١٢٨٤ هـ . . .

١٢ — — : « المقدمة » . القاهرة ١٢٤٨ هـ — ١٩٣٠ م .

٢٣ — ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م) : « وفيات الأعيان » جزءان .
القاهرة ١٢٩٩ هـ .

١٤ — ابن الداية (ت ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م أو ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م أو ٣٤٠ هـ /
٩٥١) : « سيرة أحمد بن طولون » . برلين ١٨٩٤ م .

١٥ — الشريف الأدريسى (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ — ١١٦٥ م) : « صفة
المغرب وأراضى السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب
نزهة المشتاق فى اختراق الافاق » . ليذن ١٨٦٤ — ١٨٦٦ م .

١٦ — ابن دقاق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ — ١٤٠٧ م) : « كتاب
الانتصار لواسطة عقد الامصار » الجزء الرابع والخامس . بولاق
١٣٠٩ هـ .

١٧ — الدينورى (ت ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م أو ٢٩٠ هـ / ٩٠٣) : « الإخبار

الطوال . القاهرة ١٣٣٠ هـ .

١٨ — ابن رسته : « الاعلاق النفيسة » (الجزء السابع من مجموعة المكتبة الجغرافية) . ليدن ١٨٩١ — ١٨٩٢ م .

١٩ — ساويرس بن المقفع (ت أواخر القرن ٤ هـ / أواخر القرن ١٠ م) : سير الآباء البطارقة (الجزء الأول والخامس والعاشر من مجموعة Patrologia orientalis . باريس ١٩٠٧ و ١٩١٠ و ١٩١٥ .

٢٠ — ابن سعد كاتب الواقدي (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م) : « الطبقات الكبير » ٨ أجزاء . ليدن ١٩٠٥ — ١٩٢١ م .

٢١ — سعيد بن بطريق : المعروف باسم أوثيخا (ت ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م) « كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » جزءان . بيروت ١٩٠٥ و ١٩٠٩ م .

٢٢ — السيوطي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) « تاريخ الخلفاء » : القاهرة ١٣٥١ هـ .

٢٣ — —: حسن المحاضرة : جزءان . القاهرة ١٣٢٧ هـ .

٢٤ — ابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م) : « فوات الوفيات » جزءان . القاهرة ١٢٩٩ هـ .

٢٥ — أبو صالح الأرمني : « تاريخ » المعروف بكناثس وأديرة مصر . طبعة Evetts . اكسفورد ١٨٩٥ م .

٢٦ — الاصطخرى « كتاب مسالك الممالك » : (الجزء الأول من المكتبة الجغرافية) ليدن ١٩٢٧ م .

٣٧ — ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي : « الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية » الطبعة الثانية — مطبعة المعارف ، مصر .

- ٢٨ - الطبرى (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) : « تاريخ الأمم والملوك »
١١ جزءاً -- الطبعة الأولى بالطبعة الحسينية المصرية .
- ٢٩ - ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ - ٨٧١ م) : « فتوح مصر
وأخبارها » طبعة تورى Torrey . نيوهافن ١٩٢٧ م وطبعة هنرى
ماسيه Henri Massé . المعهد العلمى الفرنسى . القاهرة ١٩١٤ م
- ٣٠ - ابن العميد المعروف بالسكين (ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٣ - ١٢٨٤ م) :
« تاريخ المسلمين » لندن ١٦٢٥ م .
- ٣١ - أبو الفدا (ت ٧٣٧ هـ / ١٣٣١ - ١٣٣٢ م) : « المختصر فى
أخبار البشر » ٤ أجزاء . الطبعة الأولى بالطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ
- ٣٢ - ابن فرحون (ت ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ - ١٣٩٧ م) : « كتاب الديباج
المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب » القاهرة ١٣٢٩ هـ .
- ٣٣ - ابن الفقيه (ت أواخر القرن ٥ هـ / أوائل ١٠ م) : « مختصر
كتاب البلدان » (الجزء الخامس من المكتبة الجغرافية) لندن
١٨٨٥ م .
- ٣٤ - ابن فتيبة (ت ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م أو ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) : « كتاب
الامامة والسياسة . جزءان . القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- ٣٥ - قدامة بن جعفر (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م أو ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م أو
٣٣٧ هـ / ٩٤٨ - ٩٤٩ م) : « بديع من كتاب الخراج وصناعة
الكتابة » (الجزء السادس من المكتبة الجغرافية) لندن ١٨٨٩ م
- ٣٦ - القلة شندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) : « صبح الأعشى فى صناعة
الانشا » - ١٤ جزءاً . الطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩ م
- ٣٧ - الكندى (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) : « كتاب الولاة وكتاب القضاة »
بيروت ١٩٠٨ م (Gibb Memorial Series.)

- ٣٨ — السوردي (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) : « الأحكام السلطانية »
القاهرة ١٢٩٨ هـ .
- ٣٩ — أبو المحاسن ابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ — ١٤٧٠) :
« النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » الجزء الأول والثاني .
طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م ، ١٩٣٠ م .
- ٤٠ — المدني : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . لندن ١٨٧٧ م .
- ٤١ — المسعودي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) : « مروج الذهب ومعادن الجوهر
في التاريخ » جزءان — طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ ، ٨ أجزاء طبعة
Barbier de Meynard — باريس ١٨٦١ — ١٨٧٤ م .
- ٤٢ — — : « التنبيه والإشراف » (الجزء الثامن من المكتبة الجغرافية)
لندن ١٨٩٣ — ١٨٩٤ م .
- ٤٣ — المقرئ (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ — ١٤٤٢ م) : « المواعظ والاعتبار
في ذكر الخطط والآثار » . جردان . بولاق ١٢٧٠ هـ .
- ٤٤ — — : « البيان والإعراب عما بارض مصر من الأعراب » القاهرة
١٣٥٦ .
- ٤٥ — — : « شذور العقود في ذكر النقود القديمة والإسلامية »
المعروف باسم النقود الإسلامية . القسطنطينية ١٢٩٨ هـ .
- ٤٦ — — : « إغاثة الأمة بكشف الغمة » طبعة الدكتور محمد مصطفى
زيادة والأستاذ الشيال . القاهرة ١٩٤٠ م .
- ٤٧ — ابن النديم (ت ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م) : « الفهرست » . لينزج ١٨٧١ م .
- ٤٨ — النويري (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ — ١٣٣٢ م) : « نهاية الأرب
في فنون الأدب » ١٣ جزءا — طبعة دار الكتب المصرية والباقي

مخطوط بدار الكتب المصرية . الجزء الأول طبعة دار الكتب
الثانية ١٩٢٩ م — والجزء ٢٩ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت
رقم ٥٥٤ « معارف عامة » .

٤٩ — ياقوت-الحموي (ت ٦٢٦ هـ ١٢٢٩ م) : « معجم البلدان »
٦ أجزاء . لينزج ١٨٦٦ — ١٨٧٣ م .

٥٠ — يحيى بن آدم القرشي : « كتاب الخراج » ليدن ١٨٩٥ — ١٨٩٦ .

٥١ — اليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) : « كتاب البلدان » (الجزء
السابع من مجموعة المكتبة الجغرافية) ليدن سنة ١٧٩٢ .

٥٢ — — : « تاريخ » . جزءان . طبعة هوتسما Houtsma . ليدن ١٨٨٣

٥٣ — أبو يوسف صاحب أبي حنيفة (ت ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م) : « كتاب
الخراج » . بولاق ١٣٠٢ هـ .

٥٤ — Becker (C. H. : Neue Arabische Papyri des
Aphroditofundes (Der Islam. II. Strassburg 1914).

٥٥ — Bell : H. I. Translations of the Greek Aphrodito
Papyri in the British Museum (Der Islam. Band
II, III, IV, XVII. 1911, 1912, 1913, 1928).

٥٦ — van Berchem Max : Matériaux pour un Corpus
inscriptionum Arabicarum,

a) L'Egypte (Mémoires publiés par les membres
de l'Institut Français du Caire — 1894).

b) Jérusalem Ville (Mémoires..... 1920 — 1922).

٥٧ — Combe, Et. J. Sauvaget, G. Wiet : Répertoire
Chronologique d'épigraphie Arabe. t. I, II. Le
Caire 1931.

Crum : W. E, Coptic Ostraca. London 1902. — ٥٨

Grohmann Adolf : Arabic Papyri in the Egyptian — ٥٩
Library vols. I, II, III, Cairo 1934, 1936, 1938.

الجزء الأول نقله المؤلف إلى العربية بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور
حسن إبراهيم حسن بعنوان : « أوراق البردى العربية بدار الكتب
المصرية » القاهرة ١٩٣٤ م .

٢ — المصادر الحديثة

١ — المصادر المصرية

٦٠ — الأستاذ أحمد أمين بك : فجر الإسلام ج ١ — القاهرة ١٩٢٨ م

٦١ — : فحى الاسلام ج ٣ — القاهرة ١٩٣٦ م

٦٢ — أحمد تيمور باشا : نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة .
القاهرة ١٣٥١ هـ

٦٣ — أحمد تيمور باشا : التصوير عند العرب ، أخرجته وزاد عليه الدراسات
الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن — القاهرة ١٩٤٣ .

٦٤ — أحمد لطفى السيد : قبائل العرب في مصر — ج ١ — القاهرة
١٩٣٥ م .

٦٥ — ادولف جرومان : أربع محاضرات عن الأوراق البردية العربية
تعريب الأستاذ توفيق أسكاروس — دار الكتب المصرية —
القاهرة ١٩٣٠ م .

٦٦ — الياس بك الأيوبي : تاريخ مصر الاسلامية — ج ١ — القاهرة ١٩٣٢

- ٦٧ — الأستاذ أمين النخولي : مصر في تاريخ البلاغة (مجلة كلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول ، المجلد الثاني ، الجزء الأول ، القاهرة — مايو ١٩٣٤ م .
- ٦٨ — الأب انستاس الكرملي : النفوذ العربية وعلم النميات . القاهرة ١٩٣٩ م
- ٦٩ — الدكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص . القاهرة ١٩٣٦ م
- ٧٠ — — : تاريخ الإسلام السياسي . ج ١ — القاهرة ١٩٣٥ م .
- ٧١ — الدكتور زكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر . ج ١ —
القاهرة ١٩٣٥ م .
- ٧٢ — — : كنوز الفاطميين — القاهرة ١٩٣٧ م
- ١ — — : في مصر الإسلامية مع البكباشي عبد الرحمن زكي وآخرين
القاهرة ١٩٣٣ م
- ٧٤ — — : الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي . القاهرة ١٩٣٩ م .
- ٧٥ — — : بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية (في مجلة
جمعية الآثار القبطية) القاهرة سنة ١٩٣٧ .
- ٧٦ — — : مصر والحضارة الإسلامية — القاهرة ١٩٤٢ م
- ٧٧ — — : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى . القاهرة ١٩٤٥ .
- ٧٨ — الدكتور سليم حسن بك : أقسام مصر الجغرافية في العهد المروفي
(المجمع المصري للثقافة العلمية . الكتاب السنوي الثالث عشر) .
القاهرة ١٩٤٢ م .
- ٧٩ — الدكتور عبد الحكيم الرفاعي : الاقتصاد السياسي . الجزء الأول —
القاهرة ١٩٣٦ م .
- ٨٠ — علي بك بهجت : حفريات الفسطاط . القاهرة ١٩٢٨ م .

- ٨١ — الأستاذ محمد كامل حسين : في الأدب المصري الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى دخول الفاطميين . القاهرة ١٩٣٩ م .
٨٢ — الدكتور محمد كامل صرسي بك : الملكية العقارية في مصر وتطورها التاريخي من عهد الفراعنة حتى الآن — القاهرة ١٩٣٦ م .
٨٣ — الدكتور محمد سامي جنيته : القانون الدولي العام . القاهرة ١٩٣٣ م
٨٤ — يوسف اليان سركيس : مجمع الطبوعات العربية والمترجمة . القاهرة ١٩٢٨ — ١٩٣٠ م .

ب — المصادر الأجنبية

- ٨٥ — Ali Bey Bahgat : Les Manufactures d'Etoffe en Egypte au Moyen Age, (Bulletin de l'Institut Egyptien. Quatrième Série — 6 Avril 1903 — Le Caire 1903).
- ٨٦ — Amélineau E. : Etude sur le Christianisme en Egypte au Septième siècle. Paris 1887.
- ٨٧ — Arnold Th.: The Preaching of Islam. London 1935.
- ٨٨ — Becker C. H.: The Expansion of the Saracens (The Cambridge Medieval History, vol. 11 Cambridge 1913).
- ٨٩ — — : Art. Egypt (The Encyclopaedia of Islam, vol. 11. Leyden — London 1927).
- ٩٠ — — : Art. Cairo (The Encyclopaedia of Islam, vol. 1. Leyden — London 1913)

- : Historische Studien über das Londoner — ٩١
Aphroditowerk. (Der Islam Band 11. 1911).
- : Islamstudien. Leipzig 1924. — ٩٢
- Van Berchem, Max, La Propriété territoriale et — ٩٣
l'impôt foncier sous les Premiers Califes. Gen-
ève 1886.
- : Une Page Nouvelle de l'histoire d'Egypte — ٩٤
(Journal Asiatique. Dixième série — Tome IX
Paris. Janvier Février 1907).
- Brockelmann, Carl : Geschichte der Arabischer Lit- — ٩٥
teratur, 2 vols. Weimar, Berlin 1898 — 1902, 2
Suplementband — Leiden 1937 — 1038.
- Butcher Mrs. E. L. : The Story of the Church of — ٩٦
Egypt. 2 vols. London 1897.
- تعريب أسكندر فادرس بعنوان « تاريخ الأمة القبطية وكنيستها »
في ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٠٠ ، ١٩٠١ ، ١٩٠٦ م
- Butler Alfred J. : The Arab Conquest of Egypt. — ٩٧
Oxford 1902.
- تعريب الأستاذ محمد هريد أبو حديد بك بعنوان « فتح العرب لمصر »
القاهرة ١٩٣٣ م
- : The Ancient Coptic Churches of Egypt. 2 vols. — ٩٨
Oxford 1884.
- : The Treaty of Misr in Tabari. Oxford 1913. — ٩٩

- : Islamic Pottery. London 1929. — ١٠٠
- Caetani, Leone . Annali dell' Islam. vols. IV, V. — ١٠١
Milano 1911, 1912.
- Creswell (K. A. C.) . Coptic Influences on-Early — ١٠٢
Muslim Architecture (Extrait - Bulletin de la
Société d'Archéologie Copte. Tome V 1039.
Le Caire).
- De Castries Henri : L'Islam, Impression et Etudes. — ١٠٣
Paris 1896.
- تعريب احمد فتحى زغلول باشا بعنوان «الإسلام . حواطر وسوانح»
مطبعة السعادة بالقاهرة
- De Sacy Silvestre . Recherches sur la nature et — ١٠٤
les Révolutions du droit de propriété territoriale
en Egypte (Bibliothèque des Arabisants Français,
t. II (Institut Français d'Archéologie Orientale, le
Caire 1923.)
- : Traité des monnaies Musulmanes. Le Caire — ١٠٥
1905.
- Devonshire Mme R. L. : L'Egypte Musulmane et — ١٠٦
les Fondateurs de ses Monuments. Paris 1926.
- Dozy . Histoire des Musulmans d'Espagne. 3 to- — ١٠٧
mes. Leyde 1932.
- : Supplément aux Dictionnaires Arabes, 2 vols — ١٠٨
(Leyden 1881).
- . Dictionnaire détaillé des noms des vêtements — ١٠٩
chez les Arabes. Amsterdam 1845.

- Georgy Sobhy Bey : The Survival of Ancient Egypt. — ١١٠
(Extrait du Bulletin de la Société d'Archéologie
Copte. T. IV. Le Caire 1938)
- Heyd : Histoire du commerce du Levant au Moyen — ١١١
Âge. 2 vols. Leipkig 1885-1886.
- Johnson Allan Chester : An Economic Survey of — ١١٢
Ancient Rome vol. II Roman Egypt Baltimore.
1936.
- Jouguet Pierre : L'Égypte Gréco Romaine (Précis — ١١٣
de l'histoire d'Égypte. t. 1).
- Kammerer Albert : La Mer Rouge. Tome Premier. — ١١٤
Le Caire 1929.
- Lamm Carl Johan : Cotton in Mediaeval Textiles — ١١٥
of the Near East. Paris 1937
- Lammens : Un gouverneur Omayyade d'Égypte ; — ١١٦
Qorra ibn Sarik d'après les papyrus Arabes
(Bulletin de l'Institut Égyptien. 5e. Série. Tome
11. Le Caire Décembre 1908)..
- Lane-Poole Stanley . A History of Egypt in the — ١١٧
Middle Ages. London 1925.
- Macmichael : A History of the Arabs in the Sudan. — ١١٨
2 vols. Cambridge 1922.
- Marcel : Égypte, depuis la conquête des Arabes — ١١٩
jusqu'à la domination Française. Paris 1848.
- Massignon : Annuaire du Monde Musulman. — ١٢٠
Paris 1925.

Mez Adam : Die Renaissance des Islams. Heide- — ١٢١
lberg 1922.

نقله إلى العربية في خزائن الأستاذ محمد عبد الهادي أبو ريبة

بمنوان « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى »

القاهرة ١٩٤٠ م

Milne' J Grafton · A History of Egypt Under — ١٢٢
Roman Rule. London 1924.

Mohammed Ben Cheneb · Classes Des Savants de — ١٢٣
l'Ifrqiya, Alger 1920.

Munier Henri : L'Egypte Byzantine (Précis de l'hist. — ١٢٤
d'Egypte t. 11. 1932).

Le Prince Omar Tousson : La Géographie de l'Egypte -- ١٢٥
à l'Epoque Arabe. Tome Premier - Le Caire 1926.

Pedersen : Art. Masdjid (The Encyclopaedia of — ١٢٦
Islam vol. 111. Leiden. London 1936).

Quatremère Et. : Mémoires Géographiques et Hist- — ١٢٧
oriques 2 tomes. Paris 1811.

—— . Recherches Citiques et Historiques sur — ١٢٨
la Langue et la Littérature de l'Egypte. Paris
1808.

Sauvaire M.H. : Materiaux pour servir a l'histoire — ١٢٩
de la Numismatique et de la Metrologie Musul-
manes (Extrait du Journal Asiatique, 7eme Série t. ,
XIV. XV, XVIII, XIX. Paris 1879).

Wiet Gaston : L'Egypte Musulmane (Précis de — ١٣٠
l'histoire d'Egypte t. 11).

—— : L'Egypte Arabe (Histoire de la Nation — ١٣١
Egyptienne. t. IV).

—— : Les Communications en Egypte au Moyen — ١٣٢
Age.

نقلها إلى العربية محمد وهبي بمنوان « المواصلات في مصر
في المصور الوسطى » ونشرت في كتاب « في مصر
الإسلامية ، أخرجه الدكتور زكي محمد حسن والبكباشي
عبد الرحمن زكي

Zaky Mohamed Hassan : Les Tulunides. Paris 1933. — ١٣٣

جدول

بأسماء الولاية وعمال الخراج وأصحاب الشرطة
والقضاة والبطارقة في عهد الولاية

جدول بأسماء الولاة وعمال الخراج وأصحاب

الستون	الخلفاء	الولاة	عمال الخراج
٦٤١/٥٢٠ ٦٤٤/٢٣	عمر بن الخطاب	عمر بن العاص	
٦٤٥/٢٤ ٦٥٥/٣٥ — ٥٦	عثمان بن عفان علي بن أبي طالب	عبد الله بن سعد انقراه محمد بن أبي حديقه (١)	
٦٥٧/٣٧		فايس بن سعد الاشتر مالك محمد بن أبي بكر عمر بن العاص (٢)	
٦٥٨/٣٨ ٦٦٠/٤٠ ٦٦١/٤٢ ٦٦٣/٤٣ ٦٦٤/٤٤ ٦٦٧/٤٧ ٦٦٩/٤٩ ٦٣٧/٥٣ ٦٧٧/٥٧ ٦٧٩/٥٩	معاوية	عنبه بن أبي سفيان عقبه بن عامر مسلمة بن مخلد	وردان
٦٨٠/٦٠ ٦٨٢/٦٢ ٦٨٤/٦٤ ٦٨٥/٦٥	يزيد الأول (عبد الله بن الزبير) سروان الأول عبد الملك بن مروان	سعيد بن يزيد عبد الرحمن بن عقبة عبد العزيز بن مروان	

(*) اعتمادنا على جدول الأستاذ فينت في هذا الصدد وذكرنا في خانة

الشرطة والقضاة والبطارقة في عهد الولاية (١١٠٠)

أصحاب الشرطة	القضاة	البطارقة	ملاحظات
خارجة بن حذافة	فيس بن أبي العاص كعب بن يسار ، عثمان بن فيس	بنيامين	(١) لم يذكر الأستاذ في بيت انشاء محمد بن أبي حذيفة
هشام بن كنانة			
سائب بن هشام			
عبد الله بن أبي حرملة خارجة بن حذافة (٧) ركيا بن حهم	سليم بن عتر	أغاتون (٨)	(ب) ذكر الأستاذ في بيت في جداوله أن أغاتون ولي الطركية في سنة ٦٥٨/٣٩ ولكنني أعتدتها فيما أوردته على ما جاء في كتاب سير الآباء البطارقة لساورس
سائب بن هشام (٢) عابس بن سعيد سائب بن هشام (٣) عابس بن سعيد (٤)	عابس بن سعيد	يوحنا الثالث (٩)	(ج) ذكر الأستاذ في بيت أن يوحنا الثالث ولي الطركية سنة ٦٨٠/٦٠ ولكنني أعتدتها على ساورس

الملاحظات أوجه الخلاف بين ما وصل إليه وما استنبطناه من الراجع القديمة

عمال الحراج	الولاية	الخلفاء	السنون
			٦٨٦/ ٦٧
			٦٨٧/ ٦٨ — ٨٨
			٦٨٨/ ٦٩
			٦٨٩/ ٧٠
			٦٩٥/ ٧٦
			٧٠٢/ ٨٣
			٧٠٣/ ٨٤
			٧٠٥/ ٨٦
	عبد الله بن عبد الملك	الوليد بن عبد الملك	
	قرة بن شريك		٧٠٨/ ٨٩
			٧٠٩/ ٩٠
			٧١٠/ ٩١
أسامة بن زيد	عبد الملك بن رفاعه	سلمان بن عبد الملك	٧١٢/ ٩٣
			٧١٥/ ٩٦
			٧١٦/ ٩٧
			٧١٧/ ٩٨
حيان بن سريج	أيوب بن شرحبيل	عمر بن عبد العزيز	٧١٨/ ٩٩
			١٩ — ٧١٨/ ١٠٠
		يزيد بن عبد الملك	٢٠ — ٧١٩/ ١٠١
	بشر بن صفوان		
	حنظلة بن صفوان		٢١ — ٧٢٠/ ١٠٢
		هشام بن عبد الملك	٧٢٣/ ١٠٥
عبيد الله بن المحبب	محمد بن عبد الملك		
	الحمر بن يوسف		
	حفص بن الوليد		٧٢٦/ ١٠٨
	عبد الملك بن رفاعه ٢		٧٢٧/ ١٠٩
	الوليد بن رفاعه		

أصحاب الشرطة	القضاة	البطارقة	ملاحظات
زياد بن حناطة	بشير بن النضر عبد الرحمن بن حجية	اسحاق (أ)	(أ) ذكر الأستاذ فيت أن اسحق ولى البطركية سنة ٦٩٠/٧٠
عبد الرحمن بن حسان	مالك بن شراحيل يونس بن عطية أوس بن عبد الله عبد الرحمن بن معاوية	سيمون (ب) الاول (ظل حتى سنة ٨٠١/٨٢)	(ب) ذكر فيت أن سيمون ولى سنة ٧٣ ٦٩٣/
عبد الرحمن بن عبد الرحمن	عمران بن عبد الرحمن عبد الواحد بن عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن	الاكسندروس الثانى	
عبد الأعلى بن خالد	عياض بن عبد الله		
عبد الملك بن رفاعه عبد الرحمن بن معاوية	عبد الله بن عبد الرحمن ٢ عياض بن عبد الله ٢		
الوليد بن رفاعه	عبد الله بن يزيد		
الشيخ بن جرو الحضرى			
الحسن بن يزيد الرعيني الحارث بن داخر			
شعيب بن حميد حنظلة بن صفوان محمد بن مطير البلوى			
حفص بن الوليد	يحيى بن ميمون		
عبد الله بن أنى مسير			

عمال الخراج	الولاية	الخلفاء	السنون
			٧٢٩/١١١
			٧٣٠/١١٢
			٧٣١/١١٣
			٧٣٢/١١٤
			٧٣٣/١١٥
قاسم بن عبيد الله	عبد الرحمن بن خالد		٧٣٤/١١٦
	حنظلة بن صفوان ٢		٧٣٥/١١٧
			٧٣٧/١١٩
			٧٣٨/١٢٠
			٧٤٠/١٢٢
			٧٤٢/١٢٤
	حفص بن الوليد ٢		٧٤٣/١٢٥
عيسى بن أبي عطا		بريد بن الوليد	٧٤٤/١٢٦
		إبراهيم بن الوليد	
		مروان بن محمد	٧٤٥/١٢٧
	حسان بن عمارية		
	حفص بن الوليد ٣		٧٤٦/١٢٨
	الحوثة بن سهيل		٧٤٩/١٣١
عبد الملك بن مروان	المغيرة بن عبيد الله		٧٥٠/١٣٢
	عبد الملك بن مروان		٧٥١/١٣٣
	صالح بن علي	السفاح	
	أبو عون عبد الملك		
عطا بن شرحبيل			٧٥٢/١٣٥
	صالح بن علي (٢)		٧٥٣/١٣٦
	أبو عون (٢)	المتصور	٧٥٤/١٣٧

ملاحظات	البطارية	القضاة	أصحاب الشرطة
	قسا الأول تاودوروس (ولي البطركية حتى سنة ١٢٦/٧٤٣)	يريد بن عبد الله (الحيار بن خالد) توبة بن عمر الحضرمي	عبد الرحمن بن خالد عبد الله بن يسار عياص بن جعريفة قيس بن أشعث عقبة بن نعيم
	مينخائيل الأول	عبد الرحمن بن سالم خير بن نعيم (٢) فوث بن سليمان	حسان بن عتاهية عبد الله بن مغيرة معاوية بن سهوان محسن بن هانيء عبد الله بن عبد الرحمن عكرمة بن عبد الله

عمال الحراج	الولاية	الخلفاء	السنوات
			٧٥٧/١٤٠
نوفل بن فرات	موسى بن كعب		٧٥٨/١٤١
	محمد بن الأشعث		٧٦٠/١٤٣
	حميد بن قسطنطين		٧٦١/١٤٤
معاوية بن مهزيان	يزيد بن حاتم		٧٦٧/١٥٠
محمد بن سعيد	عبد الله بن عبد الرحمن		٧٦٩/١٥٢
			٧٧٢/١٥٥
محمد بن سليمان	محمد بن عبد الرحمن		
	موسى بن علي		
		المهدي	٧٧٥/١٥٨
			٧٧٦/١٥٩
سلامة بن رجاء			٧٧٨/١٦١
	عيسى بن لقمان		
	واضح مولى أبي جعفر		٧٧٩/١٦٢
	منصور بن يزيد		
	يحيى بن داود		
اسماعيل بن ابراهيم	سالم بن سواده		٧٨١/١٦٤

أصحاب الشرطة	القضاة	البطارقة	ملاحظات
<p>• محمد بن معاوية</p> <p>عبد الله بن عبد الرحمن (٢)</p> <p>عباس بن عبد الرحمن محمد بن حسان</p> <p>الحارث بن الحارث موسى بن زريق هاشم بن عبد الله عبد الأعلى بن سعيد عسامة بن عمرو</p> <p>الأخضر بن مهوان</p>	<p>أبو خزعة إبراهيم يزيد بن عبد الله غوث بن سليمان (٢)</p> <p>أبو خزعة إبراهيم</p> <p>عبد الله بن لهيعة</p> <p>إسماعيل بن اليسع</p>	<p>مينا (ولى حتى سنة ٧٧٤/١٥٨)</p> <p>يوجنا الرابع</p>	

عمال الحراج	الولاية	الختفاء	السون
	ابراهيم بن صالح		٧٨٢/١٦٥
	موسى بن مصعب		٧٨٤-٧٨٣/١٦٧
	عسامة بن عمرو		٨٥-٧٨٤/١٦٨
	الفضل بن صالح	المهادى	٨٦-٧٨٥/١٦٩
	علي بن سليمان		٧٨٦/١٧٠
		هرون الرشيد	
	موسى بن عيسى		٧٨٧/١٧١
	مسلمة بن يحيى		٧٨٨/١٧٢
عمر بن غيلان	محمد بن زهير		٧٨٩/١٧٣
	داوود بن يزيد		٧٩٠/١٧٤
	موسى بن عيسى (٢)		٧٩١/١٧٥
	عمر بن مهران (١)		٧٩٢/١٧٦
	ابراهيم بن صالح (٢)		
نصر بن كلثوم	عبد الله بن المسيب		٧٩٣/١٧٧
روح بن روح	اسحاق بن سليمان		٧٩٤/١٧٨
	هرثمة بن أعين		٧٩٥/١٧٩
	عبد الملك ابن صالح		٧٩٦/١٨٠
	عبيد الله بن المهدي		٧٩٧/١٨١
	موسى بن عيسى (٣)		
	عبيد الله بن المهدي (٢)		
	اسماعيل بن صالح		

أصحاب الشرطة	القضاة	البطاركة	ملاحظات
<p>عامة بن عمرو (٢)</p> <p>عامة بن عمرو (٣)</p> <p>عبد الرحمن بن موسى</p> <p>١٠٠٠ عمار بن عيسى عامة بن عمرو (٤) عبد الرحمن بن مسلمة جندك ابن الملا عمار بن مسلم حبيب بن إيلان عمار بن مسلم (٢)</p> <p>عبد الرحمن بن موسى ٢</p> <p>خالد بن يزيد الأمكيس</p> <p>مسلم بن بكار حاتم بن هرثمة عمار بن مسلم (٣) معاوية بن صرد</p> <p>عمار بن مسلم (٤) سليمان بن الصمة يزيد بن عبد العزيز</p>	<p>غوث بن سليمان (٣)</p> <p>المفضل بن فضالة</p> <p>عبد الملك بن محمد</p> <p>المفضل بن فضالة (٢)</p> <p>محمد بن مسروق الكندي</p>		<p>(١) لم يرد ذكر لمصر بن مهران في جداول الأستاذ فيت ولا في الكندي ، ولكن أوراق البردي دلت على توليه مصر في سنة ١٧٦ هـ (انظر . جرومان : المحاضرة الثالثة في أوراق البردي العربية ص ٩ — ١٠)</p>

عمال الخراج	الولاية	الحلقاء	السنوات
محفوظ بن سليمان	اسماعيل بن عيسى		٧٩٨/١٨٢
	الليث بن الفضل		٧٩٩/١٨٣
			٨٠٠/١٨٤
			٨٠١/١٨٥
	أحمد بن اسماعيل		٨٠٣/١٨٧
	عبد الله بن محمد		٨٠٥/١٨٩
	الحسين بن جميل		٨٠٦/١٩٠
	» » »		٨٠٧/١٩١
	مالك بن دهم		٨٠٨/١٩٢
	الحسن بن التتخاخ		٨٠٩/١٩٣
		الأمين	
	حاتم بن مرثمة		٨١٠/١٩٤
	جابر بن الأشعث		٨١١/١٩٥
			٨١٢/١٩٦
	عباد بن محمد	المأمون	
	المطلب بن عبد الله		٨١٥/١٩٨

أصحاب الشرطة	القضاة	البطارقة	ملاحظات
<p>المصك بن مسكين عبد الوهاب بن موسى على بن الفصل</p> <p>معاوية بن صرد (٢) أحمد بن حوى محمد بن عسامة كامل الهناثى معاوية بن صرد (٣)</p> <p>محمد بن يزيد محمد بن خالد صالح بن عبد الكريم سليمان بن غالب (٢)</p> <p>ابن حاتم بن هرثمة على بن المثنى عبيد الله الطرسوسى عبد الله بن ابراهيم سليمان بن غالب (٢)</p> <p>هيرة بن هاشم</p> <p>محمد بن عسامة (٢) عبد العزيز بن وزير</p>	<p>اسحاق بن القرات عبد الرحمن العمري</p> <p>هاشم بن أبى بكر</p> <p>ابراهيم بن البكاء لهيعة بن عيسى الفضل بن غانم</p>	<p>مرقس الثالث</p>	

السنون	الختفاء	الولاية	ممال الخراج
		العباس بن موسى	
٨١٥/١٩٩		المطلب بن عبد الله (٢)	
٨١٦/٢٠٠		السري بن الحكم	
٨١٧/٨١٦/٢٠١		سليمان بن غالب	
		السري بن الحكم (٢)	
٨١٩/٢٠٤			
٨٢٠/٢٠٥		أبو نصر بن السري	
٨٢١/٢٠٦		عبيد الله بن السري	
٨٢٦/٢١١		عبد الله بن طاهر	

ملاحظات	البطارقة	القضاة	أصحاب الشرطة
		لهيعة بن عيسى ٢	إبراهيم بن عبد السلام هيرة بن هاشم (٢) محمد بن عسامة (٣) عبد العزيز بن ورير أحمد بن حوى (٢) هيرة بن هاشم (٣) محمد بن عسامة (٤) أبو بكر بن جنادة عاس بن لهيعة محمد بن عسامة (٥) الحارث بن زرة ميمون بن السرى أبو بكر بن جنادة ٢ حامد بن المخارق اسماعيل بن الحكم صالح بن الحكم داود بن الحكم
	أنا يعقوب	إبراهيم بن إسحاق إبراهيم بن الجراح	محمد بن قشاشى عبيد الله بن السرى محمد بن عتبة معاذ بن عزيز عبدويه بن جيله

عمال الخراج	الولاية	الحلفاء	السنون
			٨٢٧/٢١٢
صالح بن شيرزاد	عبد الله بن طاهر	المأمون	
	عيسى بن يزيد		
	المعتصم		٨٢٨/٢١٣
	عيسى بن يزيد		
	عمير بن الوليد		٨٢٩/٢١٤
	عيسى بن يزيد (٢)		
	عبدويه بن جبلة		٨٣٠/٢١٥
	عيسى بن منصور		٨٣١/٢١٦
	كيدر نصر		٨٣٢/٢١
		المعتصم	٨٣٣/٢١٨
	المطهر بن كيدر		٨٣٤/٢١٩
	أشناس		
سعيد بن عبد الرحمن	موسى بن أبي العباس		٨٣٨/٢٢٣
	مالك بن كيدر		٨٣٩/٢٢٤
	علي بن يحيى		٨٤١/٢٢٦
عيسى بن يونس		الوائق	٨٤٢/٢٢٧
	عيسى بن منصور ٢		٨٤٣/٢٢٨
	إيتاخ		٨٤٥/٢٣٠
	هرثة بن النضر	التوكل	٨٤٨/٢٣٣
أبو الوزير	حاتم بن هرثة		٨٤٨/٢٣٤ — ٤٩
	علي بن يحيى (٢)		
	المنصور		٨٥٠ — ٨٤٩/٢٣٥
	إسحاق بن يحيى		

أصحاب الشرطة	القضاة	البطارقة	ملاحظات
<p>محمد بن عيسى</p> <p>محمد بن عمير</p> <p>مطهر</p> <p>ابن عبدويه</p> <p>موسى بن إبراهيم</p> <p>اسبنديار</p> <p>ابن يسطام</p> <p>ذاوه</p> <p>الظفر بن كيدر</p> <p>ذاوه (٢)</p> <p>حسن بن أبي العباس</p> <p>ذاوه (٣)</p> <p>معاوية بن معاوية</p> <p>ابن مصور</p> <p>أبو قتيبة</p> <p>محمد بن سويد</p> <p>معاوية بن نعيم</p> <p>الهاجى</p>	<p>عيسى ابن النكدر</p> <p>(ولى حتى سنة ٨٢٩/٢١٤)</p> <p>هرون بن عبد الله</p> <p>محمد بن أبي الليث</p>	<p>أنا سيمون</p> <p>أنا يوساب</p> <p>ميخائيل الثانى</p>	

عمال الخراج	الولاية	الحلقاء	السنون
مدر	خوط عبد الواحد		٥١ — ٨٥٠ / ٢٣٦
			٨٥١ / ٢٣٧
	عنبسة بن إسحق		٨٥٢ / ٢٣٨
			٨٥٥ / ٢٤١
	يزيد بن عبد الله		٨٥٦ / ٢٤٢
			٨٥٨ / ٢٤٤
			٨٥٩ / ٢٤٥
سليمان بن وهب أحمد بن مدبر			٨٦٠ / ٢٤٦
			٨٦١ / ٢٤٧
		المتنصر	
		المستعين	٨٦٢ / ٢٤٨
		المقتدر	٨٦٦ / ٢٥٢
	مراحم بن خاقان		٨٦٧ / ٢٥٣
	أحمد بن مزاحم أزجور		٨٦٨ / ٢٥٤

أصحاب الشرطة	القضاة	البطاركة	ملاحظات
<p>محمد بن سليمان</p> <p>محمد بن عبد الله</p> <p>خالد بن يزيد</p> <p>بجي بن أحمد</p> <p>أزجور</p> <p>محمد من اسبنديلر</p> <p>أزجور (٢)</p> <p>بولفيا</p>	<p>الحارث بن مسكين</p> <p>بكار بن قتيبة (حتى</p> <p>(٨٨٣/٢٧٠</p>	<p>قسما الثاني</p> <p>شودة (حتى سنة</p> <p>(٨٨٠/٢٦٦</p>	

كشاف

(١)

ابن جحدم : (انظر عبد الرحمن)

ابن سبأ : (انظر عبد الله)

ابن سندر : ٥٣

ابراهيم بن صالح : ١٤٩

ابراهيم بن محمد بن عبد الله (ابن النفس

الزكية) : ١٥٩ ، ١٥٢

ابراهيم بن المهدي : ١٧١ ، ١٧٢

ابن طولون : (انظر أحمد)

ابن عبد الغفار الجمعي : ١٦٥

ابن المدبر : (انظر أحمد)

أبو حنيفة (الإمام) : ١٠٥ ، ٢١٧ ،

٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦

أبو شعر (ميناء) : ٣٠٠

أبو صير : (انظر بوسير)

أبو عون : ٣٢ ، ١٠٣ ، ١٤٤ ، ٢٣٦

أبو مسلم الخراساني : ١٣٦ ، ١٣٧

أبو نصر بن السري بن الحكم : ١٧٤

أحباس : (انظر وقف)

أحمد بن حنبل (الإمام) : ١٧٨ ، ٣٢٢

أحمد بن السري : ١٧٥

أحمد بن طولون : ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٨ ، ٦٢ -

٦٤ ، ٦٩ ، ١٥٨ ، ٢٣٤ ، ٣٣٨

٣٥٢

أحمد بن المدبر : ٥٨ ، ٢٣٤ ، ٣٣٨ ،

٣٤٢

إخيم : ١٩٠ ، ٢٨٥ ، ٣٤٤

إخنا : ٤٠ ، ٢٩٢

ادريس بن عبد الله (أخو النفس الزكية) :

١٥٤ ، ١٥٣

أديرة : ١ ، ٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٣٣٦

أرتودوكس (يعاقبة) : ١٨٨ ، ١٨٤ ، ٥

١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١

ازجور التركي : ٢٥ ، ١٥٨

أسامة بن زيد التوخي : ٢١٦ ، ٢٢٩ ،

٢٣٠ ، ٢٦٩

استراكا : ١١ ، ٦٧ ، ٦٨

إسحق بن سليمان العباسي : ٢٥٤

إسحق بن الفرات : ١٠٥

أسطول : ١٣ ، ١٦ ، ٢٣ ، ٣٠ ،

٨١ ، ٨٨ - ٩٨ ، ١٢٣ ، ١٤٥ -

١٤٧ ، ١٩٧ ، ٣١٣ ، ٣٤٢ ،

٣٤٣

الاسكندرية : ٢ ، ٤ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٦

٢١ ، ٢٣ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٧ ،

٨٠ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩١ ،

١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ،

١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٦ -

١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ،

١٧٦ ، ١٨٥ - ١٨٩ ، ١٩١ ،

١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٤١ - ٢٤٣ ،

٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٨٢ ، ٢٩٥ ،

٣٠٠ - ٣٠٢ ، ٣٠٩ ، ٣١٠

الأمين : ٨٦ ، ١٠٥ ، ١٥٩ - ١٦٣ ،
 ١٧٦ ، ٢٠٢ ، ٢٨٩ ، ٣٥٢
 الأندلس : ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩
 الأندلسيون (في مصر) : ١٦٠ ، ١٦٧ -
 ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ،
 ١٧٦
 انصنا : ٢٦٩
 اناسيا : ١٩١ ، ٢٨٥ ، ٣٤٤
 ليتاخ : ١٨١
 الإيرانيون : (انظر الفرس)
 أيلة (العقبة) : ١٣٣ ، ٣٠٠
 إلبياء : (انظر بيت المقدس)
 أيوب بن شرجيل : ٧٦ ، ٢٠٩

(ب)

بابلوث (البوثة) : ١١ ، ١٢ ، ١٤ ،
 ١٧ ، ١٩ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٣ -
 ٤٥ ، ٧٠ ، ١٨٥ ، ٢٤٣ ، ٣٠٣
 ٣٠٥
 باخرا : ١٥٢
 البجة : ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٣٠٢
 البحر الأبيض المتوسط : ٩ ، ٨٨ ، ٩٥
 ٣٤١ ، ٣٠٠
 البحر الأحمر : ٩ ، ٢٩٩ - ٣٠٩ ، ٣١١
 ٣١٢
 البير : ٨٢ - ٨٤ ، ٩١
 بردى (وثائق) : ١٠ ، ٢٠ ، ٣٠ ،
 ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ،
 ٤٨ - ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٩ - ٦٣ ،
 ٦٤ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٩١

٣١٢ ، ٣٣٠ - ٣٣٦ ، ٣٤٤
 اسماعيل بن عبد الله القسري : ١٤٢
 اسماعيل بن الياس الكندي : ١٥٠ ،
 ٣٢٦
 أسنا : ١٥٨
 أسوان : ٥٧ ، ١٤٤ ، ٢٣٤ ، ٢٥٨ ،
 ٢٦٩ ، ٣١٢
 أسيوط : ٢٨٥ ، ٣٤٤
 الأشتر مالك بن الحارث النخعي : ١٢٥ ،
 ١٢٦
 الأشموين : ١٤٧ ، ١٩١٠ ، ٢٦٠ ،
 ٢٨٥
 أشناس : ٣٥
 الأصمغ بن عبد العزيز بن مروان : ٥٣ ،
 ١٥٣ ، ١٩٩ ، ٢٢٣
 إفريقية : ١ ، ٢١ - ٢٣ ، ٣١ ، ٣٤ ،
 ٨١ - ٨٤ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٤٠ ،
 ١٤٢ ، ٣١٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،
 ٣٥٠
 الأفشين : ٢٣٧ ، ٢٣٨
 إقطاع : ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ١٥٥
 ١٧٨ ، ١٨١ ، ٢٢١ ، ٢٥٦
 الأكر بن حام اللخمي : ١٣٢ ، ١٣٣
 أم دتين (تندونياس) : ١١ ، ٥٦
 الأمويون والدولة الأموية : ٢٦ ، ٣٠ ،
 ٣٢ ، ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
 ٨٢ ، ١٣٥ - ١٣٨ ، ١٤٦ -
 ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٨١ ،
 ١٩٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٩ ،
 ٢٥٣ ، ٢٧٤

بويط : ١٥٠
بيت المقدس (القدس أو إيلياء) : ٢٦ ،
٢٧٩ ، ٢٢٨ ، ٢١٣ ، ٢١٢
بيزنطة والدولة البيزنطية : ١ ، ٤ ، ٥ ،
١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ٥١ ، ٢٦٦ ،
٢٨٦ ، ٢٨٠
البيزنطيون : (انظر الروم)

(ت)

تجارة وتجار : ٩ ، ١٠ ، ١٨ ، ٥٥ - ٥٧ ،
٧٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٨٠ ،
٢٩٩ - ٣١٣ ، ٣٤١ ، ٣٤٢
الترك : ٣٣ ، ٣٦ ، ٧٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،
١٥٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ ،
٣٤٣
تنيس : ٥٧ ، ٨٥ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ،
١٧٥ ، ١٨٦ ، ٢٥٧ ، ٢٨٠ ،
٢٨٢ - ٢٨٤ ، ٢٨٨ - ٢٩٠ ،
٣٠٢ ، ٣٤٤
توبة بن عمر الحضرمي : ١٠٠ ، ١٠٢ ،
١٠٨ ، ٢٣٣
توتة : ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٤٤ ،
تونس : ٨٨ ، ٩١

(ث)

ثابت بن عيم الجذامي : ١٣٩
ثورة وثورات : ٢ ، ٣ ، ١٠ ، ٢٤ ،
٥٢ ، ٧٦ ، ٢٣٤ - ٢٣٨ ، ٢٤٠ ،
٢٥٣ - ٢٥٦ ، ٢٤٣ ،
٣٤٥

٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،
٢٦٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٩ ،
برقة (انطابلس) : ١٤ ، ١٥ ، ٢٣ ،
٣١ ، ٣٢ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ،
١٢٣ ، ١٥٨ ، ٣١٢ ،
البرلس : ٨٥ ، ٩٠ ،
البريد وصاحب البريد : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ ،
٣٤ ، ١٠٣ ، ١٥٤ ، ٣١١ ،
برينيسي : (انظر رأس بناس)
بشر بن أوس (أبو الجراح الجرشي) :
١٤٠
بصر بن صفوان : ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ،
البشمور أو البشروء : (انظر بوكوليا)
البطالسة : ٦ ، ٢ ، ٤٨ ، ١٩٠ ، ٣٠٠ ،
٣٠٢
بنا الأصغر : ١٥٨
بنا الأكبر : ١٥٨
بغداد : ٢٦ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ١٥٧ ،
١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٧١ ، ١٧٨ ،
٢١١ ، ٣٢٧ ،
البقط : ١٥ ، ١٦ ،
بليس : ١٦١ ، ١٦٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،
٣١٢
بنيامين (أبو ميامين) : ٧ ، ١٨٥ - ١٨٨ ،
اليهنسا : ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٤٤ ،
بورة : ١٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٤٤ ،
بوصير (أبو بصير) : ١٤٧ ،
بوكوليا (البشمور أو البشروء) : ٣ ،
١٤٤ - ١٤٦ ، ٢٣٥ - ٢٣٨ ،
٣٤٤ ، ٣٤٥

١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٦ ،
١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ -
١٦٦ ، ١٦٨ ، ٢٣٥ - ٢٣٨ ،
٢٤٠ ، ٢٤٩ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ،
٣٤٢
الجزيرة : ١٤٠ ، ١٤٥ - ١٤٧ ، ٢٤٨

(ح)

حاتم بن هرثمة بن أعين : ١٦٠ ، ١٦١ ،
١٩٣
الحجاز : ٣٦ ، ٥٢ ، ١١١ ، ١٣٠ ،
١٣١ ، ١٤١ ، ١٥٢ ، ٢٩١ ،
٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ،
٣٢١
الحمر بن يوسف : ٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،
حمران : ١٤١ ، ١٤٢ ،
الحرس (أهل الحرس) : ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،
الحرير : ٢٧٩
حسان بن عتاهية : ١٣٨ ، ١٣٩ ،
حسان بن النعمان الغساني : ٣١ ، ٨٣ ،
٨٤
الحسن بن التختناخ : ٧٧ ، ١٦٠ ،
الحسين بن جيل : ٢٥٥ ،
الحسين بن علي بن أبي طالب : ١٣٠ ،
حفص بن الوليد : ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٧٦ ،
١٣٨ - ١٤١ ، ١٩٦ ، ٢٣٣ ،
٢٣٥
حلوان : ٣٣ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ٢٢٢ ،
٢٧٤ ، ٢٦٩ -
حمص : ١٣٩ ، ١٤٠ ،
حميد بن قحطية : ١٥١ ، ١٥٢

(ج)

جابر بن الأشعث الطائي : ١٦١ ، ١٦٢ ،
جابر بن الوليد المدلجي : ١٥٧ ، ١٥٨ ،
الجابة : ٨ ،
جامع ابن طولون : ٦٢ ،
جامع المعكر : ٢٤٧ ، ٢٧٤ ،
جامع عمرو بن العاص : ٢٠ ، ٦١ ، ٦٢ ،
٧٧ ، ١٠٤ ، ١٢٢ ، ١٥٢ ،
٢٢٢ ، ٢٤٧ ، ٢٧٣ - ٢٧٦ ،
٣٢٨ ، ٣٥٠ ،
جباية : ١٨ ، ٥٩ - ٦٤ ،
الجرى (عبد العزيز بن الوزير) : ص
١٦٢ ، ١٦٤ - ١٧٠ ، ١٧٢ -
١٧٤ ، ٣٥٢ ،
الجزيرة : ١٤٠ ، ١٤١ ،
جزيرة الروضة : ٩٠ ، ٩١ ، ١٤٥ ،
١٤٦ ، ٢٠٢ ، ٢٦٩ ،
الجزيرة : ١١ ، ١٢ ، ١٧ - ١٩ ، ٣٧ -
٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٤ ،
٥٥ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ١٨٢ ، ٢٠٣ ،
٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،
٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ -
٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ،
جسطال : ٢٩ ، ٦٤ ،
الجل (موقعة) : ١٢٩ ،
جند وجيش : ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ،
١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٢ ،
٤٧ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٧٠ -
٨٧ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،
١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ،

(د)

داود بن يزيد بن حاتم : ٢٧ ، ١٠١
ديق : ٢٨٥ ، ٣٤٤
دحية بن مصعب : ١٤٩ ، ١٥١
دقلديانوس : ٣ ، ١٩٨ ، ٣٣٧
الدماحس بن عبد العزيز السكاني : ١٤٣
دمشق : ٢٦ ، ٨٩ ، ١٢٤ ، ١٢٨
٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٣١١
دمياط : ٢٣ ، ٥٧ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٢
١٨٦ ، ٢٨٣ ، ٢٨٠ ، ٢١٥
٢٨٤ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣
٣٤٤
دميرة : ٢٨٤ ، ٣٤٤
دقلة : ١٥
ديسقورس : ٤ - ٦

(ذ)

الذمة (أهل) : (أظن أيضا «قبط»
و «يهود» و «مسيحيون») :
٣٨ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٩٩ ، ١٩٧
٢٠٣ ، ٢١٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣١
ذو النون بن إبراهيم الاخيمني : ١٨٠ ،
٣٣٠
ذى الصوارى : ٢٣ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٤
١١٦

(ر)

رأس بناس (برينيسى) : ٣٠٠ ، ٣٠٨
رباط : ٢٣ ، ٨٠ ، ٨٧

حنظلة بن صفوان السكلي : ١٤٠ ، ٢٣٥
حوثرة بن سهيل الباهلي : ١٤١ ، ١٤٠ ،
٢٥٢

الحورة (ميناء) : ٣٠٠
الحوف : ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٦١ -
١٦٤ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٥٠ ،
٢٥٦ - ٢٥٤
حيان بن سريج : ٢٣٠ ، ٢٣١

(خ)

خارجة بن حذافة : ٢٤ ، ١١٧ ، ١٢٩
٣١٤

خالد بن يزيد الشيباني : ١٧٤
الخراج : ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٧
٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ -
٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦١ - ٦٤ ، ٧٦
١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ،
١٦١ ، ١٧٥ ، ٢١٧ - ٢٢٠ ،
٢٢٢ - ٢٢٤ ، ٢٢٧ - ٢٣٠ ،
٢٣٢ - ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
٢٣٩ ، ٢٥٣ - ٢٥٦ ، ٢٨٨ ،
٣٣٨ - ٣٤٠

خراسان : ١٣٦ ، ١٥٩ ، ١٦٥
خربتا : ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧
خزف : ٢٩٥
خشب : ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣١٣
خلقدونية : ٤ - ٦

الخوارج : ١٢٢ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ،
١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠
خير بن نعيم : ٩٩ ، ١٠٣

(س)

- السائب بن كنانة بن هشام العامري : ٣٢
١٣٣
سامرا : ١٥٧
سيطة : ٨١
سقا : ٢٣٦ ، ١٧٣
سرج القول : ٢٦١
السري بن الحكم : ١٦١ ، ١٦٣
١٦٦ ، ١٦٨ - ١٧٦ ، ١٧٧
٣٥٢
سعيد بن يزيد : ١٣١ ، ١٣٢
السفاح (أبو العباس) : ١٣٧
سفن ومراكب : (انظر أسطول)
السكة : (انظر نقود)
سلمت : ١٢٣
سلم بن عتر التميمي : ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٦
سليمان بن عبد الملك : ١٠١ ، ٢١٦ ، ٢٢٩
٢٦٩ ، ٢٢٩
سمود : ٢٣٥ ، ٢٣٦
سوسة Hadrumetum : ٨٢

(ش)

- الشافعي (الإمام) : ١٥٥ ، ١٨٠ ، ٢٦١
٢٦٥ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٤
٣٢٧
الشام (سورية وفلسطين) : ٨ - ١٠
٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٨٧
٨٨ ، ٩٣ ، ١١١ ، ١٢٠ - ١٢٢

الربيع بن سليمان : ٣٢٧

- الرزق ودار الرزق : ٤٤ ، ٥٠ ، ٧٥ -
١٠٦ ، ٩٣ ، ٨٧ ، ٧٨
رشيد : ٥٧ ، ٢٣٥
الرقيق : ١٦ ، ٣١٢ ، ٣١٣
الروم (البيزنطيون) : ٩ ، ١١ - ١٤ ،
١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٣٨ ،
٤٤ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ،
٥٩ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٨١ - ٩٠ ،
٩٣ ، ٩٧ ، ١١٦ ، ١٢٨ ، ١٤٢ ،
١٧٨ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ،
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٤٥
٢٨٦ ، ٣٠٧ ، ٣٣٤ - ٣٣٦
روما : ١ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٥١ ، ٢٨٠
الرومان : ١ ، ٢٠ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٥٠ ،
٥٧ ، ٩٧ ، ٣٠٠

(ز)

- الزباب : ١٣٧ ، ١٤٩ ، ١٤٢
زامل بن عمرو : ١٣٩
الزبير بن العوام : ١١ ، ١٨ ، ٤٤ ،
٣١٤
زجاج : ٢٩٥
زراعة وزراع : ٣ ، ١٠ ، ٤٧ ، ٥٠ ،
٥١ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧١ -
٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ -
٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٣٤٨ ،
٣٧٣ ، ٣٧١
الزكاة : ٤١ ، ٤٤ ، ٥٤
زهير بن قيس البلوي : ٨٣ ، ١٣٣

(ط)

طاهر بن الحسين : ١٦١ ، ١٧٠
 طرابلس : ١٥ ، ٢٣ ، ٨١
 طراز : ٢٨٦ - ٢٨٨
 طليح بن كامل اللخمي : ٣٢٣
 طنجة : ٨٢

(ع)

عابس بن محمد الرازي : ٢٤
 عباد بن محمد : ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦
 العباس بن موسى : ١٦٣ ، ١٦٤
 العباسيون والدولة العباسية : ٢٣ ، ٢٦ ،
 ٣٢ ، ٣٤ ، ٩٢ ، ٦٧ ، ٧٤ ،
 ٧٦ ، ٩٢ ، ١٣٥ - ١٣٩ ، ١٤١ ،
 ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ - ١٤٨ ،
 ١٤٩ - ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٧١ ،
 ١٧٧ ، ١٩٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٦ ،
 ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٧٤ ،
 ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٤٣

عبد الرحمن بن بختس : ١٣٤
 عبد الرحمن بن حبيبة الأكر : ١٠٠ ،
 ١٠١ ، ١٠٦

عبد الرحمن بن سالم الجيشاني : ١٠٩
 عبد الرحمن بن عبد الله العمري : ١٠٤ ،
 ١٠٧ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧
 عبد الرحمن بن عتبة بن حذم القهري :
 ١٣٢ ، ١٣٣

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ،
 ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ،
 ٢٠٦ ، ٢٥٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ،
 ٣٠١ ، ٣٠٢
 شاهد قبر : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣١٩
 الثرب (ثياب) : ٢٨٢ ، ٢٨٣
 الشرطة وصاحب الشرطة : ٢٣ - ٢٦ ،
 ١٤١ ، ١٦٣
 شطا : ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٣٤٤
 شطنوف : ١٦٥
 الشيعة والعلويون : ١٠٩ ، ١٣١ ، ١٣٤
 ١٥٦ ، ١٧١ ، ٣٢٨

(ص)

صالح بن عبد الله العباسي : ٣٢ ، ١٤٤ ،
 ١٤٧ ، ١٤٨
 الصناعة والصناع : ٣٠ ، ٥٥ ، ٧٥ ،
 ٢٥٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ -
 ٢٩٧
 الصوف : ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨
 الصوفية : ١٦٨

(ض)

ضرائب : ١٠ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٠ ، ٣٧ ،
 ٣٩ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ -
 ٥٠ ، ٥٤ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٧٥
 ٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠ ، ٣٣٨ -
 ٣٤٠

- عبد الله بن لهيعة : ٧٦ ، ٨٠ ، ١٠٠ ،
١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٩٣ ،
٣١٨ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠
عبد الله بن وهب بن مسلم : ٣٢٢ ، ٣٢٤
عبد الله بن يحيى (طالب الحق) : ١٤١
عبد الله بن يزيد بن خناسة : ١٠٥
عبد الملك بن رفاعه : ٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٥٠
عبد الملك بن محمد الحزمي (أبو الطاهر) :
٢٧ ، ١٠٣ ، ١٠٦
عبد الملك بن مروان : ٢٤ ، ٢٦ ، ٥٢ ،
٦٥ - ٦٧ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٩١ ،
١٣١ ، ٢٠٠ ، ٢١٥ ، ٢٢١ ،
٢٢٢ ، ٢٢٤
عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير :
١٤١ - ١٤٥ ، ٢٣٥
عبيد الله بن الجعاب : ٢١ ، ٢٢ ، ١٩٧ ،
٢٣٢ - ٢٣٤ ، ٢٤٩ - ٢٥٣ ،
٢٩٥
عبيد الله بن السري : ١٧٤ - ١٧٦
عتبة بن أبي سفيان : ٢١ ، ٢٣ ، ٨٠ ،
١٠١
عثمان بن الحكم : ٣٢٣
عثمان بن عفان : ٩ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ،
٥٢ ، ٦٥ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٢ ،
٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ١١٠ - ١٢٠ ،
١٢٢ - ١٢٤ ، ١٢٦ - ١٢٨ ،
١٥٠ ، ٢١٧ ، ٢٤٦ ، ٢٧٤ ،
٢٩٠ ، ٣١١
المراق : ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٧ ، ١٥٥ -
١٥٧ ، ٣٢١
العريش : ١٤٠ ، ١٧٥ ، ٣١٢
- عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم :
٣٢٥
عبد الرحمن بن القاسم : ٣٢٣ ، ٣٢٩
عبد الرحيم بن خالد بن يزيد : ٣٢٢ ،
٣٢٣
عبد العزيز بن عمران : ٣٢٧
عبد العزيز بن مروان : ٢٠ ، ٢٤ ، ٣١ ،
٣٣ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ٩١ ، ١٠٠ ،
١٠١ ، ١٣٢ - ١٣٤ ، ١٩٠ -
١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٢١ - ٢٢٤ ،
٢٣١ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٦٩ ،
٢٧٤ - ٢٧٦ ، ٣١٧ ، ٣٤٩
عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل (ابن
الارقط) : ١٥٨
عبد الله بن الزبير : ٦٦ ، ٨٣ ، ١٢٩ -
١٣٥ ، ٢٢٢ ، ٣١٦
عبد الله بن سبأ (ابن السوداء) : ١١١ ،
١١٣ - ١١٦
عبد الله بن سعد بن أبي سرح :
١٥ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٨ ،
٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٧ -
٨٩ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١١٣ ، ١١٦ -
١١٩ ، ٢١٧ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣ ،
٢٧٤ ، ٣١٤ ، ٣٤٥
عبد الله بن طاهر بن الحسين : ١٧٥ ،
١٧٦
عبد الله بن عبد الحكم : ٣٢٤ ، ٣٢٥
عبد الله بن عبد الملك : ٨٥ ، ٢٠٠ ،
٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٧٥ -
عبد الله بن عمرو بن العاص : ٣٨ ، ٤٤ ،
٤٩ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ١٢٩ ، ٢٦٣ ،
٣١٤ - ٣١٦

٢٣٠ - ٢٣٢ ، ٢٧٩ ، ٣٠٦ ،
 ٣٠٧ ، ٣١٧ ، ٣٣٦ ،
 عمرو بن العاص : ٨ - ١٢ ، ١٤ - ١٨ ،
 ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٨ ،
 ٣١ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٦ ،
 ٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٧٠ ، ٨٠ ،
 ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ،
 ٩٧ ، ١٠١ ، ١١٧ ، ١٢١ ،
 ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ - ١٢٩ ،
 ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ،
 ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
 ٢١٦ - ٢٢٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ،
 ٢٤٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ،
 ٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ،
 ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ،
 عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان :
 ١٤٣
 عمير بن الوليد : ٢٥٥
 عتبة بن اسحاق : ٣٣ ، ٨٦ ، ٩٣
 عياض بن عبيد الله الأزدي : ١٠٤
 عيد وأعياد : ١٩٣ - ١٩٦
 عيذاب : ٥٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٢
 عيسى بن أبي عطاء : ١٣٨ ، ١٣٩
 عيسى بن منصور : ٢٣٧ ، ٢٣٨
 عيسى بن المنكدر : ١٠٣ ، ١٠٧ ، ٣٢٧
 عيسى بن يزيد : ٢٥٥
 عين شمس : ١٢٣ ، ١٣٣
 (غ)
 غزة : ١٤٥

عسامة بن عمرو : ١٤٩ ، ١٥٢
 العسكر (مدينة) : ٢٣ ، ٢٤٧
 العطاء : ٢٣ ، ٣٢ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٧٤
 ٧٥ - ٧٨ ، ٧٩ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ،
 ٢٢٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٣٤٢
 عقبة بن عامر الجهني : ١٠١
 عقبة بن نافع الفهري : ٨١ - ٨٣
 العلويون : (انظر الشيعة)
 علي الرضا : ١٧١ ، ١٧٢
 علي بن أبي طالب : ٨٢ ، ١١١ ، ١١٥ ،
 ١٢٠ - ١٢٩
 علي بن سفيان بن علي بن عبد الله العباسي :
 ١٥٤ ، ٢٠٩
 علي بن عبد العزيز الجروي : ١٧٤ ،
 ١٧٥
 علي بن محمد بن عبد الله (ابن النفس الزكية) :
 ١٥١ ، ١٥٢
 العاراة : ٢٧٣ - ٢٧٩ ، ٣١٣
 عمر بن الخطاب : ٨ ، ١١ - ١٣ ، ١٥ ،
 ٢٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٥ - ٤٧ ، ٥١
 ٥٣ ، ٦٥ ، ٧١ - ٧٣ ، ٨٠ ،
 ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١١٠ ،
 ١١٢ ، ١٨٥ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ -
 ٢١٢ ، ٢١٨ - ٢٢٠ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٦٣ ،
 ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٢٩٠ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٤ - ٣٠٦ ، ٣١٦ ،
 ٣٣١ ، ٣٤٦
 عمر بن عبد العزيز : ٥٦ ، ٧٦ ، ١٠١ ،
 ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٨١ ، ٢٠٠ ،
 ٢٠١ ، ٢٠٩ - ٢١٢ ، ٢١٧ ،

١٤٦ ، ١٤٣ ، ١١٠ ، ٩١ ، ٨٨

، ١٨٩ - ١٨٢ ، ١٧٣ ، ١٤٨

، ٢٠٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٢ - ١٩٦

، ٢١٧ - ٢١٥ ، ٢١٢ ، ٢٠٨

- ٢٣٤ ، ٢٣٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٢

، ٢٧٣ ، ٢٦٠ - ٢٥٨ ، ٢٤٠

، ٢٩٥ - ٢٩٢ ، ٢٨٠ - ٢٧٧

، ٣٤٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٠ ، ٣٣٦

٣٥١ ، ٣٤٧

قرة بن شريك : ٣٨ ، ٣٠ ، ٢٩ ، ٢٣

٧٣ ، ٦٠ ، ٥٩ ، ٥٧ ، ٤٩ ، ٣٩

١٩٦ ، ١٣٥ ، ١٣٤ ، ٩٢ ، ٨٥

- ٢٧٤ ، ٢٧٠ ، ٢٢٨ - ٢٢٥

٢٧٨ ، ٢٧٦

قريش : ١٣٥

القسططينية : ٤ - ٦ ، ١٠ ، ٨٩ ، ١٣٠

٣٠٧

قصب السكر : ٢٦٦ ، ٢٦٥

القصور : ٣٠٨ ، ٣٠٠

القضاء : ٣١ ، ٩٩ - ١٠٦ ، ٣٣٧

قطن : ٢٨٤ ، ٢٧٩ ، ٢٦٦

قفط Coptos : ٩

القلزم : ٩ ، ٩١ ، ١٢٥ ، ١٧٤

، ٣٠٨ - ٣٠٦ ، ٣٠٢ - ٣٠٠

٣١١

القمح : ١ ، ١٦ ، ٤٤ ، ٤٩ - ٥٢

، ٢٦٥ ، ١٧٣ ، ٧٧ ، ٧٦

، ٢٩١ ، ٢٧١ ، ٢٧٠ ، ٢٦٦

٣١٣ ، ٣١٢ ، ٣٠٥

قنسرين : ١٤٠

قنسطانز الثاني (قسطنطين بن هرقل) :

٩٥ ، ٨٥ ، ٤٤ ، ٩٦

(ف)

الفرس (الایرانيون) : ٦ ، ٧ ، ٣٣ ،

٧٤ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٧١ ،

٣٤٣ ، ٢٥٧ ، ٢٤٥

الفرما (بلوزم) : ١١ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،

١٦٥ ، ١٧٥ ، ٣٠٦ - ٣٠٨ ،

٣١٢

الفسطاط : ٢٣ ، ٣٣ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٧٣ ،

١٠٤ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٣٢ ،

١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،

١٤٣ ، ١٤٥ - ١٤٧ ، ١٥٠ ،

١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ،

١٦٢ - ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ،

١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٩ ، ٢٠٩ ،

٢٢٦ ، ٢٤١ - ٢٤٨ ، ٢٥٤ ،

٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،

٢٩٤ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٤٤ ،

٣٥٢ ، ٣٤٧

الفضل بن صالح بن علي العباسي : ١٥٠ ، ٢٥٤ ،

الفضل بن عامر : ١٠٦

فنون : ٢٧٢ - ٢٩٨ ، ٣٤٢

القيوم : ١٤٧ ، ١٨٩ ، ٢٦٦ ، ٢٩١ ،

٣٤٤

(ق)

قباطي : ٢٨٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ،

قبالة وقبال : ٦١ - ٦٣ ، ١٥٦ ،

القبط : ٣ ، ٥ ، ٧ ، ١٠ ، ١٢ ، ٣٧ ، ٣٨ ،

٤٠ ، ٤١ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦١ ،

(ج)

ليتورجيا (التزامات) : ٣٤١ ، ٣٤٠
الليث بن سعد : ١٩٣ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ،
٣٣٠ ، ٣٢٩ ، ٣٢٦
الليث بن الفضل : ٦٤ ، ١٦١ ، ٢٥٤
لهيعة بن عيسى : ١٠٧

(م)

مارتينه (الأميرة) : ١٣ ، ١٤
مازوت وموازيت : ٢٩ ، ٢٠١
مالك (الإمام) : ١٠٥ ، ١٨٠ ، ٢١٠ ،
٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ،
٣٣٠
المأمون : ٢٤ ، ٣٥ ، ٨٦ ، ١٥٩ ،
١٦٦ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ،
١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ،
٢٠٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٥٣ ،
٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
٢٧٩ ، ٢٧٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ،
٢٩٧ ، ٣٤٥ ، ٣٥٢
المتوكل : ٢٧ ، ٣٦ ، ٦٣ ، ١٥٥ ،
١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
٢٠٢ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٣٩ ،
٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٩ ، ٣٣٠
مجاغات : ٣٤٤ ، ٣٤٥
محفوظ بن سليمان : ٦٤
محمد بن أبي بكر : ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ،
١٢٨
محمد بن أبي خديفة : ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٢ ،
١٢٤

قيس (الموقس) : ٧ ، ١٢ ، ١٤ ، ٧٠ ،
١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢١٩
القيروان : ٨١ - ٨٣
القيس : ٢٨٤ ، ٢٨٥
قيس بن أبي العاص : ٩٩
قيس بن سعد : ١٢٤ - ١٢٦
القيس (القيسيون) : ١٣٧ - ١٣٩ ،
١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٦٢ ، ٢٤٩ -
٢٥٢ ، ٢٥٥

(ك)

كتان : ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ،
٣١٣
كيلة : ٨٣
كنائس : ٣ - ٦ ، ١٤٠ ، ٤١ ،
٤٦ ، ١٨ - ١٩ ، ١٩٣ ،
١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ،
٢١١ - ٢٣ ، ٢٣٢ ،
٢٥٩ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨
كورة وصاحب الكورة : ٢٣ ، ٢٨ -
٣٠ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٩ ، ٦٠ ،
٦١ ، ٧٥ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ٢٢٢
الكوفة : ١٣٧
كرم اشقاو (كوم اشقوه) : ٢٣ ، ٢٩ ،
٣٠ ، ٣٨ ، ٤٩ ، ٥٧ ، ٥٩ ،
٦٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،
٢٧٨
كيدر نصر بن عبد الله : ٣٥ ، ٧٤ ،
١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٥٧

- مصر السفلى (أسفل الأرض أو الوجه
البحرى) : ١٦ ، ٢٨ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
١٤٥ ، ١٥٧ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،
١٩٠ ، ٢٣٤ ، ٣٣٥ ، ٢٤٠ ،
٢٤٣ ، ٣٣٨
- مصر العليا (المعيد) : ٩ ، ١٠ ، ١٩ ، ٢٨ ،
٣٧ ، ٣٨ ، ١٢٢ ، ١٤٤ ، ١٤٩ ،
١٥٨ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ،
١٩٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٣ ،
٢٨٤ ، ٣٣٨
- المصرية : (انظر القيسية)
المطلب بن عبد الحزاعى : ١٦٣ - ١٦٦
مظفر بن كيدر : ٢٥٧
معادن : ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣١٣ ،
معاوية بن سفيان : ٢١ ، ٢٦ ، ٣٢ ،
٥٢ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٨١ ، ٨٢ ،
٨٧ - ٨٩ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٠٠ ،
١١٩ - ١٣٠ ، ١٩٨ ، ٢١٧ ،
٢٤٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٢٨٨ ،
٢٩٠
- معاوية الثانى (ابن يزيد) : ١٣٠
معاوية بن حديج : ٨٢ ، ١١٧ ، ١٢٢ ،
١٢٣ ، ١٢٥ - ١٢٨
المتصم : ٣٣ - ٣٥ ، ٧٤ ، ١٥٧ ،
١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ،
٢٥٥ - ٢٥٨ ، ٢٩٧ ، ٣٥٢
المغرب : ١٥ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٨١ -
٨٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٥٣ ،
١٥٤ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٢ ،
٣٢٨ ، ٣٢٩
المغيرة بن شعبة : ٩
- محمد بن أبى الليث : ١٢٩ ، ١٨٠ ،
٣٢٧
محمد بن الأشعث : ٦٢ ، ٦٣ ،
محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية) :
١٥١ ، ١٥٢ ، ٣٠٥
محمد بن عبد الله بن عبد الحكم : ٣٢٥ ،
٣٢٧
محمد بن مسروق الكندى : ٩٩ ، ١٠٧ ،
الحنة (بخلق القرآن) : ١٧٧ - ١٨١ ،
٣٢٧
المدينة المنورة : ٩ ، ٣٦ ، ٥٢ ، ١٠٦ ،
١١٣ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ،
١٢٣ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ٣٠٤ ،
٣٢١
مذاهب : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٣٢٠ - ٣٢٨ ،
مرو : ١٥٩
مروان بن الحكم : ١١٩ ، ١٣٠ ،
١٣٣ ، ٢٤٩ ، ٢٧٤ ، ٢٨٥ ،
٣١٦
مروان بن محمد : ٧٧ ، ٧٩ ، ١٣٦ -
١٤٨ ، ٢٠٢ ، ٢٣٥ ، ٢٥٢ ،
٢٧٦ ، ٢٨٥ ، ٢٩٧
مزاجم بن خافان : ٢٥ ، ١٥٧ ،
مسألة : ١٥٠
مسلمة بن مخلد : ٣٢ ، ٣٣ ، ٨٢ ، ٨٥ ،
١٠١ ، ١١٨ ، ١٢٥ ، ١٩٢ ،
٢٠٩ ، ٢٧٥ ، ٣١٤
المسناة : ١٢٨
المسيحية والمسيحيون : ٣ - ٦ ، ١٤ ،
١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٧ -
٢٠٠ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ،
٣١٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠

نفيسة (السيدة) : ١٥٤ ، ١٥٥
النقود (السكة) : ٦٥ ، ٦٩ - ٦٩ ،
٢٩٦ ، ٢٩٧
البرية : ١٥ - ١٨ ، ٢٣ ، ٨٠ ، ١١٦
النيل (جسور) : ٢٦٧ ، ٢٦٨
النيل (مقاييس) : ٢٦٨ ، ٢٦٩

(هـ)

الهادي : ١٥١ ، ١٥٣ ، ٢٠٩
هاشم بن أبي بكر البكري : ٢٥٦ ، ٢٥٧
هرثمة بن أعين : ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٥٤
هرثمة بن الضمر الجبلي : ١٨٠
هرقل : ٦ ، ١٢ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٩٩
هرون الرشيد : ٣٤ ، ٣٥ ، ٦٤ ، ١٠١ ،
١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
١٩٧ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١١ -
٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،
٢٨٩ - ٢٩١ ، ٣٠٦ ، ٣٣٦
هرون بن عبد الزهري : ١٧٨ ، ١٧٩
هشام بن عبد الملك : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ،
٧٤ ، ٨٦ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ،
١٣٧ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، ٢٣٢ -
٢٣٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٧١

(و)

الوائق : ٣٦ ، ١٧٨ - ١٨٠ ، ٢٣٩ ،
٣٢٧
واضع بن عبد الله المنصوري : ١٥٤

المغيرة بن عبد الملك الفزاري : ١٤٩
المفضل بن فضالة : ١٠١ ، ١٠٧ ، ٢٠٩ ،
٢١٠
المقوقس : (انظر قيرس)
مكة : ٣٦ ، ٦٦ ، ١٥١ ، ١٦٤ ، ١٧٤ ،
٣٠٤ ، ٣٠٩

مكتبة الاسكندرية (حريق) : ٣٣٠ -
٣٣٥

المكسر والمكوس : ٥٥ - ٥٧
ملكانيين : ١٨٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧
المنصور (ابن الخليفة المتوكل) : ١٥٥ ،
١٥٦

المنصور (الخليفة العباسي) : ٢٧ ، ٣٢ ،
٥٢ ، ٦٢ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٥١ ،
١٥٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦

منية الأصبح : ٥٣
المهاجر بن أبي الثني التيجي : ١٣٥
المهدي (الخليفة العباسي) : ١٠٢ ، ١٤٩ ،
١٥٢ ، ١٥٤ ، ٢٥٤ ، ٢٨٨ ،
٢٩٠ ، ٣٢٦ ، ٣٤٣

موسى بن علي بن رباح : ٢٣٦
موسى بن عيسى : ١٩٣
موسى بن مصعب الخنمسي : ٥٨ ، ١٤٩ ،
٢٥٤ ، ٣٤٣

موسى بن نصير : ٣٢ ، ٨٤

(ن)

نسع : ٢٧٩ ، ٢٩١ ، ٣٤١ ، ٣٤٤

يزيد بن عبد الله التركي : ٣٣ ، ١٥٥ -	وردان : ٩٨ ، ٢١ ، ٨٥
٢٠٢ ، ١٥٧	ورق : ٢٩١ - ٢٩٣
يزيد بن عبد الملك : ٧٤ ، ٧٦ ، ٢٠١ ،	وقف : ١٠٨ ، ٧٩ ، ٤٨
٢٣٢ ، ٢٠٢	الوليد بن رفاعه : ٢٢ ، ١٠٠ ، ٢٣٤ ،
يزيد بن مسروق الحضرمي : ١٤٠	٢٥٠ ، ٢٤٩
يزيد بن معاوية : ٥٢ ، ٨٣ ، ١٣٠ ،	الوليد بن عبد الملك : ٢٩ ، ٨١ ، ٨٤ ،
١٩٧ ، ١٣١	٢٢٤ ، ٢٠٠ ، ١٣٤ ، ٩١ ، ٨٥
يعاقبة : (انظر ارتودكس)	٢٢٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩
اليمين : ١٣٠ ، ١٥٣ ، ٣٠٢	الوليد بن يزيد بن عبد الملك : ١٣٧
اليمية (اليمانية ، اليمانية) : ١٣٧ -	
١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٩ ،	(ى)
٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٧٢	يزيد بن حاتم : ٣٢ ، ١٥٢ ، ٢٣٦
اليهود : ١٤ ، ٢٤ ، ١٦٩ ، ١٨٤ ،	يزيد بن حبيب : ٣١٧ ، ٣١٨
٢١٠ ، ٢٧٧ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢	يزيد بن خطاب الكلبي : ١٦٤ ، ١٦٥
يوسف يحيى البويطى : ١٨٠ ، ٣٢٧	

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٨٧٣٠

I.S.B.N 977-01-4111-9

صدر فى هذه السلسلة

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د . عبد العظيم رمضان
- ٢ - على ماهر
إعداد : رشوان محمود جاب الله
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة
إعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د . محمد نعمان جلال
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطئ المصرية فى العصور الوسطى
عليه عبد السميع
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر جا
لمعى المطيعى
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي
د . عبد المنعم ماجد
- ٨ - رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية
د . على بركات
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د . محمد أنيس

- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية
شكرى القاضى
- ١٢ - هدى شعراوى وعصر التنوير
د . نبيل راغب
- ١٤ - مصر فى عصر الولاة
د . سيدة إسماعيل كاشف
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الإسلامى
د . على حسنى الخربوطلى
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر
د . حلمى أحمد شلبى
- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د . محمد نور فرحات
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د . على السيد محمود
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د . أحمد محمود صابون
- ٢٠ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبدالرحمن فهمى
د . محمد أنيس
- ٢١ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ج١
توفيق الطويل
- ٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر
جمال بدوى

٢٣ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ج٢

توفيق الطويل

٢٤ - الصحافة الوفدية

د . نجوى كامل

٢٥ - المجتمع الإسلامى والغرب

تأليف: هاملتون جب وهارولد بووين

ترجمة : د . أحمد عبد الرحيم مصطفى

٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة

د . سعيد إسماعيل على

٢٧ - فتح العرب لمصر ج١

تأليف : ألفرد بتلر

ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٨ - فتح العرب لمصر ج٢

تأليف : ألفرد بتلر

ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٩ - مصر فى عهد الاخشيديين

د . سيدة إسماعيل كاشف

٣٠ - الموظفون فى مصر فى عهد محمد على

د . حلمى أحمد شلبى

٣١ - خمسون شخصية وشخصية

شكرى القاضى

٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج٢

لمعى المطيعى

- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الأفريقى
د . خالد الكومى
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د . يونان لبيب رزق
- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبدالحميد توفيق زكى
- ٣٦ - المجتمع الإسلامى والغرب جـ ٢
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين
ترجمة : د. أحمد عبدالرحيم مصطفى
- ٣٧ - الشيخ على يوسف
تأليف : د . سليمان صالح
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى
د . عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان
د. جميل عبيد
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨
د . عبدالمنعم الدسوقى الجميعى
- ٤١ - محمد فريد الموقف والمأساة
د . رفعت السعيد
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غريال
- رحلة فى عقول مصرية
إبراهيم عبد العزيز

- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني
د . محمد عفيفي
- ٤٥ - الحروب الصليبية ج ١
تأليف : وليم الصوري
ترجمة : د . حسن حبشي
- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٦ : ١٩٥٧
د . عبدالرؤوف أحمد عمرو
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصري الحديث
د . لطيفة محمد سالم
- ٤٨ - الفلاح المصري
د . زبيدة عطا
- ٤٩ - العلاقات المصرية الإسرائيلية
د . عبد العظيم رمضان
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية
د . سهير اسكندر
- ٥١ - تاريخ المدارس في مصر الإسلامية
اعداد : د . عبد العظيم رمضان
- ٥٢ - مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر
تأليف : د . إلهام محمد علي ذهني
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك
د . محمد كمال الدين عز الدين علي
- ٥٤ - الأقباط في مصر في العصر العثماني
د . محمد عفيفي

- ٥٥ - الحروب الصليبية ج-٢
تأليف : وليم الصورى
ترجمة وتحقيق : د . حسن حبشى
- ٥٦ - المجتمع الريفى فى عصر محمد على
د . حلمى أحمد شلبى
- ٥٧ - مصر الإسلامية وأهل الذمة
د . سيدة إسماعيل كاشف
- ٥٨ - أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة
د . إبراهيم عبدالله المسلمى
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية فى مصر
د . عبد السلام عبدالحليم عامر
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية
عبد الحميد توفيق زكى
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية
د . عبد العظيم رمضان
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج-٣
لمعى المطيعى
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور
إعداد : د . عبد العظيم رمضان
- ٦٤ - مصر وحقوق الإنسان
د . محمد نعمان جلال
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية
د . سهام نصار

- ٦٦- المرأة في مصر في العصر الفاطمي
د . نريمان عبد الكريم أحمد
- ٦٧- الأصول التاريخية لمساعي السلام العربية الإسرائيلية
د . عبد العظيم رمضان
- ٦٨- الحروب الصليبية ج٣
تأليف : وليم الصورى
ترجمة وتحقيق : د . حسن حبشى
- ٦٩- نبوية موسى ودورها في الحياة المصرية
د . محمد أبو الأسعاد
- ٧٠- أهل الذمة في الإسلام
تأليف : أ.س. تريتون
ترجمة : د. حسن حبشى
- ٧١- مذكرات اللورد كليرن
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٧٢- رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي
د . أمينة أحمد إمام الشوريجي
- ٧٣- تاريخ جامعة القاهرة
د. رؤوف عباس حامد
- ٧٤- تاريخ الطب والصيدلة
د . يحيى سمير الجمال
- ٧٥- أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول
د . سلام شافعى محمود
- ٧٦- دور التعليم في مصر
د . سعيد إسماعيل على

٧٧- الحروب الصليبية ج٤

تأليف : وليم الصورى

ترجمة : د . حسن حبشى

٧٨- تاريخ الصحافة السكندرية

نعمات أحمد عثمان

٧٩- تاريخ الطرق الصوفية فى مصر فى القرن التاسع عشر

تأليف : فريد يونح

ترجمة : عبد الحميد فهمى الحمال

٨٠- قناة السويس والتنافس الاستعماري

د . السيد حسين جلال

٨١- تاريخ السياسة والصحافة من هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر

د . رمزى ميخائيل

٨٢- مصر فى فجر الإسلام

د . سيدة إسماعيل كاشف

٨٣- مذكراتى فى نصف قرن ج١

أحمد شفيق باشا

٨٤- مذكراتى فى نصف قرن ج٢ - القسم الأول

أحمد شفيق باشا

يتناول هذا الكتاب الهام تاريخ مصر في فجر الإسلام، فيتعرض لنظام الحكم والملكية المقاربية، ونظام جباية الضرائب، والنظام الحربي. ويتناول موقف مصر من الحركات السياسية والدينية التي ظهرت في الخلافة، وموقف مصر من محنة خلق القرآن، كما يتناول إنتشار الإسلام والتعريب، وحضارة مصر الزراعية والصناعية والتجارية، والحركة العلمية والدينية.

وقد رجعت فيه الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف إلى أوثق المصادر والمراجع، مما يجعل هذا الكتاب مرجعاً لا غنى عنه للباحث المتخصص والمثقف.

To: www.al-mostafa.com